كارين جوي فاولر

CAREN JOY FOWLER

# نحن نقف إلى جانب بعضنا

We are all completely beside ourselves

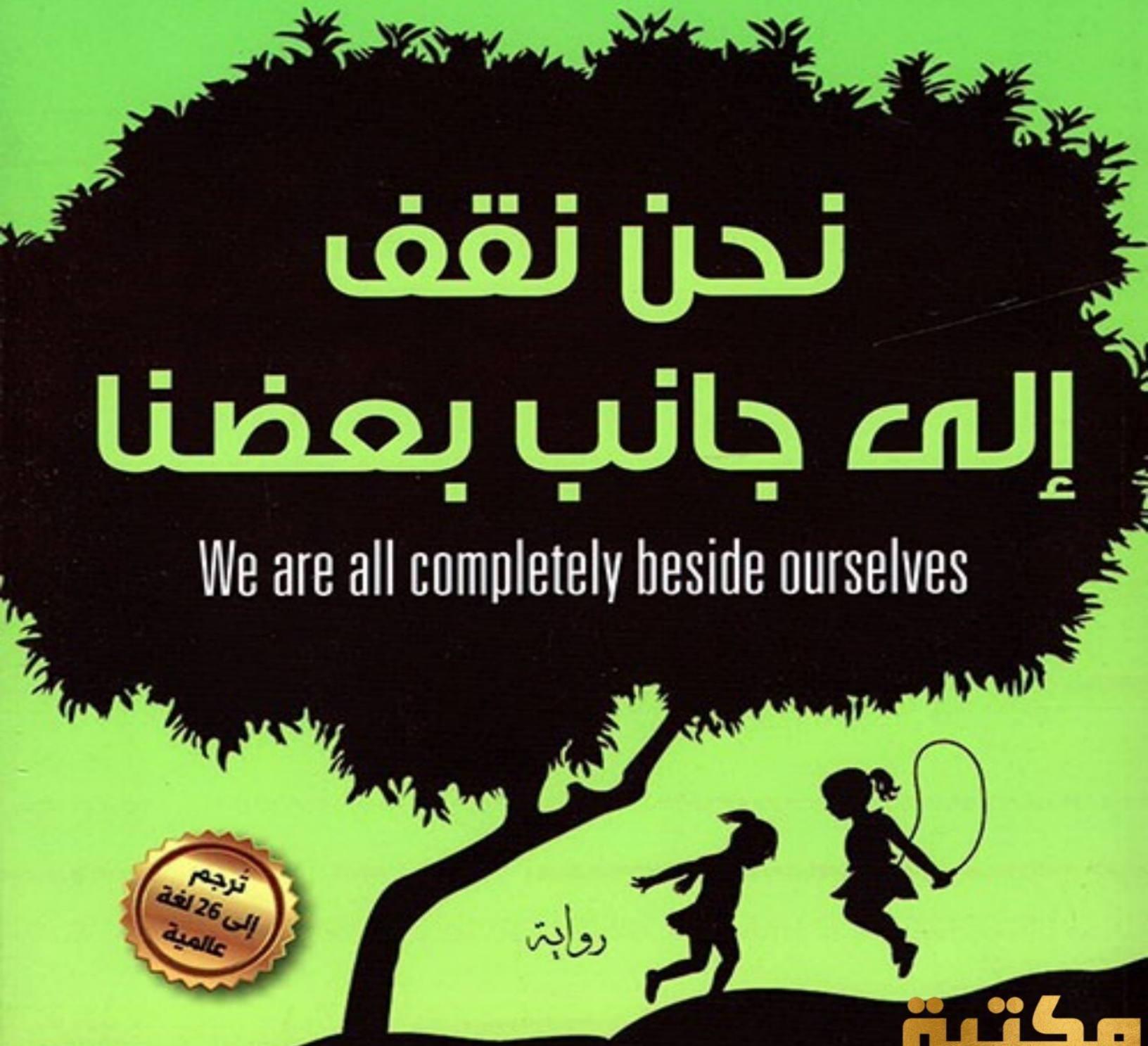

ترجم إلى 26 لغة عالمية

رواية

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

مكتبة
Telegram Network

# نحن نقف
# إلى جانب بعضنا

# We are all completely beside ourselves

كارين جوي فاولر
CAREN JOY FOWLER

ترجمة

يارا برازي

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L.

«مكتبة ♔ النخبة»

بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
ourselves beside completely all are We حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Sons s’Putnam .P .G by Published ,BOOK WOOD MARIAN A بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.
Arab by 2015 © Copyright Arabic reserved rights All Fowler Joy 2013 by Karen © Copyright L.A.S .Inc ,Publishers Scientific

الطبعة الأولى
1437 هـ - 2015 م

ISBN: 978-614-02-2726-2

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: jchebaro@asp.com.lb الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش. م. ل

تصميم الغلاف: علي القهوجي

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف (9611+) 785107
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف (9611+) 786233

# تمهيد

سيشعر كل من يعرفني الآن بمفاجأة كبيرة عندما يكتشف أنني كنت ثرثارة جداً عندما كنت طفلة صغيرة. لدينا في بيت والديّ شريط فيديو منزلي تم تسجيله عندما كنت في الثانية من عمري، وهو تسجيل صامت على الطريقة القديمة، ولا بد أن ألوانه قد شحبت الآن بفعل الزمن، وتظهر فيه سماء بيضاء، وأنا... منتعلة حذاء الرياضة الأحمر الذي يبدو ورديا... لكن ثرثرتي اللامتناهية بارزة بلا مواربة رغم فعل الزمن.

يظهرني الشريط وأنا أقوم بشيء من العناية بالحديقة؛ فقد كنت ألتقط حجرة واحدة في كل مرة من ممر السيارات المؤدي إلى بيتنا، وأحملها إلى دلو معدني وأسقطها فيه، ثم أعود إلى الممر لالتقاط حجرة أخرى. كنت أعمل باجتهاد، ولكنني كنت أتباهى أيضاً، فقد فتحت عينيّ على وسعهما كما تفعل نجمات السينما الصامتة في الأفلام القديمة، ثم رفعت قطعة كوارتز أمام الكاميرا لكي يتم توثيقها بكل وضوح، وبعد ذلك وضعتها في فمي وحشرتها في زاوية خدي.

ثم ظهرت أمي في تلك اللحظة، وأخرجت قطعة الكوارتز من فمي، وتراجعت إلى خارج الإطار، ومع هذا... لم أتوقف عن الكلام، ويبدو من حركات يديَّ أنني لم أكن مسرورة بما جرى. عادت أمي إلى الصورة مجدداً، ووضعت قطعة الكوارتز في الدلو. لا يدوم ذلك المشهد أكثر من خمس دقائق، لكنني لم أتوقف عن الكلام طوال فترة تسجيله.

بعد مرور عدة أعوام على ذلك، حكت لنا أمي قصة خيالية عن أختين تتحول كلمات إحداهما (وهي الكبرى) إلى ضفادع وأفاعٍ، بينما تتحول كلمات الصغرى إلى أزهار وجواهر... فتذكرت ذلك التسجيل... وعدت إلى ذاكرتي تلك اللحظة التي مدّت فيها أمي أصابعها إلى فمي وأخرجت منه تلك الجوهرة اللامعة.

في تلك المرحلة من العمر، كنت فاتنة بشعري الكثيف والأشقر كثيراً إلى درجة تميل إلى البياض. وأعرف أنني في صغري كنت جميلة أكثر بكثير مما آلت إليه أحوالي بعد مرور السنين، ولهذا أعرف أنه تم ترتيب شعري من أجل وقوفي أمام الكاميرا. إذ كانت خصلات غرّتي المتوثبة والمعرضة للطيران مع أي هبّة هواء مبللة بالماء، ومثبّتة إلى رأسي بدبوس مرصّع بالحجارة اللامعة الصغيرة التي راحت تتلألأ كلما حرّكت رأسي تحت نور الشمس. راحت يدي الصغيرة تتنقل فوق الحجارة التي جمعتها في الدلو، وأنا أفكر – يمكن قول ذلك – في أن كل هذا... كله سيصبح ملكاً لكِ يوماً ما.

أو ربما كنت أفكر في شيء مختلف كلياً عن ذلك. لا بد أن الهدف من ذلك التسجيل لم يكن الكلمات بحد ذاتها. إذ لا بد أن والديّ قد سجّلا تلك اللحظات لأنهما قدّرا بعمق كثرتها وتدفقها العفوي النابض بالحياة والذي لا ينضب.

ومع هذا... مرّت عليّ لحظات اضطررت فيها إلى التوقف عن الكلام. فقد اقترحت عليّ والدتي فكرة مفيدة في إطار السلوك الاجتماعي المهذب؛ وهي أن أختار فكرة واحدة – المفضلة لدي – لأقولها كلما خطرت لي فكرتان معاً. غيّرتُ ذلك الاقتراح في ما بعد ليصبح فكرة واحدة أقولها من أصل ثلاث أفكار تراودني. كان أبي يأتي إلى غرفتي كل ليلة ليتمنى لي أحلاماً سعيدة، فكنت أتكلم بلا توقف إلى أن تنقطع أنفاسي؛ في محاولة يائسة مني لاستبقائه في غرفتي باستخدام صوتي وحده... كنت ألاحق بناظرَيّ أصابع يده المحيطة بالمقبض وهي تسحب الباب ببطء، فأشعر أن لدّي ما أقوله... أريد أن أخبرك شيئاً يا أبي.

فكان يقول: «إذاً، ابدئي من المنتصف». فيما نور الممر الشاحب يحيط برأسه من الخلف، ووجهه متعب كما هو حال الكبار عند المساء. كان نور الممر ذاك ينعكس على نافذة غرفتي كشهاب لامع مناسب لتمنّي الأمنيات.

إذاً، لنترك البداية... ولنبدأ من المنتصف.

# القسم الأول

انقشعت العاصفة التي اقتلعتني من الماضي.

*فرانز كافكا، «تقرير للأكاديمية»*

# 1

وقعت أحداث منتصف قصتي في شتاء العام 1996. وكانت عائلتنا حينها قد تقلصت إلى العائلة – ذات الأفراد الثلاثة – التي توقعها الفيلم القديم الذي ظهرتُ فيه أنا ووالدتي قبل وقت بعيد، ووالدي الذي لم يظهر لأنه كان وراء الكاميرا بالطبع. في ذلك العام، كانت قد مرّت عشر سنوات على آخر مرة رأيت فيها أخي، وسبعة عشر عاماً على اختفاء أختي. ولهذا، إن منتصف قصتي هذا يتحدث عن غيابهما... رغم علمي بأنني لو لم أخبركم لما كنتم ستعرفون. لم أفكر في أي منهما سوى نادراً خلال ذلك العام.

كانت سنة 1996 سنة كبيسة... وعام الجرذ الناري حسب التقويم الصيني. أُعيد فيها انتخاب الرئيس كلينتون رغم كل الأحزان التي سيسببها ذلك، وسقطت كابول بيد طالبان، وانتهى حصار سراييفو، وأخيراً، طلق الأمير تشارلز زوجته ديانا.

عَبَرَ المذنّب هيل – بوب سماءنا، وسمعنا في تشرين الثاني للمرة الأولى عن الجسم الغريب الموجود في ذنبه والذي يشبه كوكب زحل. ولمع نجم دوللي النعجة المستنسخة أيضاً، كما حصل ذلك مع برنامج ديب – بلو للعب الشطرنج على الكمبيوتر، وحصلت البشرية على أدلة تشير إلى وجود حياة قديمة على المريخ، وظنّ البعض أن الجسم الذي يشبه كوكب زحل في ذنب المذنب سفينةٌ فضائيةٌ تعود إلى حضارة من خارج الأرض. وفي شهر أيار من العام التالي 1997، ظنّ سبعة وثلاثون شخصاً أنه يتوجب عليهم قتل أنفسهم كشرط أولي للصعود على متنها.

ورغم كل تلك الأحداث، إلا أنني كنت مجرد فتاة عادية في الثانية والعشرين من العمر، أتخبط وأتعثر في السنة الخامسة من دراستي في جامعة كاليفورنيا – ديفيس، وأنا غير مبالية تماماً بتفاصيل الدرجات أو المتطلبات أو الأقسام التي كنت أبعد ما يكون عن التخرج منها في الجامعة، كما لو أنني مجرد طالبة مبتدئة في السنة الأولى. وكانت دراستي ومعارفي – كما كان والدي يحب أن يقول – واسعة الطيف أكثر من كونها عميقة؛ وكان يردد ذلك في أغلب الأحيان.

ورغم ذلك، لم أجد سبباً يدعوني للإسراع في إنهاء دراستي. إذ لم أكن أملك أي طموح معين، وكانت هناك رغبتان تتصارعان في داخلي... إذ حلمتُ أحياناً بأن أكون معروفة على نطاق واسع في المستقبل، وأحياناً أخرى بأن أكون شخصية مؤثرة من دون ضجيج الشهرة. وباعتبار أن الموضوع لم يكن مهماً على الإطلاق، لم ترجح كفة إحدى الرغبتين على الأخرى.

أما والداي اللذان كانا يدفعان أقساط دراستي الجامعية وتكاليفها، فقد اعتبرا أنني مثيرة للغضب والحنق. وكان غضب والدتي يتفاقم مع مرور الوقت في تلك الأيام، لأنه كان أمراً جديداً عليها؛ وكأنها تتناول جرعات منشطة من التوتر والإحباط والانزعاج الناتج عن أسباب أخلاقية، وقد جددت تلك الجرعات حياتها بالفعل، وأعلنت مؤخراً أنها تعبت من القيام بدور المترجم والوسيط بيني وبين أبي. وبالفعل، لم أتبادل مع والدي الأحاديث منذ ذلك الوقت سوى نادراً، ولا أذكر أن ذلك أزعجني. والدي أستاذ جامعي متحذلق حتى العظم، ولا يخلو أي تبادل للحديث بيننا من درس يلقنني إياه. وقد أزعجني ذلك وسبَّب لي المرارة كما تفعل البذرة المرّة التي تفاجئنا داخل حبة التوت البري التي يفترض بها أن تكون بلا بذور. وما زلت أشعر حتى اليوم بأنني أريد أن أعضّ أي شخص أراه أمامي كلما ذُكر المنهج السقراطي أمامي في الحديث.

في ذلك العام، حلّ الخريف فجأة كما لو كان باباً فُتح أمامنا على حين غرّة. فذات صباح، كنت أتجه على متن دراجتي لحضور محاضرة عندما فوجئت بمرور سرب من الإوز الكندي فوق رأسي. لم أشاهده، كما لم أشاهد أي شيء آخر، لكنني سمعت صياح الإوزات المتلاحق كأصوات موسيقى الجاز فوق رأسي. لفّني الضباب الذي طفا فوق الحقول كما لو كان مستعمرات من الأعشاب التي تعيش طافية فوق البحيرات، فقدت دراجتي عبره، وشعرت كما لو أنني أحلق بين السحاب. إن هذا الضباب السحابي ليس كأي نوع آخر من الضباب؛ فهو لا ينتشر في أماكن متفرقة ومتباعدة، ولا يتحرك أبداً، بل يظل ثابتاً في مكانه ويحافظ على حجمه الهائل وانتشاره على مساحات شاسعة. ربما سيشعر أي شخص آخر بمخاطر القيادة بسرعة عبر عالم غير مرئي كذاك، لكنني تمتعت منذ نعومة أظفاري بميل إلى التّهور، وموهبة زجّ نفسي في حوادث مؤسفة وحافلة بالهرج؛ لذا قدت دراجتي عبره بأسرع ما استطعت.

شعرت برطوبة الهواء تغطي جسدي، وملأتني الحماسة بعض الشيء بسبب روحي التوّاقة إلى الهرب والانجراف بعيداً... هذا يعني أنني قد أغازل أي شخص يجلس بجانبي في المكتبة إذا أعجبني، وأنني أسرح بعيداً في أحلام اليقظة أثناء الدروس في الصف. لطالما شعرت بالحماسة في تلك الأيام، ولطالما استمتعت بالإحساس بذلك؛ رغم أن كل ذلك لم يَعُدْ عليَّ بأي خير.

أثناء استراحة الغداء في ذلك اليوم، كنت أتناول شيئاً في مقهى الجامعة؛ ربما كان شطيرة جبن، وقد اعتدتُ وضع كتبي على الكرسي المجاور كي أتمكن من رفعها بسرعة إذا مرّ بي شخص يعجبني، ولأثني في الوقت نفسه أي شخص لا يعجبني عن محاولة الاقتراب. في الثانية والعشرين من عمري، كنت أمتلك أبعد فكرة ممكنة عن الشخص المثير للاهتمام؛ بسبب مقاييسي التي لم تكن مثيرة للاهتمام على الإطلاق.

جلس شاب وفتاة إلى الطاولة القريبة مني، وراح صوت الفتاة يرتفع تدريجياً إلى أن أجبرني صراخها على الانتباه إليها، وكانت تقول:

«هل تحتاج إلى مكان أوسع؟».

كانت ترتدي كنزة قطنية قصيرة، وتضع عقداً تتدلى منه سمكة زجاجية، وقد صففت شعرها الداكن على شكل ضفيرة طويلة امتدت حتى أسفل ظهرها. وقفت الفتاة، وأطاحت بحركة واحدة من يدها بكل الأشياء التي كانت أمامهما على الطاولة. كانت ذراعاها جميلتين، وأذكر أنني تمنيت لو كانت ذراعاي بذلك الجمال.

وقعت الأطباق على الأرض وانكسرت، وتناثر الكاتشاب والكولا واختلطا فوق الزجاج المكسور. لا بدّ أن الموسيقى كانت تصدح في خلفية المكان؛ لأنها موجودة دوماً في حياتنا الآن أينما كنّا. فالموسيقى ترافق أحداث حياتنا كالموسيقى التصويرية، وغالباً ما يكون معظمها مناسباً لما يجري في اللحظة بشكل ساخر؛ مما يدفعك إلى التفكير في أنها ليست عشوائية في أغلب الأحيان – وهذا رأيي الخاص – لكنني وبكل صدق لا أذكر الأغنية التي كانت تصدح في تلك اللحظة. وربما لم يكن هناك أي شيء سوى الصمت وهسيس الزيت على المشواة.

«ما رأيك بهذا؟». سألته الفتاة، ثم تابعت قائلة: «لا تطلب مني أن ألتزم الهدوء. كل ما أحاول القيام به هو إفساح المزيد من المكان لك». ثم دفعت الطاولة بكاملها وأوقعتها أرضاً على جانبها، وسألته مجدداً: «هل هذا أفضل؟». ورفعت صوتها أكثر من ذي قبل وقالت: «هل بإمكانكم مغادرة المكان لكي يحظى صديقي بالمزيد من المساحة الفارغة له من فضلكم؟ إنه يحتاج إلى الكثير من المساحة الملعونة». ثم ضربت كرسيها على الأرض بعنف فوق كومة الأطباق المكسورة والملطخة بالكاتشاب، فصدر عنها المزيد من الأصوات الحادّة، وانسكبت كمية من القهوة فجأة على الأرض.

تجمّدنا جميعاً، وعلقت الأشواك في الهواء في منتصف الطريق بين أطباقنا وأفواهنا، ووقعت الملاعق في أطباق أخرى، وبدونا أشبه بالناس الذين فاجأهم انفجار بركان فيزوف فتجمدوا في وضعياتهم منذ ذلك الحين.

«لا تفعلي ذلك يا حبيبتي». قال لها صديقها. لكن كلماته لم تمنعها من المضي قدماً في التعبير عن غضبها، ولم يجد هو حرجاً في تكرار جملته، ثم انتقلت إلى طاولة أخرى عليها صينية فيها بعض الأطباق الفارغة المتسخة. وهناك... قامت بشكل منهجي بكسر كل ما يمكن كسره، ورمت كل ما يمكن رميه، فتدحرجت مملحة على الأرض إلى أن وصلت إلى قدمي.

عندها، نهض شاب عن كرسيه، وحاول أن يطلب منها بهدوء أن تهدئ من روعها، فرمته بملعقة مرّت قاب قوسين أو أدنى من جبهته، وصاحت بصوت متهدج: «لا تلاعب الحمقى».

غرق الشاب في كرسيه مجدداً وقد اتسعت عيناه دهشة، ثم تمتم مخاطباً الآخرين: «أنا بخير». لكن صوته لم يكن قريباً من ذلك حتى. ثمّ قال بدهشة شديدة: «لقد أهانتني... يا للهول!».

عندها، قال صديق الفتاة: «هذه هي السخافات التي لا يمكنني أن أحتملها. افعلي ما تشائين، وخرّبي علاقتنا أيتها المجنونة، ولكن أعيدي لي مفتاح شقتي أولاً». كان شاباً ضخم الجثة، نحيل الوجه، ذا أنف حادّ كنصل سكين، ويرتدي سروال جينز واسعاً ومعطفاً طويلاً.

رمت الفتاة كرسياً آخر فمرّ من فوق رأسي تماماً من دون أن تفصله عنه أكثر من أربع أقدام، ثم ارتطم الكرسي بطاولتي واستقر فوقها. عندها، تناولتُ كأسي وطبقي، فيما وقعت كتبي على الأرض فصدر عنها ضجيج مرتفع. ثم قالت الفتاة للشاب مجدداً: «تعال وخذه بنفسك». أنا أحاول أن أخفِّف من وطأة الأمر الآن؛ لأن المسافة بدت لي في تلك اللحظة أقل بكثير.

بدا لي الأمر مضحكاً؛ إذ بدت الفتاة كطباخ يدعو الناس إلى تناول الطعام في أطباق مكسورة، فضحكتُ فجأة بشكل هستيري وبصوت غريب ومستهزئ يشبه صوت البط، ممّا لفت أنظار الجميع إليّ؛ إذ التفتوا جميعاً للنظر باتجاهي. ثم توقفت عن الضحك لأن الموقف لم يكن مضحكاً على الإطلاق، فعاود الجميع النظر إلى الفتاة مجدداً. رأيت عبر الجدران الزجاجية بعض الناس المارّين في الساحة، والذين لفتت المشاجرة انتباههم فوقفوا لمتابعة ما يجري، بينما توقفت مجموعة من الشبان كانوا على وشك الدخول لتناول الغداء أمام الباب.

تقدّم الشاب بضع خطوات باتجاه الفتاة وقال: «لا تعتقدي أنني لن أفعل ذلك». عندها، تناولت بيدها حفنة من مكعبات السكر الملوثة بالكاتشاب، ورمتها باتجاهه فقال: «لم أعد أحتمل هذا، لقد انتهت علاقتنا، سأرمي أغراضك اللعينة في الممر خارج الشقة، وسأغير مفتاح القفل». ثم استدار ليبتعد فعاجلته بكأس زجاجية ارتطمت بأذنه، فاختل توازنه وترنح. لمس مكان إصابته، وبحث عن أثر الدم على أصابعه، ثم قال من دون أن يلتفت إليها: «أنتِ مدينة لي بفاتورة الغاز، أرسلي لي المال عبر البريد». ثم اختفى خارجاً.

عمّ الصمت لوهلة بعد خروج الشاب، ثم التفتت الفتاة باتجاهنا وقالت: «علام تتفرجون أيها الفاشلون؟». ثم التقطت كرسياً آخر، ولم أعرف في تلك اللحظة إن كانت على وشك رمينا به أم التقطته لتضعه في مكانه، وأعتقد أنها لم تكن قد قررت ما ستفعله به.

وصل حارس من أمن الحرم الجامعي، واقترب مني بحذر وهو يضع يده على سلاحه. كنت أقف أمام طاولتي المقلوبة والكرسي الملقى على الأرض وأنا أحمل كوب الحليب الذي لم أشربه بعد بإحدى يدَيَّ، وصحن شطيرة الجبن باليد الأخرى، فقال لي:

«ضعِي ما بيدِكِ أرضاً يا عزيزتي، ثم اِجلسي قليلاً».

ماذا أضع؟ وأين أجلس؟ ثم لاحظت أنني الفتاة الوحيدة الواقفة في المكان كلّه. وتابع الحارس كلامه:

«سنتحدث عن الأمر، وستخبرينني بكل ما جرى. لستِ في أي مأزق بعد».

«ليست هذه». قالت المرأة الواقفة خلف منضدة التقديم، وكانت ضخمة، وفي الأربعين من عمرها أو أكثر، وعلى شفتها العليا أثر لقلم تحديد الشفاه، وهناك كحل أسود كثيف عند نهايتَي عينيها. لقد قالت لي مرّة إننا نتصرف جميعاً وكأننا نمتلك المكان. وفي مناسبة أخرى أعدتُ شطيرة البرغر التي طلبتُها إلى المطبخ لتشويها لي أكثر فقالت: إنكم تأتون وترحلون من دون التفكير بحالي؛ أنا المرأة التي يتوجب عليها البقاء هنا دوماً. ثم قالت للحارس وهي تشير بيدها إلى الناحية الأخرى:

«إنها تلك الفتاة الطويلة».

لكنه لم يعرها أي اهتمام، بل اتجه إليّ مترقباً أي حركة قد تصدر عنّي، ثم قال مجدداً بصوت ناعم وودود:

«اهدئي، فأنت لم توقعي نفسك في أي مأزق بعد». ثم تقدم باتجاهي، ومرّ تماماً بمحاذاة الفتاة ذات الضفيرة التي تمسك الكرسي بيدها، ومن ورائه شاهدتُ عينيها الجاحظتين بفعل الدهشة نتيجة تصرفه، ثم قالت لي:

«لا يجد الإنسان شرطياً حقيقياً عندما يحتاج إليه». ثم ابتسمت تلك الابتسامة الساحرة، فبدت أسنانها البيضاء اللامعة، ثم تابعت كلامها:

«لا راحة أبداً». وبعد ذلك، لوّحت بالكرسي فوق رأسها ورمته بعيداً عني وعن الشرطي باتجاه الباب، فوقع هناك وقالت: «لن نقدم لك أي حساء».

وعندما التفت الشرطي لينظر باتجاهها سقط الطبق والملعقة من يدي. لم أقصد ذلك صدقاً، بل أفلتت أصابعي الصحن بطريقة لا شعورية، وبشكل فجائي، فتسببت الضجة في جعل الشرطيّ يلتفت باتجاهي مجدداً.

كنت لا أزال أحمل كأس الحليب نصف الفارغة بيدي الأخرى، فرفعتها قليلاً وكأنني أقترح نخباً عليهم، فقال الحارس بلهجة أقل ودًّا من قبل بكثير: «لا ترميها أرضاً. أنا لا ألاعبك، لا تختبري صبري».

عندها، رميتُ الكأس على الأرض، فانكسرت وانتشر الحليب، وطال البلل فردة حذائي ووصل إلى جوربي. لم أفلت الكأس ببساطة، بل رميتها أرضاً بكل ما أوتيت من قوة.

# 2

بعد أربعين دقيقة، كنت مقيدة مع الفتاة الملعونة والمجنونة على المقعد الخلفي لسيارة أمن مقاطعة يولو؛ لأن حجم الأمر بات الآن أكبر بكثير من أن يسيطر عليه حارس الحرم الجامعي الساذج ذاك. وقد آلمت الأصفاد معصميَّ بشدة تفوق ما تصورته بأشواط.

تحسّن مزاج الفتاة المجنونة كثيراً بعد توقيفنا من قبل الشرطة، وقالت: «أخبرته أنني لم أكن أمزح». وهي الجملة ذاتها التي وجهها لي حارس الحرم الجامعي تقريباً، لكنها قالت ذلك بنبرة متأسفة وليس بنبرة انتصار. ثم تابعت كلامها: «أنا مسرورة جداً لأنك قررتِ الانضمام إليّ. اسمي هارلو فيلدينج، وأنا طالبة في قسم الدراما».

هل تمزحين؟!

«لم ألتقِ من قبل فتاة اسمها هارلو». وكنت أعني أنني لم أقابل فتاة تحمل اسم هارلو، لكنني سمعت عن أشخاص يحملون ذلك الاسم ككنية.

«لقد سُمّيتُ تيمناً بأمي التي سمّاها جدّي تيمناً بجين هارلو؛ لأن جين هارلو كانت تتمتع بالجمال والذكاء. لا، بل لأن جدي كان عجوزاً مجنوناً وقذراً. ولكن، بماذا عاد عليها الجمال والذكاء؟ أجيبيني... هل جعل ذلك منها مثالاً يُحتذى؟».

لم أكن أعرف أي شيء عن جين هارلو في ذلك الوقت سوى أنها مثّلت دوراً في فيلم ذهب مع الريح الذي لم أشاهده، ولم أرغب يوماً في مشاهدته. لقد انتهت تلك الحرب... تجاوزوا هذا الأمر...

«اسمي روز ماري كوك».

«عشبة روز ماري مفيدة لتقوية الذاكرة. هذا رائع! اسمك ساحر للغاية». قالت هارلو، ثم أنزلت يديها إلى أسفل ظهرها، ومررتهما من تحت مؤخرتها ثم ساقيها فانتهى بهما الأمر أمامها. ولو كنت قادرة على القيام بالمثل لانتهى بنا الأمر متصافحتين كما بدا لي أنها تقصد بحركتها تلك، لكنني لم أستطع فعل ذلك مثلها.

تمّ اقتيادنا إلى سجن المقاطعة، حيث فعلت تلك الخدعة فعلها في عناصر الشرطة وأبهرتهم؛ إذ استُدعي بعض العناصر لمشاهدة هارلو وهي تتكرم عليهم بعرض حركاتها. حيث قرفصت أرضاً، وخطت بقدميها من فوق يديها ثم تراجعت إلى الخلف عدة مرات وأثارت عطفهم وحماستهم بتواضع الفائز في مباراة ما وهي تقول: «ذراعاي طويلتان للغاية، هذا كل ما في الأمر. لا أجد أبداً ملابساً ذات أكمام تناسب طولهما».

آرني هاديك هو الضابط الذي أوقفنا. وعندما نزع الضابط هاديك قبعته عن رأسه شاهدنا غرة شعره التي كانت ترسم بدقّة قوساً كاملاً فوق جبهته، فبدا

أشبه ما يكون بالوجه المبتسم الذي نراه في الإعلانات.

نزع الضابط أصفادنا، وسلمنا إلى شرطة المقاطعة للمضي قدماً في الإجراءات، فقالت هارلو بنبرة الشخص الخبير في تلك المواقف: «سيحتجزوننا إلى حين الانتهاء من المعاملات والتحقيق؛ كالجبن الذي يدخلونه الفرن لتذويبه».

لم أكن أمتلك أي خبرة أو سابقة في ذلك المجال، واختفت روح المغامرة التي شعرت بها في ذلك الصباح، وتبخرّت من دون أن تترك خلفها سوى بقايا شعور منكمش يشبه الأسى. ماذا فعلت؟ لماذا فعلت ذلك بحق الله؟ أشعلت مصابيح الفلورسنت المبهرة، فصدر عنها صوت أزيز كالذباب فوق رؤوسنا، وظهرت الظلال الداكنة أسفل عيوننا، وبدونا جميعاً أشخاصاً مسنين، ويائسين من الحياة.

«عفواً، كم سيطول هذا؟».

سألت بلهجة مهذبة قدر الإمكان، وخيّل لي أنني لن أتمكن من اللحاق بمحاضرة بعد الظهر عن تاريخ عصر الظلمات الأوروبي الحافل بالعذارى اللواتي كنّ يرتدين سراويل داخلية حديدية للمحافظة على عذريتهن، والمساجين الذين كانوا يقضون عمرهم بكامله في السجون، والناس الذين كانوا يحرقون أحياء إلى أن يتحولوا إلى جثث سوداء متفحمة.

«سيحتاج الأمر إلى وقت طويل. ولكنني سأسرع بالأمر إذا لم تضايقيني بطرح الأسئلة». أجابتني الموظفة في مبنى المقاطعة بنظرة بشعة وحاقدة.

لكن الوقت كان قد تأخر على فعل أي شيء؛ إذ أرسلتني في اللحظة التالية إلى زنزانة لأكون بعيدة عن أفكارها بينما كانت تنتهي من كتابة بيانات هارلو التي قالت لي: «لا تقلقي يا زعيمة، سألحق بكِ على الفور».

فكررت الموظفة خلفها: «زعيمة؟!».

عندها، رفعت هارلو كتفيها بعدم مبالاة، وابتسمت لي تلك الابتسامة النارية التي لا تليق سوى بزومبي وقالت: «زعيمة، قائدة، العقل المدبر... الكابتن».

لا بدّ أن يأتي اليوم الذي لن يكون فيه عناصر الشرطة وتلاميذ الجامعة أعداء طبيعيين، إلاّ أنني متأكدة من أنني لن أكون على قيد الحياة لأشهد حدوث ذلك. طلبوا مني نزع ساعتي وخلع حذائي وفك حزامي، واقتادوني حافية القدمين إلى داخل قفص حديدي ذي أرضية زلقة. أخذت امرأة لئيمة للغاية أغراضي مني، ولاحظتُ وجود روائح مختلطة في المكان؛ إذ شممت رائحة شراب قوية ولازانيا رخيصة بالإضافة إلى رائحة مبيد حشرات ورائحة بول نفاذة.

امتدت القضبان حتى سقف الزنزانة، وقد تأكدت من ذلك بنفسي لأنني متسلقة جيدة جداً؛ مع الأخذ بعين الاعتبار أنني فتاة. وكانت مصابيح الفلورسنت داخل الزنزانة أكثر عدداً من مثيلتها في الخارج، كما كانت تصدر أزيزاً أقوى، فضلاً عن أن أحد المصابيح كان يومض بِاستمرار وكأنه على وشك

الاحتراق. ولهذا، كان الضوء يسطع في الزنزانة حيناً ثم يختفي ويسود الظلام حيناً آخر؛ وكأن الأيام كانت تمر بسرعة أمام عيني. صباح الخير... مساء الخير... صباح الخير... مساء الخير... كان من الأفضل لي أن أحتفظ بحذائي.

كانت زنزانتي تضم امرأتين. جلست إحداهما على الفراش الوحيد الذي لا تغطيه ملاءة ولا لحاف ولا أي شيء آخر؛ وهي امرأة شابة سوداء البشرة وثملة تماماً. قالت لي في تلك اللحظة:

«أنا أحتاج إلى طبيب». ورفعت معصمها باتجاهي فلاحظت الدم النازف ببطء من جرح بليغ على ساعدها، وكان لونه يتغير من الأحمر إلى القرمزي بسبب تقطع الضوء المستمر، ثم صرختْ فجأة فأجفلتُ، وصاحت مجدداً: «أحتاج إلى مساعدة هنا! لماذا لا يساعدني أحد؟».

لم يتقدم أحد لمساعدتها بمن فيهم أنا، فلم تتكلم مجدداً.

أما المرأة الأخرى فكانت متوسطة العمر، وعصبية المزاج، ونحيلة مثل إبرة، وشعرها متيبس ومصبوغ بلون فاتح. وكانت ترتدي حلة وردية بلون سمك السلمون؛ مما جعلها تبدو أنيقة في هذا المكان الذي اجتمعنا فيه. أخبرتني أنها صدمت بسيارتها للتو سيارة شرطة، وأنهم ألقوا القبض عليها الأسبوع الماضي أيضاً لأنها كانت تسرق وجبة تورتيلا مع الصلصة من أجل الحفلة التي ستقيمها في منزلها يوم الأحد بعد مباراة كرة قدم. ثم قالت: «هذا ليس جيداً. أنا أكثر شخص منحوس في العالم».

استجوبوني في النهاية. لا يمكنني أن أخبركم عن عدد الساعات التي مرّت وأنا أنتظر الاستجواب؛ لأنني لم أكن أضع ساعتي. لكنّ ذلك حدث بعد مرور وقت طويل على استسلامي لليأس وفقداني كل أمل. وكانت هارلو في تلك الأثناء لا تزال في مكتب التحقيق، جالسة على كرسي قاسٍ كالحجر كانت تضربه بالأرض باستمرار إلى أن انتهوا من تسجيل إفادتها المختلفة عما جرى في الحقيقة، ثم وجّهوا لها تهمتَي تحطيم ممتلكات عامة، والتسبب بإزعاج الآخرين. وقد قالت لي في ما بعد إنهما تهمتان سخيفتان، وإنها لا تهتم بهذه الأمور على الإطلاق، وينبغي لي أنا أيضاً ألا أهتم بها؛ تماماً مثلها. ثم اتصلت بصديقها الذي كان يجالسها في المقهى، فحضر على الفور بسيارته إلى مركز الشرطة، ودفع كفالتها وأخرجها قبل أن ينتهوا من أوراقي.

وقد أثبتت لي حينها محاسن امتلاك حبيب. لكنها لم تكن المرة الأولى التي أعي فيها أهمية وجود حبيب في حياة الفتاة.

واجهتُ التهم نفسها التي وجّهوها إلى هارلو، ولكنهم أضافوا إليها تهمة مهمة؛ فقد اتّهمتُ بإهانة ضابط شرطة، ولم يعتبر أحد قطّ هذه التهمة سخيفة.

في تلك اللحظة، توصّلت إلى قناعة مفادها أنني لم أفعل شيئاً غير التواجد في المكان الخطأ وفي الوقت الخطأ. اتصلت بوالديّ... فمن الشخص الآخر الذي يمكنني الاتصال به في مثل هذا الظرف؟ وددتُ أن تجيب أمي على الهاتف كما تفعل عادة، لكنها كانت تلعب البريدج في الخارج. فهي واحدة من

اللاعبين المخادعين غير المشهورين، وأنا أصاب بالدهشة أحياناً من وجود أشخاص يريدون اللعب معها، لكنه القدر الذي يواجهه كل يائس بحثاً عن شريك في اللعب؛ تلك اللعبة أشبه بالإدمان. ستعود أمي إلى المنزل في غضون ساعة أو ساعتين وهي تحمل ربحها الحرام في حقيبة يدها الفضية... سعيدة أكثر من أي وقت آخر.

ظلّت أمي سعيدة بربحها إلى أن أخبرها والدي بما جرى معي.

«ماذا فعلتِ؟». هدر صوت والدي ساخطاً عبر الهاتف؛ وكأنني قاطعته عن القيام بأمر هام، ولكن الأمر لم يكن أخطر مما تخيّل.

«لا شيء. أهنتُ حارس الحرم الجامعي». أجبته، وشعرت بمخاوفي تقع بعيداً عني كما تتخلص الأفعى من جلدها القديم. لطالما أثّر والدي فيّ بهذا الشكل. فكلما كان انزعاجه أكبر، أصبحت أكثر لطفاً وعبثاً بأعصابه؛ مما كان يثير جنونه بالطبع. إذا أردنا أن نكون منصفين، إن سلوكي هذا يثير جنون أي شخص.

«كلما كان العمل أصغر، كان عبئه أكبر». قال والدي، وهكذا تحولت حادثة اعتقالي بكل تلك السرعة إلى مناسبة لإعطاء الدروس الأخلاقية.

وأضاف والدي: «لطالما اعتقدتُ أن أخاكِ هو الذي سيتصل بي يوماً ما من السجن». وقد أذهلتني جملته تلك لأنه أتى فيها على ذكر أخي، وهو نادراً ما يفعل ذلك؛ فقد كان أبي حذراً جداً في ذكر أخي، وتحديداً عبر الهاتف الذي كان يعتقد أنه مُراقب.

لم أردّ عليه بجواب مناسب وواضح، ولم أقل له إن أخي قد يذهب إلى السجن أيضاً، وسيفعل ذلك على الأرجح يوماً ما، ولكنه لن يتصل به من السجن أبداً.

شاهدتُ أمامي على الحائط فوق الهاتف كلمتين مكتوبتين بقلم أزرق: فكّر في مستقبلك. يا لها من نصيحة جيدة! لكنها متأخرة بعض الشيء بالنسبة إلى أي شخص يستخدم جهاز الهاتف هذا، وفكرّت أيضاً في أن هذه العبارة ستكون اسماً مناسباً لصالون تجميل.

تابع والدي: «لا أعرف ما يجب عليّ القيام به الآن. عليكِ أن تخبريني بما يجب علينا القيام به».

«إنها المرة الأولى لي في السجن يا أبي. لذا، أنا مثلك».

«أنتِ لست في وضع يسمح لكِ بالمزاح».

وعندها، وجدت نفسي أبكي بحرقة منعتني من الكلام. شهقت عدة مرات بسرعة، وحاولت أن أتكلم عدة مرات، ولكنني لم أفلح.

حينها، تغيّرت نبرة والدي في الحديث وقال: «أظن أن شخصاً ما أودى بكِ إلى المأزق الذي أنتِ فيه الآن، فلطالما كنتِ تابعة للآخرين. حسناً، ابقي مكانكِ وسأرى ما يمكنني فعله». وكأنني كنت أستطيع الحراك من مكاني هذا!

حان دور الشقراء للقيام بمكالمتها الهاتفية بعدي، فقالت لمن تحدثه عبر الهاتف بصوتٍ مرح ومبتهج:

«لن تحزر مكاني أبداً!». ثم اتضح أنها طلبت رقماً خاطئاً.

تمكن والدي – باعتبار أنه شخص محترف يمتلك طرائق وأساليب – من التحدّث إلى الضابط الذي اعتقلني، والذي كان لديه أولاد في مثل سني، والذي عامل والدي عبر الهاتف بكل التعاطف الأبوي الذي وجد أنه يستحقه. وبعد ثوانٍ، تخلصا من الرسميات بينهما، وراحا يناديان بعضهما باسميهما المختصرين: فينس وإيرني، ثم تحوّلت تهمتي من إهانة شرطي إلى التدخل في عمل ضابط الشرطة أثناء قيامه بعمله، ثم تبخرت هذه التهمة بعد دقائق أخرى من المكالمة. لم يبقَ في صحيفتي سوى تحطيم الممتلكات العامة وتهمة إثارة الشغب، وتم إسقاطها أيضاً لأن المرأة التي كانت تضع الكحل الكثيف على عينيها، تلك التي تعمل في المقهى أتت إلى مركز الشرطة وشهدت لصالحي. وقد أصرت على أنني مشاهدة بريئة، ولم أتعمد كسر كوبي وقالت:

«كنا جميعاً مصابين بالصدمة بسبب المشهد الغريب. لا يمكنكم تصور ما جرى». لكنني كنت قد أجبرت في وقت سابق على شهادتها بأن أعد والدي بأنني سأحضر إلى البيت لقضاء عطلة الشكر كلها؛ ما يعني أن المشكلة ستكون مطروحة للنقاش طوال الأيام الأربعة التي سأمضيها هناك، وجهاً لوجه. يا له من ثمن مرتفع سأدفعه مقابل كأس الحليب التي أوقعتها أرضاً!

# 3

فكرة أننا سنمضي العطلة في الحديث عن أي شيء مثير للجدل أكثر من توقيفي فكرة خيالية، وكنا نعرف ذلك؛ حتى عندما وعدتهما بألاّ أتكلم في الموضوع. أصر والداي على التظاهر بأننا عائلة مترابطة ومتحابة، يقف أفرادها بجانب بعضهم بعضاً في المواقف الصعبة. إذا أخذنا في عين الاعتبار شقيقيَّ المفقودين والهاربين، فإن تلك الكلمات انتصار للفكر الحالم والمنفصل عن الواقع، والذي كانت قوته تثير إعجابي. وفي الوقت نفسه، كانت فكرتي عن عائلتنا صافية وواضحة... فنحن لسنا تلك العائلة المترابطة على الإطلاق، إننا لا نشبهها حتى.

وكمثال عشوائي عن العلاقة الضعيفة بيننا أذكر موضوع الجنس. إذ إنّ والديّ يعتبران نفسيهما عالمين؛ أي من الأشخاص الذين يتعاملون مع حقائق الحياة المجردة من دون عواطف، بالإضافة إلى كونهما قد عاشا فترة شبابهما في ستينيات القرن الماضي الحافلة بدعوات إشباع الشهوات. ومع ذلك، مهما كان ما أظن أنني أعرفه عن الموضوع فقد عرفته من مشاهدة برامج الحياة البرية على شاشة التلفاز، ومن الحكايات التي كتبها أشخاص غير مختصين على الأرجح، ومن التجارب العلمية التي قمنا بها في المدرسة على الضفادع ذات الدم البارد؛ مما يعني أنها كانت تثير في عقلي أسئلة أكثر من تلك التي تجيب عنها. وفي أحد الأيام، وجدتُ كيساً من الفوط النسائية متروكاً على سريري مع كتيب صغير علمي وممل، ولهذا لم أهتم بشأنه على الإطلاق. ولم يذكر لي أحد أي شيء عن الفوط النسائية الملفوفة، ولهذا كان من حسن حظي أنني لم أظنها لفافات تبغ ولم أدخنها.

أمضيت سنوات طفولتي في بلومنغتن التابعة لولاية إنديانا، حيث عاش والداي حتى عام 1996. ولهذا لم يكن السفر إلى هناك من الجامعة أمراً سهلاً بالنسبة إليّ لقضاء العطلة كل أسبوع، ولم تتح لي الفرصة لقضاء أيام عطلة الشكر الأربعة بكاملها هناك كما وعدتُ والدي؛ لأن التذاكر الرخيصة على متن الطائرات كانت قد حُجِزت بالكامل يومَي الأربعاء والأحد، ولهذا وصلت إلى إنديانابوليس صباح يوم الثلاثاء وعدتُ مساء السبت.

وباستثناء عشاء يوم الشكر، لم أشاهد وجه والدي سوى نادراً، فقد حصل على منحة من منظمة NIH، وقضى جلّ وقته أثناء زيارتي في الاستسلام للإلهام في غرفة مكتبه، وهو يملأ لوحه بمعادلات مثل:

[1 0 0] = ’0_and P)S1n) = (1+P)S1n1)(−e(q+

P)S2n1)(−s + (P)S0n(cq

نادراً ما كان يأكل، ولست واثقة من أنه كان ينام، كما أنه لم يحلق ذقنه. لطالما كانت جدتي دونا تقول إن ملامح وجهه تشبه ملامح الرئيس نيكسون تماماً؛ وهي تدّعي أنها تمدحه بكلماتها تلك لكنها كانت تثير حنقه وغضبه. لم يكن يخرج من غرفة مكتبه سوى لإحضار كوب من القهوة أو للخروج إلى باحة المنزل الأمامية مع صنارة الصيد التي كان يعلّق بها ذبابة صناعية لامعة. كنا نشاهده أنا وأمي من نافذة المطبخ ونحن نغسل الأطباق ونجففها، ونراقبه وهو يمدّ الخيط، ونرى الذبابة الاصطناعية وهي تطير بشكل خاطف إلى خارج حدود حديقتنا المتجمدة. هذا هو النشاط التأملي الوحيد الذي يفضله، وكان لدينا الكثير من الأشجار في الخلف، ولكن الجيران لم يعتادوا على منظره هذا حتى الآن.

لم يكن يحتسي الشراب عندما يمارس تلك النشاطات، ولهذا سررنا جميعاً من ذلك. فقد أصيب بالسكري منذ عدة سنوات، ولهذا لا يفترض به أن يتناول الشراب أبداً في أي وقت من الأوقات، لذا كان يفعل ذلك سرّاً؛ ممّا جعل أمي في حالة من الشك الدائم، وأصابني القلق في بعض الأحيان من أن زواجهما قد تحول إلى ما يشبه العلاقة التي كانت تجمع المفتش جافيير بالهارب جان فالجان.

وفي ذلك العام، كان دور الجدة دونا في استضافتنا في مناسبة الشكر بالإضافة إلى خالي بوب وزوجته وابنيهما الصغيرين. كنّا قد قررنا منذ زمن وضع دور لكل من الجدتين في مناسبة الشكر توخياً للعدل بينهما. فلماذا يحوز أحد طرفي العائلة فقط على كل بهجة المناسبات؟! جدتي دونا هي أم والدتي، وجدتي فريديريكا هي أم والدي.

الطعام عند الجدة فريديريكا ثقيل ومشبع بالكاربوهيدرات. لذا، إن تناول القليل منه مشبع للغاية ولفترة طويلة، كما أنها تطهو دائماً كميات كبيرة. وكانت أرضية منزلها مفروشةً بالبسط الآسيوية الرخيصة، وبيتها مليء بالتماثيل المصنوعة من اليشم (وهو حجر كريم مائل إلى الاخضرار) والمراوح الملونة وعيدان الطعام الصيني اللامعة. وكانت تمتلك مصباحين عموديين متماثلين، لهما غطاءان حريريان أحمران، وقاعدتان حجريتان منحوتتان على شكل رجلَي دين بوذيين عجوزين في وضعية التأمل. وكان لتمثالَي رجلَي الدين لحيتان طويلتان، وأظفار مخيفة وطويلة. أخبرتني الجدة فريديريكا منذ عدة سنوات أن المستوى الثالث من (روك آند رول – قاعة المشاهير) أجمل مكان رأته عيناها، وأنه حرّضها على أن تكون شخصاً أفضل.

الجدة فريديريكا واحدة من الأشخاص الذين يعتقدون أن إزعاج الضيوف بمساعدة سيدة المنزل دليل على التهذيب. ورغم ذلك، كنا جميعاً نأكل كميات أكبر عند الجدة دونا التي كانت تترك لنا حرية اختيار إعادة تعبئة أطباقنا مجدداً أو لا، وتصنع فطائر هشة للغاية وكب – كيك بالبرتقال أشبه بالغيوم في خفته، وتضع شموعاً فضية اللون فوق الشمعدانات الفضية، وزهرية تحتوي على

أوراق خريفية رائعة في وسط المائدة. كل شيء عندها كان مُنجزاً بإتقان وذوق لا يُضاهى.

ناولتني الجدة دونا حشوة المحار، وسألتْ والدي عن الموضوع الذي يعمل عليه حالياً لأنه بات من الواضح لها أنه غائب الذهن تماماً، وكان هذا تأنيباً رسمياً منها له على شروده. وكان هو الشخص الوحيد الجالس إلى المائدة والذي لا يشعر بما يجري، أو كان يتجاهل حالته تلك بكل بساطة. فأجابها والدي بأنه يجري تحليلاً تسلسلياً على نتائج ماركوف لتفادي الشرطية الخاصة ببافلوف، ثم تنحنح وبدا أنه على وشك الشرح أكثر عن الموضوع.

عندها، تحركنا جميعاً في وقت واحد لتغيير الحديث؛ كما لو كنا سرباً من الأسماك الصغيرة المدربة. كانت لحظة ممتعة وشبيهة بتجارب بافلوف... كرقصة لعينة لتجنب شرطية بافلوف في الحياة.

قال خالي بوب:

«ناولوني قطعة من اللحم». وقاد الحديث ببراعة ليتحول الكلام إلى اهتمام الناس المتزايد بتناول اللحم الأبيض بدلاً من اللحم الأحمر؛ مما يزيد من مزارع الدواجن ويثير الأقاويل حول كيفية تربيتها.

«الدواجن المسكينة بالكاد تسير، وتبدو أشبه بكائنات مرعبة وبائسة». وكانت تلك أيضاً إشارة ساخرة ومقصودة أخرى إلى والدي، وإلى المغامرات العلمية الناتجة عن تجاوز كل الحدود والانغماس كلياً في الأبحاث العلمية؛ مثل الاستنساخ أو خلط مجموعة جينات مختلفة لإنتاج حيوان جديد. التناقض في عائلتي متنكر بألف طبقة من الإيحاءات المشفرّة والأحاديث الجانبية الخادعة والإنكار التام للحقيقة.

وأعتقد أن حال عائلتي مماثل لحال العديد من العائلات الأخرى.

لفت بوب أنظار الجميع متفاخراً باقتطاع شريحة من اللحم الأحمر لنفسه، ثم ألقى والدي تلك النكتة الفجة وغير المهذبة من دون أي إتقان:

«إنهم يتجولون في كل مكان متفاخرين بصدورهم الآثمة الشريرة».

كان يلقي الدعابة نفسها بشكل أو بآخر كلما قدّم له بوب شرف افتتاح الطعام؛ مما يعني أنه كان يردد الدعابة نفسها عاماً بعد الآخر. ولو كانت ظريفة وتحتاج إلى الذكاء لإدراك معناها لاعترفت بذلك، ولكنها لم تكن كذلك على الإطلاق. قد تبدأون الآن بعدم توقع الكثير من والدي، وتلك مهمتي أنا وليست مهمتكم أنتم.

كان الصمت الذي تلا الدعابة مليئاً بالشفقة على حال والدتي التي كان بإمكانها أن تتزوج من ويل باركر لو لم تفقد عقلها وتفضّل والدي عليه. أبي... المدخن الشره، والمدمن على الشراب، والمولع بالصيد باستخدام الذباب، والقادم من إنديانابوليس. كانت عائلة باركر تملك متجراً للمعدات في مركز المدينة، وويل محامي عقارات، لكن كل هذا ليس هاماً بالمقارنة مع ما لم يكن عليه... ما لم يكن عليه هو أنه لم يكن عالماً نفسياً كوالدي.

في بلومنغتون، وبالنسبة إلى شخص بمثل عمر جدتي، لم تكن مهنة عالم نفسي تذكرها سوى بالعالم كنزي ودراساته حول الشهوات، أو سكينر وصناديقه المنافية للطبيعة والعقل التي كان يضع فيها الأطفال. بالنسبة إليها، لم يكن العلماء النفسيون يتركون أعمالهم في المكتب، بل كانوا يحضرونها معهم إلى المنزل، ويجرون تجاربهم على مائدة الفطور مع عائلاتهم، ويستخدمون أفراد عائلاتهم للقيام بعروض مرعبة؛ وكل هذا من أجل الإجابة عن أسئلة لا تخطر أبداً على بال الأشخاص الطيبين.

اعتقد ويل باركر أن والدتكِ قد تعلقت بالقمر... هذا ما كانت جدتي دونا ترددده لي، ولطالما تساءلت عمّا إذا كانت قد فكرّت لحظة بأنني ما كنت لأولد لو تزوجت والدتي بذلك الرجل. هل كانت جدتي دونا تفكر في أن عدم وجودي فكرة حمقاء، أم بدا لها ميّزة؟

أنا أعتقد الآن أنها كانت واحدة من أولئك النساء اللواتي أحببن أولادهن كثيراً؛ لدرجة أنه لم يكن في وجدانها مكان لحب أي شخص آخر. وكانت تهتم بشدة لأمر أحفادها، ولكن فقط لأنهم كانوا مهمين للغاية بالنسبة إلى أولادها. أنا لا أقصد انتقادها بكلامي هذا، بل أنا سعيدة لأن والدتي نشأت في أسرة منحتها كل ذلك الحب.

الترايبتوفان: مركب حمضي كيميائي موجود بكثرة في لحم الديك الرومي، وهو يسبب النعاس وعدم المبالاة؛ الأمرين المألوفين اللذين يبدوان على أفراد العائلة أثناء يوم الشكر.

حقل ألغام #2: الأواني الخزفية الصينية الممتازة. عندما كنت في الخامسة من عمري، كسرت قطعة بحجم سنٍّ من إحدى كؤوس ووترفورد الخاصة بجدتي بفمي، وذلك من دون أي سبب سوى اختبار قدرتي على القيام بذلك. ومنذ تلك الحادثة، بدأوا بتقديم الحليب لي في بيت الجدة في كأس بلاستيكية عليها صورة رونالد مكدونالد (التي كانت تختفي عن الكأس مع مرور السنين). في العام 1996، كنت كبيرة بما فيه الكفاية لتناول الشراب الأحمر، ولكنهم لم يغيروا الكأس البلاستيكية... وبدا لي الأمر أشبه بدعابة لا تتقادم مع مرور الزمن.

لا أذكر الكثير مما دار بيننا في ذلك العام، ولكنني قادرة بكل ثقة على كتابة لائحة طويلة بالأمور التي لم نتحدث عنها متعمدين.

كأفراد العائلة الغائبين مثلاً، والذين رحلوا من دون عودة.

قبل عامين، عندما أعيد انتخاب الرئيس كلينتون، وهو اليوم الذي دمّرته ردة فعل والدي على أقوال خالي بوب وتأكيداته بأن كلينتون قد اغتصب امرأة أو ربما عدة نساء في آركنساس – وبالمناسبة، خالي بوب واحد من الناس الذين يشاهدون العالم من منظار ساخر – امتقع وجهه العابس وشحب وهو يردد جملة واحدة عدة مرات: لا تثق بأحد، وضعت الجدة دونا في ذلك اليوم قاعدة

دائمة جديدة: (الأحاديث السياسية ممنوعة)، باعتبار أننا لم نتفق على الاختلاف في الرأي، وباعتبار أن السكاكين موجودة في متناول أيدينا جميعاً.

لم يعرف أي شخص بالمشاكل القانونية التي واجهتها في ذلك اليوم سوى والديّ. وكان أقربائي متشوقين لرؤيتي بعد زمن طويل من الغياب، ولهذا لم أخبر أحداً بأي شيء. وفي الواقع، حافظ ذلك عليهم في وضعية الجهوزية للشجار.

كنا جميعاً على دراية بالدرجات المأساوية التي حصل عليها ابن خالي بيتر في امتحان SAT، ولكننا تظاهرنا جميعاً بأننا لا نعرف شيئاً عن الموضوع. بلغ بيتر الثامنة عشرة من عمره في العام 1996 ولكنه كان راشداً في اليوم الذي ولدته فيه أمه أكثر مما سيكون عليه حالي في يوم من الأيام. لقد تأقلمت والدته (الخالة فيفي) مع عائلتنا بصعوبة كما فعل والدي، وكأننا نادٍ يصعب الانتساب إليه على ما يبدو. وكانت فيفي تمرّ بحالات من الهيجان العصبي الغامض، وتصاب بنوبات بكاء وقلق واضطراب... ولهذا، اعتاد بيتر العودة من المدرسة إلى البيت وحده عندما بلغ العاشرة من عمره، حيث كان يفتح باب الثلاجة ويخرج منها ما يراه مناسباً، ثم يطبخ بيده عشاء لأربعة أشخاص من أي شيء يجده. كان يستطيع تحضير الصلصة البيضاء عندما كان في السادسة من عمره؛ وهي المعلومة المبهرة التي كان الكبار أصحاب الأهداف الشريرة والظالمة يحاولون من خلالها التأثير عليّ.

كما كان بيتر أيضاً عازف الفيولونسيل الوحيد في المدينة وفي تاريخ العالم أجمع الذي تم انتخابه ليكون أكثر الشبان وسامة في المدرسة الثانوية. كان بنيّ الشعر، وعلى وجنتيه نمش ناعم كالثلج، وعلى وسط أنفه ندبة قديمة تنتهي قرب عينه.

بيتر محبوب من قبل كل الناس. وقد أحبّه والدي لأنه كان يرافقه للصيد، وغالباً ما كانا يهربان إلى بحيرة ليمُن ويُسببان الرعب لسمك الباس. كما أحبته والدتي لأنه الشخص الوحيد في عائلتها الذي أحب والدي.

أما أنا فأحببته بسبب علاقته بأخته. إذ كانت أخته جانس في الرابعة عشرة من عمرها في العام 1996، وكانت فتاة عنيدة ونكدة تملأ البثور وجهها مثل أي مراهقة أخرى في مثل عمرها. ورغم ذلك، كان بيتر يقلها إلى المدرسة صباح كل يوم ويعود لاصطحابها إلى المنزل عصر الأيام التي لا يعزف فيها في الأوركسترا. وكان يضحك على الدعابات التي كانت تلقيها، ويستمع إليها بأذنين مصغيتين عندما تكون حزينة، ويهديها مجوهرات وعطوراً في ذكرى ميلادها، ويدافع عنها عندما تتشاجر مع والديها أو رفاقها في المدرسة. كان أخاً رائعاً لها، وكانت مشاهدة ذلك تؤلمني.

لقد رأى فيها شيئاً ما. ومن هو الشخص الذي يعرفك أكثر من أخيك؟ وإذا أحبك أخوك فتلك نعمة كبرى.

فيما كنا لا نزال جالسين إلى مائدة العشاء وقبل تقديم الحلوى، سألت الخالة فيفي والدي عن رأيه في الامتحانات القياسية الموحدة فلم يجبها، إذ كان يحدق إلى البطاطا الحلوة الموجودة في طبقه، بينما يرسم بشوكته دوائر وخطوطاً عمودية؛ وكأنه يرسم أشكالاً في الهواء.

نادته والدتي: «فينس... الامتحانات القياسية الموحدة؟».

«إنها امتحانات غير دقيقة على الإطلاق».

وهي الإجابة التي كانت فيفي تنتظرها بالضبط. فقد حاز بيتر على درجات ممتازة، ودرس بجد، ولهذا تعتبر درجاته في SAT ظلماً جائراً له. مرّت علينا هنيهة مفعمة بالتواطؤ العائلي، ثم انتهى عشاء الجدة دونا الرائع بتقديمها الحلوى؛ الفطائر المحشوة باليقطين والتفاح والجوز.

ثم أفسد والدي الأمور كلها عندما قال: «حازت روزي على درجات جيدة في امتحان SAT». وكأننا لم نكن جميعاً نتحاشى الحديث عن تلك الدرجات، وكان بيتر يريد أن يسمع عن نجاحي في ذلك الامتحان. أقحم والدي لقمة من الحلوى في فمه، وراح يلوكها بتهذيب في جهة واحدة وهو يبتسم لي بفخر، بينما يتصور في ذهنه تجارب تلافي شرطية ماركوف وهي تتصارع معاً وتتعارض في ما بينها، ثم عاد للقول: «لم تفتح الرسالة سوى بعد وصولها بيومين كاملين، ثم عرفنا أنها تغلبت عليهم جميعاً... وتحديداً في الامتحانات الشفوية». ثم انحنى باتجاهي قليلاً وقال: «بالطبع».

فجأة، ارتطمت شوكة خالي بوب بطرف صحنه.

«نجاحها هذا كان نتيجة حتمية للاختبارات الكثيرة التي كانت تخضع لها عندما كانت صغيرة». قالت أمي لأخيها بوب ثم تابعت: «إنها تبلي حسناً في الاختبارات، وقد تعلمت كيفية الخضوع للامتحانات من دون أن تصاب بالتوتر». ثم التفتت إليّ وكأنني لم أسمع الآخرين وقالت: «أنا فخورة بكِ يا عزيزتي».

«لقد توقعتُ نتائج ممتازة منها». قال والدي.

«توقعتَ!». قالت والدتي بلهجة ساخرة للغاية، ومن دون أن تهتز ابتسامتها، ثم أردفت: «توقعنا نتائج عظيمة!». ثم نظرت إليّ وإلى بيتر وجانيس وتابعت: «توقعنا نتائج عظيمة منكم جميعاً».

وارت الخالة فيفي فمها خلف منديلها، وحملق خالي بوب باللوحة المعلقة مقابله على الحائط عبر الطاولة، وتأمل تفاصيلها، واستعرض بعينيه الفواكه اللامعة والطائر الوحيد المترنح بجانبها، والذي لم يكن من الممكن تمييز نوعه من صدره. ثم قال والدي:

«هل تذكرون اليوم الذي أمضى فيه صفها حصة كاملة في لعب لعبة الكلمات أثناء هطول المطر، وعندما جاء دورها اختارت كلمة متلألئ؟ لم تكن تتجاوز السابعة من عمرها في ذلك اليوم، وعادت حينها إلى البيت باكية لأن المعلمة قالت لها إنها غشّت في اللعبة؛ لأنها اخترعت كلمة جديدة غير موجودة بنظرها».

(والدي لا يذكر تلك الحادثة جيداً؛ إذ لم تقل أي معلمة ذلك في مدرستي، بل ما قالته المعلمة في ذلك اليوم هو أنها واثقة من أنني لم أقصد الغش في اللعبة، وتكلمت مع والدي بنبرة ودٍّ ووجه مبتهج).

«أذكر نتيجة روز تلك». قال بيتر بتقدير واضح لذكائي، ثم تابع كلامه: «لم أعرف يومها مدى الإعجاب الذي ينبغي لي أن أظهره لها، فقد كان ذلك امتحاناً صعباً. على الأقل، هذا ما ظننته حينها». يا له من شخص لطيف! ولكن، لا تتعلقوا به فهو ليس جزءاً من هذه القصة.

دخلت والدتي غرفتي يوم الجمعة، في آخر ليلة لي هناك قبل أن أغادر، وكنت حينها أسطر خطوطاً تحت الجمل المهمة في كتاب يتحدث عن اقتصاد العصور الوسطى. كان هذا استعراضاً مسرحياً خالصاً... انظروا إلى اجتهادي... الجميع يحتفلون في العطلة إلا أنا. وبقيت على هذا الحال إلى أن لفت انتباهي طائر كاردينال يعبث على غصن خارج النافذة، ويلاحق شيئاً لم أعرف كنهه. لا توجد طيور حمراء في كاليفورنيا، فهذه الولاية هي أفقر الولايات بتلك الطيور.

أوقف صوت أمي القلم الذي كنت أحمله عن رسم الخطوط... التجارة، نقابات التجار الاحتكاريين... يوتوبيا توماس مور... فسألتها:

«هل تعرفين أن الحرب كانت موجودة في المدينة الفاضلة؛ اليوتوبيا؟».

لم تكن تعرف ذلك.

شردت أمي قليلاً، ثم سوّت الأغطية فوق السرير، وتناولت بعض الأحجار عن طاولة الزينة التي كانت معظمها من الجيود التي برزت بلوراتها من جوفها فبدت أشبه بالبيض الثمين الذي كان الصائغ فابرجيه يصنعه لقياصرة روسيا.

هذه أحجاري... وجدتها أثناء قيامي برحلات إلى مقالع الصخور أو الغابات عندما كنت صغيرة. كنت أكسرها بالمطرقة، أو أرميها إلى الشارع بشدة من نافذة الطابق الثاني، لكن هذا ليس البيت الذي ترعرعت فيه، وهذه ليست الغرفة التي قضيت فيها طفولتي. لقد غيرنا منزلنا ثلاث مرات منذ ولادتي، واستقر والداي هنا بعد تركي المنزل للذهاب إلى الجامعة، فقد كانت الغرف الفارغة تثير أشجان أمي كما اعترفت لي. ولهذا، لم تكن تحب أن تنظر إلى الخلف. كانت البيوت التي سكناها – مثل عائلتنا – تتقلص مع مرور الوقت، وكان كل بيت نسكنه أصغر من سابقه بكثير.

كان منزلنا الأول يقع في ضاحية إحدى البلدات، وكان منزلاً ريفياً كبيراً جداً يُحيط به عشرون هكتاراً من الحقول المزروعة باللبلاب السّام والسمّاق والقصب الأصفر والقرانيا، تجوبها الضفادع والحباحب المضيئة في الليل، والقططة الوحشية ذات العيون الفضية بلون ضياء القمر. لا أذكر تفاصيل المنزل كما أذكر الحظيرة، ولا أذكر تلك الحظيرة بقدر ما أذكر الجدول. لكن أكثر شيء علق في ذاكرتي هو شجرة التفاح التي اعتاد أخي وأختي تسلقها للصعود إلى غرفتيهما، أو النزول عليها للهرب من غرفتيهما. أما أنا فلم أكن

أستطيع تسلقها لأنني لم أكن قادرة على بلوغ الغصن الأول السفليّ. ولهذا، حينما بلغت الرابعة من عمري، صعدت إلى الطابق العلوي، وخرجت من النافذة، ونزلت على جذع الشجرة من الأعلى بدلاً من تسلقها من الأسفل، ووقعت فكسرت عظم كتفي. وكما قالت لي والدتي حينها، كنت سأقتل نفسي لو وقعت من الأعلى. لكنني في الواقع نزلت معظم المسافة من دون أن يلاحظني أحد. وأتذكّر أن والدي سألني: ماذا تعلمتِ من هذه المغامرة؟ فلم أعرف بماذا أجيبه في ذلك الوقت. ولكنني عندما أستعيد تلك الحادثة، أظن أن الدرس الذي تعلمته هو أنه مهما كان ما أحققه ممتازاً فلن يهتم به أحد بقدر اهتمامهم بفشلي.

في ذلك الوقت تقريباً، وجدت صديقة، ومنحتها نصف اسمي الثاني الذي لم أكن أستعمله – وهو ماري – كما أعطيتها ملامح مختلفة أخرى من شخصيتي لم أكن بحاجة إليها في ذلك الوقت. أمضيت مع ماري وقتاً طويلاً؛ إلى أن حلّ ذلك اليوم الذي ذهبت فيه إلى الروضة للمرة الأولى وأخبرتني أمي أن ماري لا تستطيع الذهاب. كان ذلك بمثابة تنبيه لي، وشعرت حينها كما لو أنها تخبرني بأنه لا يجب عليّ أنا أن أذهب إلى المدرسة... لا يجب أن أذهب بكامل كياني.

كان هذا إنذاراً مناسباً لي؛ لأن الروضة كما اتضح لي كانت مكاناً نتعلم فيه أي جزء من شخصيتنا هو المرحب به في المدرسة، وأي جزء غير مرغوب فيه. ولأوضِّح لكم كلامي، يُفترض بك في الروضة أن تقضي الجزء الأطول من النهار في وضعية السكوت؛ حتى لو كان ما تريد قوله أكثر تشويقاً للجميع من كل ما تقوله المعلمة. وعرضت والدتي عليّ استضافة ماري قائلة: «بإمكان ماري البقاء في المنزل معي هنا».

ثم فاجأتني ماري بمكر أثار انتباهي أكثر فأكثر؛ إذ إن والدتي لم تحبها كثيراً، وكان هذا النفور منها من قبل والدتي عنصراً خطيراً مضافاً إلى التهم الموجهة إليها. ثم وجدت أن رأي والدتي بماري يمكن أن يتغير نحو الأفضل، وأن الأمر يمكن أن ينتهي بعلاقة جيدة تجمعهما، فطلبت من ماري أن تمضي الوقت أثناء وجودي في المدرسة نائمة في أحد أنابيب تصريف المياه المجاورة لمنزلنا، وألا تحاول نهائياً إثارة إعجاب أحد في غيابي؛ إلى أن اختفت تماماً في أحد الأيام ولم تعد إلى المنزل. وحسب تقاليد عائلتنا، لم يأتِ أحد على ذكرها مجدداً.

تركنا بيت المزرعة ذاك في الصيف التالي لبلوغي الخامسة من العمر، ثم ابتلعته البلدة بتمددها العمراني، وأحاطت به وتجاوزته كموجة من مياه البحر؛ إلى أن تحوّل المكان بأكمله الآن إلى طرقات مسدودة تحيط بها بيوت حديثة من دون أي حقول أو حظائر أو خمائل. أقمنا بعد ذلك في شقة صغيرة مثل المملحة تقع إلى جانب الجامعة، زاعمين أننا نعيش هناك كي يذهب والدي إلى الجامعة سيراً على الأقدام. ذاك هو البيت الذي أفكر فيه كلما فكرّت في البيت؛ رغم أن أخي كان يعتبر أن البيت الحقيقي الذي شعر بأنه بيته هو البيت

الريفي الذي ذكرته قبل قليل، فقد أصيب بنوبة عاطفية عصبية عندما انتقلنا منه وتركناه.

كان للشقة الصغيرة الأشبه بالمملحة سطح شديد الانحدار، وكنت ممنوعة من الصعود إليه، وكانت لديه أيضاً باحة خلفية صغيرة جداً، ولم يكن يحتوي على أي غرف إضافية. كانت غرفتي مطلية باللون الوردي الخاص بالفتيات، وعلى نافذتها ستائر قطنية مخططة اشتراها والداي من محلات سيرز إلى أن طلى جدي جو – أبو والدي – الغرفة باللون الأزرق عندما كنت في المدرسة من دون أن يطلب رأيي. ثم ردد لي كلمات الأغنية التالية عندما احتججت على ما فعله بغرفتي، وهو يظن مخطئاً أنه قادر على إسكاتي بلحن من ألحانه:

عندما تكون غرفتك وردية لا تنامين ولا تغفين

عندما تكون غرفتك زرقاء، طوال الليل تنامين

وها نحن الآن في البيت الثالث. أرضيته حجرية، ونوافذه عالية، ومصابيحه مخفية، وخزائن المطبخ فيه قليلة إلى الحد الأدنى، ومصنوعة من الزجاج الشفاف من دون أي ألوان مبهجة. ليس فيه سوى ألوان الشوفان والرمال والعاج. وما زال شحيح الأثاث حتى بعد ثلاثة أعوام من السكن فيه؛ وكأن من يسكنونه لا يخططون للبقاء فيه طويلاً.

تلك حجارتي هناك على طاولة الزينة، ولكنني لا أذكر الطاولة بحد ذاتها. بل إنني لا أعرفها، ولا أعرف هذا السرير العريض المفروش بملاءة رمادية مخملية ناعمة، ولا أعرف اللوحة المعلقة على الحائط والتي أرى فيها أشكالاً داكنة بتدرجات الأزرق والأسود تشبه البجع وأزهار السوسن. وربما كانت مجرد أعشاب بحرية مع أسماك، أو كواكب هائمة في الفضاء مع مذنبات حائرة. لم تبدُ أحجار الجيود منتمية إلى هذا المكان، وأتساءل إن كانت والدتي قد وضعتها هنا قبل زيارتي؛ لأنها عرفت بمجيئي، وإن كانت ستقوم بوضعها في صندوق وتخبئها حال مغادرتي. خالجني الشك لوهلة بأن كل زيارتي هذه خدعة معقدة من والدي. وعندما سأغادر سيعود هو وأمي إلى بيتهما الحقيقي السري؛ ذلك الذي لا توجد فيه غرفة لي.

جلست أمي بجانبي على السرير فوضعت القلم من يدي. بدأت كلامها بحديث تمهيدي لا أذكر فحواه لكسر الجمود بيننا، ولكن عموماً لا بد أنه كان على الشكل التالي: «أبوك يتألم لأنك لا تكلمينه أبداً. ربما ظننتِ أنه لا يلاحظ ذلك، ولكنه يفعل». هذا هو حديثنا الاعتيادي في كل عطلة، وكنا نردده كما نردد أغنية يا لها من حياة جميلة، إذ نادراً ما فوّتنا مناسبة سعيدة من دون ترديدها.

في النهاية، وصلت بحديثها إلى الهدف: «كنا نتحدث أنا ووالدك عن مذكراتي القديمة، وما يمكنني فعله بها. ما زلتُ أظن أنها شديدة الخصوصية، ولكنّ والدك يعتقد أن مكانها الحقيقي على رفوف المكتبات. ربما انتهى بها الأمر كإحدى تلك المجموعات التي لا يمكن فتحها سوى بعد خمسين عاماً من

موت صاحبها؛ مع أن المكتبات لا تحب ذلك حقاً. ولكنْ ربما استطعنا أن نستثني من ذلك أفراد العائلة فقط».

استحوذت عليّ المفاجأة. فأمي تتحدث عن أمور لم نأتِ على ذكرها نهائياً بشكل متعمد. إنها تتحدث عن الماضي... وخفق قلبي بشدة، وأجبتها بصوت فيه انكسار:

«افعلي ما تشائين يا أمي. لا علاقة لرغبة والدي بالموضوع».

نظرت إليّ نظرة سريعة وكئيبة ثم قالت: «أنا لا أطلب مشورتك أو نصيحتك يا عزيزتي، فقد قررت أن أمنحك إياها. ووالدك محق في أن بعض المكتبات قد ترغب في شرائها؛ لأنني أعتقد أنه يتذكرها كمذكرات علمية أكثر مما هي عليه فعلاً. بكل الأحوال، الخيار عائد إليك. فأنت ربما لا ترغبين في وجودها معكِ، وربما كنت غير مستعدة لقراءتها بعد. ارميها في القمامة إذا شئتِ، أو اصنعي منها قبعات ورقية. أعدكِ أنني لن أسألك عن مصيرها أبداً».

وددت بشدة أن أقول لها أي شيء... أي شيء يشير إلى درايتي بالموضوع من دون الخوض فيه. ولكنني حتى الآن... حتى بعد مرور سنوات من التأهب والاستعداد لذلك الخطر... ما زلت لا أعرف كيف قمت بذلك. أتمنى لو أنني قلت لها حينها أي شيء يهدئها، أي شيء لطيف، لكنني لا أعتقد أنني قلت أي شيء جيد.

انضم إلينا والدي حسب ما أذكر في غرفة نوم الضيوف وهو يحمل لي هدية؛ وهي عبارة عن قطعة ورقية كتبت عليها عبارة. وقد حصل عليها قبل عدة أشهر، بعد أن وجدها في إحدى قطع البسكويت التي تحمل عبارات مشابهة، فاحتفظ بها في محفظته منذ ذلك الحين لأنه اعتقد أنها مناسبة لي كما قال. وقد كُتِب عليها: «لا تنسَ... أنت دائماً في قلوبنا».

هناك أوقات يبدو فيها التاريخ والذكريات كالضباب؛ وكأن ما حدث حقاً ليس هاماً بقدر ما كان يجب أن يحدث. انقشع الضباب وها نحن ذا؛ والداي الرائعان وأولادهما الرائعون أيضاً، أولادهما الممنونون والبارّون الذين يتصلون دوماً بلا سبب سوى للدردشة قليلاً، وليتمنوا لهما ليلة سعيدة وليرسلوا لهما قبلة المساء، وليطمئنوهما إلى أنهم يتوقون لقضاء العطلة معهما. تخيّلت للحظة أن الحب في عائلتي ليس شيئاً تحصل عليه حين تستحقه فقط، بل هو كالحب في العائلات الأخرى؛ أي الحب الذي لا يموت. ولثانية، تخيلتنا نحن الخمسة هكذا... رأيتنا جميعاً في خيالي... معاً... وقد استعدنا علاقتنا القديمة، وبرئنا من تلك الجراح، مجتمعين في بيت واحد، ومتألقين بفضل الحب العظيم الذي كان يمكن أن يجمعنا يوماً.

# 4

أثّر ذلك في نفسي كثيراً؛ لأنه لا يوجد شيء أكرهه الآن أكثر من مذكرات أمي. فما الفائدة من عدم الحديث عن الماضي إذا دوّنتَ كل أحداثه واحتفظتَ بها لديك؟

كانت مذكرات أمي من القياس الكبير المماثل لحجم دفاتر الرسم الكبيرة، إلا أنها أثخن منها. وقد أعطتني دفترين مربوطين معاً بشريط زينة أخضر، فاضطررت إلى إفراغ حقيبة سفري وإعادة حزم أمتعتي والجلوس فوق الحقيبة لأتمكن من إغلاقها.

في مرحلة ما، ربما عندما بدلت الطائرة بأخرى في مطار شيكاغو، قامت حقيبتي بمغامرتها الخاصة واتخذت لنفسها طريقاً جديداً. وعندما وصلت إلى ساكرامنتو انتظرت ساعة أمام حامل الأمتعة، ثم تحدّثتُ لساعة أخرى مع مجموعة من الموظفين الذين يتمتعون بضمير يقظ ومواقف عدائية، ثم لحقت بآخر حافلة متجهة إلى ديفيس خالية الوفاض.

شعرت بالذنب لأنني فقدتُ المذكرات بعد أقل من يوم من حصولي عليها، وبالسعادة لأن شركة الخطوط الجوية استعملت هذه المرة فقط عدم كفاءتها وعجزها في فعل الخير بدلاً من فعل الشر. وربما... نتيجة لخطأ لم أقترفه بنفسي، ونتيجة لثقتي التامة بقيام كل الموظفين في المطار بعملهم على أكمل وجه، ربما لهذا لم ترَ عيناي تلك المذكرات مرة أخرى. وشعرت بأنني محظوظة لأنني لم أضع كتبي ودفاتري في تلك الحقيبة أيضاً.

ألمّ بي التعب أكثر من أي شيء آخر، وسمعتُ أغنية جون أوزبورن (of One Us) ما إن وطئت قدماي طابق شقتي بعد خروجي من المصعد. وكان صوت الموسيقى يرتفع أكثر كلما اقتربت من باب شقتي، وقد فاجأني ذلك لأنني ظننت أن تود – وهو شريكي في السكن – لن يعود إلى الشقة قبل يوم الأحد، ولأنني ظننتُ أيضاً أن تود هو الشخص الوحيد الذي لا يحب تلك الأغنية في العالم كله.

تمنيتُ أن يكون غير راغب في إجراء أي حوارات الآن. ففي المرة الأخيرة التي سافر فيها للقاء والده خاضا حديثاً عن كل شيء رغبا في تحقيقه وأرادا أن يفعلاه. وقد كان حديثهما ذاك رائعاً جداً بالنسبة إليه وأثّر في نفسه كثيراً؛ لدرجة أنه بعد أن غادر واتجه إلى الطابق الأول بعد أن تمنى له والده ليلة سعيدة، عاد أدراجه ليقول لوالده كم يشعر بأنه قريب منه الآن، فسمع عن غير قصد من حيث يقف عند باب الردهة والده يتحدث مع زوجته الجديدة قائلاً:

«يا الله، يا له من مخبول! لطالما راودني شك في أنه ليس ابني».

وإذا كان تود قد عاد مبكراً إلى الشقة، فهذا يعني أنه تعرّض هذه المرة أيضاً إلى موقف كبير حقاً.

فتحت الباب فوجدت هارلو مستلقية على الأريكة، وقد لفّت على كتفيها الشال المصنوع من الكروشيه الذي حاكته لي جدتي فريديريكا عندما أصبتُ بالحصبة في طفولتي، وكانت تشرب زجاجة من الصودا الخاصة بي. نهضت هارلو لتخفض صوت الموسيقى، وكان شعرها الداكن ملفوفاً في كعكة فوق رأسها، ومثبّتاً بواسطة قلم رصاص، وأدركت أنني منحتها الفرصة لتتقدم خطوة باتجاهي.

مرّة، في أحد اجتماعات أولياء الأمور قالت معلمتي في الروضة لوالديّ إنني أعاني من مشكلة في استيعاب الحدود، وإنه من الضروري بالنسبة إليّ أن أحتفظ بيديّ لنفسي فقط على حدّ قولها. وأذكر تماماً الخزي الذي شعرنا به لأن أحدهم اضطر حقاً إلى إخبارنا بذلك. لم أكن أعرف حقاً أن لمس الآخرين فعل غير لائق. وفي الواقع، كنت أظن العكس تماماً. لكنني كنت دائماً أخلط الأمور بتلك الطريقة.

لذا، أخبروني أنتم عن ردة الفعل المناسبة التي يجدر بكم القيام بها لدى عودتكم إلى البيت لتجدوا شخصاً بالكاد تعرفونه يرتع في المكان. كنت متعبة ومنهكة فلم أفعل شيئاً سوى أنني فغرت فمي دهشة بصمت، كما تفعل السمكة الذهبية في الوعاء.

«لقد أخفتني». قالت هارلو.

فازدادت دهشتي، وفُتح فمي بغباء أكثر من ذي قبل.

انتظرَتْ هنيهة قبل أن تقول:

«يا إلهي، أرجو أنك لا تمانعين». وكأنه خطر لها للحظة أنني قد أمانع. فبدأت تقول لي بسرعة وبنبرة مترعة بالأسف العميق والصدق وكأننا أختان عزيزتان:

«طردني ريغ من الشقة لأنه يعتقد أنني لا أملك مالاً ومكاناً آخر يأويني. وظنّ أنني سأتسكع بضع ساعات ثم أزحف عائدة إلى المنزل لأرجوه السماح لي بالعودة. لقد أغضبني بشدة، ولهذا أتيتُ إلى هنا، وظننتُ أنك لن تعودي قبل الغد». إنه تحليل منطقي. ثم تابعت بهدوء وحزم: «اسمعي... أعرف أنك متعبة، لذا سأختفي من أمامك حالاً».

حاولت بشدة أن تفهم أي شيء من صمتي، وأن تقرأ أفكاري، لكنها لم تتمكن من فهم أي شيء لأنه لم يكن هناك أي شيء في ذهني. استحوذ التعب على جوارحي، ونخر عظمي، ووصل إلى جذور شعري. سألتها بشيء من الفضول ربما:

«كيف عرفتِ عنواني؟».

«قرأته في محضر الشرطة».

«كيف دخلتِ الشقة؟».

عندها، سحبت قلم الرصاص من شعرها، فانهمر على كتفيها كالحرير وقالت:

«منحتُ مدير المبنى ابتسامة من وجهي الجميل، وحكيت له قصة حزينة، ولهذا أخشى أنه ليس شخصاً مناسباً للعمل لديكم». وتغيّرت نبرة صوتها لتعبّر عن قلق حقيقي.

لا بد أنني شعرت بالغضب أثناء نومي؛ لأنني صحوت غاضبة على رنين الهاتف، وكان الاتصال من شركة الطيران. قالوا إنهم وجدوا حقيبتي وسيسلمونني إياها عصراً. وتمنوا أن أحجز للطيران معهم عندما أفكر في السفر مجدداً.

دخلت الحمام واستعملت المرحاض، ففاضت مياهه. وبعد عدة محاولات فاشلة قمت بها لتصريف المياه اتصلت بمدير المبنى، وشعرت بالإحراج لأنني أدخلته حمامي لتصريف الماء الممزوج ببولي، لكنني سررت لأنه لم يكن هناك شيء آخر غير البول.

حضر مدير المبنى إلى شقتي تملأه الحماسة لمساعدتي. حضر بسرعة وهو يرتدي قميصاً نظيفاً مطوي الكمّين حتى المرفقين، وهو يلوّح بمكبس المراحيض كالسيف فوق رأسه. بحث بعينيه عن هارلو، لكن المكان كان ضيقاً ومن المستحيل ألا يراها ما لم ترحل بالفعل، فسألني:

«أين صديقتك؟».

عزرا ميتزغر هو مدير المبنى، وهو اسم شعري للغاية، ومن الواضح أن والديه سمياه بهذا الاسم عاقدين الكثير من الآمال على مستقبله.

«عادت إلى منزلها الذي تقطنه مع حبيبها». لم أكن في مزاج ملائم لتلطيف الخبر له. بالإضافة إلى أنني كنت أعامل عزرا بلطف في بعض المناسبات الأخرى. ففي إحدى المرات، قرع بابي رجلان غريبان ومثيران للشكوك وطرحا عليّ أسئلة حوله، وقالا إنه تقدم لوظيفة في منظمة الاستخبارات؛ مما فاجأني للغاية، وشعرت بأنها فكرة سيئة مهما كانت الزاوية التي قد ينظر الفرد منها إليها. ورغم ذلك، قلت عنه أفضل الأشياء التي أمكنني التفكير فيها في تلك الآونة، وأذكر أنني قلت:

«أنا لا أراه إلا عندما يريدني أن أراه».

«حبيبها ذاك، لقد أخبرتني عنه». قال عزرا وهو ينظر باتجاهي. كانت لديه عادة شد شفتيه وامتصاص أسنانه مما يجعل شاربه يلتف نحو الداخل ثم يعود إلى الخارج، فتوقعتُ أن يقوم بتلك الحركة، ثم قال:

«يا لها من أخبار سيئة! لم يكن يجدر بك السماح لها بالرحيل».

«لم يكن يجدر بك السماح لها بالدخول منذ البداية من دون وجود أحد في الشقة. هل يجوز هذا!؟».

أخبرني عزرا مرة أنه لا يعتبر نفسه مدير مبنى عادياً، وقال لي إن الحياة غابة تعج بالكثير من الناس الذين يريدون هزيمته. وأخبرني أنه يعرف بأمر

المجموعة السرية في الطابق الثالث التي تخطط للقيام ببعض المؤامرات، وقال إنه يعرفهم جيداً ولكنهم لا يعرفونه. إنهم لا يعرفون مع من يتعاملون هنا. ثم اكتشفوا أنهم مراقبون بعد أن لاحظ عزرا المؤامرات التي خططوا لها، وأخبرني أنه يقضي أيامه مرابطاً على الممشى المجاور لباب شقتهم.

ثم تحدث بإسهاب عن الشرف. وعندها، لاحظت شاربه الذي راح يهتز من شدة الكرب، ولو استطاع أن يفرغ غلّه ذاك فوق فتحة المرحاض لما تردد. وبعد دقائق، فكّر في أنه لم يرتكب أي خطأ فتحول كربه إلى غضب عارم وقال:

«هل تعرفين عدد النساء اللواتي يقضين نحبهن على أيدي أصدقائهن الحميمين؟ اعذري وقاحتي لأنني حاولت إنقاذ حياتها».

ساد بيننا صمت جليدي، ومرت خمس عشرة دقيقة قبل أن يتمكن من سحب فوطة نسائية كانت تسد مجرى الماء في المرحاض. وبالطبع، لم تكن لي.

حاولت العودة للنوم في سريري، لكنني وجدت شعرات داكنة وطويلة على وسادتي، وشممت عطر الفانيلا على الملاءة. وجدت قشات العصير في القمامة، ولاحظت جروحاً جديدة على منضدة المطبخ؛ مما يعني أنها قطعت بالسكين شيئاً ما من دون استعمال لوح التقطيع. لم تكن هارلو شخصاً خفيف الظل على الإطلاق. وبالإضافة إلى ذلك كله، اختفى اللبن المخفوق مع التوت الذي كنت أدخره للغداء من الثلاجة. ثم عاد تود عكر المزاج، وصفق الباب خلفه، واستشاط غيظاً عندما عرف أن شقتنا قد تعرضت للاقتحام من قبل شخص غريب خلال الليلة الماضية.

يتحدّر تود من أب إيرلندي أميركي من الجيل الثالث، وأم يابانية أمريكية من الجيل الثاني يكرهان بعضهما. كان يقضي العطل الصيفية أثناء طفولته مع والده، ثم يعود إلى منزل أمه مزوداً بقوائم مفصلة ومليئة بنفقات غير متوقعة بانتظار أن تقوم الأم بدفعها؛ مثل كلفة استبدال كنزة قطنية ممزقة بأخرى تبلغ قيمتها نحو 17,60 دولاراً، وكلفة رباط حذاء جديد بقيمة 1.95 دولار. ولهذا، اعتاد تود أن يردد لي أنه من الرائع أن يحظى المرء بعائلة طبيعية مثل عائلتي.

حلم تود مرة بأن يكون رائداً في مجال موسيقى الفيوجن التجريبية، وأن يكون الموسيقيّ الذي سيدمج الموسيقى الشعبية بالأنيمي – الرسوم الكرتونية، لكنه أدرك في ما بعد عدم تناسبهما مع بعضهما. وقد قال لي بشكل حرفي: كانت تجربته تلك في دمج هذين المجالين أشبه بمحاولة خلط المادة والمادة المضادة التي قد تؤدي إلى نهاية العالم.

ومنذ تلك الحادثة التي سمع فيها والده ينعته بصفة سيئة، أصبح تود يستعمل اللغة الصينية التي تعلمها من أمه كلما أراد أن يكيل الشتائم لأحدهم، فكان يقول مثلاً: باكا بدلاً من أحمق، أو أوباكا سان بدلاً من أحمق محترم، وكيسِاما بدلاً من غبي جداً. فسألني الآن:

«أي نوع من الكيساما من يقوم بشيء كهذا؟ هل يجب علينا الآن تغيير قفل الباب؟ هل تعرفين كم سيكلف ذلك؟». ثم ذهب إلى غرفته ليتأكد من وجود كل أقراصه الليزرية – s’cd – وبعد ذلك عاد إليّ مجدداً. كنت بحاجة ماسة إلى الخروج من البيت لشرب القهوة في مكان ما في وسط المدينة، ولكن لم يكن بإمكاني ترك البيت؛ وذلك من أجل استلام الحقيبة.

أصبحت الساعة الخامسة من دون أي أثر للحقيبة، فاتصلت بشركة الخطوط الجوية الملعونة، وقيل لي إنه يجب عليّ الحديث مباشرة مع مركز الحقائب الضائعة في مطار ساكرامنتو. وعندما اتصلت لم يجبني أحد، رغم أن اتصالي كان هاماً بالنسبة إليهم كما أخبروني.

رنّ الهاتف بعد السابعة مساء، ولكن المتصلة كانت أمي التي أرادت الاطمئنان عليّ.

«أعرف أنني قلتُ لكِ من قبل إنني لن أتكلم عن الأمر بعد ذلك، ولكنني أشعر بالارتياح لأنني أعطيتك تلك المذكرات، وأشعر أنني تخلصت من حمل كبير كان يثقل كاهلي. انتهينا... لن أذكر الموضوع بعد الآن».

عاد تود إلى الشقة حوالي التاسعة وهو يحمل علبة بيتزا من مطعم سيمبوزيوم كوسيلة لتطييب خاطري. ثم انضمت إلينا صديقته كيمي أوشيدا فتناولنا البيتزا معاً أمام التلفاز ونحن نشاهد مسلسل (متزوجون... مع أولاد)، ثم تحركت الأمور على الأريكة باعتبار أن تود وكيمي لم يقابلا بعضهما منذ أربعة أيام خلت، فذهبت إلى غرفتي وقرأت قليلاً. أعتقد أنني كنت أقرأ رواية شاطئ البعوض في ذلك الوقت. يبدو لي أن الأمور الجنونية التي يتسبب بها الأهل لأفراد عائلتهم لا تنتهي أبداً.

# 5

أيقظني رنين الهاتف في اليوم التالي، وكان الاتصال من شركة الطيران لإخباري أنهم وجدوا حقيبتي، وأنهم سيوصلونها إلى البيت عصر اليوم. وعندما أخبرتهم أنني سأكون في الجامعة في ذلك الوقت طمأنوني بالقول إنهم سيتركونها مع مدير المبنى إلى حين عودتي.

مرت ثلاثة أيام قبل أن أتمكن من إيجاد عزرا مرة أخرى. وفي أحد تلك الأيام، كنت قد خرجت برفقة هارلو. فقد حضرتْ هارلو إلى باب بيتي وهي ترتدي سترة من الجينز، وتضع زوجاً من الأقراط الدائرية الرفيعة في أذنيها، وكان شعرها يلمع بلون ذهبي براق يغطيه من الأعلى، وقد بررت ذلك وهي تنفض شعرها بيديها بالقول إنها كانت في حفلة قبل حضورها إلى شقتي. وكانت حفلة ذكرى زواج فقالت:

«وكأن امتلاك زوج واحد طول العمر أمر يدعو للتفاخر! اسمعي، أنا أعرف أنكِ غاضبة مني. كان ذلك خطأً كبيراً مني؛ إذ لم يكن يجدر بي الدخول إلى شقتك من دون إذن. أنا أفهم ذلك».

فقلتُ لها: «لقد تجاوزتُ الأمر». فقالت لي إنه في تلك الحالة – ورغم أن اليوم هو الثلاثاء؛ مما يعني أن الوقت مبكر على جنون عطلة نهاية الأسبوع (أعتقد أن جنون عطلة نهاية الأسبوع كان يبدأ يوم الخميس في عام 1996، وقد علمتُ أنه يبدأ يوم الأربعاء الآن) – ينبغي لي أن أسمح لها بأن تدعوني لتناول كأس من الشراب. مشينا في شوارع وسط المدينة، ومررنا أمام مكتبة سويت برايز ومنحوتة الطماطم الكبيرة الموجودة في معرض الطعام في المدينة، كما مررنا أيضاً بجانب الرافعة المنصوبة بجوار متجر بوكس آند فالي، ثم عبرنا الشارع إلى الزاوية المقابلة لمحطة القطار إلى أن وصلنا إلى مقهى باراغون. كانت الشمس قد غابت، لكن الأفق لا يزال قرمزياً كجرح مفتوح، والغربان تتشاجر بين أغصان الأشجار المجاورة.

لم أكن أحب دائماً رقعة السماء الكبيرة التي تبدو من هذا المكان، ولا هذه المساحات الشاسعة المحاطة بالأسوار، ولا رائحة فضلات البقر التي تنبعث منه على مدار العام. ولكنني سلّمتُ منذ فترة بوجود الأسوار، ولم أعد ألاحظ الرائحة، وحوّلت اهتمامي إلى السماء. الغروب الذي تشاهده أفضل دوماً من الغروب الذي لا تلاحظ مروره. ورؤية المزيد من النجوم أفضل من عدم رؤيتها، وأنا أشعر بالمثل حيال الغربان مع أنني أعرف أن بعض الناس يخالفونني الرأي. يا لها من خسارة!

لم أدخل مقهى باراغون إلا نادراً؛ لأن الجماعة التي أرافقها ترتاد مكاناً آخر. بدا لي أن سكان ديفيس بكاملها قد أصيبوا بالجنون وتكدسوا هنا فوق بعضهم

بعضاً؛ وكأنهم احتلوا المكان كجيش من المتحولين أشباه الموتى الذين درسوا في ثانوية ديفيس حيث عاشوا شبابهم بالطول والعرض وهم يحضرون مباريات كرة القدم ويتزلجون على الألواح. كانت هناك لعبة كرة سلة بين فريقَي نيكس وليكرز تعرض على شاشة التلفاز، فكان الصوت عالياً جداً؛ مما زاد من الضجيج غير العادي الذي يصم الآذان.

بدا لي أن الجميع يعرفون هارلو، وأحضر المدير طلباتنا إلى الطاولة بنفسه، وكان النادل يحضر لتغيير طبق الفول السوداني كلما تناولت منه بضع حبات. وكلما كنا ننهي كأسينا كنا نحظى بغيرهما كمجاملة من بعض الزوار الذين يحضرون بعد قليل إلى الطاولة، لكن هارلو كانت ترسلهم بعيداً قائلة: «أنا آسفة جداً، نحن مشغولتان للغاية الآن». وعلى شفتيها ابتسامة أحلى من السكر.

سألتها عن المكان الذي أتت منه فأجابت: فريزنو، وعن الوقت الذي مضى على وجودها هنا في ديفيس فأجابت: ثلاث سنوات. ثم سألتها عن مخططاتها لما بعد الجامعة، فأجابتني بأنها تحلم بالعيش في آشلاند – أوريغون، وبالعمل كمصممة إضاءة لمسرحيات شيكسبير التي تعرض هناك.

سألتني بدورها إن كنت أفضِّل أن أكون صماء على أن أكون عمياء، وإن كنت أفضل الذكاء على الجمال، وإن كان من الممكن أن أتزوج رجلاً أكرهه للمحافظة على حياته، وعن بطلي الخارق المفضل، والسياسيين المفضلين عندي.

لم يحثّني أحد يوماً من قبل على الحديث عن مواضيع بمثل هذا العمق.

من الشخص الذي أحببته أكثر من أي شخص آخر؟ والدتي أم والدي؟

كنا نتقدم على أرض وعرة وخطيرة. في بعض الأحيان، يتجنب أحدنا الكلام بأن يحافظ على صمته. لكنّ أفضل طريقة لتجنب المرء البوح بما يجول في نفسه في أحيانٍ أخرى هي بالبوح نفسه. ما زلت أملك الحرية في اختيار الوقت والمناسبة التي تعجبني لأتكلم، ولم أنسَ كيفية الكلام بعد.

وهكذا، أخبرت هارلو عن أحد فصول الصيف عندما كنت طفلة؛ فصل الصيف ذاك الذي تركنا فيه بيت المزرعة. إنها القصة التي أحكيها غالباً للأشخاص الذين يسألونني عن طفولتي كلما أردتُ أن أحكي لهم شيئاً حميماً عنّي؛ ليعتقدوا أنني أبوح لهم بخفايا ماضيّ البعيد. لكن تأثير الأمر الآن أقل بكثير مما كان عليه سابقاً؛ لأنني كنت مضطرة إلى الصراخ لتسمعني هارلو بسبب كل ذلك الضجيج الهادر في المقهى.

تبدأ قصتي عادة في منتصف الأحداث، أي عندما أرسلني والداي إلى بيت جدي جو وجدتي فريديريكا. رحّلاني من دون إنذار أو تنبيه مسبق، ولا أذكر السبب الذي قدّماه لي. مهما كان السبب فأنا لم أصدقهما في ذلك الوقت. كنت أعرف جيداً رياح الشؤم حين تهب، واعتقدت في ذلك الأوان أنني ارتكبت خطأ كبيراً؛ كبيراً إلى درجة أنهما قررا التخلي عني وإرسالي بعيداً عن البيت.

كان جداي اللذان أرسلتُ إليهما يعيشان في إنديانابوليس. وكان بيتهما خانقاً وحاراً لا متنفس فيه، وذا رائحة جيدة بعض الشيء ولكن ليس كثيراً؛ إذ تشبه رائحته رائحة البسكويت القديم. وقد علّقا على أحد جدران غرفتي لوحة تصوّر رجلاً وامرأة يضعان قناعين مضحكين، والكثير من المقتنيات الآسيوية المزيفة في غرفة المعيشة. وقد كانت كلها مزيفة، وربما كانت نسخاً عن قطع مزيفة. هل تذكرون تلك التماثيل المثيرة للهلع ذات الأظفار الطويلة التي ذكرتها من قبل؟ تخيلوا الآن أنكم تحاولون النوم في ذلك المنزل.

وكان الأطفال قليلو العدد الموجودون في ذلك الشارع أكبر سناً مني بكثير. لذا، كنت أقف خلف الحاجز الشبكي الخاص بالباب الأمامي آملة أن يسألوني أي شيء أعرف إجابته، لكنهم لم يوجهوا لي الحديث قط. وفي أحيان أخرى، كنتُ أخرج إلى الباحة الخلفية، لكن جدي جو كان قد فرش أرضيتها بالإسمنت كي لا تنبت الأعشاب فيها، ولهذا كانت الباحة الخلفية حارة أكثر من المنزل ذاته. كنت ألعب بالكرة قليلاً، أو أراقب النمل بين الأزهار لبعض الوقت، ثم أعود إلى الداخل لأنتحب مجدداً.

كان جداي يقضيان أغلب وقتهما في مشاهدة التلفاز، أو ينامان على كرسييهما أمامه. لم أكن أشاهد الرسوم المتحركة سوى أيام الآحاد؛ لأن مشاهدتها لم تكن مسموحة في المنزل. شاهدتُ هناك أيضاً ثلاث حلقات من مسلسل الأصدقاء الخارقون، مما يعني أنني أمضيت هناك ثلاثة أسابيع على الأقل. في أصيل معظم الأيام، كنا نشاهد معاً مسلسلاً تلفزيونياً يحكي عن شخص اسمه لاري وزوجته كارن، حيث كان لاري رئيس أطباء في أحد المشافي، وكارن تستقبل الضيوف من الرجال أثناء وجوده في العمل، وهو أمر لم يكن يبدو لي سيئاً، ولكنه كان سيئاً جداً على ما يبدو.

قالت هارلو مرددة القول المأثور: «لا نملك سوى حياة واحدة لنعيشها».

«أياً يكن».

كانت جدتي فريديريكا تنزعج مني لأنني لم أكن أتوقف عن الكلام أثناء العرض؛ رغم أنها تذمرت لأن الحوار بات منصبّاً كلياً على الجنس ولم يعد يعجبها. إذ كان الحوار يدور في ما سبق حول العائلة كما أخبرتني، وكان من الممكن مشاهدة المسلسل مع حفيدة تبلغ من العمر خمسة أعوام. لكن جدّي جو قال إن ثرثرتي جعلت العرض أفضل بالنسبة إليه. لكنه حذّرني، وطلب مني أن أتذكر دوماً أن الناس في العالم الحقيقي لا يتصرفون بالشكل الذي نراه في التلفاز؛ وكأنني كنت سأعود إلى المنزل وأنا أفكر في أنه لا بأس بتبادل الأدوار مع الأخ التوأم مثلاً لإيهام الجميع بأنك قد مت، أو أنه لا بأس في خطف طفل امرأة أخرى في حال موت طفلك (كما كان يحدث في المسلسلات).

عموماً، لم يكن هناك شيء أفعله، إذ كان كل يوم مماثلاً تماماً لليوم الذي سبقه، وكل ليلة مماثلة لسابقتها في الكوابيس والأحلام التي تعج بالأصابع

القارصة والأقنعة الساخرة، وفي الكثير من وجبات الفطور التي تتألف من البيض المخفوق والمخلوط بأشياء بيضاء مقرفة. لم أكن أتناوله قط، ولكنهما داوما على تقديمه لي كل يوم.

وكانت جدتي تقول وهي تفرغ محتويات طبقي في القمامة بحزن بالغ: «لن تكبري أبداً». ثم تصمت قليلاً قبل أن تتابع:»هل يمكنك السكوت لدقيقة واحدة كي أتمكن من سماع أفكاري؟». وهو شيء كان الجميع يطلبون مني فعله طوال طفولتي. وفي ذلك الوقت، كنت أجيبها: لا... لا يمكنني السكوت.

ثم التقت جدتي تلك المرأة في صالون التجميل، فقالت لها إنه بإمكاني الحضور إلى منزلها للعب مع طفليها، وكان علينا أن نستقل السيارة لكي نصل إلى هناك، ثم اتضح أن طفليها صبيّان ضخمان. ورغم أن أحدهما كان في السادسة من العمر فقط إلا أنه كان ضخم الجثة. كانت لديهما لعبة ترامبولين، وكنت أرتدي تنورة في ذلك اليوم، فراحت تنورتي ترتفع إلى الأعلى كلما قفزت، وشاهد الجميع سروالي الداخلي. لا أذكر أنهما قاما بأي تصرف دنيء في ما يتعلق بهذا الأمر، ولكن ربما شعرت بالإذلال والخجل من الفكرة بحد ذاتها. لكن تلك الزيارة كانت زيارتي الأخيرة إلى هناك، ونقطة الذروة بالنسبة إليّ. فقد انهرت تماماً، وعندما لم يعرني أحد أي اهتمام خرجت من المنزل وفي نيتي أن أعود إلى البيت سيراً على الأقدام... إلى بيتي الحقيقي، بيت أهلي في بلومنغتون.

كنت أدرك أنه يتوجب عليّ السير لمسافة طويلة، ولا أظن أنني فكرت يومها بأنني قد أسلك الاتجاه الخاطئ؛ فقد اخترت الشوارع وارفة الظلال التي فيها مِرشّات مياه. وعلى الطريق، سألتني امرأة جالسة على إحدى الشرفات عن والديّ فأجبتها بأنني في زيارة إلى بيت جدي، فلم تسألني عن أي شيء آخر. ولا بد أن الوقت كان متأخراً في النهار عندما بدأت بالسير لأنني كنت في الخامسة من عمري فقط، ولم يكن من الممكن أن أكون قد ابتعدت كثيراً عندما حل الظلام.

اخترت أحد المنازل لأن لونه أعجبني. كان البيت مطلياً باللون الأزرق الفاتح، وله باب أحمر اللون، كما كان صغيراً ككوخ من أكواخ القصص الخرافية. قرعت الباب ففتح لي رجل يرتدي مئزر حمام فوق قميص قطني، وطلب مني الدخول، وقدّم لي كأساً من شراب بارد ونحن نجلس إلى مائدة المطبخ. كان رجلاً لطيفاً... أخبرته عن لاري وكارن والأقنعة الساخرة على الجدار والصبيين الضخمين ومخططي للعودة مشياً على الأقدام إلى بلومنغتون. أنصت الرجل إلى كلامي باهتمام شديد، ثم أشار إلى عدة مواطن ضعف في مخططي لم ألاحظها من قبل. وقال إنني إذا قرعت على الأبواب التي تعجبني على الطريق وطلبت وجبة عشاء أو غداء فمن الممكن أن يقدم لي الناس طعاماً سيئاً لا يعجبني. وربما طلبوا مني تنظيف صحني لأن تنظيف الصحن قاعدة راسخة لدى بعض العائلات، وقد يقدمون لي مجرد أعشاب

خضراء غير مشبعة أو لحماً مقرفاً أو أشياء أخرى أكرهها. وهكذا، أقنعني بأن العودة مشياً على الأقدام إلى بلومنغتون فكرة سيئة.

أخبرته أن جديّ من عائلة كوك، فبحث عن اسم كوك في دليل الهاتف، ثم راح يتصل بأصحاب ذلك الاسم في دليل الهاتف إلى أن وجدهما. حضرا فوراً لاصطحابي، ثم أرسلاني إلى البيت في اليوم التالي لأنهما قالا إنهما سئما مني ومن ثرثرتي التي لا تنتهي.

سألتني هارلو: «هل كانت أمك على وشك إنجاب طفل جديد؟».

«لا».

«لقد اعتقدتُ... أعني... أليس ذاك هو السبب المعتاد لإرسال الأطفال إلى بيوت الجدّات لبعض الوقت؟ أليس ذلك هو السبب المعتاد؟».

لم تكن أمي على وشك الولادة، بل كانت تعاني من انهيار عصبي لم أكن أنوي إخبار هارلو عنه. إن موطن الجمال في هذه القصة هو قدرتها الهائلة على تشتيت الانتباه، ولهذا أجبتها: «لم أخبرك عن الأمر الغريب بعد». فصفّقت هارلو بيديها بقوة. يبدو أن تناول الشراب يؤثر فيها؛ تماماً كاعتقال الشرطة لها، إذ يقودها إلى حالة غريبة من البهجة.

اقترب من طاولتنا رجل يرتدي ملابس صوفية غريبة تشبه الزي السلتي، لكن هارلو صرفته بحركة من يدها وتعابير وجهها تقول: صدقني، أنا أرفضك مجبرة، وهذا يؤلمني أكثر مما يؤلمك. ثم قالت له في محاولة منها للتفسير: «لقد وصلنا إلى الجزء الغريب من قصتها». فتسكع الرجل حولنا بضع دقائق آملاً في أن يسمع الجزء الغريب الذي ذكرته هارلو من باب الفضول، لكنني لم أكن أبوح بذلك لكل الناس، فانتظرت رحيله.

«عندما كنت في الكوخ الصغير الأزرق طلبت من الرجل استعمال الحمام». قلت بصوت منخفض وقد اقتربت من هارلو كثيراً فوق الطاولة، لدرجة أنني تمكنت من شم رائحة أنفاسها المتقطعة. ثم تابعت:

«أخبرني الرجل أن الحمام كان الباب الثاني في الجهة اليمنى، لكنني كنت في الخامسة من العمر ففتحت الباب الخطأ، وكان ذلك باب غرفة النوم، فرأيت امرأة مستلقية على بطنها فوق السرير مقيدة اليدين والرجلين. كانت مكتّفة كدجاجة جاهزة للشّي، وكان هناك شيء محشور في فمها؛ ربما كان جورباً رجالياً. عندما فتحت الباب التفتت إليّ، فلم أعرف ما يجب علي القيام به، ولم أعرف ما يجب عليّ التفكير فيه، وشعرت فجأة بأن شيئاً خطيراً جداً يحدث. ثم...»

هبّت نسمة هواء باردة تسللت من الباب الرئيس عندما فتحه أحدهم للدخول ثم أغلقه. فتابعت:

«ثم غمزتني محذرة».

مشى رجل خلف هارلو ثم وضع يده خلف عنقها، وكان يضع على رأسه قبعة نسائية محبوكة باليد عليها رسم ورقة القيقب الخضراء الكندية، وله أنف حاد مائل قليلاً إلى اليسار، كما يميل المتزلجون قليلاً فوق الأمواج. وكان الشاب الوسيم الذي رأيته برفقتها في مقهى الجامعة حين كان يحاول تفادي مكعبات السكر التي كانت ترميها باتجاهه، فقالت:

«روز... هذا ريغ الذي سمعتني أتحدث عنه بكل ذلك الحب».

لم يتعرف ريغ إلي، فتابعت كلامها: «ظننت أنك ستعمل اليوم».

«ظننت أنك ذاهبة إلى المكتبة».

«ظننت أنك قلت إن هناك خطباً ما في العرض، وإن الجميع يحاولون حل المشكلة».

«ظننت أنك ذاهبة لخوض ذاك الامتحان الصعب الذي كنت تدرسين له؛ ذاك الامتحان الذي يتعلق عليه كل مستقبلكِ».

ثم تناول ريغ كرسياً من طاولة مجاورة، وشرب القليل من شراب هارلو، وبعد ذلك قال لها:

«سوف تشكرينني في ما بعد».

«هل تعلم أن بطل روز ماري الخارق المفضل هو طرزان!». قالت هارلو بلطف.

فقال ريغ فوراً: «لا... أنت تكذبين... لأن طرزان لا يملك أي قدرات خارقة. إنه ليس بطلاً خارقاً أصلاً».

«أخبرتها بذلك».

كان هذا صحيحاً؛ إذ لم يكن لدي بطل خارق مفضل إلى أن سألتني عنه هارلو، فاخترت طرزان بشكل عشوائي كما فعلت لدى إجابتي عن أسئلتها الأخرى؛ كالتزلج الحرّ في الأماكن المفتوحة. لكنها كلما سألتني أكثر بات عليّ الالتزام بما سأقوله في ما بعد. كنت أقوم بذلك كلما تحدثت مع شخص أرفضه، اسألوا والدي.

وها هي قد فتحت الحوار مرة أخرى، وظننا أنه من المعيب لها أن تتظاهر بالصدق التام وهي تكذب بكل تلك الصفاقة بانتظار من يعينها على الكذب.

لكن كثرة عدد الناس المقتنعين بالكذبة لا تقنعنا بها؛ على الأقل في عائلتي، فقلت: «يعود ذلك إلى سياق القصة... فالقدرات العادية في أحد العوالم قد تكون خارقة في عوالم أخرى. خذ سوبرمان على سبيل المثال».

لكن ريغ رفض اعتبار سوبرمان مثالاً على كلامي ثم قال:

«باتمان هو أقصى ما يمكنني التفكير فيه، ولا يمكنني الحديث عن غيره».

تحت تلك القبعة الجذّابة المحبوكة باليد كان يحمل عقلاً لا يليق سوى بالأغبياء، وشعرت بالسعادة لأنني لم أكن صديقته الحميمة.

# 6

في الحقيقة، لم أكن قد قرأت رواية طرزان التي ألفها بوروز؛ لأنها لم تكن من بين الروايات التي سمح والداي بوجودها في المنزل. لذا، كل ما أعرفه عن طرزان معلومات عامة. ولهذا أصبتُ بالحيرة عندما بدأ ريغ يحاضرني عن العنصرية الموجودة في الكتاب؛ فأنا لم أكن أعرف إن كان الكتاب عنصرياً بالفعل، وإذا كان كذلك فهذا ليس خطأ طرزان ربما، ولم أكن أعرف أيضاً إن كان طرزان شخصية عنصرية بحد ذاته... لكنني لم أعتقد للحظة أنني سأكسب ذلك النقاش باعترافي بجهلي حول الموضوع، ولهذا غادرت المكان بسرعة باستخدام طريقة: يا إلهي، لقد تأخر الوقت.

مشيت وحدي إلى البيت عبر شوارع المدينة المعتمة، ومرّ قطار طويل بجانبي من الجهة اليمنى هادراً كالرعد، فأطلق حاجز الأمان صفارته وومضت أنواره الكاشفة. هبّت رياح باردة فتحرّكت أوراق الأشجار، وشاهدتُ خارج مطعم وودستوك للبيتزا جماعة من الشبان الصفيقين فعبرت الشارع لتحاشيهم. ناداني أحدهم ودعاني للانضمام إليهم، لكن دعوته لم تكن ودودة على الإطلاق.

كان تود لا يزال مستيقظاً، ولم يكن قد قرأ أي شيء للكاتب بوروز؛ مثلي تماماً، ولكنه قرأ قصة شبيهة في سلسلة حكايات يابانية اسمها: ملك الأدغال الجديد تار – تشان، وقد حدث ذلك منذ زمن بعيد. كان تار – تشان يملك قدرات خارقة بلا ريب، وقد حاول تود أن يشرح لي ما ورد في تلك السلسلة (التي كانت خليطاً جنونياً بين فن الطهي والإباحية) وعرض عليّ أن يحضر لي بعض الأعداد في المرة المقبلة التي يذهب فيها إلى بيت أمه، فرفضت لأنه من الواضح أنني لن أقرأها باعتبار أنني لا أتقن اليابانية.

لم أتمكن من دفعه للتركيز معي على النقطة الهامة؛ وهي أن ريغ شخص غبي، لأن تود كان يحاول أن يقنعني بدوره بأن مسايا توكوهيرو كان عبقرياً. بكل الأحوال، قادني النقاش مع تود إلى القناعة بأن ريغ لم يكن رديئاً جداً إلى تلك الدرجة. ثم فكرت في السبب الذي دفعني للثرثرة حول طرزان... يا للحماقة... لا بدّ أنني فقدت رشدي تماماً.

بعد ليلة أو اثنتين من تلك الحادثة وجدت عزرا، وقد كانت حقيبتي بحوزته، ولكنني كنت لا أزال معاقبة من وجهة نظره، ولم يكن من المناسب أن أنهي الخلاف الذي وقع بيننا بنفسي. فسألته بنبرة تفيض بالشك:

«هل أنت مشغول جداً؟».

كم طابقاً يحتوي المبنى حسب اعتقاده؟

«نعم... مجرد اعتقادكِ أنني لست مشغولاً يفضح جهلك الكبير بعملي».

مرّ يومان آخران قبل أن يفتح باب خزانة المكنسة الكهربائية الخاصة بالمبنى (كانت هناك كمية مهولة من القمامة داخل تلك الخزانة تكفي وحدها لردم عدة آبار. بإمكانه تسميم البلدة بكاملها بهذه القمامة على حدّ قوله، وكان عمله يقتضي أن يبقيها بعيدة عن أنظار الإرهابيين الذين يقطنون الطابق الثالث) وأخرج الحقيبة، فوجدتها قاسية أكثر من المعتاد ومغطاة بغبار أزرق. قال عزرا:

«نعم، لقد نسيت. حضر شاب البارحة، وقال إنه أخوكِ ترافيرز، وقد رغب في أن ينتظركِ، لكنني قلت له إنه لا يمكنه أن يتخيل الغضب الذي سيعتريكِ إذا سمحتُ لصديق أو لفرد من العائلة بدخول شقتكِ أثناء غيابك».

تمزّقتُ بين عدم التصديق بأن يكون الزائر أخي بالفعل – وقد غمرني هذا بذهول مشوب بالفرح لمجرد التفكير في أنه حضر لرؤيتي في نهاية الأمر – وبين خيبة الأمل الهائجة كالبركان لأن عزرا طرده؛ ممّا يعني أنه قد لا يعود أبداً. باغتتني كل تلك المشاعر المعقدة في وقت واحد، وانتفض قلبي في صدري كسمكة خرجت من الماء للتو.

فمع أنه استمر بإرسال بطاقات التهنئة في المناسبات إلى والديّ، إلاّ أن الكلمة الأخيرة التي تلقيتها منه شخصياً وصلتني عند تخرجي من المدرسة الثانوية. وقد كتب لي يومها على الوجه الآخر للبطاقة التي تحمل صورة آنكور وات: «إنه عالم كبير». كانت البطاقة تحمل ختماً بريديّاً بريطانياً؛ مما يعني أنه قد يكون موجوداً في أي مكان في العالم ما عدا هنا. وكان أكثر شيء مقنع في كلام عزرا هو اسم أخي الذي ذكره: ترافيرز، لأن أخي لم يكن ليستعمل اسمه الحقيقي مطلقاً. فسألته:

«هل قال إنه سيعود؟».

«ربما. قال إنه سيعود في غضون بضعة أيام».

«ماذا تعني بقولك بضعة أيام؟ أتعني يومين أو أكثر؟ هل قال يومين أو بضعة أيام؟».

فاقت أسئلتي حد التحمّل من منظور عزرا الذي يعتقد أن الإفصاح عن أي معلومات لا يجب أن يتم سوى في حال الحاجة الشديدة. لذا، صرّ على أسنانه، وقال إنه لا يذكر تماماً لأنه كان مشغولاً؛ فهو مسؤول عن إدارة مبنى بكامله.

عندما كنّا أطفالاً، كان أخي الإنسان المفضل بالنسبة إليّ في العالم أجمع. كان بإمكانه أن يكون فظاً في بعض الأحيان، ولكننا حظينا بأوقات أخرى أفضل. كان يقضي ساعات في تعليمي كيفية القيام بالخدع السحرية وألعاب الورق المختلفة؛ إذ كان لاعب ورق بارعاً، لكنني تحولت تحت إشرافه إلى لاعبة أفضل منه هو نفسه؛ لسبب وحيد وهو أنني كنت صغيرة جداً، ولم يكن أحد يتوقع مني أن أكون لاعبة ماهرة. ربحنا معاً عدداً كبيراً من المرات، وكنت

أفضّل بطاقة خضراء تحمل رسم فتاة صغيرة تطير عالياً، لأن ابتسامتها كانت رائعة.
في أحد الأيام، رماني ستيفن كلايمور بكرة ثلجية تحتوي على حجرة في وسطها لأنه، كما قلتُ يومها... شخص يتعذر تجنبه أو مقاومته – الأمر الذي لم يعجبه – لكنه أثبت لنا بتصرفه هذا صحة كلامي. وعدتُ يومها إلى البيت وعلى جبيني ورم كبير والتراب يغطي ركبتيّ. في اليوم التالي، ذهب أخي إلى المدرسة ولوى ذراع ستيفن إلى الخلف إلى أن اعتذر مني، ثم اصطحبني إلى محل مثلجات كوين وابتاع لي مثلجات مغمّسة بالشوكولا من ماله الخاص. سبّب لنا ليُّ ذراع ستيفن ومغادرة المدرسة بلا إذن ومن دون إخبار أحد الكثير من المتاعب. لكن قواعد السلوك في عائلتنا كانت غامضة وضبابية في ما يخص أخي، فلم نتعرض في البيت لعواقب سيئة بسبب ما جرى.

كانت لدي عدة أسباب لاختيار جامعة ديفيس. أولاً، لأنها بعيدة جداً بما يكفي عن البيت؛ مما يعني أنني لن أجد شخصاً يعرفني فيها.
ثانياً، وافق عليها والدي ووالدتي. إذ زرنا الحرم الجامعي معاً، ووجدا أن طابع الغرب الأوسط يغلب على المدينة عملياً، وخلبت ممرات الدراجات الهوائية العريضة في الشوارع لبهما حرفياً.
لكن السبب الثالث والأهم هو أنني أتيت إلى هنا بسبب أخي، ولا بد أن والدَيّ قد اكتشفا ذلك، وبنيا على تلك الحقيقة بعض الآمال. عادة، كان والدي يحافظ على محفظته مغلقة بقوة، ولم تكن كل ممرات الدراجات الهوائية الموجودة في بلدات الغرب الأوسط في العالم لتقنعه بدفع تكاليف الدراسة الجامعية خارج الولاية التي نعيش فيها طالما أن إنديانا كانت تحظى بجامعات ممتازة، وإحداها كانت مجاورة لنا تماماً.
لكن وكالة الاستخبارات أعلمتنا أن أخي كان موجوداً في بلدة ديفيس في ربيع عام1987، أي بعد مغادرته البيت بحوالي العام، ولا يمكن أن تكون الحكومة مخطئة، ولم يُذكَر أي مكان آخر تواجد فيه غير ديفيس.
كما أنني لم أعد قادرة على الاستمرار هكذا لفترة أطول من ذلك؛ بأن أتابع حياتي متظاهرة بأنني الابنة الوحيدة لوالديّ. كنت أتخيل وأحلم بأن يقرع أخي بابي، وأن أفتح له من دون أن أتوقع حضوره؛ أن أفتح الباب وأنا أظن أن الطارق قد يكون عزرا طالباً استعارة لعبة من عند تود، أو لإبلاغنا بقرارات جديدة بالنسبة إلى رمي القمامة. كنت أتعرف عليه فوراً في حلمي، ثم يقول لي في الحلم وهو يسحبني إليه ليعانقني: ربّاه، كم افتقدتكِ واشتقت إليكِ. ثم يجلس ليسألني عن كل ما جرى منذ رحيله.
كنت في الحادية عشرة من عمري عندما شاهدته آخر مرة، وكان يكره شجاعتي وإقدامي وتهوري.

الحقيبة التي وجدتها لدى عزرا لم تكن حقيبتي. ذلك غني عن الذكر بالطبع.

# 7

من الواضح أن القصة التي حكيتها لهارلو – تلك التي أُرسِلتُ فيها إلى بيت جدي – لا تقع في منتصف القصة التي أحكيها لكم الآن. لقد حكيتها لهارلو في تلك الآونة، وكانت في ذلك الوقت تقع في منتصف القصة، لكن وقوع الحادثة وإخبارها للناس أمران مختلفان كليًّا. هذا لا يعني أن القصة ليست حقيقية، ولكنني لم أعد أعرف بكل صدق إذا كنت أتذكرها كما حدثت، أم أذكرها كما اعتدتُ أن أحكيها للآخرين.

هذا ما تفعله اللغة بذكرياتنا، فهي تبسطها... وتجمدها... وتصنفها... وتحنطها. وهكذا، تصبح القصة التي تُحكى للآخرين غالباً أشبه بصورة فوتوغرافية داخل ألبوم صور العائلة القديم، وتحل في النهاية محل الذكرى الحقيقية التي كانت تصورها في البداية.

وقد آلت بي الأمور إلى مرحلة لم أعد أعرف بعدها كيفية المضي قدماً في حياتي من دون الالتفات إلى الخلف بعد زيارة أخي هذه، من دون الالتفات إلى نهاية تلك القصة؛ إلى اللحظة التي عدتُ فيها إلى بيتنا بعد زيارتي الطويلة لبيت جدي.

إنها اللحظة التي أؤكد أنها اللحظة الدقيقة التي ينتهي بها الجزء الذي أعرف كيف أرويه من قصتي، ليبدأ الجزء الذي لم أبح به لأي مخلوق منذ ذلك اليوم.

# القسم الثاني

ربما يكون الوقت قصيراً عندما يقاس بعدد الأيام التي مرت على المفكرة، ولكنه طويل للغاية لكثرة الأحداث التي جرت فيه. لقد شعرت بهذا عندما مررت بأوقات رافقت فيها الكثير من الناس المذهلين الذين نصحوني وأثنوا عليّ، وسمعتُ فيها الكثير من الموسيقى العظيمة... لكنني كنت وحيداً حتى النخاع».

*فرانز كافكا، «تقرير للأكاديمية»*

# 1

نبدأ الآن من العام 1979، عام العنزة... العنزة الأرضية.

إليكم بعض الأمور التي ربما تذكرونها. انتخبت مارغريت تاتشر للتو رئيسة وزراء لبريطانيا، وفرّ عيدي أمين من أوغندا، وكان جيمي كارتر على بعد قوسين أو أدنى من مواجهة الإيرانيين في أزمة الرهائن، وفي الوقت ذاته كان الرئيس الأول والأخير الذي هاجمه أرنب بري ولم يترك له فرصة للدفاع عن نفسه.

إليكم بعض الأمور الأخرى التي لم تلاحظوها في ذلك الوقت على الأغلب. وقّعت إسرائيل ومصر في ذلك العام معاهدة سلام، وهطل الثلج لمدة نصف ساعة في الصحراء الكبرى، وتم تشكيل لجنة للدفاع عن حقوق الحيوان، وقام ثمانية أعضاء من طاقم سفينة Shepherd Sea بطلاء أكثر من ألف فقمة بصباغ أحمر دائم (غير مؤذٍ)، وكان الصباغ مصمماً لتخريب جلدها لإنقاذها من الصيادين الراغبين في صيدها لسلخ جلودها. اعتُقل الناشطون، وفي مفارقة عجيبة لا يصادفها المرء سوى في مؤلفات أورويل، اتُهموا بخرق معاهدة حماية حيوانات الفقمة.

كان الراديو في ذلك العام يذيع مسلسل «Family Are We»، ويعرض التلفاز مسلسل *Hazzard of Dukes The*، بينما عُرض فيلم *Away Breaking* في صالات السينما، وكانت إنديانا – بلومنغتون جاهزة لما جرى فيها.

الشيء الوحيد الذي كنت أدركه في ذلك الوقت من كل ما سبق هو ذاك المتعلق بفيلم Away Breaking. في العام 1976 كنت في الخامسة من عمري، وكانت لدي مشاكل خاصة بي. لكن هذا الأمر يدل على درجة البهجة التي كانت تسود بلومنغتون. فالأطفال المعذبون أيضاً لا يمكن أن يفوتهم جديد هوليوود المشوق.

من المؤكد أن والدي يرغب في الإشارة إلى أنني حين كنت في الخامسة من عمري كنت لا أزال أهيم في المرحلة التي أطلق عليها عالم النفس جان بياجيه اسم المرحلة ما قبل الوظيفية، مع ميل إلى التفكير المنطقي وتطور شعوري واضح. وكان يريد من الشخص الذي يسمع وصفه هذا لي أن يفهم أنني أضع من دون شك إطاراً منطقياً لما أفهمه من الأحداث التي لم تكن تحدث في ذلك الوقت؛ من وجهة نظري الناضجة بالنسبة إلى سني. أما العواطف فكانت منقسمة في ذهني وقوية إلى أقصى الحدود خلال المرحلة ما قبل الوظيفية.

ولا يعني هذا أنه لم تكن هناك أوقات يكون فيها انقسام المشاعر وقوتها المفرطة عندي مبررين تماماً. لنبسِّط الأمور ونتفق منذ البداية على أن عائلتي

كلها في هذا القسم من القصة... جميعنا... كباراً وصغاراً، كنّا في محنة عظيمة، ويغمرنا الكرب والأسى.

حضر والدي لاصطحابي في اليوم التالي لهربي من بيت الولدَين اللذين يملكان الترامبولين ولوصولي إلى الكوخ الصغير الأزرق. فقد اتصل به جدّاي ليأتي لاصطحابي، لكنّ أحداً لم يخبرني بهذا التفصيل. وكنت لا أزال أعتقد أن والديَّ قد تخليا عني، وتبرعا بي لأشخاص أغراب، وليس لجدّيَّ اللذين تبيّن لي أيضاً أنهما لا يرغبان بي. أين سيرمونني الآن؟ ومن سيحبني الآن؟ انتحبتُ بأقصى قدر ممكن من الهدوء واللياقة الممكنة لأن والدي لم يكن يحب سماع صوت نشيجي، بالإضافة إلى أنني كنت آمل أن يغير والديَ رأيهما ويستبقياني عندهما. لكنّ تحفّظي هذا لم يثر إعجاب أحد، ولم يبدُ لي أن والدي قد لاحظ دموعي بأي شكل. من الواضح أنه نفض يديه منّي.

طُلِب منّي الخروج من الغرفة، حيث دار بين والدي وجدّيَّ حديث مشؤوم هامس لا بأس به، وحتى عندما تحرّكت السيارة التي كنت أجلس على مقعدها الخلفي مع حقيبتي لم أكن أعرف إن كان سيعيدني إلى المنزل أم لا، وقد كان ذلك أمراً جيداً؛ لأنني لم أكن سأعود إلى المنزل الذي أعرفه بالفعل.

عندما كنتُ طفلة، كنتُ أهرب من المواقف المؤلمة بالنوم طويلاً التماساً للنسيان؛ وهذا ما فعلته الآن. وعندما استيقظتُ وجدتُ نفسي في غرفة غريبة. بأي حال، كان أغرب ما في الغرفة هو الأشياء التي لم تكن غريبة بحدّ ذاتها. إذ كانت خزانة الأدراج الخاصّة بي موجودة بجانب النافذة، وكان السرير الذي وجدتُ نفسي مستلقية عليه سريري، واللحاف الذي يغطيني هو لحافي الذي حاكته لي الجدة فريديريكا بيديها عندما كانت تحبني، والذي يحمل رسوم زهرة عباد الشمس على طوله؛ من أسفله ووصولاً إلى الوسادة. لكنّ الأدراج كانت فارغة، والفراش مجرد من الملاءة تحت لحاف عبّاد الشمس.

وبجوار النافذة وجدتُ تلّة من الصناديق، أحدها كان صندوق زجاجات شراب، وقد رأيتُ عبر فتحاته الجانبية غلاف أحد كتبي الخاصة. صعدتُ على أحد الصناديق لأنظر إلى الخارج، فلم أجد شجرة التفاح ولا الحظيرة ولا الحقول المغبرّة، بل شاهدتُ بدلاً من ذلك حديقة خلفية غريبة تحتوي على «باربكيو» للشواء وأرجوحة صدئة وحديقة مزروعة بالخضار بشكل جيد؛ حيث كانت الطماطم على وشك الاحمرار، وبراعم الفاصولياء متفتحة. رأيت كل ذلك عبر الزجاج المتسخ جداً إلى درجة أن المنظر بدا لي سديمياً وغامضاً وضبابياً. كانت تلك الخضار ستُقطفُ وتُؤكل أو تُرمى قبل وقت طويل من نضوجها في المزرعة التي كنتُ أعيش فيها.

كانت المزرعة التي كنت أعيش فيها حافلة بالأصوات المختلفة، وتُسمع فيها دائماً دمدمة شخص ما أو صفير أو صراخ؛ ودائماً يوجد فيها شخص يعزف البيانو أو يشغل آلة الغسيل أو يقفز فوق الأسّرة أو يجلي القدور في الحوض أو يصرخِ طالباً من الجميع الكِفّ عن الصراخ بدورهم لأنه يريد الحديث عبر

الهاتف. أما هذا البيت... فهو أشبه بسفينة غارقة في صمت كابوسي ليس له قرار.

لا أذكر الأفكار التي طرأت لي حينها، فربما ظننت أنهم نقلوني إلى هنا لأعيش وحدي. ومهما كانت ظنوني، فقد حملتني على العودة إلى سريري باكية، وعلى الاستغراق في النوم مجدداً. ورغم أنني بذلت جهدي في عقد أشد الآمال على الاستيقاظ في منزلي المعتاد، إلا أنني فتحت عينيّ بعد ساعات لأجد نفسي في المكان نفسه، وغارقة في الدموع نفسها، وأنا أنادي أمي بكل اليأس الممكن في هذا العالم.

حضر والدي بدلاً عن أمي، وحملني وأحاطني بذراعيه وهدهدني قائلاً:

«شششش. أمك نائمة الآن في الغرفة المجاورة، هل شعرتِ بالخوف؟ أنا آسف، هذا بيتنا الجديد، وهذه غرفتك الجديدة».

«هل يعيش الجميع معي هنا؟».

سألته وأنا لا أزال حذرة من الوقوع في فخ الأمل، وشعرتُ برجفة تسري في جسد والدي وكأنني قرصته.

كانت الأرضيات في بيتنا القديم مغطاة بالخشب أو باللينوليوم المشمع الذي تغطى به الأرضيات عادة، وهي مواد يمكن تنظيفها بسرعة باستعمال ممسحة وماء. أما هذا البيت فكانت أرضيته مغطاة بسجاد فضي يمتد من غرفتي الجديدة إلى الردهة من دون أي انقطاع؛ مما يعني أنني لن أتمكن من التزلج باستخدام جوربيّ هنا، ولن أتمكن من قيادة دراجتي السكوتر على هذه السجادة أيضاً.

يحتوي الطابق العلوي على غرفة نومي، وغرفة نوم أبويّ، ومكتب والدي الذي ازدان منذ تلك اللحظة بلوحه الأسود المعلق على الحائط، وحمام وحيد يحتوي على مغطس أزرق من دون ستارة حمام. قد تكون غرفتي الجديدة أكبر حجماً من الجحر الصغير الزاهي الذي كان مخصصاً لي في بيت المزرعة، لكنني لاحظت أن البيت نفسه أصغر من بيتنا القديم. وربما لم ألاحظ ذلك عندما كنت في الخامسة... اسألوا بياجيه.

في الطابق السفلي، كانت هناك غرفة جلوس مزودة بمدفأة قرميدية، ومطبخ يحتوي على طاولة طعام كنا نتناول عليها الفطور، وحمام آخر أصغر يحتوي على دشّ من دون مغطس، وتقع بجواره غرفة أخي؛ إلا أن فراش أخي كان خالياً من الأغطية، لأنني اكتشفت لاحقاً في تلك الليلة أنه رفض وضع قدمه في البيت الجديد، ورحل بدلاً من القدوم معنا، وسكن مع أفضل صديق له ماركو إلى ما شاء الله.

لطالما كان هذا هو الفرق بيني وبين أخي... إذ كنت دوماً أخاف من أن يتم إجباري على الرحيل، بينما كان هو راحلاً على الدوام.

احتوت جميع الغرف على صناديق، وكانت جميعها مغلقة تقريباً. لم يكن هناك أي شيء معلق على الجدران، ولا أي شيءٍ معروض على أي رفّ.

وجدت بعض الأطباق في المطبخ، لكنني لم ألمح أثراً للخلاط أو لآلة التحميص أو آلة إعداد الخبز.

وبينما رحت أستكشف للمرة الأولى البيت الذي سأعيش فيه حتى أبلغ الثامنة عشرة من عمري، بدأت أدرك ما جرى. لم أجد مكاناً مناسباً للعمل ليستخدمه الطلاب المتخرجون. فتشت وفتشت، ولكن بلا طائل. صعدت السلالم مجدداً إلى الأعلى، ثم فتشت في الأسفل مجدداً... غير أنني لم أجد سوى ثلاث غرف نوم؛ إحداها لأخي، والثانية لأبويّ، والثالثة لي. إذاً، لم يتخلوا عني أنا.

لقد تخلوا عن شخص آخر.

عندما غادرتُ بلومنغتون لبدء دراستي الجامعية وحياتي الجديدة، اتخذت قراراً مهماً يقضي بعدم ذكر أختي فيرن نهائياً ومطلقاً لأي شخص. وأثناء أيام الجامعة تلك، لم أذكرها قط، ولم أفكر فيها سوى نادراً. وعندما كان أحد ما يسألني عن عائلتي كنت أقرّ بوجود والدين متزوجين حتى الآن، وأخّ وحيد يسافر كثيراً. كان عدم ذكر فيرن قراراً في البداية، ثم تحول إلى عادة يصعب كسرها، وما زال الأمر مؤلماً حتى الآن. وها قد أصبحنا في العام 2012... ورغم ذلك لا أستطيع تحمّل ذكرها من قبل أي شخص آخر. لا بدّ لي من الخوض في ذكراها بهدوء لأتحرر من كل ذلك الألم... لا بد لي من اختيار اللحظة المناسبة لي وحدي لفعل ذلك.

ورغم أنني لم أكن أتجاوز الخامسة من عمري لدى اختفائها من حياتي، إلا أنني أذكرها حقاً وبوضوح. أذكر رائحتها ولمسة يدها، وأحتفظ في ذهني بصور مبعثرة لوجهها وأذنيها وذقنها وعينيها وذراعيها وقدميها وأصابعها. ولكنني لا أذكرها كاملة، لا أذكرها كما يفعل لويل.

لويل هو اسم أخي الحقيقي. فقد التقى والدانا في مرصد لويل في أريزونا أثناء قضائهما وقتهما في معسكر صيفي علمي عندما كانا في المدرسة الثانوية. واعتاد والدي دوماً أن يقول:

«لقد ذهبت إلى هناك لأشاهد نجوم السماء، لكن النجوم كانت محتشدة في عينيها». وهي الجملة التي كانت تبهجني وتحرجني عادة في الوقت ذاته وبالدرجة نفسها... لقد كانا مراهقين شابين ومغرمين بالعلوم وغارقين في الحب.

كنتُ سأفكر بطريقة أفضل الآن لو شعرت بالغضب حيال اختفاء فيرن كما فعل لويل، لكنني شعرت بأن الغضب من والديّ خطير جداً، فشعرت بالخوف بدلاً من ذلك. كما شعر جزء مني بالراحة الممزوجة بالقوة والخزي في الوقت نفسه؛ لأنني كنت الطفلة التي احتفظا بها لا تلك التي تخليا عنها. كلما تذكرت ذلك حاولت أن أذكر نفسي بأنني كنت في الخامسة فقط. أود أن أكون عادلة هنا حتى مع نفسي... من الجيد أن أتمكن من الغفران رغم أنني لم أبلغه بعد،

ولست متأكدة من أنني سأغفر في يوم من الأيام، بل لست متأكدة من أنه ينبغي لي أن أغفر.

الأسابيع التي قضيتها برفقة جدّيّ في إنديانابوليس كانت فاصلة إلى أقصى حدّ في حياتي... كانت نهر روبيكون الخاص بي... فقبلها كانت لديّ أخت، وبعدها لم تعد لديّ أخت.

قبلها، كان والداي يشعران بالسعادة كلما تكلمتُ أكثر، أما بعدها فقد انضما إلى بقية سكان العالم الذين كانوا يطلبون مني التوقف عن الكلام. وفي النهاية، أصابني الصمت الدائم (لم أكن أصمت لفترة قصيرة، ولا لأنه كان يُطلب مني الصمت).

قبل تلك الأسابيع كان أخي جزءاً من العائلة، وبعدها تحوّل إلى شخص يقضي وقته كيفما اتفق إلى أن تمكن من التخلص منّا.

ضاعت معظم الأحداث التي حصلت قبل تلك الأسابيع من ذاكرتي، أو اختفت لأنني تخلصت منها متعمدة، وتقلصت إلى حدودها الصغرى الأساسية؛ كما نفعل عندما نروي الحكايات الخيالية باختصار. كان يا ما كان... يُحكى أنه كان هناك بيت فيه حديقة تحتوي على شجرة تفاح كبيرة، وجدول صغير، وقطة ذات عينين فضيتين بلون ضياء القمر. وبعد مضي عدة شهور، بدا لي أنني بدأت أتذكر الكثير من التفاصيل، لكن معظم ما كنت أتذكره كان معجوناً بالشك وأقل وضوحاً في كل مرة. اختر لي أي ذكرى من طفولتي المبكرة، وسأستطيع الجزم فوراً إذا كانت قد حصلت عندما كانت أختي فيرن لا تزال معنا أو حدثت بعد رحيلها. أنا قادرة على القيام بذلك لأنني أذكر أي فتاة كانت موجودة؛ أنا التي كنت أحظى بفيرن، أم أنا التي فقدت أختها... إنهما فتاتان مختلفتان كلياً.

ومع ذلك، هناك أسباب تدعو للشك. فقد كنت في الخامسة فقط، فكيف لي أن أذكر كما أعتقد أنني أفعل؟ وكيف لي أن أتمكن من تذكر الكثير من الأحاديث، أو أغنية محددة كانت تصدح عبر المذياع، أو الملابس التي كنت أرتديها؟ لماذا أذكر الكثير من الأحداث من وجهات نظر مستحيلة؟ فعلى سبيل المثال، لماذا أذكر الكثير من الأمور التي أراها من الأعلى؟ وكأنني كنت فوق حامل الستائر وأنظر إلى أهلي من الأعلى! ولماذا أذكر حادثة محددة بكل ذلك الوضوح والحيوية وكأنني أراها أمامي وأسمع أصواتها الحقيقية بأذنيّ، ومع ذلك أثق من أعماق قلبي بأنها لم تحدث حقاً؟ ضعوا إشارة على هذه الفكرة... فسنعود إليها لاحقاً.

أذكر أنه كان يُطلَب مني أن أسكت باستمرار، لكنني لا أذكر سوى نادراً ما كنت أقوله في ذلك الوقت. وبينما أنا أسرد عليكم تلك الأحداث، من الممكن أن تعطيكم هذه الفجوة في ذاكرتي انطباعاً خاطئاً بأنني لم أكن أثرثر بلا توقف كما أقول. لذا، افترضوا رجاءً أنني أثرثر بلا توقف خلال كل الأحداث التي سأرويها، إلى أن أخبركم بأنني لم أكن أثرثر.

ومن جهة أخرى، صمتَ والداي تماماً، فقضيت ما بقي من طفولتي وأنا غارقة في ذلك الصمت الغريب. لم يتحدثا ولا مرة واحدة عن ذلك الوقت الذي اضطرا فيه إلى قيادة السيارة نصف الطريق عائدين إلى إنديانابوليس لأنني نسيت ألعابي القماشية المحشوة والحبيبة إلى قلبي في مطعم تابع لمحطة وقود؛ رغم أنهما يتحدثان غالباً عن صديقتنا مارغوري ويفر التي نسيت حماتها في المكان ذاته. إنها قصة أفضل من قصتي. أتفق معكم على ذلك.

عرفتُ من جدتي فريديريكا – وليس من والدَي – أنني ضللت طريقي في إحدى المرات لفترة طويلة؛ مما دفع والدَيّ لإبلاغ الشرطة، فتبيّن لهم أنني تبعت شخصاً متنكراً بملابس جميلة بعد خروجه من أحد المجمعات التجارية ودخوله متجراً لبيع التبغ حيث اشترى سيجاراً. وحين لاحظ الرجل وجودي أشار لي بمرح وهذا كل شيء. ولهذا، كان استدعاء الشرطة مكافأة إضافية لما كان بالفعل يوماً رائعاً بالنسبة إلي بحق.

عرفتُ من الجدة دونا وليس من والدَيَّ أيضاً أنني في إحدى المرات وضعتُ فلساً معدنياً في عجينة كعكة على سبيل المفاجأة، وكان من نصيب إحدى الطالبات التي أخرجته من بين أسنانها. ظنّ الجميع حينها أن فيرن هي التي قامت بذلك، إلى أن اعترفتُ بفعلتي بجسارة شديدة وصدق غير متناهٍ. ولا حاجة إلى ذكر الكرم الذي كنت أتمتع به؛ لأن ذاك الفلس كان من مالي الخاص.

ولهذا، من يدري مقدار اللهو والمرح اللذين كانت ذكرياتي حافلة بهما في ظل عدم وجود من يعززها ويستعيدها ليذكرني بها؟ وإذا أخرجنا من الحسبان السخرية المهينة التي كانت تحيط بي في المدرسة، فإن الوحيدين اللذين كانا يتحدثان عن فيرن كثيراً هما الجدة دونا (إلى أن حتّتها والدتي على التوقف عن ذلك أيضاً) وأخي لويل (إلى أن غادرنا). كان من الواضح لي أن لكل منهما أهدافه الخاصة؛ مما قلل من ثقتي بكلامهما... حيث كانت الجدة دونا تريد إحاطة والدتي بدرع لحمايتها من اللوم؛ مهما كانت درجته قليلة، وكان لويل يحوّل قصصه وذكرياته إلى سكاكين.

يحكى أنه كانت توجد عائلة لديها ابنتان، وكان الأب والأم قد عاهداهما على أن يحباهما بالقدر نفسه، إلى الأبد.

# 2

في أغلب العائلات يوجد ابن مفضّل على إخوته. الأهل ينكرون تلك الحقيقة، وربما لا يلاحظونها، ولكنها تكون دوماً واضحة للأبناء. الجور والظلم يقصّان مضجع الأبناء إلى درجة لا يمكن وصفها؛ إذ من الصعب أن تأتي دوماً في المرتبة الثانية.

ومن الصعب أيضاً أن تكون الابن المفضّل؛ بجدارة أو بغير جدارة... فذلك عبء كبير.

كنتُ الابنة المفضلة لدى أمي، وكان لويل الابن المفضل لدى والدي. أما أنا فقد أحببتُ والدي بالقدر نفسه الذي أحببتُ به أمي، ولكنني أحببتُ لويل أكثر من الجميع. أما فيرن فكانت تحب أمي أكثر من أي شخص آخر في العالم، وأحب لويل فيرن أكثر مما أحبني.

عندما أستعرض تلك الحقائق في ذهني تبدو لي خالية من الأخطار؛ فهناك ما يكفي من الحب لكل فرد منّا، بل كان هناك الكثير من الحب يكفي لنشره حولنا.

# 3

الأشهر التي تلت عودتي من إنديانا بوليس هي الفترة التي غابت عن ذاكرتي أكثر من سواها. كانت والدتي خلال تلك الفترة كالطيف الرقيق وسريع الزوال؛ إذ لم تخرج من غرفتها سوى ليلاً في رداء نومها الناعم المطبوع بالأزهار، وذي العقدة المزعجة الشبيهة بالعقد التي تزين أثواب الأطفال فقط. وكانت قد توقّفت عن تسريح شعرها، فتشعث محيطاً بوجهها بشكل فوضوي؛ وكأنه دخان متصاعد من رأسها. كما كانت عيناها غائرتين جداً؛ إلى درجة أنهما كانتا توحيان بأنهما مصابتان بكدمتين. كانت تحاول أحياناً البدء بالكلام، فتحرك ذراعيها لتتكلم، وتخرسها بسرعة رؤيتها حركة ذراعيها في الهواء.

كانت بالكاد تأكل، ولم تكن تطهو أي شيء على أي حال، فاستلم والدي عنها ذلك الحمل، لكنه قام به مكرهاً. إذ كان يعود من الجامعة، فيبحث في الخزائن عن طعام سريع. أذكر الكثير من وجبات العشاء التي تألفت من البسكويت المالح المغطى بزبدة الفستق، أو من عبوات مرق الطماطم المخصصة للمبتدئين بالطهي، أو من عبوات أخرى من حساء الشاودر. كانت كل وجبة تناولناها في ذلك الوقت كصيحة حرب عدوانية ومجهولة المصدر في الوقت ذاته.

بدأت الجدة دونا بالحضور إلى منزلنا يومياً لمراقبتي، ولكن مراقبتي في بلومنغتون عام 1979 لم تكن تعني أنه لا يفترض بي أن أغيب عن ناظريها. إذ سُمِح لي بالتجوّل في أرجاء الحي، كما سُمِح لي من قبل بالتجوّل في المزرعة التي كنا نقطنها، إلاّ أنهم كانوا مضطرين إلى تحذيري من الشارع الآن بدلاً من الجدول. فكان عبور الشارع محرماً عليّ من دون مرافقة شخص كبير لي. لكنني كنت أخيفهم عادة إذا اضطر الأمر. وقد تعرفت إلى معظم الجيران عبر الإمساك بأيديهم لعبور الشارع وأنا أنظر إلى الاتجاهين. أذكر السيد بِشلر الذي سألني إن كنت أتدرب للاشتراك في أولمبياد الثرثرة، ثم قال إنني مرشحة للفوز بالميدالية الذهبية.

لم يكن هناك الكثير من الأطفال في الحي، ولم يكن هناك أحد قريب من سني. وكان لدى عائلة آندرسن التي تقيم على بعد مبنيين طفلة رضيعة اسمها إيلواز، وفتى في العاشرة من عمره اسمه واين، وشاب في المدرسة الثانوية يقطن في المبنى الذي يقع عند زاوية الشارع. لذا، لم يكن هناك أحد يمكنني اللعب معه.

وبدلاً من ذلك، وطدت علاقتي بالحيوانات الأليفة الموجودة في الحي. وكان حيواني المفضل هو كلبة آل بِشلر التي تحمل اسم سنيبِت، وهي كلبة سبانيال بيضاء ورمادية اللون لها منخر وردي، وكان أصحابها يبقونها مربوطة في

باحتهم؛ لأنها ستهرب في أول فرصة، وعلى الأغلب ستصدمها سيارة قبل أن يشعروا بهربها. قضيت الكثير من الساعات مع سنيبِت، وهي تمسح رأسها على قدميّ أو ساقيّ، وأذناها منتصبتان وهي تنصت إلى كل كلمة أتفوّه بها. وعندما أدرك آل بِشلر ما يجري، وضعوا كرسياً في الخارج من أجلي، وهو كرسي صغير اشترياه في الماضي عندما كان أحفادهما صغاراً، وكان الكرسي مزوداً بوسادة على المقعد على شكل قلب.

كما أمضيت الكثير من الوقت وحيدة، أو مع ماري (هل تذكرون ماري؟ إنها الصديقة الخيالية التي لم يرغب أحد بوجودها)؛ وهو الأمر الذي كنت أقوم به كثيراً من قبل، لم أكن أكترث.

كانت الجدة دونا تغيّر الملاءات وأغطية الأسرّة وتغسل الملابس المتسخة في غياب أبي فقط، إذ لم تكن تحتمل البقاء معه في غرفة واحدة. فإذا كان لويل قد غضب لأن فيرن فارقتنا؛ فارقت عائلتنا، فإن الجدة دونا كانت غاضبة دوماً لأن لا أحد سمح لها بأن تكون جزءاً منها. أنا واثقة من أنها ستنكر ذلك، وستقول إنها لطالما أحبت أختي فيرن، لكنني كنت أعرف الحقيقة؛ حتى عندما كنتُ في الخامسة من عمري. لقد سمعتُ الكثير عن ذكرى ميلادي الأولى؛ حين أفرغت فيرن حقيبة يد الجدة دونا، وأكلت الصورة الفوتوغرافية الأخيرة المتوفرة للجدّ دان. وهي صورة بتقنية البولارويد كانت الجدة تحتفظ بها في حقيبتها لتنظر إليها كلما شعرت بالحزن.

لو كانت هناك صورة أخرى لأكلتها أنا أيضاً على الأرجح كما قال لويل؛ لأنني كنت أقلد فيرن في كل شيء. وقال لويل إن والدي يعتقد أن الجدة دونا تركت حقيبتها المنتفخة وكأنها مليئة بأغراض سامة متعمدة في متناول يد فيرن، وليس في متناول يدي أنا.

خطّط والدي منذ البداية لتسميتي أنا وأختي فيرن تيمناً بجدتينا؛ لتحمل واحدة منا اسم دونا والأخرى اسم فريديريكا، ورمى عملة معدنية في الهواء ليترك للحظ مهمة اختيار اسم كل منا. لكنّ كلاً من الجدتين أصرت على أن أحمل أنا اسمها، فشعر والدي بالانزعاج عندما تحول الأمر إلى جدل عقيم بينهما؛ لأنه أراد أن يكون الأمر لفتةً جميلة منه فقط. وقد توقع ذلك السلوك من الجدة دونا ربما، ولكنه لم يتوقعه من والدته. في تلك اللحظة، كانت هناك فجوة على وشك الحدوث... شرخٌ ما في نسيج الزمان والمكان في عائلة كوك، وقد تدخلت والدتي في الوقت المناسب لمنع وقوعه، واقترحت أن أسمى أنا روزماري، وأن تحمل أختي اسم فيرن؛ فهي الأم، وهذا ما تريده. لم أعلم بشأن ذلك المخطط إلا عندما أشارت إليه الجدة دونا خلال مناقشة حامية الوطيس كمثال على غرابة أطوار والدي.

شخصياً، أنا سعيدة لأن الأمر لم يجرِ بالطريقة التي خططوا لها؛ وذلك لأن اسم دونا يوحي بأنه اسم جدة. وفريديريكا؟ إنه اسم زهرة أخرى إذا أردتم، ولكنني لا أستطيع أن أصدق أنني لن أدفع طوال عمري ضريبة تسميتي

باسمها لو تمّ ذلك... أعتقد أن تسميتي باسمها كانت ستذهب بعقلي (ولا يعني هذا أنني لم أفقده بالفعل).

وهكذا، كانت الجدة دونا تنظف المطبخ، وتخرج بعض الأطباق من الصناديق أو بعضاً من ملابسي إذا كانت نشيطة؛ لأننا فهمنا جميعاً أن أحداً لن يفكر في فتح تلك الصناديق. كانت تعدّ لي طعام الغداء، ثم تحضّر طعاماً خفيفاً خاصاً بالمرضى مثل البيض المسلوق وتأخذه إلى غرفة نوم والدتي، حيث تُجلس والدتي على أحد الكراسي لتتمكن من تغيير الملاءة والأغطية، وتخلع عنها ملابس النوم لتغسلها، وتتوسل إلى أمي كي تأكل. أحياناً، كانت الجدة دونا تفيض بالعاطفة، وتستغرق في الكلام في أحاديثها المفضلة لفترات طويلة كجرعات من دواء مُطهّر؛ فتقص تفاصيل كثيرة حول صحة أشخاص لم تلتقِهم، وتخوض في مشاكل حياتهم الزوجية. وكانت مولعة على الأخص بالحديث عن الموتى. إذ كانت قارئة نهمة للمذكرات التاريخية، وكانت لعائلة تيودور – التي كانت تعتبر الخلافات الزوجية نشاطاً مفرطاً – مكانة خاصة لديها.

وعندما لم تفلح تلك الطريقة، اتّبعت معها أسلوب التحريض. إذ كان من الخطيئة بمكان ترك يوم جميل يضيع سدى؛ كما كانت تقول لها حتى عندما لم يكن النهار جميلاً. أو كانت تقول لأمي: أولادك يحتاجون إليك، أو إنه كان من المفترض أن ألتحق بروضة للصغار منذ عام مضى كي أكون في روضة ما قبل المدرسة الآن (لم أذهب إلى الروضة لأن فيرن لم تكن تستطيع ذلك، ولا ماري... كلتاهما)، أو إن لويل يحتاج إلى من يوقفه عند حده؛ فقد كان في الحادية عشرة فقط حباً بالله، ولا يجب أن يُسمح له بالتحكم في المنزل.

قادت سيارتها مرة إلى منزل ماركو وفي نيتها إجبار لويل على العودة إلى المنزل، ولكنها عادت وهي تجر أذيال الهزيمة، ووجهها محتقن كالخوخ الأحمر. إذ كان الصبيّان خارج المنزل على دراجتيهما، ولا أحد يعرف مكانهما، وقالت والدة ماركو إن أبي شكرها على استضافتها لويل، وإنها سترسله إلى البيت عندما يطلب والدي منها ذلك. وكانت والدة ماركو تسمح للولدين بأن يهيما على وجهيهما بحرّية كما أخبرت الجدة دونا والدتي، وقالت إنها امرأة قليلة التهذيب.

كانت جدتي تغادر منزلنا دوماً قبل موعد عودة والدي من العمل. وطلبت مني أحياناً ألا أخبره بأنها كانت عندنا؛ لأن المؤامرات كانت تسير في دمها، مدسوسة داخل مورثاتها بلطف، كما نضيف بياض البيض المخفوق إلى المكونات لصنع كعكة. لكن والدي كان يعرف بوجودها بالطبع. وإلا... فهل كان سيتركني وحدي في المنزل؟! كان يعيد الطعام الذي أعدّته جدتي وتركته في غرفة نوم أمي إلى الطابق الأسفل ويرميه في سلة القمامة، ثم يحضر لنفسه زجاجة شراب، ثم أخرى، ثم أخرى... ويبدأ باحتساء الشراب الاسكتلندي، ويضع القليل من زبدة الفستق على قطعة بسكويت ويقدّمها لي.

كنت أسمع خلال الليل أصوات الشجارات التي كانت تصل إلى غرفتي، وأسمع بالكاد صوت أمي الضعيف (وربما لم تكن تتكلم على الإطلاق)، وهذيان والدي بسبب إكثاره من الشراب (وهذا ما عرفته بعد أن كبرت). كان والدي يقول: أنتم جميعاً تلومونني... أولادي الملاعين أنفسهم... وزوجتي الملعونة أيضاً... ما هي الخيارات الأخرى التي كانت لدينا؟ أنا حزين مثلكم جميعاً.

وفي النهاية، عندما عاد لويل إلى البيت أخيراً، وصعد إلى غرفتي تحت جنح الظلام من دون أن يشعر به أحد وأيقظني قائلاً:

«إن...»

فتى في الحادية عشرة من عمره يقول هذه الكلمة لفتاة في الخامسة، ثمّ ضربني على أعلى ذراعي لكي يحول كمّ القميص دون ظهور كدمة على ذراعي من جراء الضربة، ثم استأنف كلامه قائلاً:

«ليتك تبقين فمك مغلقاً لمرة واحدة في حياتك».

لم أشعر طوال حياتي – لا قبل تلك الحادثة ولا بعدها – بالفرح لدى رؤيتي شخصاً ما كما شعرت في تلك اللحظة.

# 4

نشأت عندي «فوبيا» من الباب المغلق المجاور لغرفة نوم والديّ. ففي عمق الليل، كنت أسمعه... وهو يخفق داخل إطاره؛ وكأنه قلب إنسان على قيد الحياة. وكلما كان لويل يسمح لي، كنت أقضي الوقت في غرفته في أبعد مكان ممكن عن ذلك الباب.

كان لويل يشعر بالأسف على حالي في بعض الأحيان، ويبدو عليه أنه خائف مثلي تماماً. فقد حمل كلانا عبء اختفاء فيرن الثقيل وانهيار أمّنا. وبين الحين والآخر، ولفترات قصيرة، كنّا نتحمله معاً. كان لويل يقرأ لي قصة، أو يتركني أهذر وأثرثر وحدي بينما يلعب هو ألعاب الورق المعقدة التي تحتاج إلى مجموعتين أو ثلاث مجموعات من أوراق اللعب لإتمامها، وكان من المستحيل تقريباً الفوز بها. ولو استطاع أحد ما أن يفوز بلعبة منها لما تكبّد لويل ذلك العذاب.

في بعض الأحيان، إذا لم يكن مستيقظاً تماماً، كان يسمح لي بالصعود إلى سريره بعد هبوط الظلام لأهرب من صراخ والدي. وفي أحيان أخرى، كان يتذكر جنونه فيرسلني إلى غرفتي في الطابق الأعلى مكسورة الجناح بعد أن يكيل لي بضع لكمات صامتة. كان الانتقال بين الأسرّة تقليداً راسخاً في بيتنا، إذ نادراً ما طلع الصبح علينا أنا وفيرن ونحن في المكان نفسه الذي نمنا فيه مساء. شعر والدانا بأن ذلك طبيعي، وأن جميع الثدييات تميل إلى النوم بجانب بعضها. ورغم أنهما كانا يفضلان أن نبقى في سريرينا لأننا كنّا نرفس بعضنا ونضرب بعضنا بعضاً، إلا أنهما لم يصرّا على بقائنا فيهما.

بينما كان لويل ينام قرير العين، كنت أهدئ نفسي بتمرير أصابعي في خصلات شعره، وكنت أحب أن ألتقط بعضاً من شعره بين إصبعيَّ بعد أن أجعلهما كالمقص وأتحسس أطرافه المدببة والخشنة بإبهامي. كان لويل يقص شعره على طراز لوك سكايووكر، لكنّ لونه كان أشقر مثل هان سولو بطل فيلم حرب النجوم. لم أكن قد شاهدت الفيلم في ذلك الوقت بالطبع؛ لأنني كنت صغيرة جداً على مشاهدة ذلك النوع من الأفلام، ولأن فيرن لم تكن ستتمكن من الذهاب. لكننا حصلنا على البطاقات الدعائية الخاصة بالفيلم، وعرفت منها بشأن ذلك الشعر.

أما لويل الذي شاهده عدة مرات فقد كان يمثل لنا مشاهد كاملة منه. وكانت شخصية لوك هي المفضلة لدي؛ إذ كان يقول: أنا لوك سكايووكر، أنا هنا لإنقاذكِ. لكن فيرن التي كانت رفيعة الذوق في الاختيار أكثر مني كانت تفضِّل شخصية هان الذي كان يقول: اضحكوا من قلوبكم يا كرات الفرو.

إن عدم معاملة الأبناء بعدل يضايقهم كثيراً. ذهبت كل حماستي أدراج الرياح عندما تمكنت أخيراً من مشاهدة فيلم حرب النجوم؛ لأنني منيت بخيبة الأمل بعد أن شاهدت لوك وهان وهما يحوزان على ميدالية في النهاية، بينما خرج شوباكا وهو يجر أذيال الخيبة. لقد غيّر لويل ذلك المشهد عندما كان يرويه على مسامعنا ولهذا صدمتني حقيقة الفيلم.

كانت رائحة خشب الأرز الرطب تخيم على غرفة لويل، منبعثة من القفص الذي تعيش فيه ثلاثة فئران سرقها من مخبر والدي. وكانت الفئران تئن وتسقسق وهي تجري بلا نهاية داخل العجلة المخصصة لها في القفص طوال الليل. عندما أتأمل أحداث الماضي، أرى أنه كان هناك شيء غريب لا يمكن فهمه في الطريقة التي تتحول بها فئران المخبر إلى حيوانات أليفة؛ لها أسماء تدليل وامتيازات ومواعيد لدى الطبيب البيطري خلال عصر يوم واحد. يا لها من قصة سندريلا فاتنة! لكنني لم ألاحظ ذلك سوى لاحقاً. ففي ذلك الوقت، لم يمثّل لي هيرمان ومونستر وتشارلي تشيدار وتيمبلتون سوى فئران أخرى، لم تكن بالنسبة إليّ سوى نفسها.

كانت الرائحة تفوح من لويل أيضاً، لم تكن تفوح بقوة ولكنها كانت حادة بالنسبة إليّ لأن رائحته تغيرت. في ذلك الوقت، ظننت أن تبدل الرائحة يعود إلى جنونه الطارئ، وظننت أنها رائحة الغضب، ولكنه كان ينمو بالطبع ويفقد حلاوة براءة الطفولة ويتعرق أثناء نومه.

في معظم الأيام، كان يغادر المنزل قبل أن يستيقظ أي منا، ولم نعرف بذلك فور بدئه بالقيام به. ولكننا كنا نتناول الفطور مع عائلة بايارس. إذ كانت عائلة بايارس مؤلفة من زوجين ليس لديهما أطفال، وهما زوجان متدينان يعيشان في المنزل المقابل لنا عبر الشارع. كان نظر السيد بايارس ضعيفاً، لذا كان لويل يقرأ له صفحة الرياضة في الصحيفة بصوت عالٍ، بينما تقوم السيدة بايارس بقلي البيض واللحم المقدد. وحسب قول السيدة بايارس، كان لويل لطيفاً جداً ومحبوباً ومرحباً به دوماً في بيتهما.

كانت السيدة بايارس تعرف بعض الأشياء عن وضعنا العائلي، مثلما كان معظم سكان بلومنغتون؛ رغم أن أحداً منهم لم يفهم تماماً حقيقة الأمر. وقد قالت لي في إحدى المرات التي ظهرت فيها فجأة عند باب بيتنا صباحاً وهي تحمل علبة تحتوي على بسكويت برقائق الشوكولاتة وبدت خيالية بسبب نور شمس الخريف التي كانت تشع خلفها:

«أنا أدعو وأتضرع دوماً من أجلكم. تمسّكي بإيمانك دوماً، فهو الذي سيعينكِ على الخروج سالمة من عين العاصفة».

ربّاه، سيظن الناس أن فيرن قد ماتت؛ هذا ما قالته جدتي دونا. وربما هذا ما فكرتم فيه أنتم أيضاً؛ فربما ظننتم أنني لم أفهم سبب غيابها باعتبار أنني

كنت في الخامسة من العمر حينها، بينما فهم الجميع أنها ماتت.

لا يمكنني سوى الافتراض بأن والديَّ قد فسّرا لي سبب اختفاء أختي أكثر من مرة على الأرجح، وأنني قمعتُ تلك الحقيقة في داخلي وكبتُّها، لكن الحقيقة بكل بساطة وبشكل لا يصدق على حد سواء هي أنهما لم ينطقا بحرف في ما يخص الموضوع. لكنني أذكر بشكل واضح أنني كنت أستيقظ كل صباح، وأذهب للنوم كل ليلة وأنا أشعر بفزع غير واضح المعالم، ولم يجعلني جهلي بمصدر خوفي أقل فزعاً؛ وهذا أمر مثير للجدل بحد ذاته.

بكل الأحوال، لم تمت فيرن، وما زالت على قيد الحياة حتى هذه اللحظة.

بدأ لويل بمقابلة مستشار، فتحوّل هذا الأمر إلى موضوع جديد في مونولوج والدي الليلي. كان مستشار لويل يقترح شيئاً؛ هذراً عائلياً من نوع ما، كاقتراح جلسة تجمعه مع الوالدين ليكونوا وحدهم، أو اقتراح القيام ببعض تمارين التأمل أو التنويم المغناطيسي، فينفجر والدي في وجهه ويقول له إن التحليل النفسي فرع علمي مزيف وكاذب تماماً، ولا يصلح سوى لكي يكون نظرية أدبية، وربما يكون مفيداً عند التخطيط لتأليف الروايات؛ ليتمكن الكاتب من تخيل حياة شخص تخيّم عليها صدمة نفسية، وربما كان مفيداً لترميم ذاكرة شخص لا يمكنه تذكر حياته نفسها. ولكن، أين وصلت تلك الدراسات ومجموعات السيطرة على العقول؟ أين المعلومات التي تم استخراجها من أدمغة الناس؟

وفقاً لأقوال والدي، إن التحليل النفسي لم يكتسب اسماً علمياً إلا بعد ترجمته إلى اللغة الإنكليزية ذات المصطلحات العلمية اللاتينية. أما في لغة مخترعه الألمانية، فقد كانت تسميته متواضعة جداً (يجب أن تتخيل والدي وهو يصرخ متفوهاً بكل ما سبق. كان من الاعتيادي جداً في البيت الذي نشأت فيه أن أسمع أثناء نوبة غضب مصطلحات مثل: اللاتينية الفصحى، اصطلاح علمي، نحت لغوي).

ورغم كل ذلك، كانت فكرة زيارة المستشار أحد اقتراحات والدي. فمثل أي شخص آخر لديه أبناء مضطربون، لقد شعر بالحاجة الضرورية لفعل أي شيء. وكما هو حال الأهالي ذوي الأبناء المضطربين، كان المستشار هو الحل الوحيد الذي استطاعوا التفكير فيه.

أما بالنسبة إليّ فقد عيّن لي جليسة أطفال اسمها مليسا، وهي طالبة جامعية تضع نظارة طبية، عدستاها شبيهتان بعيني البوم، وهناك سلاسل زرقاء لامعة كالبرق على شعرها. في الأسبوع الأول من توظيفها، ذهبت للنوم في اللحظة التي وصلت فيها إلى البيت، ونهضت صباحاً عندما غادرت. لقد كنتُ الطفلة التي تحلم بها كل جليسات الأطفال، لنعترف بذلك.

لقد كان سلوكي الهادئ ذاك مكتسباً. فقد كنت في الرابعة من عمري عندما وضعت جليسة أطفال اسمها رايتشل كمية من حبوب الذرة في فمي، وقالت لي إن الحبوب ستتحِول إلِى بوشار إذا أغلقت فمي ولم أتكلم لفترة

كافية، وقد بدا لي هذا هدفاً رائعاً، فبقيت صامتة قدر الإمكان، لكنني منيت بالفشل الذريع إلى أن أخبرني لويل أن ذلك يستحيل حدوثه. وقد أفقدتني تلك التجربة الثقة بجليسات الأطفال.

مع مرور الوقت، راقت لي ميليسا عندما اعتدتُ عليها، وقد كان هذا من حسن حظي. فقد وضعت خطة لإصلاح شأن عائلتي من دون أن أملك أي وسيلة للقيام بذلك سوى الشيء الوحيد والثمين الذي كنت أملكه؛ ألا وهو ثرثرتي. ولم أكن أستطيع تحقيق تلك الخطة وحدي. حاولت أن أشرح لميليسا الألاعيب التي كان يفترض بي أن أطبقها على والديّ، والاختبارات التي كان يفترض بي خوضها ولكنها لم تفهم قصدي قطّ.

ثمّ توصلنا إلى تسوية؛ عليها أن تعلمني كلمة جديدة من القاموس في كل مرة تأتي فيها إلينا، وكان الشرط الوحيد هو أن تكون الكلمة قليلة الاستعمال ومهملة إلى درجة أنها لا تعرفها هي أيضاً. لم أكن أكترث بمعنى الكلمة، وقد وفّر لي ذلك الكثير من الوقت والعناء. وفي المقابل، كنت مجبرة على الصمت بشكل تام لمدة ساعة كاملة، وقد كانت تستعين بمؤقت الفرن لتتأكد من قيامي بذلك؛ مما دفعني عموماً إلى سؤالها كل بضع دقائق عن موعد انتهاء الساعة المتفق عليها. كانت الأمور التي أرغب في التعبير عنها تتراكم في صدري إلى أن أشعر بأنني اقتربت من حافة الانفجار.

كان والدي يسألني لدى عودته من العمل: «كيف كان نهاركِ يا روزي؟». وكنت أجيبه بأن نهاري كان حماسياً أو حافلاً؛ مستعملة الكلمات المهملة في القاموس والتي لا يستعملها أحد، فلم يكن يكترث بمعارفي تلك، وكان يقول: «هذا جيد».

لم أكن أقصد بكلماتي تلك أن أخبره أي شيء. ومن الواضح أنه لم تكن هناك حاجة لكي أقول أي كلمات مترابطة في سياق واحد.

كنت بجلاء أحاول أن أبلغه أنني على الأقل مستمرة في القيام بالمهمة التي كنا نقوم بها معاً.

في عصر أحد الأيام، حضرت جدتي دونا إلى منزلنا وأجبرت أمي على الخروج برفقتها لتناول القهوة والتسوق قليلاً. انقضى فصل الصيف واقترب فصل الخريف من نهايته، وكان يفترض بميليسا أن تراقبني، ولكنها كانت تشاهد التلفاز بدلاً من ذلك.

في ذلك الوقت، كانت ميليسا قد تحولت إلى جزء لا يتجزأ من أركان بيتنا، وكانت تشاهد التلفاز عصر كل يوم؛ رغم أن مشاهدة التلفاز في النهار لم تكن مباحة، وكان يفترض بالأطفال في بيتنا أن يُسلّوا أنفسهم بأنفسهم من دون مساعدة من أحد.

كانت ميليسا تتابع مسلسلاً مختلفاً عن المسلسل الذي يتابعه جداي؛ إذ لم يكن مسلسلها يحتوي على كارين ولا لاري، بل كان يدور حول بِن وآماندا ولوسيل وآلان. وإذا كان مسلسل جدّيّ مفعماً بالإيماءات والإيحاءات الجنسية

فإن هذا المسلسل كان سلسلة متواصلة من العربدة الكاملة. وقد سمحت لي ميليسا بمتابعته معها لأنها ظنت أنني لن أفهم منه شيئاً، ولم أفهم منه شيئاً بالفعل؛ ولهذا لم أكن أرغب في مشاهدته، وقد اختلفنا حول المدة الزمنية التي كان يفترض بي أن أبقى خلالها صامتة أثناء عرض المسلسل.

كانت ميليسا على وشك تجاوز الحدّ المقبول، فقد علمتني كلمة ثم طلبت مني أن أعدها بألا أتفوه بها أمام والديَّ. وكانت الكلمة هي *ithyphallic* (عضو الذكورة). ولو وردت تلك الكلمة بعد مرور سنوات من ذلك اليوم في إحدى المسابقات التلفزيونية لعرفتها وفزت، ولكن لا وجود لمثل ذلك الحظ؛ فهي ليست كلمة مفيدة على الإطلاق.

واسألوا أخي لويل عن مدى وفائي بعهودي... في اللحظة التي رأيت فيها أبي، أخبرته على الفور بأن نهاري كان *ithyphallic* بدلاً من أن أقول له الكلمة التي أوصتني بها ميليسا وهي: غرفة المرايا المرعبة *psychomanteum*. لست متأكدة حتى هذه اللحظة من تأثير الكلمة التي قلتها في القرار الذي اتخذه والدي بضرورة الاستغناء عن خدمات ميليسا نهائياً.

بكل الأحوال، أخبرتُ لويل بالكلمة الممنوعة قبل والدي. إذ كان يفترض به أن يكون في المدرسة، ولكنه عاد مبكراً في ذلك اليوم، وتسلسل من الباب الخلفي، وأشار لي من بعيد لألحق به إلى الخارج، وقد فعلت ذلك رغم أنني لم أتقيد بالهدوء الذي طلبه مني. لم يهتم لويل بكلماتي الجديدة، وكان يتعامل معها بنفاد صبر.

كان أحد أبناء جيراننا يتكئ على سيارة والدتي الداتسن الزرقاء، وهو الفتى الذي يقطن في البيت الأبيض الكبير، إنه راسل توبمان، أضخم فتى في المدرسة. كان في لحظة خروجي يستند إلى السيارة، ويشعل لفافة تبغ غريبة الشكل، ثم تنشقها. لم أعتقد أنني سأشاهد راسل توبمان في زقاقنا، فسحرتني وقفته تلك وسلبت عقلي، وشعرت بأنني وقعت في الحب في تلك اللحظة.

رفع لويل يده وحركها في الهواء فخشخشت المفاتيح في يده، فسأله راسل وهو يشير إليّ بعينيه:

«هل تثق بها؟».

فأجابه لويل: «إننا بحاجة إليها». وهكذا، طلبا مني أن أجلس على المقعد الخلفي للسيارة، ثم قام لويل بشدّ حزام الأمان حولي، وهو الأمر الذي كان يحرص عليه حتى عندما لم يكن راسل من يقود السيارة. وقد علمت في ما بعد أن راسل لم يكن قد حصل على رخصة القيادة بعد في ذلك اليوم، بل كان قد حضر دروس القيادة فقط، ويعرف كيفية القيادة. ولا أذكر أنني شعرت بذرة من الخوف أثناء قيادته للسيارة، ولم أكترث لحظة بالجدل والشجار والجلبة التي سيثيرها ذلك في ما بعد.

قال لويل إننا ذاهبون في مغامرة سرية تجسّسية. وقد سمحا لي باصطحاب ماري؛ لأن ماري تعرف كيف تسكت وتحتفظ بالأسرار لنفسها؛ مما يجعلها قدوة حسنة لنا جميعاً. شعرت بالسعادة الغامرة، فقد منحاني شرف مرافقتهما. وعندما أفكر الآن بما جرى في ذلك اليوم، أدرك أن لويل كان في الحادية عشرة من عمره فقط، بينما كان لويل في السادسة عشرة، وأن الفرق في السن بينهما كان كبيراً جداً؛ لكنني في تلك اللحظات كنت أراهما على القدر نفسه من السحر والفتنة.

في تلك الفترة، كنت أتمنى من كل قلبي الخروج من المنزل. فقد راودني كابوس أقضّ مضجعي؛ إذ سمعت شخصاً يطرق على باب غرفة أبويّ من الداخل، وقد بدأ الطرق على شكل لحن ناعم يشبه الرقص بانتعال أحذية ذات كعوب عالية، ثم راحت الطرقات تشتد واحدة تلو الأخرى إلى أن باتت لا تطاق، وشعرت بأن طبلتَي أذنيّ على وشك الانفجار. استيقظت خائفة، ووجدت فراشي مبتلاً فاضطررت إلى إيقاظ لويل، وطلبت منه مساعدتي على تغيير ملابسي وتبديل ملاءات السرير.

غيّر راسل محطة المذياع في سيارة أمي إلى محطة الطلاب الرائجة، فاستمعنا إلى أغنية لا أعرفها، لكن عدم معرفتي بالأغنية لم يمنعني من الغناء وحدي على المقعد الخلفي؛ إلى أن قال لويل إن غنائي مزق أعصابه شر تمزيق.

اذهب إلى الجحيم... همست بذلك عدة مرات كي لا يسمعني راسل، وسررت بتحريك لساني داخل فمي وأنا أردد جملتي بصمت.

لم أكن قادرة على مشاهدة المنظر من النافذة الأمامية، وكل ما رأيته كان رأس راسل من الخلف وهو يرتطم بين الحين والآخر بمسند كرسي السائق. حاولت أن أجد طريقة تدفعه إلى الوقوع في غرامي، لكن شيئاً ما في قلبي كان يعرف أن الكلمات الصعبة التي حفظتها من القاموس ليست الطريق إلى قلبه، غير أنني لم أكن أعرف أي شيء آخر.

استمعنا إلى المزيد من الأغاني عبر المذياع، وأنصتنا أيضاً إلى إعلان عن أغنية جديدة ستذاع قريباً لأول مرة، ثم سمعنا متصلاً أراد التحدث عن أستاذ جامعي أجبر كل طلابه على قراءة قصة دراكولا؛ بمن فيهم المتدينون الذين يعتبرون أن مثل ذلك الموضوع يعرض أرواحهم للخطر. (دعونا نتوقف هنا قليلاً لنتخيل كيف يمكن لشخص يعيش في العام 1979 ويشعر بأن مصاصي الدماء يستغلونه ويعتدون عليه أن يشعر لو كان يعيش في عالم اليوم. والآن، دعونا نعود إلى قصتنا).

اتصل آخرون، وكان معظمهم معجبين بالرواية، بينما لم تناسب البعض الآخر من القراء. لكن أحداً لم يكن يحب الأساتذة الذين يفرضون عليك ما تقرأه.

تأرجحت السيارة قبل أن تتوقف، وسمعت صوت الحصى تحت عجلاتها. عرفت على الفور رأس شجرة التوليب الفاتنة والمجاورة لشارع بيت المزرعة الذي كنا نسكنه، وكانت أوراقها الذهبية تطفو في السماء الزرقاء المائلة إلى البياض. ترجل لويل من السيارة ليفتح البوابة ثم عاد.

لم أكن أعرف وجهتنا عندما انطلقنا ولهذا أصابني الوجل. ورغم أن أحداً لم يخبرني أي شيء – باعتبار أن أحداً لم يكن يقول شيئاً – فقد افترضت أن فيرن بقيت في البيت القديم لتعيش مع الطلاب الباحثين تحت إشراف والدي. تصوّرت أن حياتها تسير بالطريقة نفسها التي كانت تسير بها من قبل – ربما كانت أقل اضطراباً من حياتي – وتصوّرت أنها تفتقد أمي بالطبع (ألم نكن جميعاً نفتقدها؟!). لكنني تصوّرت أن والدي يزورها يومياً ليشرف على الأبحاث، ويسألها عن الألعاب التي يلعبونها. كنت أظن أنها ستحظى في ذكرى ميلادها التي سيحين ميعادها بعد شهرين بالكعكة المزينة بالورود التي كانت تعشقها مثلي تماماً (ولا أعرف إذا كانت لا تحبها في الحقيقة).

كل ما فكرت فيه هو أنه من المحزن عدم السماح لها برؤية أمي، ولم أكن أرغب في أن أكون مكانها؛ لكن الأمر لم يكن محزناً جداً إلى تلك الدرجة في نظري. فالطلاب المتدربون تحت إشراف والدي كانوا لطفاء، ولم يصرخوا في وجوهنا مطلقاً؛ لأنهم كانوا ممنوعين من رفع أصواتهم في منزلنا. وكانوا يحبون فيرن، كانوا يحبونها أكثر مني. كنت أحيط أرجلهم بذراعيّ بشدة في بعض الأحيان، وأرفض تركهم للفت أنظارهم وحسب.

وها نحن الآن نتهادى على الطريق المؤدي إلى المنزل. كانت فيرن في ما مضى تسمع صوت السيارات القادمة إلى البيت قبلنا جميعاً، فتسرع قبلنا إلى النافذة لترى من القادم. لم أكن واثقة من رغبتي في رؤيتها، ولكنني كنت واثقة من أنها لا ترغب في لقائي فقلت لأخي:

«ماري لا تريد لقاء فيرن».

التفت لويل إلى الخلف باتجاهي وحدجني بنظرة حادة وقال:

«يا إلهي! هل تظنين أن فيرن ما زالت تعيش هنا؟ تباً لك يا روزي».

في ذلك الحين، لم يكن قد سبق لي أن سمعت أخي وهو يتفوه بتلك الكلمة. وعندما أتأمل الآن لحظات الماضي البعيد تلك، أعرف أنه كان يحاول إثارة إعجاب راسل لا أكثر. كانت كلمة تباً كلمة أخرى أستمتع بقولها بصمت... تباً، تباً، تباً... ثم قال لويل:

«لا تتصرفي كالأطفال... لا يوجد أحد هنا على الإطلاق. المنزل فارغ».

فأجبته فوراً وبطريقة غير شعورية: «لست طفلة». كنت أشعر في تلك اللحظة براحة غامرة، ولهذا لم يكن بمقدور أحد إهانتي بأي شكل. إذاً، لا وجود للقاء مفعم بالغضب والشجون بيني وبين أختي. راحت قمم الأشجار تمرّ فوق رؤوسنا كالسحب الذهبية، ومن تحتنا سمعتُ صوت الحصى المألوف تحت عجلات السيارة، تذكرت أنني كنت أجد قطعاً من الكوارتز على أرضية هذا

الدرب؛ صافية وكريستالية. وكما كان يحدث مع ورقة البرسيم الخضراء رباعية البتلات، كنت أعثر على تلك القطع بين الحين والآخر؛ مما كان يدفعني دائماً للبحث عنها. لم يكن لبيتنا الجديد درب خاص يؤدي إليه، ولهذا لم أعد أبحث عنها بعد انتقالنا.

توقفت السيارة، فترجلنا ومشينا حول زاوية المنزل إلى أن وصلنا إلى باب المطبخ، لكنه كان مقفلاً. كانت كل الأبواب والنوافذ مقفلة أيضاً؛ حتى نوافذ الطابق العلوي، ونوافذ الدرج التي وضعنا عليها قضباناً للأمان في السنة الأخيرة التي أمضيناها هنا، وقد تم قطع الطريق الذي يصل بين شجرة التفاح وغرف النوم قبل أن أصبح كبيرة بما فيه الكفاية لتسلقها.

كان أملنا الأخير هو مدخل الكلاب المفتوح والموجود في أسفل باب المطبخ. لا أذكر أننا اقتنينا كلباً في يوم من الأيام، لكن من الواضح أننا فعلنا ذلك في الماضي، وكان كلب صيد كبيراً؛ أنثى اسمها تامارا برس. ومن الواضح أنني وأختي قد أحببناها حباً جماً، ونمنا على ظهرها مراراً إلى أن ماتت بالسرطان قبل أن أبلغ الثانية من العمر. وعلى خلاف كل الأبواب المخصصة للكلاب، كانت مزاليج باب الكلب من الخارج.

فتح لويل الباب المخصص للكلاب، وطلب مني أن أدخل عبر الفتحة.

لم أرغب في القيام بذلك، وكنت خائفة جداً... وأحسستُ أن البيت يشعر بالاستياء والحزن لأنه لم يعد بيتي، وأنه يشعر بأننا هجرناه وتخلينا عنه. غير أن لويل شجعني قائلاً:

«إنه بيت فارغ، وستدخل ماري معكِ». وكأنني كنت أعتقد أن ماري قادرة على خوض شجار والفوز فيه.

ماري عديمة الفائدة... أريد فيرن... متى ستعود فيرن إلى البيت؟

خاطبني راسل:

«اسمعي، نحن نعتمد عليكِ لإدخالنا أيتها القزمة».

فدخلتُ البيت من أجل أول حب في حياتي.

زحفت عبر فتحة الكلاب ودخلت المطبخ، ثم نهضت واقفة في بقعة مشمسة، فالتمعت أمام عينيّ ذرات الغبار التي طارت بسبب حركتي كالقصاصات الصغيرة اللامعة. لم أشاهد مطبخنا فارغاً من قبل. كانت الأرضية المغطاة بالمشمع نظيفة وناعمة، حيث كانت تقع طاولة الفطور... لقد اختبأت وأختي فيرن تحتها مرّة كي لا يرانا أحد، ورحنا نرسم على الأرضية بأقلام التلوين السائلة. كانت آثار أعمالنا الفنية لا تزال مرئية لمن يحاول البحث عنها.

أحاطت بي الغرفة الفارغة، وضاق خناقها اللطيف عليّ إلى أن أوشكت على الاختناق. شعرت أن المطبخ يغلي بالغضب العارم، لكنني لم أعرف إن كان المطبخ هو الغاضب أو فيرن. فتحت الباب بسرعة لأخي وراسل، وما إن دخلا حتى أفلت البيت خناقي ولم يعد غاضباً مني، بل فهمت أنه طافح بالحزن.

تقدم الفتَيان وهما يهمسان كي لا أسمعهما؛ مما دفعني للشك بأمرهما فتبعتهما. لقد اشتقت إلى الكثير من الأشياء هنا... اشتقت إلى السلم الواسع الذي كنا نتزحلق عليه متخذين من الأكياس القماشية المحشوة كراسي للتزلج، وافتقدت إلى القبو؛ حيث كنا نجد دوماً في الشتاء سلالاً مترعة بالتفاح والجزر ونأكل منها قدر ما نشاء من دون الحاجة إلى طلب إذن، رغم أننا كنا مضطرين للنزول عبر الظلام لنصل إليها. لن أنزل إلى الأسفل ما لم ينزل الفتَيان، وإذا نزلا فلن أتخلف عنهما.

افتقدتُ إلى البيت الفسيح المشتعل بالنشاط، واشتقت لأن تكون لبيتي حديقة لا يمكن رؤية حدودها، كما افتقدت إلى حظيرة الخيل المليئة بالكراسي المكسورة والدراجات والصحف وكراسي الأطفال الرضع المحمولة وعربات الأطفال ومقاعد السيارة المخصصة لهم. افتقدت النار حيث كنا نشوي البطاطا أو نصنع البوشار في الصيف. اشتقت إلى الأواني الزجاجية التي تحتوي على فراخ الضفادع التي كان والداي يحتفظان بها على الشرفة من أجل أبحاثهما العلمية، وإلى مجموعات النجوم المرسومة على السقف، وخارطة العالم الكاملة المرسومة على أرضية المكتبة؛ حيث كنا نستطيع حمل وجبة غدائنا والذهاب لتناول طعامنا في أستراليا أو الإكوادور أو فينلندا. كانت يداي الصغيرتان تغطيان قارات حفرت أسماؤها باللون الأحمر في أقصى الطرف الغربي من الخارطة. لم تغطِ يداي الصغيرتان آنذاك إنديانا، لكنني كنت قادرة على تحديد مكان الولاية على الخريطة من خلال شكلها. كنت أتمنى أن أتمكن من قراءة كل الكلمات قريباً. قبل انتقالنا، كانت والدتي تعطيني دروساً في الرياضيات من كتب والدي... إن حاصل ضرب عددين ببعضهما هو عدد آخر.

قال راسل: «يا له من عرض أشباح ممل!». ففقدت في لحظة واحدة إعجابي به، يا له من مغفل! كانت غرفتي في بيتنا الجديد أكبر من غرفتي القديمة. ثم سأل راسل مجدداً:

«أما زال المرج مكهرباً؟». كانت باحة المنزل الأمامية مغطاة بالكامل بالنباتات المختلفة التي امتدت في غيابنا، لكن الناظر إلى المكان يستطيع التخمين بأنها كانت سابقاً باحة أمامية.

«عمّ تتحدث؟». سأله لويل.

«سمعت أن المرء يصاب بصدمة كهربائية إذا وقف على العشب. فكما سمعت، وصل والداك المرج بكامله بالكهرباء لمنع الناس من الاقتراب».

«لا، إنه مجرد عشب عادي».

وفي النهاية، انتهى المسلسل الذي كانت ميليسا تتابعه ولاحظت غيابي. بحثت عني في كامل الحي، إلى أن طلبت منها عائلة بايارس أن تتصل بوالدي الذي كان قد اكتشف للتو غياب لويل عن المدرسة، فاضطر إلى

الاعتذار من طلابه عن إلقاء المحاضرة؛ وهو الأمر الذي ظل يذكّرنا به طوال الأيام اللاحقة ليؤكد لنا أننا لم نقلقه وحده، بل أثرنا البلبلة بين صفوف تلاميذه أيضاً؛ وكأن غيابه لم يكن أفضل ما يمكن أن يحدث لهم خلال الأسبوع. وما إن وصل إلى المنزل حتى اكتشف أن السيارة مفقودة.

ولهذا، لم يسألني لدى عودتنا – عندما أخرجني من مقعد السيارة الخلفي – عن كيفية قضائي نهاري. غير أن صمته لم يمنعني من الكلام عن أحداث النهار؛ تماماً كما اعتدت أن أفعل سابقاً.

# 5

هناك شيء لا تعرفونه عن ماري بعد، وهو أن صديقة طفولتي الخيالية لم تكن فتاة صغيرة، بل كانت قردة شامبانزي صغيرة.

تماماً كما كانت أختي فيرن بالطبع.

قد يكون بعضكم قد خمّن ذلك بالفعل، وقد يشعر بعضكم الآخر بالسخط من خجلي الذي دفعني إلى تأجيل ذكر حقيقة فيرن طوال هذا الوقت.

ودفاعاً عن نفسي أقول: لدي أسباب وجيهة دفعتني إلى ذلك؛ فقد أمضيت أول ثمانية عشر عاماً من حياتي وأنا أعتقد أن نشأتي برفقة قردة شمبانزي صغيرة تحدِّد شخصيتي وتميّزها. وقد تعيّن عليّ أن أنتقل بعيداً مسافة تقارب نصف البلاد لأتمكن من ترك تلك الحقيقة خلفي. وهناك اتخذت قراري بألا تبقى تلك الحقيقة أول أمر أحكيه عن نفسي لأي شخص أقابله.

ولكنّ الأهم من ذلك بكثير هو أنني أردت منكم أن تلمسوا حقيقة الوضع. فلو أخبرتكم أن فيرن كانت قردة، عندها لن تفكروا بها على أنها أختي، بل ستعتبرون أننا أحببناها كثيراً باعتبارها حيواننا الأليف. بعد مغادرة فيرن، أخبرتنا جدتي دونا أن والدتي عانت من انهيار عصبي لدى موت كلبتنا تامارا برِس، تماماً كما هو حالها الآن بالضبط (بعد فقدان فيرن)، وأخبر لويل والدي بهذا فجُرحت مشاعرنا جميعاً بسبب الطريقة التي عبّرت فيها الجدة عن الموضوع.

لم تكن فيرن كلب العائلة، بل كانت أخت لويل الصغرى. إذ كانت تلتصق به كظلّه، كصديقه الوفي والأمين. وقد وعدنا والدانا بأن يحباها كما لو أنها ابنتهما، ولطالما راودني الشك في أنهما أحباها بتلك الطريقة فعلاً. بدأت أصغي إلى الحكايات التي كانا يرويانها لي، والتي بتُّ أقرأها بنفسي بعد فترة من الوقت في محاولة مني لمعرفة مدى الحب الذي يكنّه الأهالي لبناتهم. لقد كنت ابنة كما كنت أختاً، ولهذا لم أكن أفعل ذلك من أجل فيرن وحدها.

ما وجدته في الكتب كان فتياتٍ مدللاتٍ وأخريات مقموعات أو مضطهدات، فتيات يتكلمن بأصوات عالية، وأخريات مجبرات على السكوت. قرأت عن فتيات محبوسات في أبراج تعرّضن للضرب وعوملن كالخدم، وعن فتيات محبوبات تخلّى عنهن أهلهن واستبدلوهن بوحوش بشعة. عموماً، عندما كانت الفتيات يُبعدن كان ذلك يجري لأنهن يتيمات؛ مثل جين آير وآن شيرلي، لكن ذلك لم يكن يحصل على الدوام بتلك الطريقة. فقد أرسلت غريتل مع أخيها إلى الغابة وتُركا هناك، كما تركت دايسي تيلرمان مع أقربائها في موقف سيارات تابع لمجمع تجاري، وأُرسلت سارة كرو التي كانت محبوبة من قبل والدها كثيراً لتعيش في مدرسة داخلية بعيداً عنه... في مطلق الأحوال، كانت

الاحتمالات عديدة، وكان أحد تلك الاحتمالات هو الطريقة التي تم بها التخلي عن فيرن.

هل تذكرون القصة الخيالية القديمة التي ذكرتها لكم في بداية حكايتي؟ تلك التي تتحوّل فيها كلمات الأخت إلى جواهر وأزهار بينما تتحوّل كلمات الآخرين إلى أفاعٍ وضفادع؟ سأروي لكم الآن نهاية تلك القصة. تم استدراج الأخت إلى أعماق الغابة، حيث ماتت بائسة ووحيدة بعد أن انقلبت والدتها ضدها كما تم إخبارنا؛ وهو أمر مزعج جداً أتمنى لو أنهم لم يخبرونا به. وقد طلبت من والدتي قبل إبعاد فيرن بوقت طويل ألا تقص تلك الحكاية على مسامعنا مرة أخرى.

ولكن، ربما أصابني هذا الجزء من القصة بالغضب والتوجس. وربما عرفت لاحقاً بعد مغادرة فيرن أنه كان يجدر بي أن أشعر بذلك قبل حدوثه، بعد أن تأملت الأحداث والذكريات. فهذا ما يفعله الناس طوال الوقت.

لم أعرف لحظة واحدة من الوحدة قبل مغادرة فيرن. إذ كانت توأمي... كانت مرآة الفرح، بل نصفي الآخر الذي غيّرت المرآة شكله. ومن المهم أن تعرفوا أنني كنت كذلك بالنسبة إليها أيضاً. فقد أحببتها حقاً كأخت كما كنت أحب لويل، لكنها كانت الأخت الوحيدة التي حظيت بها في حياتي، ولهذا لا يمكنني الجزم. كانت فيرن تجربة لا يمكن التحكم بنتائجها. ومع ذلك، عندما قرأت قصة نساء صغيرات للمرة الأولى، شعرت أنني أحب فيرن كما كانت جو تحب آمي؛ إذا لم يكن حبي لها كالحب الذي شعرت به جو تجاه بيث.

في تلك الفترة، لم نكن العائلة الوحيدة التي قررت تربية قرد شمبانزي صغير في بيتها كما لو كان طفلاً بشرياً حقيقياً، إذ كانت ممرات المحلات التجارية في نورمان الواقعة في ولاية أوكلاهوما (حيث نصح الدكتور ليمون تلامذته المتخرجين ومرضاه على حد سواء بتربية الشمبانزي في البيت كوسيلة للعلاج) تعج بتلك العائلات.

كما أننا لم نكن العائلة الوحيدة التي قررت تربية شمبانزي إلى جانب أطفالها الحقيقيين؛ رغم أننا كنا العائلة الوحيدة التي قررت توأمة طفلها مع الشمبانزي بعد أن قامت بذلك عائلة كيلوغ عام 1930. وبحلول السبعينيات، كان الطفل البشري في التجارب يجب أن يكون أكبر سناً من القرد بعدة أعوام، ولا يجب أن يكون جزءاً من التجربة.

عاملنا والداي أنا وفيرن بالطريقة نفسها تماماً، وبكل عقلانية. وأنا واثقة من أنني كنت أخت الشمبانزي الوحيدة في البلاد التي ترفض حضور كل حفلات ذكرى الميلاد التي تدعى إليها، منعاً من نقل عدوى الزكام إلى المنزل؛ لأن صغار الشمبانزي كانت معرضة للإصابة بالعدوى بشدة. ذهبنا لحضور حفلة واحدة فقط خلال السنوات الخمس الأولى من حياتي، وأنا لا أذكرها، لكن لويل أخبرني عن حادثة أليمة جرت فيها، وتتعلق بمضرب بيسبول والكثير من

الحلوى الطائرة التي دفعت فيرن إلى عضّ صاحبة الاحتفال بيرتي كابنز في قدمها. وحينها، كان عضّ شخص من خارج العائلة يبدو للآخرين أمراً جللاً.

أنا أخمن بالطبع أن العائلات الأخرى التي ربّت قرود شمبانزي في بيوتها قد قامت بالأمور بشكل مختلف. كانت فيرن بالتأكيد متيقظة جداً، وحساسة تجاه أي تحيّز من أي نوع، وكانت تستجيب له بشدة، وقد آلمها التمييز بين الإخوة وضايقها كثيراً.

أقدم حادثة أذكرها من طفولتي – وهي ذكرى ملموسة أكثر من كونها بصرية – هي تجربة الاستلقاء بجانب فيرن. أكاد الآن أشعر بفروها على خدّي وكأنها ملتصقة بي. كانت قد استحمت في المغطس، وكانت رائحة الصابون المعطر بالتوت البري تفوح منها، وكانت بضع قطرات من الماء لا تزال عالقة بالفرو الأبيض المحيط بذقنها. أنا أراها... وكأنني لا أزال حتى هذه اللحظة أنظر إليها من فوق كتفها التي أسند رأسي عليها.

أرى يدها وأظفارها السوداء وأصابعها التي تنقبض ثم تسترخي. لا بد أننا كنا صغيرتين جداً في ذلك الوقت، لأن راحة يدها كانت ناعمة جداً ومتغضنة ووردية اللون. ثم أعطتني حبة زبيب ذهبية كبيرة الحجم.

كان هناك طبق مليء بالزبيب أمامنا على الأرض، وأظن أنه كان مخصصاً لفيرن وليس لي. ولا بد أنها فازت به في إحدى الألعاب التي كنا نلعبها. لكن هذا ليس هاماً؛ لأنها تقاسمتها معي... واحدة لها وواحدة لي، وهكذا... هذه الذكرى تمنحني الطمأنينة.

وإليكم حادثة أخرى أذكرها. كنا نلعب في مكتب والدي لعبة اسمها (متماثل، غير متماثل). وكان الجزء المخصص لفيرن من اللعبة يتضمن عرض شيئين عليها (تفاحتين على سبيل المثال، أو تفاحة وكرة مضرب) وكانت تحمل بطاقتين من أوراق اللعب؛ واحدة حمراء وأخرى زرقاء. وإذا ظنت أن الغرضين متطابقان فيجدر بها أن ترفع البطاقة الحمراء لشيري (الطالبة الباحثة في ذلك اليوم عند والدي)، أما البطاقة الزرقاء فكانت تعني أن الغرضين غير متماثلين. ولم يكن واضحاً بالنسبة إلينا بعد ما إذا كانت فيرن قد فهمت اللعبة أم لا.

في الوقت نفسه، كانت اللعبة سهلة جداً بالنسبة إليّ، وكنت ألعبها مع آمي التي أعطتني عدة قوائم تحتوي كل منها على أربعة عناصر، وطلبت مني أن أختار العنصر الغريب. كانت بعض القوائم خادعة للغاية؛ مثل القائمة التي تحتوي على صور خنزير وبطة وحصان ودب. كنت أحب تلك اللعبة كثيراً، وخصوصاً بعد أن شرح لي والدي أنه لا توجد إجابات خاطئة وإجابات صحيحة، بل كل ما يحاولون فعله هو معرفة كيفية تفكيري في الأمور. وهكذا، تسنّى لي أن ألعب لعبة لا أخسر فيها أبداً، وتسنى لي أيضاً أن أخبر المحيطين بي بكل ما أفكر فيه وأنا ألعب.

كنت أستعرض الخيارات المتاحة أمامي، وأخبر آمي بما أعرفه عن البط والخيول والحيوانات الأخرى وعن تجاربي معها. أخبرتها أنني أحياناً عندما أطعم البطّ القليل من الخبز، كانت البطات الكبيرة تستولي على كل قطع الخبز فلا يتسنى للصغيرة منها أن تنال نصيبها، وهذا ليس عدلاً... أليس كذلك؟ هذا ليس أمراً لطيفاً؛ فالمشاركة أمر حسن ينبغي لنا فعله.

وأخبرتها عن تلك المرة التي طاردتني فيها البطات لأنني لم أكن أحمل لها ما يكفي من الخبز، وقلت إن فيرن لا تعطي البطِ أي خبز بل تأكله بنفسها؛ وهي معلومة صحيحة، ولكنها لا تفعل ذلك دوماً. لم تصحح آمي ما قلته، فأعدت الكلام نفسه مجدداً بثقة أكبر؛ وهو أن فيرن ليست مشاركة جيدة، وتجاهلت تماماً تاريخ فيرن الحافل بالمشاركة معي.

ثمّ أخبرت آمي أنني لم أمتطِ حصاناً من قبل، لكنني سأفعل ذلك في يوم ما. إذ سيكون عندي حصان يوماً ما، وربما سأسميه النجم أو البرق. وسألتها: لا تستطيع فيرن امتطاء الأحصنة، أليس كذلك؟ فقد كنت دائماً أبحث عن الأمور التي أستطيع القيام بها فيما تعجز فيرن عن ذلك. فقالت آيمي وهي تسجل كل ما أقوله:

«ربما أنتِ محقة».

لا يمكن للحياة أن تكون أجمل من هذا.

لكن فيرن أصيبت بالإحباط لأنهم لم يسمحوا لها بتناول التفاح، فتوقفت عن لعب لعبة التماثل وأتت إلينا، ووضعت جبينها الخشن والبارز على جبيني الناعم والمسطح، فالتقت عيناي عينيها الكهرمانيتين. كانت قريبة مني إلى درجة أن أنفاسها دخلت فمي. عرفت أنها حزينة من رائحتها... من المسحة الخفيفة اللاذعة والحادة قليلاً التي فاحت منها بالإضافة إلى رائحتها المعتادة التي تشبه رائحة المناشف الرطبة. فدفعتها عني قليلاً وقلت:

«توقفي عن إزعاجي يا فيرن».

فأنا أعمل هنا رغم ما يبدو من لعب ومرح.

تجوّلتْ في أنحاء الغرفة قليلاً وهي تشير إلينا بحزن وغمّ بإشارات ترمز إلى التفاح والموز والحلويات والأطايب الأخرى؛ لأن كل ما كانت تشير إليه غير موجود. ثم بدأت تقفز إلى الخلف والأمام بين أعلى مكتب والدي والكرسي الجلدي الكبير، وكانت ترتدي تنورتها الصفراء المفضلة التي تحمل رسوم طيور سوداء تطير إلى أعلى خصرها عندما تقفز فيبدو قماطها للعيان. كانت شفتاها بارزتين وممدودتين إلى الأمام، ووجهها الصغير شاحباً، وسمعت الصوت الضعيف الذي تطلقه عندما تشعر بالقلق.

إنها لا تستمتع بوقتها، لكن الأمر بدا لي مسلياً. وهكذا، تسلقت مكتب أبي بنفسي، ولم يمنعني أحد ولم ينبهني أحد بكلمة؛ ربما لأن أحداً منهم لم يكن يقول ذلك لفيرن ولهذا فهم لا يستطيعون تنبيهي. كانت المسافة أكبر مما ظننت، فوقعتِ على الأرض وآذيت مرفقي. سمعت ضحكة فيرن عندما

وقعت، وقد أشعرتني ضحكتها ببعض الحماسة؛ ففي الظروف المعتادة، لا تضحك القردة إلا عندما يحدث تماس جسديّ. وقبل هذا، لم تكن فيرن تضحك إلا عندما يطاردها أحد أو يدغدغها، أما السخرية وضحكة الشماتة فهما أمران خاصان بالبشر وحدهم.

أمر والدي شيري وآمي بالإنصات جيداً لدى ضحك فيرن. كان صوت ضحكتها مقيداً بأنفاسها، وهكذا خرجت الضحكة من فمها خافقة ولاهثة. ربما – كما اقترح والدي – لا تستطيع فيرن المحافظة على صوت واحد متواصل خلال الشهيق والزفير المتلاحقين. ما الذي يعنيه هذا بالنسبة إلى تطوير الكلام الشفوي؟ لم يكترث أحد بخبث فيرن؛ وهو ما بدا لي أهم تفصيل في الموضوع.

لاحقاً، عندما لم يكترث أحد بمرفقي الذي آلمني وتبيّن في ما بعد أنه مكسور، اعتذر مني والدي بطريقته؛ وذلك بسماحه لي برؤية صورة الأشعة الخاصة بمرفقي المكسور. كان الصدع الظاهر في عظم يدي يشبه الصدوع التي نراها على الأطباق الصينية عندما تقع. وقد شعرت بالرضى لأن مرفقي كان مكسوراً حقاً بشكل ما.

لكن رضاي لم يكن خالصاً، فمهاراتي أشبه بتلٍّ ترابيٍّ صغير مقارنة مع جبل المهارات التي تستطيع فيرن القيام بها، بالإضافة إلى أنني أكبر حجماً منها – وهو أمر يجب أخذه بالحسبان – لكنها أقوى مني بكثير. الأمر الوحيد الذي أتفوق به عليها هو قدرتي على الكلام، لكنني لم أعرف في ذلك الوقت إن كان ذلك أمراً جيداً يمكنني مقايضته واستبداله بالمقدرة على العدو فوق الحواجز الضيقة أو التمدد كالنمر فوق إفريز باب إحدى خزائن المطبخ.

لهذا اخترعت ماري... لكي أعادل النتيجة. كان باستطاعة ماري أن تقوم بكل ما كانت فيرن تقوم به، وكانت تستعمل قواها للخير عوضاً عن الشر؛ حسب تعليماتي وإشرافي، ومن أجلي.

ورغم أن الدافع الأساسي الذي جعلني أخترعها كان إيجاد شريكة للعب لا يفضّلها أحد أكثر مني؛ إلا أن أفضل ما في ماري هو أنها كانت مملة بعض الشيء.

بعد عدة أيام من الرحلة التي قمنا بها إلى بيت المزرعة، أمضيت وقتي مع ماري بين أغصان شجرة القيقب الموجودة في حديقة راسل تابمان الخلفية. وكنا نختلس النظر إلى مطبخه، حيث رأينا أمه التي كانت ترتدي قميصاً مصنوعاً باليد من قصاصات القماش وتبدو غريبة المظهر للغاية، وتغطي طاولة بصحيفة، وتحاول تقطيع ثمرة قرع كبيرة الحجم.

لماذا جلست مع ماري بين أغصان تلك الشجرة؟ لأنها الشجرة الوحيدة في الحي التي أستطيع تسلقها بسهولة. كانت قاعدة جذعها مقسومة إلى ثلاثة أقسام؛ أحدها موازٍ للأرض تماماً، وهكذا كان يتسنى لي الصعود عليها مشياً

وكأنني أتسلق منصة خشبية، فيما أتمسك بالأغصان التي تعلو رأسي للمحافظة على توازني. وكان يتوجب عليّ التسلق كلما صعدت أكثر نحو الأعلى، لكنّ الأغصان كانت كثيرة جداً، وكأن كلاً منها درجة يسهل صعودها؛ الواحدة تلو الأخرى. أما الحقيقة المتمثلة بأنني أستطيع اختلاس النظر من تلك الشجرة إلى داخل منزل راسل فكانت مكافأة إضافية. فقد أتينا إلى هنا لنتسلق فقط وليس بنية الاستطلاع.

صعدت ماري أعلى مما يمكنني بلوغه، وقالت إنها ترى من فوق كل الشارع وصولاً إلى سقف بيت بايارس، وقالت إنها تستطيع أيضاً أن ترى غرفة راسل من الداخل، وأخبرتني أن راسل يقفز على السرير في هذه الأثناء.

لكنها كانت تكذب، لأن راسل خرج بعد لحظة واحدة من قولها ذلك من باب المطبخ، واقترب مني. كانت الشجرة لا تزال تحتفظ ببعض الأوراق الحمراء، فتمنيت أن أكون غير مرئية بالنسبة إليه. حبست أنفاسي وتجمدت في مكاني إلى أن أصبح راسل تحتي مباشرة وقال:

«ماذا تفعلين في الأعلى يا قزمة؟ إلام تنظرين بالضبط؟».

أخبرته أن أمه كانت تقطّع ثمرة يقطين، إلا أنني استعملت كلمة تُشرّح وكأنها تشرح جثة. كان لويل في إحدى المرات قد وجد ضفدعاً ميتاً بجانب الجدول في بيت المزرعة، فأمضى مع والدي فترة ما بعد الظهر في تشريحه على مائدة الطعام، حيث قاما بتشريح قلبه الصغير الرطب بكل قسوة. لم أكترث لذلك حينها، لكن رؤيتي أم راسل الآن وهي تحفر داخل اليقطينة قلبت أمعائي ورفعت عصارات معدتي إلى حلقي. لذا، ابتلعت لعابي بقوة، وتوقفت عن النظر إلى مطبخهم.

كنت أقف على غصن واحد وأتمسك بيدي الأخرى بغصن أعلى منه وأتأرجح قليلاً بين الحين والآخر أثناء كلامي، ولم يكن من الممكن قط أن يعرف من يراني حال معدتي. فقال راسل:

«أيتها الفتاة القردة». وهي العبارة التي ستطرق مسمعيّ كثيراً عندما أدخل المدرسة. ثم تابع كلامه: «أنتِ غريبة جداً». لكن لهجته كانت ودودة بما فيه الكفاية، فلم أشكّ في أنه يقصد الإهانة. ثم أردف قائلاً:

«أخبري أخاك أن ماله بحوزتي».

نظرت إلى مطبخهم مجدداً، فرأيت أم راسل وهي تخرج أحشاء اليقطينة براحة يدها وترميها على الصحيفة. عندها، أصابني الدوار وارتجفت ساقاي في تلك اللحظة، وظننت أنني سأقع، أو سيحصل ما هو أسوأ... ظننت أنني سأتقيأ.

فأمسكت بغصن آخر للمحافظة على توازني، ولكنه كان رفيعاً وطرياً فانحنى بشكل غير متوقع بسبب ثقلي، فانزلقت وكسرت أغصاناً وفروعاً صغيرة وأنا أهوي إلى الأسفل. وصلت قدماي إلى الأرض أولاً، ثم ارتطمت بها مؤخرتي، وأصيبت ذراعاي بالكثير من الخدوش، فسألني راسل:

«ماذا ستفعلين الآن؟». وأشار بإصبعه إلى سروالي الداخلي حيث لطخته الأوراق وسببت ظهور بقعة صغيرة عليه. لا يمكنني أن أصف حقاً الذل الذي شعرت به حينها. وكنت أعرف في تلك السن أنه من غير المسموح أن يتحدث أحد عما هو موجود تحت سروالي أو أن ينظر إليه، وعرفت أيضاً أنه لا يجب أن يكون أحمر اللون.

بعد عدة أيام أوقفت الشرطة راسل، وأخبرتني جدتي دونا أنه أقام حفلة في بيت المزرعة مما تسبب بكسر كل النوافذ، وإرسال فتاة لم تبلغ السن المناسبة للمشاركة في تلك الحفلات بعد لقضاء ليلة في المستشفى.

اللغة وسيلة غامضة وغير دقيقة، تدفعني للتساؤل أحياناً عن العناء الذي نتكبده للتعبير عن أنفسنا. ما سمعته من الآخرين هو التالي: ربما قطعت فيرن المسافات الشاسعة التي تفصلنا عن بيت المزرعة الذي كنا نعيش فيه وحطمته كما لو أنها شريرة، ولكن النوافذ المكسورة تعني لي وجود حفلة في المكان. ففي إحدى المرات، قذفت مع فيرن كرة كروكيت عبر إحدى النوافذ واستمتعنا بذلك كثيراً. لكن، كل النوافذ؟! لم يبدُ لي هذا لهواً من أي نوع... فهو يوحي بالتصميم والإصرار اللذين لا يولدان سوى من رحم الحقد.

أعتقد أن الجدة دونا أخبرتني حينها أنها تظن أنني لست صغيرة جداً على فهم مخاطر مزج الشراب مع المخدرات، وأنها تتمنى ألا تعيش طويلاً لترى معدتي وهي تنفجر، وأن حدوث مثل هذا الأمر كفيل بكسر قلب أمنا المكسور أصلاً.

# 6

في صباح أحد الأيام، عادت أمي إلى رشدها بكل بساطة. فقد استيقظت على صوت مقطوعة سكوت جوبلين التي تحمل اسم Rag Leaf Maple المبهجة التي كانت أنغامها ترتقي درجات السلم واحدة تلو الأخرى. نهضت والدتي قبلنا، ونادتنا لتناول طعام الفطور عن طريق عزف تلك المقطوعة على البيانو كما اعتادت أن تفعل من قبل. كانت قد استحمت وطهت الطعام، ولن تلبث أن تعود إلى القراءة، وفي النهاية لا بد لها أن تتحدث، ولم يتناول والدي أي كأس من الشراب طوال أسابيع كاملة بعد ذلك اليوم.

لقد شعرنا بالارتياح بسبب عودة أمي إلى حياتها الطبيعية تدريجياً. لكن ارتياحنا كان أقل مما تعتقدون؛ لأن عودتها إلى رشدها كانت أمراً هشاً لا يمكن الاعتماد على ديمومته.

في ذلك العام، قضينا عطلة الكريسمس في وايكيكي. ولم يكن قد تسنى لنا السفر قطّ حين كانت فيرن معنا، ولهذا بتنا في ذلك العام قادرين على السفر؛ وكنا بأمسّ الحاجة إلى القيام بذلك بالفعل. وفي العام الماضي، أصرّت فيرن على الاحتفال على طريقتها؛ رغم كل التوجيهات التي تلقتها مسبقاً.

كانت فيرن تأخذ خلسة إحدى الهدايا، وتتجه إلى إحدى الخزائن في الطابق العلوي وهي تصيح بصوت خافت لشدة حماستها، ثم تفتح العلبة وتكتشف اللعبة التي حصلت عليها، ثم تملأ المنزل في صباح اليوم التالي بأوراق تغليف الهدايا الممزقة، وتحشوها تحت ملابسنا وكأنها كرات ثلجية.

ولهذا، كانت تلك أول رحلة لي على متن الطائرة. بدت لي الغيوم البيضاء كفراش أبيض ناصع كبير ممدود تحتنا. أحببت رائحة هاواي التي باغتتني في المطار؛ فقد عبق الهواء برائحة أزهار هاواي المميزة التي كانت خلاصتها موجودة في كل شيء، حتى الصابون والشامبو.

كانت المياه على شاطئ وايكيكي قليلة العمق؛ لدرجة أنني كنت قادرة على اجتياز مسافة بعيدة في الماء من دون التعرض إلى أي خطر، رغم قصر قامتي. أمضينا ساعات طويلة في الماء، وكنا ننزل تحت المياه ثم نرتفع في الهواء ونتقلب؛ إلى درجة أنني كنت أشعر بقطرات الماء في أذنيّ عندما كنت أستلقي في المساء للنوم بجانب أخي لويل على السرير الذي تقاسمناه. تعلمت السباحة في تلك العطلة، فقد وقف والداي خلف حاجز الأمواج وأمسكا بي، بينما رحت أركل بقدميّ بالتتالي. وكنت واثقة تماماً من أن فيرن عاجزة عن فعل ذلك؛ مع أنني لم أسأل أحداً عن جواب لتساؤلي ذاك.

كان عندي شيء أقوله لهم أثناء الفطور، عن كيفية قسم العالم إلى قسمين؛ قسم أعلى وقسم أدنى. فعندما يرتدي المرء ملابس الغطس وينزل تحت الماء فهو بذلك يزور العالم الأدنى، أما عندما يتسلق شجرة فهو يزور العالم العلوي. ولم يكن أحد القسمين أفضل من الآخر بأي مقياس. أذكر أنني كنت واثقة في تلك اللحظة من أنهم أعجبوا بكلامي إلى درجة أنهم قالوا إنه يجدر بأحد ما أن يدون هذا.

عندما تفكر في ثلاثة أمور لتقولها، فعليك اختيار أمر محدد منها لقوله. وحتى بعد مرور أشهر على مفارقتنا فيرن، كان الأمران الآخران اللذان لم أفصح عنهما قطّ يدوران دوماً حولها. في هاواي، فكرتُ– لكنني لم أتكلم – في أنه بوسع فيرن تسلق الأشجار، وبوسعي أنا الغطس تحت الماء. ووددت لو كانت معنا لتراني وأنا أقوم بذلك. وتمنيت وجودها لتتناول معنا كعكة الحمم البركانية المشتعلة وتتسلق جذوع أشجار النخيل مثل سبايدرمان.

كانت ستحب مائدة الفطور بالتأكيد.

كانت معي في كل مكان، لكنني لم أقل ذلك.

بدلاً من ذلك، راقبت أمي بهوس باحثة عن علامات تدل على قرب انهيارها. كانت تطفو على ظهرها فوق أمواج المحيط، أو تستلقي على كرسي بجانب بركة السباحة وهي تتناول المشروبات الخاصة بهاواي. وعند الاحتفال مساء في إحدى الليالي، طُلِب متطوعون للرقص، فتطوعت أمي على الفور. أذكر شدة جمالها في ذلك المساء وقد لوحت الشمس بشرتها، فيما الأزهار تتدلى من رقبتها، وذراعاها مرنتان ورشيقتان. كانوا يغنون:

رمينا شباكنا في البحر فأتت كل الحوريات سابحات إليّ.

علق والدي بحذر أثناء تناولنا العشاء في الليلة السابقة لعودتنا إلى الديار قائلاً لوالدتي إنها امرأة مثقفة وذكية، وإنه يُفضَّل أن تعود إلى العمل بدلاً من أن تحبس نفسها في البيت طوال الوقت؛ وبالأخص الآن، بعد أن اقترب موعد ذهابي إلى روضة الأطفال.

لم أكن أعرف أنني سأذهب إلى روضة الأطفال إلى أن قال والدي ذلك. لم أكن قد اختلطت بأطفال آخرين كثيراً من قبل، وكنت غبية بما فيه الكفاية لأشعر بالحماسة لذهابي إلى هناك.

كان البحر يلمع خارج نافذة المطعم، متماوجاً باللونين الأسود والفضي. وافقت أمي على طرح والدي العمومي الذي لم يكن يقصد من خلاله الإلحاح عليها، ولاحظ هو استجابتها. كنا جميعاً متيقظين على الدوام لإشاراتها في ذلك الوقت، وكانت علاقتنا معاً ممزوجة بالحذر؛ لقد تعاملنا مع بعضنا كمن يمشي على رؤوس أصابعه خشية إزعاج الطرف الآخر.

دام هذا عدة أشهر. وفي ليلة من الليالي، قال لويل فجأة أثناء تناول العشاء:

«كانت فيرن تحب كثيراً تناول الذرة في الكوب. هل تذكرون الفوضى التي كانت تسببها؟».

مرت أمام عينيّ لمحة من ذكرى؛ حبات ذرة صغيرة ملتصقة بأسنان فيرن كحشرات ميتة وملتصقة بباب منخل المطبخ. كنا نتناول الذرة في الأكواب عندما قال لويل ذلك الكلام؛ مما يعني أن الصيف قد حل مجدداً، وأنه قد مرّ عام على العواصف الرعدية والفراشات التي تتجمع فوق نيران المخيم وإرسال فيرن بعيداً عن المنزل. لكنني أخمن لا أكثر. سألني لويل:

«هل تذكرين كم كانت فيرن تحبنا؟».

تناول والدي شوكته بيد مرتجفة، ثم وضعها على الطاولة مجدداً ونظر إلى والدتي نظرة سريعة. وحين وجد أنها تحدق إلى طبقها – الأمر الذي منعنا من رؤية عينيها – قال لأخي:

«لا تفعل ذلك. ليس بعد».

فأجابه لويل: «أريد الذهاب لرؤيتها. جميعنا بحاجة إلى رؤيتها. لا بد أنها تتساءل عن سبب عدم حضورنا للاطمئنان عليها».

مرر والدي يده أمام وجهه. فقد اعتاد أن يلعب لعبة معي ومع فيرن؛ حيث كنا نقوم بذلك. كان إنزال الكف أمام الوجه من الأعلى إلى الأسفل يعني العبوس، ورفع الكف من الأسفل إلى الأعلى يعني الابتسامة. الأسفل... عبوس، الأعلى... ابتسامة. إلى الأسفل تأتي الدراما، وإلى الأعلى تأتي الكوميديا؛ كلا الأمرين ممثلان بواسطة تعابير الوجه الإنساني الذي نراه بعد تحريكه يده.

في تلك الليلة كان حزيناً ومهموماً، ثم قال بنبرة مماثلة لنبرة صوت لويل الحازمة رغم هدوئها:

«جميعنا نرغب في ذلك. كلنا نفتقد إليها، لكن علينا التفكير في أن هذا الحال أفضل لها. فالحقيقة هي أنها مرت بتغيير فظيع، لكن أوضاعها استقرت الآن وهي سعيدة في بيتها الجديد».

كانت أمي تبكي عندما وصل الحوار إلى هذه المرحلة، فنهض لويل من دون أن ينبس ببنت شفة، ورمى كامل محتويات صحنه في سلة المهملات، ثم وضع طبقه الفارغ وكأسه في آلة غسل الأطباق وغادر المطبخ، ثم غادر المنزل واختفى ليلتين، ولم يكن برفقة صديقه ماركو. لم نعرف قط المكان الذي نام فيه حينها.

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي سمعت فيها والدي يتكلم عن ذلك الموضوع. فقد سألته عن مكانها في اليوم الذي ذهبتُ فيه إلى بيت المزرعة مع لويل وراسل؛ عندما عرفت أن فيرن لا تعيش هناك.

كان يجلس في مكتبه في الأعلى، وقد أُرسِلت لتذكيره بأن برنامجه المفضل كان يذاع على التلفاز الآن؛ لأن لويل لم يصدق أن عبارة ابق في

غرفتك وفكّر في التصرف الذي أقدمت عليه تعني في الحقيقة: أنت ممنوع من مشاهدة برامج التلفاز المفضلة لديك. فكرت حينها في تسلق المكتب والقفز في حضنه، لكنني كنت قد تصرفت في ذلك اليوم بشكل خاطئ بما فيه الكفاية بعد أن غادرت البيت من دون أن أقول لميليسا، وعرفت في قرارة نفسي أن والدي ليس بمزاج يسمح له باللعب معي. سيلتقطني بالطبع إذا قفزت ولم أترك له حرية الاختيار، ولكنه لن يكون سعيداً. لذا، سألته عن فيرن بدلاً من ذلك.

عندها، حملني ووضعني على ركبتيه، فتنشقت رائحته العابقة بالتبغ والشراب والقهوة السوداء والبهارات، ثم قال:

«إنها تعيش مع عائلة مختلفة الآن، في مزرعة. حيث يحيط بها عدد من قرود الشمبانزي الأخرى؛ مما يعني أنها تحظى بالكثير من الأصدقاء الجدد».

شعرت بالغيرة من الأصدقاء الكثر الذين يتسنى لها اللعب معهم في حين أنني لا أستطيع ذلك. وتساءلت في قرارة نفسي إن كانت قد أحبّت أياً منهم أكثر مني.

فجأة، شعرت بالغرابة لأنني كنت أجلس على إحدى ركبتي والدي من دون فيرن التي كانت تجلس عادة على الركبة الأخرى. وكان يحيطني بذراعيه بشدة. عندها، أخبرني كما أخبر لويل لاحقاً (وربما فعل ذلك أكثر من مرة) أننا لا نستطيع الذهاب لرؤيتها لأن ذلك سيؤلمها، وأنها تحظى الآن بحياة جيدة.

«سنفتقدها دائماً، ولكننا نعرف أنها سعيدة؛ وهذا أهم ما في الأمر».

فقلت لأبي: «لا تحب فيرن أن يجبرها أحد على تناول أطعمة جديدة غير معتادة بالنسبة إليها». وكان هذا الأمر يقلقني؛ فقد كنا أنا وفيرن نهتم كثيراً بما سنأكله، فقلت مؤكدة:

«نحن نحب ما اعتدنا عليه فقط».

«يمكن أن تكون الأطعمة الجديدة لذيذة أيضاً. فهناك أكوام من أنواع الأطعمة التي لم تسمع بها فيرن من قبل، وستحبها على الأرجح مثل المانجو».

«لكنها تستطيع تناول طعامها المفضل، أليس كذلك؟».

«المربيات وكعكة التفاح والبازيلاء».

«ألا يمكنها تناول ما تفضله؟».

«لفافات الجيلي وغيرها».

«لكنها تتناول...»

استسلم والدي وقال:

«نعم، نعم، بالطبع... يمكنها تناول ما تفضله».

أذكر أنه قال ذلك.

وقد صدقت أن فيرن موجودة في تلك المزرعة البهيجة طوال سنوات، كما صدق لويل تلك الكذبة على حد سواء.

عندما كنت في الثامنة من عمري تقريباً، تذكرت ما ظننت أنها إحدى ذكرياتي القديمة؛ وقد برزت في ذهني دفعة واحدة، كما لو أنها أحجية يتوجب عليّ حلّها. كنت أركب السيارة مع أهلي وأنا صغيرة جداً، وكنا نسير على طريق ريفي ضيق تحف به الأعشاب التي راحت تحتك بنوافذ السيارة من كلا الطرفين.

فجأة، أوقف والدي السيارة لأنه شاهد أمامنا قطة تجتاز الطريق. ورغم أنني كنت مقيدة إلى كرسي خاص على المقعد الخلفي، إلا أنني أذكرها بوضوح. لقد كانت قطة سوداء اللون، لكن وجهها وبطنها كانا أبيضين. تنقلت القطة أمامنا إلى الأمام والخلف إلى أن نفد صبر والدي، فمشى بالسيارة إلى الأمام ودهسها. أذكر الصدمة التي أصابتني ودفعتني للاعتراض، وأذكر أن أمي قالت في دفاعها عن والدي إن القطة رفضت الابتعاد عن الطريق؛ وكأنه لم يكن باستطاعتهم القيام بأي شيء لإبعادها.

عندما استجمعت كل ذكرياتي عن تلك الحادثة، أخبرت بها الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يصدقها؛ وهو الجدة دونا. كانت تجلس على كرسي جلدي كبير وتقرأ مجلة *People* على الأرجح، وأعتقد أن كارن كاربنتر كانت قد ماتت للتو، وقد أحزن ذلك الخبر كلًّا من جدتيّ الاثنتين. كنت أرتجف وأنا أخبرها بذلك وأحاول ألا أبكي، ولكن من دون أن أنجح. فقالت جدتي:

«يا حبيبتي، أظن أنه مجرد حلم. لا بد أن تعرفي أن والدك لا يمكنه أن يقوم بشيء كهذا».

إذا كان هناك شخص واحد في هذا العالم يتوق إلى كشف أسوأ صفات والدي فهو جدتي دونا، ولهذا شعرت بالارتياح بعد طمأنتها لي. فقد قالت لي الأشياء التي أعرفها، وهي أن والدي رجل طيب وأنه من المستحيل أن يقوم بشيء فظيع كهذا. إلا أنني حتى اليوم أشعر بكل وضوح بالسيارة وهي تمر فوق القطة وتدهسها؛ رغم أنني أعرف بكل ثقة أن تلك الحادثة لم تقع حقاً.

هل كان والدي رفيقاً بالحيوانات؟ ظننتُ ذلك وأنا طفلة، ولكنني لم أكن أعرف شيئاً عن حياة جرذان المختبرات، ولهذا لنعتبر أن والدي كان رفيقاً بالحيوانات التي لا علاقة لها بالتجارب العلمية. إذاً، ما كان ليدهس بسيارته أي قطة ما لم يكن هناك شيء يمكن دراسته من ذلك.

كان يعتقد بشدة أن طبيعة سلوكنا نحن البشر فيها شيء من السلوك الحيواني، إلى درجة أنه وثق بصعوبة تحويل سلوك فيرن ليشبه سلوك البشر مقارنة بسهولة تحويل سلوكي ليشبه سلوك الحيوانات. لم أكن وحدي المعنية بذلك بالطبع، بل أنتم أيضاً... كلنا... كما أخشى. لم يكن يصدق أن الحيوانات تستطيع التفكير، ليس كما كان يعرّف التفكير، ولكنه لم يكن متأثراً بقوة التفكير البشري على حدّ سواء. إذ كان يسمّي العقل البشري شاحنة المهرج المتوقفة بين الأذنين، وما علينا سوى فتح الأبواب ليخرج المهرجون منها.

وعقلانية أبناء البشر كما اعتاد أن يقول كانت فكرة مقنعة بالنسبة إلينا؛ لأننا نريد بكل قوة أن نقتنع بما نقوله. وبالنسبة إلى أي مراقب خارجي غير متحيز لأي طرف، كانت الخدعة مصونة ببراءة اختراع إذا جاز لنا قول ذلك. فالعاطفة والغريزة تكمنان وراء كل قراراتنا وأفعالنا، وكل ما نقدره، والطريقة التي ننظر بها إلى العالم. المنطق والعقلانية طبقة رقيقة من الطلاء الذي نغطي به الحقيقة الممزقة.

والطريقة الوحيدة التي تتيح للإنسان رؤية أي فائدة من كونغرس الولايات المتحدة كما أخبرني والدي في إحدى المرات هي أن ينظر إليه المرء باعتباره دراسة علمية تدوم مئتي عام، وأنه لم يأتِ إلى هذه الحياة ليشهد الثورة المستمرة بلا توقف في أفكارنا عن السلوك الحيواني وغير البشري الذي يقوم به أعضاء ذلك المجلس.

لكنه ليس مخطئاً في قضية المجلس في نهاية الأمر.

7

# ذكريات أخرى عن فيرن:

في الحادثة الأولى التي سأذكرها، كنا في الثالثة من العمر، وكانت أمي تجلس في المكتبة على كرسي على شكل قلب كبير يكفي لتندسّ فيرن في أحد طرفيه وأنا في طرفه الآخر. كان المطر ينهمر في الخارج منذ أيام بشكل متواصل، فشعرت بالملل من البقاء بين جدران المنزل. وكانت فيرن تحب أن يقرأ لها أحد ما القصص. وفي تلك اللحظة، كانت هادئة جداً وكأنها على وشك الاستغراق في النوم وهي ملتصقة بأمي بشدة، وأصابعها تعبث بالحلقة التي تثبِّت حزام بنطال أمي، وكادت تغرق في قيلولتها على حضن أمي، بينما كنت أنا من ناحية أخرى أحاول أن أجد لنفسي متسعاً في زاوية الكرسي؛ من دون أن أشعر بالراحة. لذا، رفست بقدمي حضن أمي، وأصبت فيرن لأدفعها إلى القيام بأي شيء يجعلها في ورطة. عندها، أمرتني أمي بالتوقف عن الحركة بنبرة قاسية للغاية.

كانت تقرأ لنا قصة *Poppins Mary* وكنا قد وصلنا إلى الفصل الذي تكسر فيه سيدة عجوز أصابعها فتتحول بعد ذلك إلى أصابع السكر التي يمصّها الأطفال. أصابني ذلك بالقلق، بينما بدأ فم فيرن يتحرك بتكاسل عندما سمعت كلمة السكر. لم أعرف في تلك اللحظة أنها لا تفهم ما جرى لأصابع السيدة، ولم أفهم سبب عدم اكتراث فيرن بالقصة الحزينة.

قاطعت الحكاية باستمرار لأنني كنت أريد أن أفهم كل ما يقال: ما هي عربة الأطفال؟ وما هو الروماتيزم؟ هل سأصاب بالروماتيزم في يوم من الأيام؟ ما هو الحذاء ذو الجانبين المطاطيين؟ هل يمكن أن أحصل على حذاء مماثل؟ هل غضب مايكل وماري عندما أخذت ماري بوبنز نجومهما؟ وماذا سيحدث لو لم تكن هناك نجوم في السماء؟ هل ذلك ممكن؟ قالت أمي بعد طول عناء:

«حبّاً بالله... هل يمكنك أن تسمحي لي بإكمال القصة؟!».

ولأنها استعملت عبارة حباً بالله التي لم تكن تستعملها إلا عندما تغضب، اضطرت ماري إلى الانسحاب من المكان. فقلت لها إن ماري هي التي كانت تسأل، فأجابت أمي:

«لقد فاض الكيل، لا بد لماري أن تكون لطيفة وهادئة مثل طفلتنا فيرن».

وكما استغنيت عن ماري، استغنت فيرن عني. لم تكن فيرن تعرف معنى الروماتيزم أيضاً، ولكنها أصبحت تعرف معناه الآن بعد أن سألت أنا، بالإضافة إلى تلقيها المديح لأنها لا تقاطع أمي؛ فهي لا تتكلم أصلاً! فكرت حينها في أن

فيرن قد نالت ذلك المديح من دون أن تستحقه، وأنني لا أنال الثناء على أشياء لا أستحقها كما يفعل الجميع معها. كان من الواضح لي عندها أن أمي تحب فيرن أكثر مني... يمكنني أن أرى نصف وجهها، إنها نصف نائمة وأحد جفنيها يرمش وأذنها تنتصب كآذان الجراء فوق رأسها الأسود. وسمعت صوت إصبعها في فمها وهي تمتصّها. نظرت إليّ بعينيها نصف الغافيتين من فوق ذراع أمي... يا إلهي، لقد لعبت لعبتها الدنيئة بكل إتقان... تلك الرضيعة التي ما زالت تضع الحفاض.

# الحادثة الثانية:

حصلت إحدى تلميذات والدي على شريط تسجيل يحتوي على مجموعة مختلفة من الأغاني المسجلة من إحدى محطات الإذاعة المحلية، فوضعته في آلة التسجيل وبدأنا نرقص جميعاً... كل الفتيات... ماما وجدتي وفيرن وأنا وتلميذات والدي الأخريات آمي وكارولين وكورتني. رحنا نرقص على مختلف الأغاني الرائعة القديمة بطريقة ذلك الوقت البعيد.

كانت فيرن تقفز على الأرض بقوة، وتقفز في بعض الأحيان على الكراسي، ثم تحط على الأرض بشدة، ثم دفعت آمي للتلويح لها بشكل دائري، وضحكت طوال ذلك الوقت. كنت أرقص مثلهن؛ فأقفز وأهتزّ، وأقوم بما في وسعي... فصاحت أمي:

«لنرقص رقصة أفريقية». وتقدمتنا وهي تتحرك في كل أرجاء الطابق الأرضي، فيما نحن نمشي وراءها كثعبان طويل ضخم... وتابعنا أنا وفيرن التقدم وراءها قفزاً.

# الذكرى الثالثة:

أشرقت الشمس فوق ثلج حديث العهد، وراح لويل يرمي كرات الثلج على نافذة المطبخ، حيث راحت الكرات ترتطم بالزجاج، ثم تنتثر بنعومة تاركة آثارها عليه. شعرتُ مع فيرن بحماسة منعتنا من الجلوس، فرحنا ندور في أرجاء المطبخ ونحن نلوّح بوشاحينا فوق رأسينا. كنا متشوقتين للخروج للغاية؛ مما جعل عملية إلباسنا الملابس المناسبة لذلك الطقس عملاً مستحيلاً. كانت فيرن تقفز من جانب إلى آخر، ثم تتشقلب إلى الخلف، ثم تعيد ما فعلته مرة تلو الأخرى. ثم وجدتني أنظر إلى رأسها ونحن متشابكتا الأيدي وندور في حلقة معبِّرتين بذلك عن فرحنا وسعادتنا.

سألت عن المكان الذي أتى منه الثلج، وعن سبب هطوله في الشتاء فقط، وعمّا إذا كانت تثلج في أستراليا في الصيف، وإن كان ذلك يعني أن كل شيء في أستراليا معكوس، وإن كان الوقت هناك نهاراً في الليل وظلاماً في

النهار... لم تجب أمي عن أسئلتي، ولكنها اغتاظت لأنها لم تجد طريقة مناسبة لإلباس فيرن حذائها؛ لأنها كانت تصرخ كلما وضعنا أي شيء في قدميها.

كان كل شيء يتعلق باللباس مسألة شائكة بالنسبة إلى فيرن. ما عدا المرات القليلة التي شعرت فيها بالبرد الشديد، باستثناء حفاضها. كانت أمي تتمنى لو لم تكن مضطرة إلى إلباسها، ولكنني مضطرة إلى ارتداء ملابسي، لذا يجب على فيرن أن ترتدي ملابسها أيضاً. أضف إلى ذلك أن ملابس فيرن كانت من اختيارها؛ فقد قررت أمي أن تصنف ملابس فيرن بناء على رغبتها، وهو تعبير شفوي بشري لم يحبذه والدي.

في تلك الآونة، قررت أمي أن تركب قفازيها الكبيرين على كمّي سترة فيرن الرياضية، ثم أدخلت كفّي فيرن فيهما وأخرجتهما بسرعة لكي تعتاد عليهما. نبهتني أمي كي لا أدبّ على أربع، وحذرتني من الركض على الثلج على يديّ وقدميّ. في تلك اللحظة، انتشرت رائحة ما في أرجاء المطبخ، وظننت لوهلة أن أمي ستفكر في إرسال فيرن إلى الخارج أيضاً بسبب ذلك، فقلت لها:

«رائحتها الكريهة فاحت في المكان». فتنهدت أمي وخلعت السترة عن فيرن وحملتها إلى الأعلى لتغير لها حفاضها وملابسها، ثم عاد بها والدي إلى الأسفل وحاول أن يلبسها بنفسه ملابس الثلج. سمعت صوت دش الحمام في الأعلى، وشعرت بأنني أحترق في ملابسي.

في تلك الأثناء، كان لويل يبني رجل ثلج، ولم يتمكن من منح بطنه الحجم المناسب، لأنه كان يريد لبطنه أن يكون كبيراً، وأن يكون جذعه طويلاً بمثل طوله هو، لكن الثلج كان رقيقاً جداً وتحوّل بسرعة إلى جليد متجمداً في مكانه. وعندما اندفعنا أخيراً أنا وفيرن إلى باحة بيت المزرعة المغطاة بالثلج، وجدناه منهمكاً في محاولة تسويته من دون النجاح في جعله مستديراً. قفزنا حوله بينما راح يعمل بكل طاقته، ثم تسلقت فيرن إلى أعلى شجرة التوت التي تظللنا، وكان الثلج يغطي معظم أغصانها فأكلت بعضاً منه عن الشجرة، ثم راحت ترمينا ببعضه الآخر إلى أن طلب منها لويل أن تكف عن ذلك.

لم تكن فيرن تتوقف عندما يُطلب منها ذلك. لذا، وضع لويل قبعته على رأسه، فقفزت على ظهره، وطوّقت عنقه بذراعها، وسمعتها تضحك بصوت يشبه صوت حركة المنشار فوق الخشب... ذهاباً وإياباً. أمسك لويل بذراعها من فوق رأسه، وشقلبها في الهواء رأساً على عقب إلى أن حطت على الأرض، فضحكت أكثر وصعدت الشجرة مجدداً لتكرر اللعبة.

لكن لويل كان قد ابتعد عن المكان بحثاً عن كتلة ثلج أخرى يمكن استعمالها ليبدأ ببناء رجل ثلج جديد وقال لنا:

«أخطأت بانتظاري لكما، لم يكن يجدر بي التوقف عندما كان وضع الثلج مناسباً. والآن، لا بد من العمل بسرعة». وتجاهل صيحات فيرن المترعة بخيبة الأمل.

تخلفت عنهما، ورحت أحفر خندقاً حول رجل الثلج غير المكتمل بيدي العاريتين المتجمدتين. نزلت فيرن عن الشجرة ولحقت بلويل، ثم نظرت إلى الوراء لتتأكد من أنني لحقت بهما، فأشرت لها بأنني أحتاج إلى مساعدتها. في الحالة العادية، لم يكن لدعوتي لها أي تأثير، لكنها استدارت في تلك اللحظة رأساً على عقب وانضمت إليّ لأنها لا تزال ناقمة على لويل.

وقف والدي على الشرفة وكوب القهوة في يده، ثم قال مشيراً بواسطة الكوب إلى رجل الثلج المهجور:

«لا شيء يبقى على حاله. رمّمي الموضع الهش في بطن رجل الثلج الضخم ذاك».

جلست فيرن بجانبي على الأرض، وأسندت ذقنها إلى ذراعي، ووضعت قدميها على أسفل جذع رجل الثلج، ثم حشت فمها بحفنة كبيرة من الثلج، وتلمظت مستمتعة بما ابتلعته، وبعد ذلك لعقت شفتيها، ثم التفتت ونظرت إليّ بعينين متوهجتين. تبدو عينا فيرن أكبر حجماً من عيون البشر، لأن البياض فيهما ليس أبيض بل كهرماني اللون. إنه أفتح قليلاً من لون أزهار السوسن الصفراء. عندما رسمت وجه فيرن يوماً، استعملت لون الطين المحروق لملء المكان الأبيض في عينيها، أما فيرن فلم تكن تنهي رسومها على الإطلاق؛ لأنها كانت دائماً تأكل أقلام التلوين قبل الانتهاء.

رفست فيرن بقدميها الكتلة السفلية من رجل الثلج، فلم أفهم قصدها، هل أرادت مساعدتي؟ لكنها كانت تقصد ذلك فعلاً، فدفعتُ بكل قوتي بواسطة يديّ، وبجهد أقل مما تخيّلت فانكسر وسقط أرضاً.

والآن، أصبحت قادرة على دحرجته ليزداد محيطه إلى القياس المطلوب. راحت فيرن تقفز خلفي بضراوة وحماسة، وكان سطح الكرة الثلجية الكبيرة يتشقق أحياناً أو ينهار، تركت فيرن خلفها أثراً مضطرباً على الثلج؛ لأن القفازين المثبتين على كمّي سترتها كانا يتركان على الثلج شكلاً يشبه شكل حراشف الأسماك.

التفت لويل إلينا وهو يحمي عينيه من الشمس بواسطة كف يده؛ لأن الشمس كادت تعمينا بسبب انعكاس أشعتها على الثلج، ثم سألني مبتسماً:

«كيف فعلتما ذلك؟».

«حاولت جاهدةً، وساعدتني فيرن».

فهزّ رأسه قائلاً: «استعملتما قوة الفتيات... يا له من شيء رائع!».

فقال والدي: «استعملتا قوة الحب... قوة الحب».

ثم وصل طلاب والدي، وذهبنا معاً للتزلج. لم يطلب مني أحد التزام الهدوء؛ لأن فيرن لن تهدأ بكل الأحوال.

طالب والدي المفضل بالنسبة إليّ اسمه مات، من بيرمنجهام في إنكلترا، وكان يناديني لوف، أنا وفيرن معاً. طوّقت ساقيه بذراعيّ، وقفزت صعوداً وهبوطاً على مقدمة حذائه، بينما رمت فيرن نفسها على كاترين وأوقعتها

أرضاً. وعندما نهضت فيرن كانت مغطاة بالثلج الناعم؛ كما لو أنها كعكة مغطاة بالسكر. كانت كل واحدة منا تطالب بطريقتها بأن تُرفع إلى الأعلى وتُؤرجح، وكان هذا يفرحنا كثيراً، لدرجة أن أمي كانت تقول دوماً إننا كنا نفرح لأننا كنا تماماً بجوار بعضنا بعضاً.

لطالما ظننت أنني كنت أقرأ أفكار فيرن مهما كان سلوكها غريباً، ومهما كانت طريقتها في انتزاع نفسها من أي تحدٍّ، وفي التجوّل قفزاً في أرجاء المنزل وكـأنها بالون العرض في متجر ميسي. كنت قادرة على ترجمة أفعالها إلى كلمات... فيرن تريد الخروج، فيرن تريد مشاهدة برنامج افتح يا سمسم، فيرن تعتقد أنك غبي. كان بعض تلك المواقف مجرد استعراض من قبلها، ولكنني كنت مقتنعة بما أخمنه عن قصدها في كل مرة. لماذا لم أفهمها في تلك الحادثة؟ لم يعرفها أحد أكثر مني. كنت أفهم كل حركة وسكنة تصدر عنها، فقد كنت متناغمة معها تماماً؛ كآلتين موسيقيتين تمت دوزنتهما للعزف مع بعضهما فقط.

سأل لويل والدي مرة:

«لماذا يجب عليها أن تتعلم لغتنا؟ لماذا لا نتعلم نحن لغتها؟».

فأجابه والدي أنهم لا يعرفون بعد ما إذا كانت فيرن قادرة على تعلم أي لغة أصلاً، ولكنّهم باتوا يعرفون من دون شك أن القردة لا تمتلك لغة خاصة بها. وأضاف والدي أن لويل اختلط عليه الأمر بين اللغة وطريقة التواصل، في حين أنهما أمران مختلفان تماماً. فاللغة أكثر من مجرد كلمات على حد قوله؛ فهي أيضاً نظام ترتيب الكلمات، ومعرفة مدى تأثير كل كلمة في الأخرى.

إلاّ أنه قال إن ذلك أمر يطول شرحه للصغار أمثالي أنا ولويل، أو لفيرن بالتأكيد، ونحن لن نجلس طويلاً بما يكفي لسماع ما يريد قوله، وإن التجربة بكاملها على صلة قوية بشيء يدعى (*Umwelt*). تابعت ترديد هذه الكلمة بعد سماعها منه بشكل متواصل لأنني أحببت وقعها على الأذن، رغم أنني لم أكن أكترث لمعناها كثيراً في ذلك الوقت، إلى أن طلبوا مني التوقف عن فعل ذلك لأنني أزعجتهم بتكرارها كما لو كنت طبلاً يقرع فوق رؤوسهم. اتضح لي في ما بعد أن الكلمة تشير إلى الطريقة الخاصة بكل متعضية أو شكل من أشكال الحياة في اختبار العالم من حولها.

أنا ابنة عالم نفسيّ، ولهذا أنا متأكدة من أن الناحية الظاهرة التي يزعمون أنهم يدرسونها تكون غالباً مختلفة عما يدرسونه بالفعل.

عندما ربّت عائلة كيلوغ طفلاً بشرياً مع صغير شمبانزي لأول مرة خلال ثلاثينيات القرن العشرين، كان الهدف المعلن هو المقارنة بين القدرات التي تتطور مع الوقت، والمقدرة اللغوية، وما شابه. وكان هذا هو هدف تجربتنا المعلن في البيت أيضاً، لكن الشك بذلك خامرني.

وقد اعتبر آل كيلوغ أن تجربتهم المفعمة بالعاطفة قد ذهبت بسمعتهم إلى الهاوية، لدرجة أن الآخرين توقفوا عن اعتبارهم علماء حقيقيين. وإذا كنت أفهم هذه الحقيقة الآن في عمري هذا فلا بد أن والدي الطموح كان يعرف ذلك في ذلك الوقت. ولهذا، ما كان هدف التجربة التي تحمل اسم (روزماري – فيرن\فيرن – روزماري) قبل أن تنتهي بتلك الطريقة الكارثية المصحوبة بإحساس عارم بالفجيعة؟! ما زلت غير متأكدة.

يبدو لي أن النتائج المهمة لتلك الدراسة كانت تتعلق بي؛ إذ تطورت لغتي مع مرور الوقت أثناء نموي بطريقة لا تناقض نتائج فيرن فقط، بل امتلكتُ عاملاً توقعياً رائعاً قوّض كل المقارنات بيني وبينها.

لقد أدرك العلماء أن وجود التوائم مع بعضهم بعضاً يؤثر بشدة على اكتسابهم للغة، وذلك منذ نشر الدراسة التي أجراها العالمان داي ودايفيس في عام 1930. حصلت تجارب أكثر حداثة وأفضل في سبيعينيات القرن العشرين، لكنني لست واثقة من أن والديّ كانا متشوقين لإعادتها، ولا أعتقد أيضاً أن تلك التجارب كانت مشابهة للوضع الذي عشنا فيه؛ لأن تفاوت القدرات الكامنة بيني وبين فيرن كان كبيراً جداً.

ومع أن طلاب والدي كانوا يفصلونني عن فيرن أحياناً لدراستنا كل على حدة، إلا أننا كنا نقضي معظم وقتنا معاً. ومع مرور الوقت، تمكنت من تطوير مهارة التحدث نيابة عنها، مما دفعها إلى زيادة حجم توقعاتها مني. وعندما أصبحت في الثالثة من العمر، كنت أقوم بدوري بالفعل كمترجمة لفيرن؛ مما كان يعيق تطورها من دون شك.

ولهذا أظن أن والدي قرر أنه بدلاً من دراسة مدى تطور فيرن في مهارات التواصل، عليه أن يدرس مدى جودة تواصل فيرن معي أنا. كان العكس موجوداً بقوة على الأرض... لا يمكن تجاهله، ولا يمكن الاعتراف به على حد سواء. والسؤال الذي ادعى والدي طرحه هو التالي: هل تستطيع فيرن أن تتعلم الكلام بلغة البشر؟ إلا أن الطرح الذي رفض والدي الإقرار به هو: هل تستطيع روزماري تعلم الكلام بلغة الشمبانزي؟

لقد تناقش تيموثي – وهو واحد من طلاب والدي القدامى – مع والدي خلال المرحلة السابقة للغة عندي وعند فيرن، وقال له إننا نمتلك لغة سرية نتفاهم بها في ما بيننا، وتتألف من أصوات شخير وإشارات. لم يُدوّن ذلك قطّ، ولهذا لم أعرف عنه إلا مؤخراً. وقد اعتبر والدي أن هذا الدليل ضعيف وغير علمي وغريب.

في بعض الأحيان، كان الشمبانزي المـُسمّى أوفي – الذي يعتبر نجم إعلانات حقائب السياحة الأمريكية – يظهر على شاشة التلفاز، غير أنّ فيرن لم تكن تكترث له قطّ. ولكن، في إحدى المرات، كنا نشاهد إعادة لأحد المسلسلات التي يشارك في التمثيل فيها شمبانزي حقيقي ووسيم اسمه تونجا، والذي كان يقوم بدور شخصية اسمها (لينك)، وقد أعجبت فيرن

بالشمبانزي الذي كان يتكلم كالبشر ويرتدي بذلة وربطة عنق، فراحت تتابع المسلسل باهتمام وهي تزمّ شفتيها ثم تبسطهما، وعندما رأيت ما كانت تفعله بفمها قلت لأمي: «فيرن تريد قبعة مثل لينك». لم تكن هناك حاجة إلى طلبي القبعة لنفسي، فإذا حصلت فيرن على قبعة، فلا بد أنني سأحصل على واحدة مثلها.

بالإضافة إلى ذلك، لم نكن نمتلك قبعات، لا أنا ولا هي.

بعد وقت قصير من تلك الحادثة، رتّب والدي أمر زيارة قرد اسمه بوريس إلى بيت المزرعة في عصر أحد الأيام. استعملت فيرن في إشارتها إلى بوريس الإشارة نفسها التي تستخدمها لتشير إلى العنكبوت البُنيّ الذي كنا نراه في الحظيرة أحياناً، وهي الإشارة التي كانت والدتي تترجمها إلى: وحش زاحف. ولهذا كان بوريس بالنسبة إلى فيرن: قمامة زاحفة. وقد قالت لي فيرن إن بوريس بدا لها قمامة قذرة تزحف على أربع، ثم اختصرت ذلك إلى قمامة زاحفة.

لقد ظنت فيرن أنها واحدة من أبناء البشر؛ باعتبار أنها كانت تعيش وسطهم، ولم يكن ذلك غير متوقع على الإطلاق. إذ كانت معظم قردة الشمبانزي تضع صورها مع صور البشر عندما يُطلب منها أن تصنف مجموعة من الصور الموجودة أمامها إلى قسمين؛ صور البشر وصور القردة، وهذا ما فعلته فيرن تماماً.

لكن الشيء غير المسبوق الذي لم يكن في الحسبان هو الارتباك الذي أصابني أنا. ولم يعرف والدي في ذلك الوقت ما نعرفه الآن؛ إذ لم يكن يعرف أن الجهاز العصبي في دماغ الطفل الصغير يتطور جزئياً بشكل مماثل للأدمغة المحيطة به؛ كما لو كان مرآة لما حوله. وكلما كان الوقت الذي نمضيه أنا وفيرن مع بعضنا يطول، كانت الحالة عندي وعند فيرن تتطور على حد سواء.

وبعد مرور العديد من السنوات، وجدت بحثاً على الإنترنت كتبه والدي عنّي. وأكدت الدراسات اللاحقة التي أجريت على نطاق أوسع واستمرت لفترات أطول النتائج التي توصل إليها والدي؛ وهي أن البشر يقلدون البيئة المحيطة بهم أكثر من بقية القردة، فهم يحاكونها كما لو كانت انعكاساً في المرآة؛ وهي النتيجة المناقضة لما ظنناه جميعاً.

على سبيل المثال، إذا شاهدت القردة شرحاً تفصيلياً لكيفية استخراج الطعام من علبة تحتوي على أحجية، فإنها لا تقوم بكل الخطوات لحل الأحجية، بل تستخرج الطعام من العلبة مباشرة. وعلى النقيض من ذلك، يقلد أطفال البشر ما شُرح أمامهم، ويكررون كل الخطوات للحصول على الطعام؛ حتى لو كانت غير ضرورية للحصول عليه. وهذا السلوك البشري الذي نقلد فيه ما يجري أمامنا ويجعلنا عبيداً إذا جاز لنا التعبير هو سبب تفوّق عامل تقليد الآخرين على روح الإبداع والمهارات الشخصية الفريدة التي يمكن أن تميز كل

واحد منا عن الآخر، لكنني نسيت بالضبط ما قاله والدي في ذلك البحث، عليكم أن تقرأوا البحث بأنفسكم.

بدأت أرتاد الروضة في الشتاء الذي تلا اختفاء فيرن، وبعد تأخير أكثر من نصف فصل من انتهاء المدة المقررة لإجراء البحث؛ وذلك بسبب الاضطراب النفسي والبكاء والأسى الذي ساد في منزلنا، حيث راح رفاقي في الصف ينادونني بالفتاة القردة، أو بكل بساطة... القردة. كان هناك شيء مختلف في شخصيتي، وربما في تعابير وجهي أو حركاتي، لكن الأشياء التي كنت أتفوه بها هي التي كانت مختلفة عمّا يتفوّه به بقية الأطفال بكل تأكيد. وبعد مرور سنوات على ذلك، أشار والدي بشكل عابر إلى استجابة الناس الغريبة المتمثلة ببغضهم الشديد ومقتهم للسلوكيات التي تشبه تقريباً السلوك البشري ولكنها ليست مماثلة له تماماً. هذا المقت العام لتلك السلوكيات أمر يصعب التعبير عنه ويصعب إثباته، كما يصعب إجراء اختبارات لإثباته، ولكنه يفسر الارتباك الذي يصيب بعض الناس لدى مراقبتهم وجوه القردة. وبالنسبة إلى الأطفال الذين كانوا معي في الروضة، كان وجهي يصيبهم بالارتباك. إذ لم يخدع وجهي المماثل لوجوه أبناء البشر رفاقي الذين كانوا في الخامسة والسادسة من العمر.

لطالما تشاجرت معهم بسبب الكلمات التي كانوا يستعملونها... هل كانوا أغبياء إلى تلك الدرجة؟ هكذا كنت أسأل معلمتي وأنا أنتحب باكية، ألا يعرفون الفرق بين القردة والسعادين؟ لكن موافقتي على تسميتي بالفتاة القردة هي كل ما كان أبناء صفي يحتاجون إليه للتمسك باللقب الذي أطلقوه عليّ. كلّمتني أمي قبل ارتيادي الروضة حول بعض النقاط مثل:

لا بد لي من الوقوف منتصبة القامة.

لا ينبغي لي أن أضع أصابعي في فم أحد أو على شعره.

العض ممنوع منعاً باتاً مهما كان السبب، ومهما كان الوضع يتطلب ذلك.

يجب أن أكتم انفعالي وحماستي تجاه الطعام اللذيذ، ولا يجب أن أحدّق إلى كعكة أحد من رفاقي.

القفز فوق الطاولات والكراسي ممنوع أثناء اللعب.

كنت أذكر تلك الأمور في معظم الوقت، لكن الأوقات التي يحافظ فيها الإنسان على سلوكه الحسن لا تُذكر أبداً كما تُذكر الأوقات التي يزلّ فيها.

إليكم بعض الأشياء التي لم أعرفها إلا بعد ذهابي إلى الروضة:

تعلمت قراءة وجوه الأطفال باعتبار أنهم أقل احتراساً لدى تعاملهم مع الأطفال الآخرين من الكبار، مع أن وجوههم أقل تعبيراً من وجوه القردة.

تعلمت أننا يجب أن نبقى صامتين قدر الإمكان في الصف. (قد تظنون أن والدتي حذرتني من ذلك الأمر، ولكن تنفيذ قاعدة الكلام عن شيء واحد من بين ثلاثة أشياء أفكر فيها لم تكن ترضيني في تلك الآونة).

وتعلمت أن الكلمات الصعبة ليست أمراَ مؤثراَ بالنسبة إلى رفاقي من الأطفال، في حين أن الكبار يكترثون بشدة لمعانيها، ولهذا يكون من الأفضل معرفة معنى تلك الكلمات قبل استعمالها.

لكنّ الأهم هو أنني تعلمت أن المختلف شخص مختلف بكل ما تعنيه الكلمة. كان بإمكاني أن أغيّر ما أقوم به، وأن أغّير ما لم أقم به، لكنّ أياً من محاولاتي لم تغير هويتي الحقيقية، ولم تغير من واقع أنني كنت الإنسان الذي لا يتوقف عن الكلام، ولم تبدل حقيقة أنني الفتاة – القردة.

تمنيت أن تبلي فيرن بين أبناء جنسها أفضل مما كنت أبليه أنا بين أقراني. فقد برهنت دراسة حصلت في عام 2009 أن قردة المكاك نفسها تمقت الأفراد الذين يشبهونها قليلاً في سلوكهم ولا يطابق سلوكهم سلوكها؛ تماماً كما حصل معي أنا في الروضة؛ مما يعني أن ذلك مرجح الحدوث لدى قردة الشمبانزي.

بالطبع، لم أعرف كل ذلك حينها، ولم أفكر فيه، وتخيلت لسنوات عديدة أن حياة فيرن تجربة معاكسة لحكاية طرزان؛ فقد عاشت بين أبناء البشر في مراحل حياتها الأولى، ثم أُعيدت لتعيش بين أبناء جنسها، وقد أحببت التفكير في أنها كانت تخاطب بقية القردة بلغة الرموز كما اعتادت أن تفعل معنا، وأحببت أن أفكر في أنها تقوم بحل الألغاز أو ما شابه بينهم، كما أحببت أن أفكر في أن حياتها معنا قد منحتها العديد من القوى الخارقة.

# القسم الثالث

لم أفهم الأشياء في حياتي كما يفعل بقية الناس، لكنني تصرفت وكأنني فهمتها تحت تأثير المحيطين بي.

*فرانز كافكا، «تقرير للأكاديمية»*

# 1

أظن أن حزن والدتي ووالدي ولويل على فراق فيرن كان أكبر من حزني بكثير؛ فقد حطمهم فراقها. أما أنا فقد تجاوزت حزني عليها بشكل أفضل منهم لأنني كنت أصغر سناً بكثير من أن تغوص ذكراها إلى أعماق نفسي بكل بساطة.

ومع ذلك، كانت الجراح من نصيبي بطرائق أو بأخرى. فقد وصلت فيرن إلى عائلتنا بعد أن كان أبي وأمي وأخي قد كوّنوا شخصياتهم وتسنّى لهم أن يجدوا ذواتهم ويحدِّدوا هوياتهم قبل أن يلتقوها، ولهذا كان عندهم ما يعودون إليه بعد فراقها. أما بالنسبة إليّ، فقد كانت فيرن البداية، إذ لم أكن أتجاوز الشهر من العمر عندما دخلتْ حياتي، وكانت هي في شهرها الثالث من العمر. ولهذا، لن أعرف أبداً من كنت سأكون لو لم ألتقيها.

شعرت بغيابها المادي بقوة، واشتقت إلى رائحتها وأنفاسها الرطبة على عنقي، كما افتقدت إلى أصابعها التي كانت تمررها بين خصلات شعري. كنا نجلس معاً أو نستلقي متلاصقتين بعكس بعضنا... أو نتدافع... أو نلعب بأيدينا وأرجلنا، ونلطم بعضنا بمحبة مئة مرة في اليوم، وقد عانيت بسبب حرماني من كل هذا. كان اختفاؤها وجعاً في قلبي، وجعاً شعرت به في كل خلية من جلدي.

كنت على شفير الانهيار من دون أن أعرف أنني كنت أقتل نفسي تدريجياً، وأنه يجب عليهم منعي. إذ بدأت أنزع شعر حاجبيّ بيدي، ثم رحت أقضم أظفاري حتى اللحم، إلى أن بدأت أصابعي تنزف دماً، فاشترت لي جدتي دونا قفازين وأجبرتني على ارتدائهما أثناء النوم لأشهر طويلة.

اعتادت فيرن أن تحيط خصري بذراعيها النحيلتين الشبيهتين بالأسلاك من الخلف، وأن تضمني إليها فتضغط بوجهها وجسمها على ظهري، وتطابق حركاتها وخطواتها مع خطواتي؛ وكأننا كنا شخصاً واحداً مما كان يضحك طلاب والدي، فشعرنا كلتانا بأننا ذكيتان، وظننا ضحكاتهم تقديراً لنا على حبنا لبعضنا. كان وجود قردة ملتصقة بي يعيقني في بعض الأحيان، لكنني شعرت في معظم الوقت بأنني أكبر حجماً... وكأن المهم في النهاية هو ما نفعله أنا وفيرن معاً، وليس ما تفعله كل واحدة منا على حدة. كنا أنا وفيرن معاً قادرتين تقريباً على فعل أي شيء. في ذلك الوقت، كانت هي الأنا التي كنت أعرفها، وكنتُ النصف الآدمي من الأختين كوك... الرائعتين والفاتنتين اللتين تجسدان لمحة خيالية من عالم آخر.

قرأت في إحدى المرات أنه لا توجد خسارة تقارن بخسارة التوأم لأخيه التوأم، وأن الناجين من تلك المصائب يصفون تلك الحالة بأنهم يشعرون بأن

ذواتهم ناقصة، وأنهم أقل من الأشخاص العاديين؛ وكأن فقدانهم ذلك التوأم أقرب إلى فقدان طرف من أطراف البدن الذي لا يمكنك أن تنسى أبداً صورته الكاملة. وحتى عندما كانت الخسارة تقع أثناء الحمل، كان أولئك الناس يعيشون طوال حياتهم أسرى لشعور غامض بالنقص. وأكثر التوائم معاناة هم التوائم المتطابقون، يليهم التوائم الإخوة غير المتطابقين. وإذا توسعت بمقياسك قليلاً فستجدني أنا وفيرن.

مع أن غيابها لم يؤثر بشكل مباشر على ثرثرتي المتواصلة – في الحقيقة، لقد احتجت إلى سنوات طويلة لنسيانها – إلا أنني فهمت تدريجياً أن إسهابي في الثرثرة من دون توقف لم يكن أمراً ذا قيمة إلا عند وجود أختي. فعندما غادرَت المشهد، توقف جميع من حولي عن الاكتراث بتفوقي في قواعد اللغة والكلمات الجديدة التي أحفظها من المعجم، ولم يُبدوا أي اهتمام بفطنتي ونباهتي البادیتين في قدرتي على تصريف الأفعال وكأنها تمارين رياضية. ومع أنني كنت أظن أنني سأكون أكثر أهمية عند أهلي لو لم تكن موجودة، ولو لم تكن تلهيهم عني، إلاّ أنني اكتشفت العكس. فقد اختفى طلاب والدي من حياتي في اللحظة التي اختفت فيها فيرن. في السابق، كان كل ما أتفوه به يُعتبر معلومات هامة يجب تدوينها بدقة وحرص لدراستها في ما بعد ومناقشتها. وفي يوم آخر مثل بقية الأيام تحولت إلى مجرد فتاة صغيرة غريبة الأطوار ليست لها أي أهمية علمية.

# 2

هناك فائدة من وجود جدار مشترك بين غرفتك وغرفة والديك؛ فهو يتيح لك سماع بعض الأمور، إلا أن هذا الأمر سيئ بالدرجة نفسها. فقد كان والداي يقومان بعلاقة حميمة حيناً، ويتحدثان حيناً آخر، أو يقومان بعلاقة حميمة أثناء حديثهما أحياناً.

لم تتغير الأشياء التي كان والداي يتحدثان عنها طوال سنوات لاحقة كما يمكنكم أن تتخيلوا. فكل ما كان يقلق والدي هو موقفه المهني. لقد كان أستاذاً جامعياً بارزاً في أوج مسيرته العلمية منذ أعوام قليلة، وكان يجمع حوله الطلاب والمريدين والمتخرجين الجدد؛ فقد كان عنده في مختبره ستة تلاميذ مع انتهاء مدة إقامة فيرن عندنا، وكانوا جميعاً يدرسون ويحللون التجربة التي تقام في بيتنا... بيت المزرعة القديم. تمكّن اثنان منهم من إنهاء دراستهم كما خططوا، لكنّ اثنين آخرين فشلا في إنهائها؛ فقد اضطرا في أفضل الأحوال إلى تقليص حجم الأمور التي يركزان عليها بعد أن أصيبا بالممل من تكرار المعلومات نفسها التي جمعوها من قبل. ثم تهاوت سمعة المختبر كله والقسم بكامله مما سبب المعاناة للجميع.

ملأ الشك قلب والدي؛ مع أنه نشر خلال الأعوام الخمسة التي استغرقتها الدراسة عدة أبحاث مثيرة لا عيب فيها، إلاّ أنه أصبح متأكداً من أن زملاءه لا يحترمونه. كما انتشرت الأدلة حوله أينما كان؛ في كل اجتماع لطاقم المدرسين في الجامعة، وفي كل حفلة حضرها؛ فانتهى به الأمر بالإدمان على الشراب.

لم يتوقف لويل عن إثارة المشاكل أيضاً. وفي معظم الأحيان، كان لويل هو المشكلة، لكنني تسببت ببعض تلك المشاكل أيضاً.

كان والداي يستلقيان بجانب بعضهما على سريرهما والقلق يتآكلهما. ماذا يجدر بهما أن يفعلا معنا؟ متى سيعود لويل إلى شخصيته الحساسة والمحبوبة التي يعرفانها؛ تلك المدفونة داخله؟ ومتى سأتمكن أنا من إقامة الصداقات؟

قالت الآنسة دولي ديلانسي – مستشارة أخي – إنه لم يعد يصدق أن والديه يحبانه حباً مطلقاً غير مشروط. كيف يمكنه أن يصدق؟! فقد طُلِب منه أن يعتني بفيرن وكأنها أخته من لحمه ودمه، وهذا ما قام به بالفعل؛ لينتهي الأمر بإبعادها عن حضن العائلة. ووفقاً للآنسة دولي، كان لويل مرتبكاً ومشوشاً وغاضباً. وقد سخر والدي من كلامها قائلاً إنه من الجيد أن نحظى باختصاصية لتقول لنا ما لم نكن نعرفه.

لقد أحبت أمي الآنسة ديلانسي بينما مقتها والدي. وكان لديها ابن في الصف الثالث الابتدائي اسمه زكريا، اعتاد أن يستلقي تحت آلة التدريب

الرياضية في النادي ليفضح لون السروال الداخلي لكل فتاة تمر من فوقه؛ حتى لو كانت ترتدي سروالاً يمنعه من رؤية السروال الداخلي. كنت أعرف أن والديّ يعلمان بهذا الأمر لأنني أخبرتهما، وقد اعتبر والدي أنه أمر مهم ينطوي على الكثير من الحقائق، أما أمي فقد ظنت العكس.

قالت الآنسة ديلانسي إن الصفات التي تجعل الحياة صعبة مع لويل صفاتٌ نبيلةٌ، كالولاء والمحبة وحسّه العالي بالعدالة، وقد أردنا من لويل أن يتغير من دون أن يخسر تلك الصفات.

لم أحصل على مستشار نفسي كأخي، فتطوعت الآنسة ديلانسي للإدلاء برأيها حولي، وقالت إنني أصنف معه في الخانة نفسها، لكنني كنت أحاول جاهدة أن أقوم بكل ما هو صائب، بينما يقوم أخي بالعكس للتعبير عن غضبه. كان كل من تصرفاتنا منطقياً... إذ كنا نستغيث للحصول على مساعدة.

قالت الآنسة ديلانسي إن الأولاد يبرعون لدى معرفتهم بما يتوقعه الآخرون منهم بالضبط؛ متجاهلة أن لويل سيفعل عكس ما يطلب منه بكل تأكيد.

قرر والداي أن يتركا الأمور ضبابية وبلا تقييد مع لويل، وأن يركزا على التخلص مما يسبب له القلق؛ فامتلأ البيت بالحب الموجّه لأخي؛ بكل ما يفضله من طعام وكتب وألعاب وموسيقى... كما أخذه والداي في رحلة إلى ديزني لاند وملآ حياته بالحماسة والسعادة.

لا أفترض أن تشخيص الآنسة ديلانسي خاطئ، ولكنني أظن أنه لم يكن كاملاً. إذ إن بحثها لم يتطرق إلى الأسى العميق الذي كان يكتنف عائلتنا؛ فقد رحلت فيرن، مما سبّب الاضطراب والإحساس بانعدام الأمان والشعور بالخيانة من أقرب الناس. إنها عقدة معقدة من الأمور الشخصية جداً، إلا أنها أيضاً أمر هام بحد ذاته. فقد أحبتنا فيرن وملأت بيتنا باللون والضجة والمرح والدفء والطاقة، وهي تستحق أن نفتقدها، وقد افتقدناها بشدة، ولم يفهم أحد خارج حدود بيتنا ذلك قط.

ولأن المدرسة لم تكن تمنحني الشعور الذي اعتقد الجميع أنني أحتاج إليه – أي التقدير والكيان الخاص – تمّ نقلي من الصف الأول إلى مدرسة الهيبيين التي تقع في الشارع الثاني. لم أعجب الأطفال هناك أيضاً، لكنني لم أحتمل سخريتهم مني، فطلب منهم المعلم أن يحكوا إبطهم كلما أرادوا السخرية مني بدلاً من التعبير عن السخرية بالكلمات، وقد فعل الأطفال ذلك بالفعل في بعض الأحيان، مما جعل الناس – بمن فيهم أبواي – يعتقدون أن حالتي قد تحسنت. حظيت بمعلمة رائعة بادلتني الحب في الصف الأول ذاك. كان اسمها الآنسة رادفورد، وقد منحتني بلا تردد دور الدجاجة في مسرحية الصوص الأحمر الصغير.. منحتني دور البطولة المطلقة. وهذا كل ما تطلبه الأمر لإقناع أمي بأنني أتحسن. وفي تلك المرحلة أيضاً لم تعد أمي تصاب بالإغماء، وبدأت

تصاب بنوبات من الفرح. فأنا وأخي بخير، كما كنا ولدين جيدين وذكيين وصحيحي البنية.

ولكن، هل هناك شخصية أكثر عزلة ووحدة من الدجاجة الصغيرة الحمراء التي طُلِب مني تأدية دورها في تاريخ الأدب العالمي كله؟

ومن ناحية أخرى، أظن أن والدَيّ طلبا من المدرسة عدم ذكر فيرن؛ لأن فهمهما للاختلاف الاجتماعي والصعوبات اليومية التي تواجه الإنسان لا يزيد عن دهشة مؤقتة، ونوع من الشفقة الظاهرية الذي لا يلبث أن يتلاشى بعد ثوانٍ قليلة من تعرضهما لأي ظرف.

«تامي لا تستطيع تناول الحلوى الخاصة بالاحتفال بذكرى ميلاد شانيا لأن لديها حساسية من القمح. سنتعلم اليوم أموراً عديدة عن القمح؛ كالمكان الذي يزرع فيه، والأطعمة التي تحتوي عليه، وستحضّر لنا أم تامي غداً حلوى مصنوعة من دقيق الأرز بدلاً من دقيق القمح لنتذوقه جميعاً. هل يعاني أحدكم من حساسية مشابهة؟».

«اليوم هو باكورة شهر رمضان. عندما سيكبر عماد سيمضي أيام هذا الشهر صائماً طوال النهار مما يعني ألا يأكل أو يشرب أي شيء من الشروق إلى الغروب، يرتبط حلول شهر رمضان بالأشهر القمرية، مما يعني أنه يتغير كل عام. سنصنع اليوم تقويماً قمرياً، وسنرسم لوحات تصورنا كرواد فضاء يمشون على القمر».

«داي يونغ لا يتكلم الإنكليزية لأن عائلته من كوريا، سنبحث اليوم عن كوريا على الخريطة وسنتعلم بعض الكلمات الكورية كي لا يكون داي الشخص الوحيد الذي يتعلم كلمات جديدة هنا. هكذا نقول أهلاً بكم بالكورية...».

لا يمكنني أن أتصور السبب الذي منع طفولتي المشتركة مع فيرن من أن تكون مشروعاً كتلك المشاريع التي كنا نناقشها في الصف.

قدّم لي والدي بعض النصائح لأحسن مهاراتي الاجتماعية. فقد أخبرني أن الناس يرتاحون للأشخاص الذين يقلدونهم كالمرايا. لذا، على سبيل المثال، عندما ينحني أحدهم باتجاهي ليخبرني بأمر ما ينبغي لي أن أنحني باتجاهه أيضاً، ويجب أن أتربع أرضاً عندما يفعل أحدهم ذلك، وأن أبتسم عندما يبتسمون... إلى آخره. لا بد أن أجرب نصيحته مع الأطفال في المدرسة (لكن، عليّ أن أكون بارعة في تنفيذها؛ لأنها لن تنفع إذا لاحظ الآخرون أنني أقلدهم بشكل أعمى). كانت نصيحته جيدة جداً، لكنها أتت بنتائج عكسية، فقد أوصلتني بشكل مباشر إلى ما هربت منه؛ إلى تسمية الفتاة القردة. الفتاة القردة فعلت كذا، الفتاة القردة قامت بكذا؛ مما يعني أنني لم أنفّذ النصيحة بمهارة وحذق.

سمعت أمي عبر جدار غرفة النوم تقول إن الإنسان لا يحتاج إلى الكثير من الأصدقاء في المدرسة، بل يحتاج إلى صديق واحد، وهذا يكفي. تظاهرت لفترة قصيرة خلال الصف الثالث الابتدائي أن داي يونغ صديقي الوحيد. صحيح أنه لم يكن يتكلم، ولكنني كنت أتكلم بما يكفي عنا نحن الاثنين. كنا نتناول

الغداء معاً، أو نتناوله على الطاولة نفسها؛ إذا شئتم ذلك. وكان يجلس على المقعد المجاور لمقعدي في الصف؛ بسبب افتراض الفائدة العظيمة التي ستعود بها ثرثرتي اللا متناهية عليه. وما يثير السخرية هو أن لغته لم تتحسن لدى مرافقته لي، ولكنه ما إن تكلم حتى رافق تلاميذ آخرين. لقد كانت علاقتنا جميلة، ولكنها كانت قصيرة الأمد.

ما إن تمكن داي من التعبير عما يجول في خاطره حتى نُقل إلى المدرسة العامة. فقد طمح والداه بأن يرتاد مدرسة الرياضيات الخاصة في الشمال، وقد هاتفتني أمي عام 1996 في الجامعة في ديفيس لتخبرني أن داي نجح بالفعل في دخول معهد بيركلي للرياضيات، وقالت حرفياً:

«يمكنكما أن تترافقا مجدداً. من الممكن أن تنسجما...»

لقد ظنت أمي أن صداقة قد نشأت بيننا يوماً، ولم تستسلم منذ ذلك الحين.

في كوريا يقولون: وون سوونغ إيي للتعبير عن القرد، هكذا يتفوهون بالكلمة، ولكنني لا أعرف كتابتها الصحيحة.

# 3

في تلك الأثناء، وصل لويل إلى المدرسة الثانوية التي كان تأقلمه فيها أسهل مما كان الأمر عليه في الإعدادية. توقف أخي عن المطالبة بالذهاب لرؤية فيرن، ولم يعد يذكرها إلا نادراً؛ تماماً مثلنا. كان هادئاً ومهذباً عموماً، فعمّ السلام البيت كغطاء ثلجي حالم ورقيق. وفي إحدى السنوات، أهدى أمي في يوم الأم علبة موسيقية تصدر لحن سمفونية بحيرة البجع، وقد قضت أمي ساعات في ذرف الدموع كلما سمعت ذلك اللحن منها في الأيام التالية.

بقي ماركو صديق أخي المفضل؛ مع أن والدته لم تعد تفضِّل لويل كما كانت تفعل من قبل بعد أن سرقا معاً بعض الحلوى من أحد المتاجر وقُبِض عليهما وعلم الجميع بالأمر.

بقي لويل طوال تلك السنوات أيضاً على علاقة متقطعة بفتاة اسمها كاثرين كالمرز يناديها الجميع باسم كيتش. وكانت كيتش تلك تنتمي إلى الطائفة المورمونية، وكان والداها صارمين وغارقين في حياتهما المكتظة بأولادهما التسعة، ولهذا كان تدبير شؤون حياتها يقع على عاتق أخويها الأكبر منها سناً، وكان كل منهما يتعامل مع أمورها بطريقته الخاصة. فكان أحدهما يأتي إلى بيتنا ويرافقها إلى المنزل كلما تأخرت عن موعد غروب الشمس (فبعد هذا الوقت لا يُسمح لها بالتجول وحدها). أما الآخر فكان يشتري لها زجاجات الشراب من مزرعة بون كي لا تضطر إلى الوقوف بين الناس المحتشدين لشرائه. هذا الاختلاف بين سلوك الأخوين كان نموذجاً سلوكياً ضعيفاً يدل على حال تلك الأسرة كما كان والدي سيقول لو أجرى عليهم دراسات سلوكية. لكن كيتش كانت فتاة مشهورة رغم كل ما يحيط بها من مشاكل.

لم يكن يُسمح للويل أن يقترب من غرفة نوم كيتش عندما يزور بيتها، لكن والدَيّ كانا يتّبعان ما أسمته والدتي سياسة الباب المفتوح، والتي تعني أنه يُسمح لكيتش بأن تدخل غرفة لويل شرط ترك الباب مفتوحاً. وكان يُطلب مني أحياناً أن أذهب للاطمئنان على الباب المفتوح، وكنت أجده دوماً مفتوحاً على مصراعيه كما طلب والداي. لكن لويل وكيتش كانا يستلقيان أحياناً على السرير بكامل ملابسهما، ولكنهما يحاولان احتلال المساحة نفسها من السرير بكل نشاط وقوة. لم تسألني أمي عن تلك الناحية، ولهذا لم أخبرها. لقد تعلمت مع مرور الوقت ألا أبوح بما أراه للآخرين.

في الواقع، في مرحلة ما، توقفت عن الكلام في أغلب الأحيان، ولا يمكنني أن أخبركم عن الوقت الذي حصل فيه ذلك بالضبط. فقبل سنوات من ذلك، تصوّرت أن حالي في المدرسة سيكون أفضل إذا لم ألفت نظر الآخرين إليّ،

لكن استيعاب تلك النقطة وتطبيقها أمران مختلفان للغاية. ولهذا حصل ذلك تدريجياً مع مرور الوقت عبر بذل الجهد المتواصل لتحقيقه. قررت أولاً أن أتوقف عن التلفظ بالكلمات الصعبة لأنها لا تفيدني بشيء، ثم توقفت عن تصحيح أخطاء الآخرين عندما يستعملون المفردات في غير مكانها، ثم رفعت نسبة الأشياء التي أود قولها من شيء من أصل ثلاثة أشياء إلى واحد من أربعة، ثم إلى واحد من خمسة، ثم واحد من ستة، فسبعة.

بقي تفكيري على حاله. فقد تابعت التفكير كما كنت أفعل من قبل، وتخيّلت في بعض الأحيان ردود الفعل التي كنت سأحصل عليها لو بحت بما أفكر فيه بصوت عالٍ، وما يمكنني أن أرد به على ردود الأفعال تلك، وهلم جراً. ازدحمت أفكاري تلك التي لم تخرج إلى العلن في ذهني، وتحوّل رأسي إلى مكان صاخب وهمجي بعيد عن كل ما يحيط به من حضارة؛ كما كان حال مرفأ موس إيسلي الفضائي في فيلم حرب النجوم.

وهكذا، بدأ المدرسون يتذمرون من عدم انتباهي. في الماضي، كنت دوماً في قمة انتباهي؛ حتى أثناء ثرثرتي المتواصلة، أما الآن فقد أصابني التشتت كما قالت أمي.

بينما قال أبي إنني فقدت تركيزي كالتائهة.

ولم يعلق لويل على حالتي، لأنه لم يلاحظها حسبما أعتقد.

في سنته الأخيرة في الثانوية، كان يلعب في فريق كرة السلة في المدرسة كلاعب ارتكاز، وكان هذا المركز في الفريق يدل على حيازة صاحبه على السلطة والمكانة بين أفراد فريقه وبقية الطلاب؛ لدرجة أن مكانته تلك سهلت علي أمور حياتي. فقد كنت أحضر كل المباريات، وما زال صوت صدى الكرة في ملعب المدرسة ورنين أجراس المباريات والروائح وصوت ارتطام الكرة بأرضية الملعب الخشبية تثير في نفسي أعمق المشاعر، وأهمها الإحساس بالراحة والرفاهية. كان الجميع لطفاء معي أثناء فترة إدارة أخي فريقه في المباريات؛ أيام فريق إنديانا لكرة السلة.

كان في مدرسة ماريون التي تقع أيضاً في إنديانا فريق قوي في ذلك العام، وكنا على وشك خوض مباراة معهم، فشعرت بحماسة شديدة دفعتني للثرثرة، وصنعتُ لوحة جدارية تحتوي على ثعبان ملفوف حول كرة سلة بشكل رقم تسعة – وهو رقم قميص لويل – وعلقتها على نافذة غرفة الجلوس. وفي أحد الأيام، حضر لويل إلى البيت في وقت التدريب، وقد عرفت بقدومه من الطريقة المميزة التي يغلق بها باب البيت.

كنت أقرأ شيئاً ما في الطابق العلوي – جسر تيرابي ربما أو تيا أو حيث ينمو السرخس الأحمر – كنت أقرأ واحداً من تلك الكتب التي يموت فيها أحد ما لأنني كنت غارقة في دموعي في تلك اللحظة. وكانت والدتي خارج المنزل، لا أذكر مكانها، لكنني لا أظن أن وجودها كان سيغير أي شيء مما جرى، وأنا

سعيدة لأنها لم تكن موجودة كي لا تحاول تغيير أي شيء، كما أن ما جرى سبب لها تأنيب الضمير في ما بعد.

نزلت إلى الأسفل لأعرف ما يجري، فاكتشفت أن بابه كان مغلقاً. فتحته، ووجدت لويل منبطحاً على سريره وقدماه على وسادته ورأسه مكان القدمين. نظر إلى الخلف ولكنه لم يُدِر رأسه كثيراً، فلم أتمكن من رؤية كامل وجهه، وقال لي بصوت جارح كالأظفار:

«اغربي عن وجهي».

غير أنني لم أتحرك من مكاني.

عندها، أنزل قدميه إلى الأرض، ووقف والتفت باتجاهي بوجهه المحتقن والرطب والمتعرق، ثم حملني ورماني خارجاً وقال:

«لا تدخلي إلى هنا مرة أخرى... أبداً».

ثم أغلق الباب.

كان لويل طبيعياً لدى حلول وقت العشاء. فقد تناول طعامه، وتحدث مع والدي عن المباراة القادمة. لم يخبره بأنه تخلف عن موعد التمرين، ولم أخبره بذلك أنا أيضاً. ثم شاهدنا حلقة من مسلسل كوميدي. أذكر ضحكاته في ذلك المساء؛ إذ كان ذلك آخر شيء فعلناه معاً.

في تلك الليلة، أخذ كل نقوده التي كان يودعها في دمية قماشية تشبه الجيب صنعتها له الجدة دونا عندما كان مصاباً بمرض الجدري، ووضعه في حقيبة النادي الرياضي مع بعض الملابس. لطالما كان موهوباً في الحصول على المال، ولم يكن ينفق منه قرشاً، ولهذا أظن أنه كان يملك مبلغاً لا بأس به، ثم أخذ مفاتيح والدي وذهب إلى المختبر وأخرج كل الجرذان من أقفاصها ووضعها في عدة أقفاص كبيرة واصطحبها معه، ثم حرر كل تلك الجرذان في الشارع، وركب حافلة متجهة إلى شيكاغو ولم يرجع قط.

فقد طلاب والدي مجدداً كل المعلومات التي بذلوا أعواماً في جمعها. ولم يكن ما فعله لويل للجرذان أمراً جيداً كما قال والدي؛ لأن الطقس في الخارج كان سيئاً. ولم يكن ما فعله لويل جيداً بالنسبة إلى والدي أيضاً... فصحيح أنه ظلّ يُعلِّم في الجامعة، ولكنه لم يحصل على تلاميذ لتدريبهم بعد ذلك قط، ولم يرغب أحد من زملائه العلماء في العمل معه مجدداً. كان رحيل لويل قاسياً على أمي، أقسى من فراق فيرن. ولا يمكنني أن أصف ما فعله بها فراقه؛ لأنها لم تتمكن قط من التظاهر حتى بأنها قد تجاوزت هروبه ذاك.

ظننا جميعاً في البداية أنه سيعود لا محالة. كانت ذكرى ميلادي على الأبواب، وكنت على ثقة من أنه لن يفوت عليه حضورها. وكان من عادته أن يرحل بضعة أيام بين الحين والآخر؛ أربعة أيام تقريباً كل مرة، وكان يعود كل مرة من دون أن يعرف أحد منا أين قضى تلك الأيام. ولهذا، احتاج والداي إلى فترة من الزمن ليدركا أن هذه المرة مختلفة عن سابقتها؛ رغم حادثة إطلاق الجرذان من المختبر التي لم تحدث من قبل. وهكذا، قرر والداي بعد مرور

أسبوعين على اختفائه أن عناصر الشرطة غير أكفاء؛ لأنهم اعتبروه مراهقاً معتاداً على الهرب وراشداً حديثاً باعتبار أنه بلغ الثامنة عشرة من عمره منذ وقت وجيز؛ مما يعني أنهم غير مضطرين إلى البحث عنه. ولهذا عيّن والداي محققاً خاصاً على نفقتهما للبحث عنه. وقد كان ذلك المحقق امرأة مجنونة اسمها ك.ت. باين. في البداية، داومت باين على الاتصال بمنزلنا بشكل دوري، ولم تجد لأخي أي أثر، غير أنها تابعت البحث. كانت لديها وجهة نظر في موضوعه، ومن المحتمل أنها قدمت لهما تقاريراً عنه، ومن الممكن أنهم تعاملوا جميعاً مع الأمر بطريقة خاطئة، أو ربما خُيّل لي ذلك لأن أحداً لم يكن يخبرني بأي شيء. كانت تحييني إذا أجبتها على الهاتف بالقول:

«مرحباً يا صغيرة، كيف تمضين أيامك؟».

وكنت أبقى قريبة من الهاتف لألتقط أي معلومة ممكنة؛ لكن أحاديث والديَّ معها عبر الهاتف كانت دوماً مقتضبة وخالية من أي شيء مهم.

ثم اختفى لويل كلياً. تدهورت حالة أمي مع كل اتصال هاتفي أكثر من سابقه. وفي النهاية، طلب والدي من باين أن تتصل بالمكتب عندما تريد مكالمتنا بدلاً من المنزل.

ثم عيّنا محققاً ثانياً.

تحولت الأسابيع إلى أشهر من دون أن نفقد أملنا بعودته. لم أنتقل إلى غرفته قط، مع أنني كنت أنام غالباً على سريره لأن ذلك كان يمنحني شعوراً بالقرب منه، ويبعدني عن ذلك الجدار المشترك بين غرفتي وغرفة والديّ، وعن نواح أمي المتواصل. وفي أحد الأيام، وجدت رسالة تركها لي في إحدى الروايات. كان يعرف أنني أعود دوماً لقراءة تلك السلسلة، وعرف أن الزمن لن يطول بي حتى أبحث عن السلوى والعزاء فيها؛ لأنها تصف عالماً شبيهاً ببلومنغتون وإنديانا أكثر من أي مكان آخر في هذا العالم. وكان قد كتب لي في رسالته قائلاً:

«فيرن ليست موجودة في مزرعة ملعونة».

احتفظت بالرسالة لنفسي لأن أمي لم تكن في مزاج يسمح لي بإخبارها بذلك. وافترضت أن فيرن بقيت لفترة من الوقت في المزرعة، ثم أبعدت إلى مكان آخر لأنها أساءت التصرف على الأغلب. وبالإضافة إلى ذلك، كنت على ثقة تامة بأن لويل قد رحل لإيجاد حل لها، وأنه سيقوم بواجبه تجاه فيرن ثم سيعود ليعتني بي.

ولم يخطر ببالي مرة واحدة أن والدي كان يكذب طوال كل ذلك الوقت.

عندما كنت في الثامنة أو التاسعة من عمري، اعتدتُ يومياً قبل الخلود إلى النوم أن أتخيل نفسي أعيش مع فيرن في مزرعتها. في حلمي ذاك، لم يكن هناك أي بشر ولا أي شخص كبير، بل قردة شمبانزي صغيرة في السن، قردة تحتاج إلى من يعلمها الأغاني ويقرأ لها الكتب. وكانت القصة التي أرويها

لنفسي قبل النوم هي القصة التي أحكيها لقردة الشمبانزي قبل نومها. لقد كان حلمي ذاك متأثراً جزئياً بقصة بيتر بان.

وقد ألهمتني قصة عائلة روبنسون السويسرية حسب نسخة أفلام ديزني أيضاً. وعندما كنا نقصد مدينة ديزني كان بيت الشجرة هو مكاني المفضل فيها. لو لم يكن لدي والدان يراقبان كل حركة من تحركاتي، لو كنت طفلة يتيمة سعيدة ليس لديها من يهتم لأمرها، لكنت قد اختبأت تحت البيانو إلى أن تغلق المدينة أبوابها، ثم خرجت من مخبئي واتخذت من ذلك المكان مسكناً لي.

نقلت كل شيء أحببته إلى مزرعة فيرن التي بنيتها في حلمي. نقلت الشجرة بكاملها، بكامل جذورها وجذعها وأغصانها، وتمحورت تأملاتي الليلية حول البكرات والأسلاك التي سنثبت بها كل شيء، والطريقة التي سنحصل بها على الماء ونزرع بها الخضراوات. كنت أحب الخضار في حلمي، وكنت أريد أن أحصل على كل شيء في كوخ الشجرة من دون أن أبارحه. كنت أستغرق في النوم يومياً والرؤى تملأ خيالي، وأنا أبحث عن حلول عملية للتحديات اللوجستية التي يمكنني أن أواجهها عند بناء كوخي.

ويا لسخرية القدر! إذ انتقلت عائلة روبنسون بالقوة بعد سنوات من ذلك إلى خارج كوخ الشجرة الموجود في مدينة ألعاب ديزني، وحل طرزان وأمه القردة كالا محلهم.

سحقت ماريون كل منافساتها في ثانوية بلومنغتون الجنوبية، ثم فازت بمسابقة جمال الولاية، وهي السنة الأولى في سباق يدوم ثلاث سنوات تحت اسم (Reign Purple). لا أظن أن لويل كان يتوقع حصول ذلك مع صديقته. ومع ذلك، لم يساعدني اختفاؤه بأي شكل على الصعيد الاجتماعي. في الصباح الذي تلا تلك المباراة، وجدنا المناديل الورقية الخاصة بالمرحاض متدلية كالشلال من أغصان شجرة التوت في حديقتنا، وثلاثة أكياس طافحة بالفضلات أمام باب منزلنا الأمامي، ربما كانت فضلات كلاب، ولكن... من يدري!؟ في ذلك اليوم، لعبنا مباراة رياضية في المدرسة، وعدت إلى البيت سيراً على قدميّ وعلى وجهي كدمةكبيرة. لم يحاول أحد إيقاف الأولاد عندما ضربوني في المباراة، وأشك في أن بعض المدرسين تمنوا لو كان بوسعهم المشاركة في ما جرى.

تحولت الأشهر إلى أعوام.

في اليوم الأول من الصف السابع، ألصق أحدهم صفحة من مجلة ناشيونال جيوغرافيك على ظهر سترتي من الخلف. كانت تصور مؤخرة قردة شمبانزي في وقت التزاوج، وهي حمراء ومتورمة وأشبه بصورة الهدف الذي يصوب عليه الرماة. وخلال الساعتين التاليتين، كان الفتيان ينكزونني بأصابعهم على ظهري أينما دخلت وأينما مررت بحركة بذيئة؛ إلى أن لاحظت معلمة اللغة الفرنسية الصورة وأزالتها عن ظهري.

عرفت أن سنواتي المقبلة في المدرسة الإعدادية ستكون مشابهة لما جرى في ذلك اليوم الأول، أضيفوا إلى ذلك العلكة والحبر والماء المستخرج من المراحيض. بعد الغضب الذي اجتاحني بسبب ما جرى في ذلك اليوم، عدت إلى البيت وحبست نفسي في الحمام، ثم فتحت الماء لأخفي صوتي وانتحبت. بكيت من أجل لويل الذي كنت لا أزال مقتنعة بأنه سيعود يوماً ما. وقلت لنفسي إنه سيلقنهم درساً لدى عودته، وسيوقف كل تلك التصرفات المؤذية، وسيجعلهم يندمون. وكل ما علي فعله حتى ذلك الحين هو الاستمرار في حياتي، ومتابعة دروسي على مقاعد تلك المدرسة، والتنقل في أرجاءها إلى أن ينتهي كل شيء بعودته.

لم أخبر والديَّ مطلقاً بما يجري؛ إذ لم تكن والدتي قوية بما يكفي لسماع ذلك، وربما لم تكن لتخرج من غرفتها مطلقاً لو أخبرتها، وكل ما كان بإمكاني فعله لمساعدتها حينها هو أن أكون بخير. وعملت جاهدة على التظاهر بذلك، وكأن تلك مهنتي وعملي. لا تذمر ولا شكوى من ظروف العمل في مهنتي.

لم تكن هناك أي فائدة ترجى من إخبار والدي بما يحصل لأنه لن ينقلني من أي مدرسة بعد يوم واحد من بداية عهدي بها. ولا يمكنه مساعدتي، ولن يسبب سوى الاضطراب إذا حاول القيام بذلك. الأهالي أبرياء جداً أمام طلاب المدرسة الإعدادية.

وهكذا، حافظت على صمتي، ولم أبح بأي شيء. ومنذ ذلك الوقت كنت صامتة على الدوام.

ولحسن الحظ، كان ما جرى في اليوم الأول أسوأ ما يمكن أن تصير إليه الأمور. فقد احتوت المدرسة على تلاميذ غريبي الأطوار أكثر مني، وقد تحملوا إساءات بقية التلاميذ الكثيرة بدلاً عني. وكان شخص ما يسألني بين الحين والآخر باهتمام وبشكل جدي عمّا إذا كنت في فترة الإخصاب والتزاوج (وهي فترة خاصة بالحيوانات الثديية). وكان ذلك خطئي وحدي؛ لأن أياً منهم لم يكن ليعرف تلك المفردة لو لم أستخدمها من قبل، وعلى الأغلب أنني استعملتها منذ فترة قريبة، وربما جرى ذلك في الصف الرابع الابتدائي. ولكن عموماً، لم يكن أحد يوجّه لي الكلام.

كان والداي يتحدثان في غرفتهما تحت جنح الظلام عن القلق الذي يشعران به إزاء صمتي الغريب هذا، وكانا يُطمئنان بعضهما بأنه شيء عادي ومُتوقّع باعتبار أنه جزء من طور المراهقة النموذجي، وأنهما كانا هكذا عندما كانا مراهقين، وأن تلك المرحلة ستنتهي قريباً بعد تجاوزي لها، وأنني سأصل إلى مرحلة وسطى بين هذري المتواصل السابق وصمتي الكامل الحالي لا محالة.

وبين الحين والآخر، كانت تصلنا بعض الأخبار من لويل. إذ كان يرسل لنا بطاقة بريدية مرفقة في بعض الأحيان مع رسالة، لكنها كانت دائماً غير موقعة. أذكر أن إحدى تلك البطاقات كانت مختومة بختم بريد سانت لويس وتحمل صورة مضمار ناشفيل الرياضي، وقد كتب على أسفلها:

«أرجو أن تكونوا بخير».
إنها كلمات يصعب إعرابها... شيء ينبغي عليك أن تبذل جهداً لفهم حقيقته، ويمكنه بكل بساطة أن يعني ما يقوله حرفياً. من المحتمل أن لويل كان يأمل حقاً في أن نكون سعداء.

توقفنا عن البحث عنه في بداية شهر حزيران عام1987. وكان قد مضى على غيابه أكثر من عام. كنت ألعب بكرة تنس وأرميها على باب المرأب أمام المنزل ثم التقطها، وهي الطريقة التي تلعب بها لعبة الرمي والالتقاط عندما لا يكون لديك شخص تلاعبه. كنت في الثالثة عشرة من عمري، والصيف الطويل بكامله أمامي قبل العودة إلى المدرسة. وكانت الشمس ساطعة، والهواء رطباً وساكناً. وفي غرفتي تنتظرني سبعة كتب أحضرتها في صباح ذلك اليوم من المكتبة؛ ثلاثة منها لم أقرأها من قبل. لوّحت لي السيدة بايارد التي كانت تجز عشب حديقتها، وكانت آلة جز العشب الخاصة بها تصدر أزيزاً منوماً كالنحل. لم أكن سعيدة في ذلك اليوم، لكنني كنت أذكر طعم السعادة.
فجأة، وقفت سيارة سوداء أمام بيتنا، ونزل منها رجلان وتقدما باتجاهنا، وقال لي أحدهما:
«نريد التحدث إلى أخيكِ».
كانت بشرة الرجل سمراء، وقد حلق شعره قصيراً جداً؛ لدرجة أنه كان يبدو شبه أصلع، وكان رأسه متعرقاً بسبب الحر. تناول منديلاً ومسح به رأسه. كان سيطيب لي أن أفعل ذلك بنفسي أيضاً، أي أن أمسح بيدي على شعره لأن ملمس شعره الخشن والقصير كان سيعجبني. ثم سألني الرجل الآخر:
«هل يمكنك مناداته؟».
«أخي مع فيرن». أجبتهما، ثم مسحتُ يديّ ببنطالي لأتخلص من الحكة التي أصابتني وتابعت: «ذهب ليعيش مع فيرن».
خرجت أمي من المنزل، وأشارت لي لأنضم إليها على الشرفة، ثم أمسكت بمعصمي وخبأتني خلف ظهرها وحالت بيني وبين الرجلين. فقال لها الرجل شبه الأصلع:
«نحن من وكالة التحقيقات الفيدرالية يا سيدتي». ثم أراها شارته وأخبرها أن أخي متورط في افتعال حريق في مختبر تُرمان للتشخيص المرضي البيطري في جامعة ديفيس، وأن الحريق أدى إلى حصول أضرار تقدر قيمتها بأكثر من أربعة ملايين وستمئة ألف دولار. ثم قال الآخر:
«من الأفضل له أن يأتي إلينا طوعاً. عليك أن تخبريه بذلك».
ثم سألنا الآخر:
«من هي فيرن؟».

تم الإمساك بمعظم الجرذان التي أطلقها لويل، ولكنهم لم يمسكوا بها كلها. ورغم توقعات والدي الكارثية الرهيبة، إلا أن بعضها تمكن من النجاة في ذلك الشتاء وفي الشتاء الذي تلاه أيضاً. وتمكنت كل الجرذان من عيش حياتها الطبيعية والتزاوج والسفر والمغامرة. وبقي الناس يبلغون عن مشاهدتهم جرذان مختبرات في بلومنغتون. وُجِد أحد تلك الجرذان مختبئاً في حذاء في خزانة أحد المهاجع الجامعية، ووُجِد آخر في مقهى يقع في وسط المدينة، وآخر تحت المقعد في دار العبادة في المدينة الجامعية، وواحد آخر في مقبرة دَنّ حيث كان يقضم الزهور البرية التي تغطي أحد القبور العائدة إلى زمن الحرب الأهلية.

# 4

وفي أحد أيام الخريف الجميلة بعد بلوغي الخامسة عشرة من العمر، كنت أقود دراجتي في أنحاء حرم المدينة الجامعية فنادتني إحداهن بعد مروري أمامها:

«روزماري... انتظري، انتظري». وهكذا، توقفت وانتظرت صاحبة الصوت، وإذ بها كيتش كالمرز التي أصبحت طالبة جامعية الآن، وبدت سعيدة جداً للقائي.

«روزماري كوك... صديقتي القديمة منذ ذلك اليوم».

اصطحبتني كيتش إلى صالة الطلاب، واشترت لي علبة كوكا كولا، وحكت لي قليلاً عن حياتها بينما بقيت أنا صامتة. قالت لي إنها ندمت على أفعالها المتهورة في صغرها، وتمنّت ألا أرتكب أخطاءها نفسها، ثم حذرتني من أن بعض الأشياء لا يمكن التراجع عنها بعد ارتكابها، لكنها صححت مسارها الآن. أخبرتني أنها انضمت إلى نادٍ حصري للفتيات في الجامعة، وأن درجاتها الجامعية جيدة، وأنها ستحصل على إجازة جامعية في التربية، وهو شيء يجدر بي التفكير فيه أيضاً. وقالت لي: «يمكنك أنت أيضاً أن تصبحي معلمة جيدة». وحتى اليوم، لا أعرف السبب الذي دفع الناس إلى اعتقاد ذلك، مع أنني امتهنت تلك المهنة في النهاية.

أخبرتني عن صديقها اللطيف الذي سافر في مهمة إلى البيرو، وأنه يخابرها هاتفياً كل أسبوع. ثم سألتني أخيراً إن كنا نعرف أي شيء عن لويل. فهي لم تسمع أي أخبار عنه قط، ولم تعرف أياً من أخباره منذ اليوم الذي غادر فيه، وكانت تعتقد أنها تستحق معاملة أفضل من ذلك، وأننا جميعاً نستحق معاملة أفضل لأننا كنا عائلة محبّة.

ثم أخبرتني شيئاً لم أكن أعرفه عن آخر لقاء لها بلويل. كانا متجهين إلى ملعب كرة السلة حيث تقام التدريبات، والتقيا على الطريق بمات كما قالت. مات هو تلميذ والدي المفضل عندي، مات القادم من برمنجهام، مات الذي لم ألتقه مرة واحدة بعد اختفاء فيرن.

مات الذي غادر من دون أن يودعني؛ رغم أنه كان يعرف أنني أحبه حباً جماً.

اكتشفا في ذلك اليوم أن مات قد غادر بلومنغتون مع فيرن، وبدا متفاجئاً لأن لويل لم يكن يعرف تلك المعلومة. وأخبره أيضاً أن قردة الشمبانزي تموت عادة بعد فترة من فصلها عن العائلة التي كانت تعيش برفقتها من دون أي سبب واضح غير الشعور بالأسى على فراق أحبتها. ولهذا، أُرسِل مات معها بعد أن تطوع لمساعدتها على الانتقال، وأخبر لويل أنها نُقلت إلى مختبر للأبحاث النفسية في فيرميليون في جنوب داكوتا، وأن ذلك المختبر كان يحتوي على

أكثر من عشرين قرد شمبانزي ويديره الدكتور أولجيفيك، وهو شخص لا يمكن قول أي كلمة طيبة عنه.

لقد صمم الدكتور أولجيفيك – رغم معاناة فيرن الواضحة من الصدمة والرعب الناتجين عن نقلها من بيتنا – على تحديد الوقت المسموح لها فيه بلقاء مات بعدة ساعات كل أسبوع فقط، ووضع فيرن مباشرة في قفص برفقة أربع قردة أكبر منها سناً. وعندما أخبره مات أنها لم تلتق من قبل قردة على الإطلاق وأنه من الأفضل تعويدها عليها تدريجياً، رفض الدكتور أولجيفيك اقتراحه وقال:

«إذا لم تتعلم أن تجد لنفسها مكاناً بين أبناء جنسها فلا يمكننا أن نحتفظ بها هنا».

لم يستعمل الدكتور اسمها ولا مرة واحدة في حضور مات طوال الوقت الذي أمضاه هذا الأخير هناك.

فقالت كيتش:

«ثم... فقد لويل عقله».

حاولت إقناعه بالذهاب لحضور التدريب خوفاً من معاقبته بوضعه مع لاعبي الاحتياط خلال المباراة مع فريق ماريون، وقالت له إن رفاقه في الفريق والمدرسة والبلدة بكاملها قد عقدوا عليه آمالهم ويجب عليه أن يتمتع بالمسؤولية من أجلهم جميعاً، فأجابها:

«لا تكلميني عن المسؤولية... أختي موجودة في قفص».

وفي تلك اللحظة، تشاجرا وانفصلا.

كيتش لا تعرف فيرن ولهذا لم تفهم مشاعرنا؛ تماماً كحال أبناء البلدة بكاملها، ولهذا ما زالت ردة فعل لويل تصيبها بالصدمة بالشدة نفسها، وبالقدر ذاته من عدم الفهم لحقيقة العلاقة التي جمعتنا بفيرن حتى الآن.

«أخبرته أنني لا أريد أن أكون صديقة للشاب الذي خسر فريقه مباراة العمر ضد فريق ماريون... وأتمنى لو أنني لم أقل ذلك، لكننا كنا دوماً نقول أشياء رهيبة وفظيعة لبعضنا بعضاً. ظننتُ أننا سنصلح الأمور في ما بعد كما كنا نفعل على الدوام. أؤكد لك أنه كان يقول لي أشياء فظيعة أيضاً كلما تشاجرنا... لم أكن أنا الوحيدة التي تتفوه بعبارات محزنة».

لكنني لم أسمع ما كانت تقوله سوى لأن كلماتها السابقة ظلت تتردد في ذهني (هناك في داكوتا الجنوبية... قال مات إنهم كانوا يعاملون فيرن على أنها حيوان آخر مثل أي حيوان موجود في المختبر).

من الصعب بما يكفي بالنسبة إلي أن أسامح نفسي على أشياء فعلتها وشعرت بها عندما كنت في الخامسة من العمر، أو على الطريقة التي تصرفت بها عندما كنت في الخامسة عشرة. لقد سمع لويل أن فيرن محبوسة في قفص في داكوتا الجنوبية فانطلق على الفور في الليلة نفسها لإنقاذها. أما

أنا فقد سمعتُ الخبر نفسه فتظاهرت بأنني لم أسمع شيئاً. غاص قلبي في صدري رغم أنني لم أتأثر طوال فترة حديث كيتش المريع، ولم أتمكن من إنهاء شرابي أو طبق اللحم الموجود أمامي على الطاولة... ذلك اللحم الذي كان يغريني بتناوله قبل فترة وجيزة.

ولكن، لدى عودتي إلى المنزل على متن دراجتي اتضح كل شيء في ذهني، واستغرقت مسافة تزيد عن خمسة شوارع لأقرر أنها لم تكن قصة سيئة رغم كل شيء. يا له من شاب طيب مات ذاك! فكرت في قرود الشمبانزي العشرين التي أصبحت صديقة لفيرن... عائلتها الجديدة. لا بد أن الفترة التي أمضتها في القفص كانت فترة دراسات مؤقتة ريثما تنقل إلى مزرعة والدي. لا يملك لويل ثقة بوالده. لويل – كما ظننت في ذلك الحين – كان يملك مهارة استنتاج أشياء مجنونة.

بالإضافة إلى ذلك، إن كانت فيرن تعاني من مشكلة فلا بد أن لويل قد قام بما يلزم لحلّها بعد مضي كل ذلك الوقت. فقد سافر إلى داكوتا الجنوبية وقام بما يجب القيام به، ثم انتقل إلى ديفيس في كاليفورنيا كما أخبرنا عناصر المباحث الفيدرالية. إنهم موظفون في الحكومة، فهل يمكنهم أن يكذبوا؟!

وإلى مائدة العشاء، تصرفتُ بطريقتي المعهودة في عدم التفوه بأي شيء. إذ إن الكلمات تُحوّل المعرفة الفردية إلى معلومات عامة مشتركة، ولا يمكن عكس تلك الحقيقة. إذ لا يمكنك التراجع بعد صعودك تلك الهضبة العالية. لذا، الصمت أكثر قابلية للإصلاح من الكلام، ورأيت مع مرور الوقت أن الصمت أفضل سلوك يستطيع المرء أن يقدم عليه. ومع مرور الوقت، وصلت إلى حالة شديدة من الصمت التام، لكنني في سن الخامسة عشرة في ذلك اليوم... كنت واثقة أن السكوت عما سمعته في ذلك اليوم أفضل شيء يمكنني فعله.

# 5

ابتداء من ذلك اليوم، حاولت ألا أفكر في فيرن مجدداً. وبحلول الوقت الذي غادرت فيه البيت للدراسة في الجامعة كنت قد اقتربت من تحقيق ذلك إلى درجة مذهلة. فقد جرت كل تلك الأحداث الخاصة بها منذ أمد بعيد، عندما كنت صغيرة جداً، ومرت سنون كثيرة من دونها؛ أكثر من السنين التي قضيتها معها، وكانت معظم تلك السنوات التي قضيتها معها سنوات لا أذكرها.

أنا آخر من غادر البيت من الأولاد. ومع أن والدتي أذعنت لرغبتي المجنونة في الدراسة في جامعة بعيدة وتقبّلت قراري، إلا أن صوتها الذي كان يصلني عبر الهاتف في السنة الأولى كان مجروحاً. لم أتمكن من العودة إلى البيت خلال الصيف في تلك السنة، ثم تأهلت لكي تدفع لي الولاية رسوم دراستي الجامعية إذا بقيت فيها خلال الصيف الثاني، ولهذا لم أذهب إلى البيت للصيف الثاني على التوالي. لذا، حضر والداي لرؤيتي في شهر حزيران، ولم يتوقفا عن ترديد جملتهما: «على الأقل، هذا الحرّ جافّ». مع أن درجة الحرارة وصلت في أحد الأيام إلى مئة درجة فهرنهايت؛ مما دفعني دوماً للتفكير في أن كلامهما هذا محض جنون. تجوّلنا معاً في أرجاء الحرم الجامعي بواسطة السيارة، ومررنا أمام موقع الجريمة القديمة التي ارتكبها أخي عندما أحرق ذلك المختبر. كنا صامتين ومجروحين ولكن من دون الإشارة إلى أي شيء، وكان المختبر قد أصبح مجدداً في أوج نشاطه.

ثم عادا إلى بلومنجتون، حيث انتقلا مجدداً إلى بيت آخر في آب. وباغتني شعور غريب عندما عرفت أنني عشت في بيت لمدة طويلة من دون أن تتسنى لي الفرصة لرؤيته مرة أخرى.

تحاشيت بلا وعي الصفوف التي تتناول الحديث عن فصيلة الرئيسيات والثدييات التي ينتمي لها الإنسان، وعلوم الجينات وعلم التشريح، وابتعدت قدر الإمكان عن علم النفس بكل تأكيد. قد تفاجئكم صعوبة تحاشيّ علم الرئيسيات في الجامعة. خذوا على سبيل المثال صفاً تمهيدياً لدراسة الصينية الكلاسيكية وسترون أنفسكم فجأة مضطرين إلى تكريس أسبوع من وقتكم لسن ووكونج. وحاولوا حضور صف أدب أوروبي وستتعرفون عندها على كتاب كافكا الذي يتحدث فيه قرد اسمه بيتر الأحمر، والذي سيشرح لكم أستاذكم أن اسمه ذاك مجرد كناية عن أصوله اليهودية، وأن الأمور ستتوضح لكم لدى تقدمكم في قراءة صفحاته، ولكنها ليس واضحة بما فيه الكفاية. خذوا صفاً آخر في الفلك وربما ستجدون شعبة مكرسة للاكتشاف العلمي الفضائي، حيث ستلتقون الكلاب والقردة التي افتتحت عهد الفضاء. وستُعرَض عليكم صور القردة الرائدة وهي ترتدي خوذتها وتبتسم تلك الابتسامة العريضة التي

تمتد من أذن إلى أخرى، وقد تشعرون برغبة قوية في إخبار رفاقكم في الصف أن القردة لا تبتسم بتلك الطريقة سوى في حالة الخوف الشديد، وأن الوقت لن يغيّر من أطباع القردة مهما أمضت من الوقت مع البشر. كل تلك القردة السعيدة والمبتسمة في الصور إنما هي في الواقع قردة مذعورة جداً... ربما أمسكت نفسك عن الكلام في آخر لحظة لو كنت مكاني.

لهذا، ليس صحيحاً أنني لم أفكر في فيرن. فالحقيقة هي أنني لم أفكر فيها ما لم يذكرني بها شيء ما، لكنني لم أكن أتوقف عند ذكراها، بل كنت أتابع حياتي.

انتسبت إلى جامعة ديفيس للبحث عن ماضيّ (عن أخي)، ولأتخلص من الفتاة القردة إلى الأبد. وعندما أقول الفتاة القردة فأنا أعني بها نفسي بالطبع، وليس فيرن التي لم تكن في يوم من الأيام قردة من وجهة نظري؛ لا في الماضي ولا في الحاضر. ففي أعمق أعماق عقلي الباطن المتواري خلف ألف طبقة من الأفكار... في المكان الذي يحتوي على الأفكار التي لم تتحول يوماً إلى كلمات... لا بد أنني اعتقدت أنني أستطيع إصلاح شأن عائلتي ونفسي، لكي نعيش وكأن فيرن لم تغادرنا يوماً. لا بد أنني صدّقت في ذلك المكان القصي في أعماقي بأن تحقيق ذلك سيكون أفضل شيء يمكنني فعله.

عندما دخلت المهجع الجامعي، كنت قد اتخذت قراري بعدم التحدث عن عائلتي لأي كان. لم أعد ثرثارة كما كنت؛ من دون بذل أي جهد لتحقيق ذلك. ولكنني فوجئت بأن العائلات التي نتركها خلفنا تكون حديث الساعة اليومي الذي لا يمكن تحاشيه كما أملت.

كانت شريكتي الأولى في الغرفة الجامعية مهووسةً بفيلم Files–X، ومن مدينة لوس غايتوس، واسمها لاركين رودس. وهي فتاة شقراء صبغت شعرها باللون الأحمر وأجبرتنا جميعاً على مناداتها باسم سكالي. كانت وجنتا سكالي تتحولان من اللون الوردي الفاتح إلى الأبيض إلى الوردي مجدداً بسرعة؛ وكأنه نوع من التحول الفوتوغرافي عبر الزمن في حالات الانفعال العاطفي الشديد. وقد بدأت تحدثني عن عائلتها منذ اللحظة التي التقينا فيها عملياً.

وصلت سكالي إلى الغرفة قبلي، فاختارت السرير الذي أعجبها، ورمت كومة ملابس فوقه (بقيت ملابسها على تلك الحالة لأشهر عديدة من دون أن تعلقها في الخزانة، فبدت صديقتي وكأنها تنام داخل عشّ خاص بها بدلاً من السرير). وعندما دخلتُ الغرفة لأول مرة كانت تعلق ملصقات خاصة بها على الجدران. أحد تلك الملصقات كان الصورة التي تحمل جملة أريد أن أصدق الخاصة بفيلم Files–X بالطبع. أما الملصق الآخر فكان يخص فيلم *Edward Scissorhands* الذي أخبرتني أنه فيلم جوني ديب المفضل لديها، ثم سألتني عن فيلمي المفضل. كان من الممكن أن أترك لديها انطباعاً أفضل مما فعلت لو كان عندي فيلم مفضل.

لحسن الحظ، كانت سكالي أكبر أخواتها الثلاث؛ مما يعني أنها كانت معتادة على التفاهم مع أشخاص أصغر منها. أخبرتني أن أباها متعهد بناء مختص ببناء البيوت الفخمة التي تحتوي على سلالم متحركة في المكتبات، وأسماك حمراء تسبح في النوافير، وخزائن خاصة للملابس يبلغ حجمها حجم الحمامات، وحمامات يبلغ حجمها حجم غرف النوم. حكت لي أنه يمضي عطلات نهاية الأسبوع في موقع العمل وهو يعتمر قبعة برفقة عمال البناء الذين يقودون آلياتهم الثقيلة.

أما أمها فكانت تصمم أدوات شخصية مطرزة باليد وتسوقها باسم (شركة Rhods–X). وقد انتشرت منتجاتها في كل أرجاء البلاد، لكن شعبيتها كانت كبيرة في الجنوب. كانت لدى سكالي وسادة مطرزة باليد تضعها على سريرها وتحمل رسم سور الصين العظيم بتقنية توزيع الضوء والظل. في الحقيقة، كانت عملاً متقناً للغاية.

في إحدى المرات، أجبرتها أمها على التخلف عن دورها في رقصة جماعية كانت تقام في إحدى مناسبات المدرسة الثانوية لكي تُنظف رواسب الفضلات في الحمام بواسطة فرشاة أسنان مبللة بالكلور، وقالت:

«هذا يخبرك بكل ما تحتاجين إلى معرفته عن ماما. بالإضافة إلى أن اسم مارثا ستيوارت الخاص موجود على قائمة أرقام هاتفها السريعة. إنها لا تعرفها في الحقيقة، ولا تعرف رقم هاتفها، ولكنها تضعه هناك كنوع من الطموح؛ على أمل أن تُستجاب رغبتها». ثم ثبتت عينيها الزرقاوين الحزينتين على وجهي وسألتني بكآبة:

«هل تعرفين ذاك الشعور حين يبدو لك كل شيء في حياتك مع عائلتك طبيعياً، ثم تكتشفين في لحظة أن عائلتك بكاملها تتألف من أشخاص مجانين؟».

لم يكن قد فات على معرفتي بها سوى عشرين دقيقة عندما سمعت سؤالها ذاك.

سكالي ميالةٌ للعيش ضمن جماعات من البشر مكتظة إلى حد مرعب، ومنطلقةٌ في الحياة بجنون. وكان كل شيء يبدو وكأنه يحدث في غرفتنا، فقد كنت أعود من صفوفي أو من العشاء، أو أستيقظ في منتصف الليل لأجد ستة شبان على الأقل جالسين على الأرض ومستندين إلى الجدار. كان أهلهم أشخاصاً غريبي الأطوار كما كان والدا سكالي، وكانوا قد اكتشفوا ذلك للتو... مثلها تماماً. كل واحد منهم كان لديه والدان غريبا الأطوار.

إحدى الفتيات اللواتي عرّفتني إليهن سكالي أخبرتني أن أمها حبستها في البيت طوال صيف كامل لأنها حازت على علامة تسعة من عشرة في العلوم. أمها تلك عاشت طفولتها في دلهي حيث لا يتقبل الناس علامة تسعة من عشرة على الإطلاق.

وفي إحدى الليالي، أخبرتني فتاة تُدعى آبي تسكن في الغرفة المقابلة لنا أن لديها أختاً تكبرها، وأن هذه الأخيرة قد أخبرتها عندما كانت في السادسة عشرة من عمرها أن أحد أقربائها كان يتحرش بها. كانت آبي مستلقية على سريري عندما أخبرتني بذلك، وكانت تسند رأسها بيدها وشعرها الأسود يتساقط كالشلال فوق ذراعها. لا بد أنها كانت حينها ترتدي بلوزة مموهة وسروالاً قطنياً للنوم. إذ كانت تنام بهذه الملابس، وترتديها لحضور الدروس في صفوف الجامعة أيضاً. وقد بررت سلوكها ذاك بأن كل الناس كانوا يرتادون المدرسة في لوس أنجلوس مرتدين ملابس النوم. ثم قالت آبي:

«ثمّ... بعد أن خضع الجميع للعلاج النفسي، واتخذ كل منهم مواقفاً من الآخرين، وبعد أن توقف الجميع عن مكالمة بعضهم بعضاً... تذكرت أختي فجأة أنه لم يتحرش بها، وقالت إنها ربما حلمت بحدوث ذلك على الأرجح. وما زالت أختي غاضبة حتى اليوم من كل من لم يصدقها؛ لأن احتمال وقوع ذلك على أرض الواقع لا يزال قائماً... إنها مجنونة. أكرهها في بعض الأحيان... لأن عائلتي كانت على ما يرام قبل ذلك. هل تفهمينني؟ ثم هدمت أختي المجنونة تلك كل شيء».

كان حديثها ذلك جدياً لدرجة أن أحداً منا لم يعرف الطريقة المناسبة للتعليق. وهكذا، جلسنا جميعاً، وراقبنا سكالي وهي تطلي أظفار قدميها باللون الذهبي من دون أن ننبس ببنت شفة. ثم طال الصمت أكثر مما ينبغي إلى أن أصبح الجو غريباً، فقالت آبي:

«مهما كان...» وكانت هذه العبارة تعني في عام 1992 أنك لا تكترث حقاً مهما بدوت مكترثاً لما كنت تسمعه أو تقوله. وبالإضافة إلى ذلك، قالت تلك العبارة وهي تشبك أصابع يديها، مما أضاف إلى صمتنا الجماعي معنى أسوأ لأننا لم نكترث لكلامها من وجهة نظرها.

كانت تلك الإشارة إلى عدم الاكتراث أول إشارة أتعلمها في الجامعة، ولكنني تعلمت غيرها مع مرور الوقت. فقد درجت بين الطلاب حركة وضع الإبهام والسبابة بشكل حرف L على الجبهة للإشارة إلى شخص ما على أنه فاشل. وكان بالإمكان قلب الأصابع المتشابكة بشكل حرف W للأعلى وللأسفل لتعني في إحدى المرات مهما كان، ولتعني في حين آخر أمك تعمل في ماكدونالدز. تلك كانت حال الأمور في عام 1992.

كسرت دوريس ليفي الصمت الجليدي وقالت:

«والدي يغني في دكان البقالة». كانت تحيط ركبتيها بذراعيها وهي تجلس أرضاً بجانب أظفار سكالي الذهبية، وتعدد لنا أغاني الروك القديمة التي يغنيها والدها في أروقة المتجر وهو يختار الأجبان والمواد التموينية الأخرى ويمشي متمهلاً من دون أن يتوقف عن الغناء بأعلى صوته. عندها قاطعتها سكالي قائلة:

«ربما كان غيرِ سويّ. إنه يبدو كذلك بالنسبة إليّ».

«سألني في أحد الأيام فيما كنا جالسين إلى مائدة العشاء إن كنت أحترمه. ماذا يفترض بي أن أجيب عن سؤاله ذاك؟!». ثم التفتت إليّ وسألتني: «هل لديك أبوان غريبان أيضاً؟». عرفت أنني مضطرة إلى التواطئ معهن، وعرفت أننا كنا نكسر ذلك الصمت الجليدي بصورة جماعية، كما لو أننا فريق متعاون؛ وذلك كي لا تندم آبي على إخبارنا بأسرار عائلتها. وعرفت أن دوري قد حان لإخبارهن بأي شيء عن عائلتي.

لكنني أحرجتهن وأخطأت... إذ لم أخبرهن بأي شيء غريب عن أهلي. كانت جملة آبي لا تزال تتردد في ذهني: ثم هدمت أختي المجنونة كل شيء. وبدا لي كل شيء حولي بعيداً... بعيداً للغاية؛ وكأنني كنت أسمع صرخات الناس تأتيني من شاطئ بعيد تعصف به الرياح.

«لا، ليسا غريبين». أجبتهن بعد فترة من الصمت، ثم سكتُّ كي لا أخبرهن أي شيء عن أبويّ اللذين كانا شخصين عاديين حاولا تربية قردة شمبانزي كما لو أنها طفلة بشرية. فقالت سكالي:

«أنت محظوظة لوجود والديْن طبيعيين في حياتك». فوافق الجميع بهزة من رؤوسهن.

يا لها من خدعة! يا له من احتيال! يا له من انتصار! لقد محوت أخيراً بجرّة قلم كل تلك التلميحات الصغيرة كما يظهر، واستوعبت أخيراً ملاحظات أمي عن المسافة التي يجب أن تفصل بين الناس وتعابير وجهي التي كانت ترعبهم، ومصطلحاتي الغريبة التي لا يفهمها أحد. فهمت أخيراً أن كل ما كان المرء يحتاج إليه ليبدو طبيعياً بين الناس هو أن يقدم لهم أي دليل يثبت العكس. لقد أتت خطتي التي نصت على الابتعاد عن مدينتي نصف البلاد، وعدم التحدث عن عائلتي مع أي كان أكلها، وكانت ناجحة وكأنها كانت حلماً.

إلا أنني عندما بلغت تلك المرحلة (الطبيعية) لم أجدها مرغوبة بين الناس. إذ كانت الغرابة هي الحالة الطبيعية الجديدة، ولكنني لم أعرف بذلك إلا متأخرة. ولهذا لم أشعر بأنني في مكاني الصحيح، ولم يكن لدي أصدقاء... وربما لم أكن أعرف كيف أكسبهم. لم تكن عندي أي خبرة في تحقيق ذلك بكل تأكيد. وربما كانت مثابرتي على التأكد من أنني كائن مجهول من قبل الآخرين تعيق إقامة صداقات بيني وبينهم، وربما كانت كل أولئك الفتيات اللواتي يدخلن ويخرجن من غرفتي صديقات من دون أن أدرك ذلك لأنني كنت وبكل بساطة أتوقع المزيد. في النهاية، ربما لم تكن الصداقة عظيمة الشأن كما تصورت، وربما كنت أحظى بالكثير من الأصدقاء من دون أن أشعر.

لكنّ استنتاجاتي أثبتت العكس؛ لأن الشبان لم يطلبوا مني مرافقتهم عندما كانوا يطلبون ذلك من سكالي كلما ذهبوا في رحلة إلى تاهو للتزلج خلال عطلة نهاية الأسبوع. لم أعرف بذلك إلا بعد مرور بعض الوقت؛ وذلك لأن الخطط لم توضع في غرفتنا، ولم تُناقش في حضوري. أثناء تلك الرحلة، أقامت سكالي علاقة عاطفية مع شاب أكبر منها سناً من كالبولي، ثم انفصل

عنها في الصباح. وقد سمعت بما حصل لأن الفتيات ناقشن الأمر باستفاضة، وقد عرفت سكالي أنني سمعت بما جرى من دون قصد فقالت:
«لم نفكر في أنك قد تهتمين بهذا الأمر باعتبار أنك قادمة من إنديانا، واعتقدنا أنك لست بحاجة للذهاب إلى مكان تغطيه الثلوج باعتبار أنك مللتِ منها».
ضحكت الفتيات بسخرية، واتجهت العيون نحوي كالسهام، واتقدت الوجنات. لقد كانت محرجة للغاية لدرجة أنني شعرت بالشفقة عليها.

إذا كنت أحد الطلاب الجامعيين الذين يحضرون صفوفاً في مبادئ الفلسفة الأساسية، فلا بد أن تواجه مفهوم الأنية الفلسفية، الأنية التي تقول إنه لا وجود لشيء آخر في العالم غير الأنا. وبالنسبة للأنية، فإن الحياة الواقعية غير موجودة سوى في أفكار الإنسان، وداخل ذهنه؛ مما يعني أنه لا يمكن للمرء أن يكون متأكداً من أي شيء سوى حالته الشخصية باعتبار أنه كائن واعٍ. وكل ما عدا ذلك قد يكون نوعاً من الألعاب الفكرية والدمى المتحركة التي تتحكم بها كائنات فضائية أو الطفيليات التي تعيش على شعر القطط، أو أن كل شيء يدور حولك يحدث من دون أي دافع بشكل عبثي. إنها افتراضات، لكننا لا نستطيع إثبات العكس.
وصل العلماء إلى حل لمشكلة الأنية باستخدام استراتيجية تسمى: الانحياز لأفضل الشروحات. إنه حل ضعيف ولا يسرّ أحداً، باستثناء احتمال وجود أولئك الفضائيين في الحقيقة.
ولهذا، لا يمكنني إثبات أنني مختلفة عنك، ولكنه تفسيري الوحيد. لقد استنتجت ذلك الاختلاف من استجابات الناس الآخرين. وأفترض أن تربيتي هي السبب. فالاستنتاج والافتراض كالدخان والهلام، لا يمكنك أن تبني عليها بيتاً. كل ما أحاول فعله هنا هو أن أخبركم أنني أشعر باختلافي عن بقية الناس.
ولكن، ربما كنت أنت أيضاً تشعر بالاختلاف.
تدوم الصداقة النموذجية عند حيوانات الشمبانزي حوالي سبع سنوات. وقد تشاطرت مع سكالي غرفة النوم حوالي تسعة أشهر من دون أن يقع بيننا شجار حقيقي أو قطيعة أو سوء تفاهم، ثم حزمت كل واحدة منا أمتعتها وذهبت في طريقها، ولم نتقابل أو نتكلم مع بعضنا منذ ذلك اليوم. ودّعوا سكالي لأننا لن نقابلها حتى العام 2010، عندما أرسلت لي طلب صداقة على الفيسبوك من دون أي سبب واضح، ومن دون أي كلمة أو رسالة.

في سنتي الثانية في الجامعة، وجدتُ إعلاناً على لوحة الإعلان في الجامعة عن شقة يبحث صاحبها عن شريك له في دفع الإيجار فاتصلت به، واتضح لي أن صاحب الإعلان تود دونلي – وهو شاب في السنة الأولى من دراسته الجامعية، ويدرس تاريخ الفنون – شاب هادئ وشديد الثقة بالناس، وهذا أمر

خطير، ولكنه طريقة كريمة للحياة في العالم الذي نعيش فيه. عرفت منه الكثير من المعلومات عن والده إيرلندي الأصل الذي ورث عنه النمش المنتشر على وجهه، ووالدته اليابانية التي ورث عنها شعره الناعم كثيراً؛ وكانت تلك المعلومات تفوق المعلومات التي عرفها مني عن أهلي بكثير. لكنه سمع مني معلومات تفوق ما أخبرت به الكثير من الناس. في تلك المرحلة، عرفت أن أفضل طريقة للحديث عنهما بسيطة جداً؛ فكل ما يقتضيه الأمر هو البدء برواية القصة من منتصفها.

في إحدى الليالي، تمكن تود من الحصول على نسخة من فيلم كرتوني «الرجل ذو القناع الحديدي» من إنتاج أفلام بربانك – أستراليا بطريقته الخاصة والغامضة. فحضرت صديقته الحميمة في ذلك الوقت أليس هارتسوك إلى شقتنا – وأنا أعتبره أحمق لأنه انفصل عنها في ما بعد – وتمددا على الأريكة بعكس بعضهما، والتقت أرجلهما في منتصف الكنبة، بينما تمددت أنا على الأرض فوق بعض الوسائد وتناولنا البوشار المحضر في المايكروويف، ثم ألقى علينا تود خطاباً نقدياً حول الأفلام الكرتونية عموماً وحول أسلوب بوربانك خصوصاً.

أنتم تعرفون القصة... إنها تدور حول توأمين يكون أحدهما ملك فرنسا، بينما يُرمى الآخر في سجن الباستيل ويُجبر على ارتداء قناع حديدي كي لا يتمكن أحد من رؤية وجهه. التوأم الموجود في السجن يمتلك كل الميزات التي تؤهله ليكون ملكاً، في حين أن الملك نذل حقيقيّ. وفي حوالي منتصف الفيلم الكرتوني نرى حفل باليه جميلاً في الهواء الطلق، وفيه ألعاب نارية... إنها اللحظة التي أدركت فيها أنني لا أستطيع التنفس. كانت الألعاب النارية اللامعة تبرق على الشاشة بزخارفها ونوافيرها وأمطارها من الشهب والنجوم المتلألئة والملونة، بينما كنت أتعرق بشدة وقلبي ينتفض في صدري وكأنني أتسلق جبلاً، ورحت أتنشق كميات كبيرة من الهواء من دون أن أتمكن من إدخالها رئتيّ. فاعتدلت في جلوسي، وشعرت بأن الغرفة حولي قد غرقت في الظلام، ثم راح كل شيء يدور ببطء.

دفعت أليس كيس البوشار الفارغ باتجاه وجهي، وأعطتني تعليمات كي أتنفس داخله، وانزلق تود عن الأريكة وجلس خلفي، وفرك كتفيّ بيديه. كان ذلك التصرف لطيفاً من قبلهما لأن تود لم يكن يحب لمس الناس، بينما كنت أحب ذلك؛ وهذه الصفة من صفات شخصية الفتاة القردة التي كنتها في يوم من الأيام.

هدّأ تدليك الكتفين أعصابي المشدودة بما يكفي فرحت أبكي. كنت لا أزال أتنفس في كيس البوشار، فبدا صوت نحيبي كصوت أمواج المحيط الناعمة مراتٍ، وكصوت الفقمات مرات أخرى، فسألني تود:

«هل أنت على ما يرام؟».

لم أكن بخير، وكان هذا واضحاً للعيان، ومع ذلك كان الناس يسألون. ثم عاود طرح السؤال عليّ مجدداً وهو يغرز أصابعه في رقبتي من الخلف:

«ماذا جرى؟».

ثم سألتني أليس:

«هل أنتِ على ما يرام؟ هل يجدر بنا الاتصال بأحد ما؟ ماذا جرى لكِ؟».

أنا بكل صدق لا أعرف ما جرى. ولم أكن أريد أن أعرف. فقد خرج شيء ما من سردابه أو من قبره، وما كنت أعرفه جيداً عن نفسي هو أنني لا أريد رؤيته أو التعرف عليه، ولا أريد إكمال فيلم «الرجل ذو القناع الحديدي». أخبرتهما أنني بخير، وأنني أصبحت على ما يرام، وأنني لا أعرف ما دفعني إلى البكاء، ثم اختلقت عذراً وذهبت للاستلقاء في مكان يمكنني فيه أن أبكي على راحتي، ولكن بهدوء كي لا أزعج تود وأليس أكثر من ذلك.

عندما يكون هناك فيل غير مرئي في الغرفة فلا بد أن يتعثر المرء من حين إلى آخر. لجأت إلى روتيني القديم المعتاد، وغرقت في النوم بأسرع ما أمكنني ذلك.

# 6

مرّت بعض السنوات.

ودخلت هارلو حياتي.

دعونا نلقي نظرة أخرى على لقائي الأول بها الآن بعد أن ازدادت معرفتكم بي. كنت أجلس في المقهى، وأضع أمامي صحناً فيه شطيرة جبن وكأساً من الحليب عندما اندفعت هارلو من الباب كإعصار؛ إذ يمكن للأعاصير أن تكون فتيات طويلات القامة ومثيرات، يرتدين كنزات زرقاء ويضعون عقوداً من الخرز على شكل أسماك.

ولهذا، من الممكن أن أكون أقل ذعراً مما تخيلتم عندما قرأتم ما جرى يومها للمرة الأولى. ربما عرفت أن هارلو لم تكن غاضبة وإنما كانت تتظاهر بذلك، وأن كل ما جرى من تكسير للأطباق ورمي المعاطف على الأرض كان استعراضاً لا أكثر... ربما عرفت في قرارة نفسي أنها كانت تسلي نفسها فحسب.

كان استعراضها جيداً، وكانت تستمتع به أيضاً كما يستمتع أي شخص بعمل أحسن أداءه. ومع ذلك، باعتبار أنني رفيقتها في ذلك الدجل، فأنا أقدّر الزخم الذي كانت تتصرف به. أعجبتُ بقراراتها التي لم أكن أملك الشجاعة يوماً على اختيارها. لقد سألت نفسي منذ اللحظة التي وصلت فيها إلى الجامعة عن الصورة التي أحب أن يراني بها الآخرون؛ هل يستحسن بي أن أعطيهم صورة مزيفة عنّي أم مُرعبة؟ وفجأة، ها أنا ألتقي شخصاً مقداماً بما فيه الكفاية لكي يكون كلتا الصورتين في وقت واحد.

في ذلك الوقت، كنت لا أزال أجهل الطريقة التي ينبغي لي أن أستجيب بها؛ تماماً كما كان حالكم عندما قرأتم كلماتي للمرة الأولى. انشغل تود بالانحناء لمعاينة الأصفاد والاتصال بوالدي وملأ استمارات الشرطة. هلمّوا معي الآن بسرعة إلى تلك الفترة التي عدتُ فيها إلى ديفيس بعد العطلة ووجدت هارلو في شقتي. لا يستطيع أحد أن يتقبّل ذلك السلوك، وربما كرهت فعلتها تلك وقلت لنفسي ها نحن مجدداً. قلت ذلك لنفسي بلا ريب؛ لأنني سمعت كلماتي عندما قلتها، وكأنني كنت معتادة على إيجاد شخص لا يملك أي حس بالحدود الشخصية في بيتي، ويعيث خراباً بين أشيائي ويكسر معظمها. ها نحن ذا مجدداً.

وهنا، حانت اللحظة التي توقف فيها التنويم المغناطيسي... لم يكن لتساهلي مع نوبات غضب هارلو وتطفلها وخداعها أي علاقة بأمورنا المشتركة. لم يعنِ لي تمثيلها شيئاً لأنني رأيته من قبل، وكان بإمكان هارلو أن تتبول في

زاوية الغرفة من دون أن يفاجئني ذلك. وبما أنها لم تفعل، فإن سلوكها كان بالكاد يعتبر مسرحياً حسب مقاييسنا العائلية.

فوجئت بالألفة التي شعرت بها حيال كل ما تفعله هارلو، ولكنّ الوقت الذي احتجت إليه لأستوعب تلك الألفة فاجأني أكثر. كنت أحجب شخصيتي الحقيقية المتمثلة بالفتاة القردة عن الآخرين، لدرجة أنني نسيتها تماماً (ومع ذلك، ألم يكن ذلك هدفي منذ البداية؟ إلا أنه اتضح لي أنني لا أريد ذلك... لا أريده أبداً).

لم أتمكن من خداع والدي الذي قال عبر الهاتف من دون أن أنتبه إلى كلامه:

«أعتقد أن شخصاً ما قد ورطكِ».

أنا أكره الأوقات التي أشعر فيها أن والدي يفهمني أكثر مما أفهم نفسي، فأختار غالباً ألا أنصت إلى كلامه عندما يتحدث بدلاً من المخاطرة بسماع كلماته.

عندما حصل ذلك الكشف... تعقدت مشاعري تجاه هارلو أكثر من تبلورها؛ وكنت أعرف أنها ستعقّد حياتي من إحدى النواحي. وقد وصفني أحد التقارير التي كانت الروضة ترسلها إلى والديّ بأنني انفعالية ومهووسة بتملّك الأشياء والناس من حولي ومتطلبة. إنها صفات الشمبانزي الكلاسيكية التي عملت جاهدة طوال سنوات على التخلص منها، وعلى اجتثاثها من نفسي. شعرت أن هارلو تملك الميول والنزعات نفسها، من دون أي التزام يشبه ما أشعر به بضرورة الإصلاح والتغيير. كنت أعود بصحبتها إلى نفسي، إلى عاداتي القديمة السيئة التي واريتها طوال كل تلك السنين.

شعرت برفقتها براحة لم أشعر بها برفقة أحد، وأنا لا أبالغ عندما أقول إنني أجد صعوبة في وصف الوحدة الرهيبة التي كنت أشعر بها سابقاً. دعوني أكرر لكم مرة أخيرة أنني غادرت خلال أيام معدودة طفولتي الحافلة التي لم أكن وحيدة فيها قط، بل محاطة بالكثير من الناس، إلى هذا الصمت الأبدي... إلى حالة لا تتغير ولا تتبدل من السكوت. عندما خسرت فيرن خسرت معها لويل (خسرت على الأقل لويل القديم الذي كنت أعرفه)، وفقدت أمي وأبي بالطريقة نفسها، كما خسرت طلاب والدي؛ بمن فيهم مات الحبيب من برمنغهام الذي اختار رفقة فيرن عندما خيّروه بيننا.

لهذا، كنت أعرف أن هارلو شخص لا يمكن الوثوق به أساساً، وبدت لي في الوقت نفسه شخصاً يمكنني أن أكون على طبيعتي معه. لم أكن أريد ذلك، لكنني في داخلي كنت أتوق له بقوة بالدرجة نفسها. وعندما فكرت في جزء الدماغ التحليلي الذي ورثته من والدي، وجدت أنه من الممتع لي أن أكتشف هويتي الحقيقية، بينما أخبرني نصف الدماغ الآخر الذي ورثته عن أمي أنني وجدت صديقة لي أخيراً... لقد وجدت روزماري الصغيرة صديقة أخيراً!

ها قد عدنا أخيراً إلى النقطة التي انطلقنا منها، إلى منتصف القصة حيث تركتموني، إلى روزماري التي لم تتخرج بعد من الجامعة؛ صاحبة العينين المتوقدتين التي أرهقها سجل اعتقالاتها، وعبء حقيبة زرقاء مفقودة.

أولاً: ظهور مذكرات أمي واختفاؤها الفوري.

ثانياً: محاولة لويل الضعيفة لمقابلتي؛ وكأنها صوت طرقات على جدار زنزانة أخرى في قلب السرداب نفسه.

ثالثاً: هارلو.

عندما تكرر الأمور نفسها ثلاث مرات، كما حصل في مسرحية يوليوس قيصر أو كاليبان، فلا بدّ من أخذها بعين الاعتبار.

شدّت عودة أخي إلى حياتي جلّ انتباهي، وقد أضنتني الحماسة كما يحصل لكم عندما تنتظرون طلوع الصباح لتحتفلوا مع عائلاتكم؛ حتى لو انقلبت تلك الحماسة إلى كابوس مريع على أرض الواقع.

بقي أسبوعان على حلول العطلة. وإذا كرر لويل زيارته خلال هذه الفترة فسنحظى بالكثير من الوقت معاً. سنتمكن من لعب الورق وغيرها من الألعاب، وربما سنذهب إلى سان فرانسيسكو ونتزلج معاً. هناك مكان مرتفع بجانب بحيرة بيريسا يمكنك رؤية كامل الولاية منه (ولاية سييرا نيفادا) شرقاً، ورؤية المحيط غرباً في يوم صافٍ وخالٍ من الغيوم. إذا قدت السيارة على الطريق الذي توجد عليه لافتة كتب عليها طريق خاص، لا تجاوز ثم تسلقت سوراً يحمل لافتة تقول: العبور ممنوع تحت طائلة الملاحقة القانونية، فستكون رحلة حقيقية رائعة، وسيستمتع بها لويل من دون شك.

وإذا زارني بعد ذلك الوقت فسأكون في إنديانا.

ولهذا أملتُ في أن يكون عزرا صادقاً في كلامه عندما أخبرني أن لويل قال له إنه قد يعود خلال أيام، وتمنيتُ أن تعني بضعة أيام تلك يومين لا أكثر. كما تمنيتُ أن يخمن لويل أنني سأقضي العطلة برفقة والديّ، وتمنيتُ أن يدرك أنني مضطرة إلى ذلك لأنه لم يقضِ معهما أي عطلة قط منذ رحيله، ليته يكترث.

بعد وصولي إلى ديفيس لأول مرة وجدت طريقي إلى أرشيف الجرائد في قبو مكتبة شيلدس، وقضيت معظم عطلتي الأسبوعية هناك في قراءة تغطية أحداث 15 نيسان لعام 1987 التي حصل فيها تفجير مختبر الدكتور جون ترومان، والحريق الذي نتج عنه. لم يكترث الناس في إنديانا لذلك كثيراً لأنهم لم يربطوا ما حصل بأكثر لاعب كرة سلة مكروه في إنديانا. كانت الأدلة ضده ضعيفة حتى في ديفيس.

كان المختبر قيد الإنشاء عندما تم تدميره، وقدّرت الخسائر بأربعة ملايين وستمئة ألف دولار. ورسم الفاعلون على جدران المختبر الداخلية وبعض المركبات التابعة للجامعة التي كانت متوقفة في أماكن قريبة من المختبر

رسومات جدارية تدعو إلى تحرير الحيوانات؛ مما يعني أن الفاعلين ينتمون إلى جمعيات الرفق بالحيوان. فعلّق المتحدث باسم الجامعة قائلاً:

«الأبحاث التي تُجرى على الحيوانات تفيد الحيوانات والبشر والبيئة».

ولدى قراءتي الرسائل التي تم توجيهها إلى محرر الجريدة عرفت أن جمعيات الرفق بالحيوان ادعت أن المختبر المعني كان ينوي تسخير جهوده للبحث في مسألة صناعة أطعمة الحيوانات، لكن ذلك لم يُذكر في أي مكان آخر. وحسب ما ورد في الجريدة المحلية، لم تشتبه الشرطة بأي شخص، واعتبرت الحريق عملاً إرهابياً محلياً، وأحالت ملفه إلى وكالة الأمن الفدرالية.

وسّعتُ بحثي ليشمل كل الحرائق التي حصلت في شمال كاليفورنيا في ما بعد، فعرفتُ أن الحرائق قد أصابت بشكل متتالٍ مستودع شركة سان جوزيه للحم البقر وشركة لحوم فيريرا وأحد مستودعات الدواجن، كما احترق متجر لبيع الفراء في سانتا روزا من دون توقيف أي متهم.

صعدت إلى الطابق العلوي لأطلب مساعدة أمين المكتبة في إيجاد معلومات عن أفراد جمعية الرفق بالحيوان التي قيل إنها افتعلت كل تلك الحرائق، ووقّعتها بثلاثة حروف على جدران أماكن الجرائم (ALF)، وكي أتأكد إن كان أحدهم يشبه أخي لويل، فوجدت أن عملياتهم تتلخص في تحرير الحيوانات من الأسر، وإطلاق سراحها، وسرقة ملاحظات العلماء وسجلات المختبرات. كما كانوا يلتقطون صوراً للحيوانات المـُشرّحة لنشرها في الصحف، ويحطمون الأجهزة والمعدات؛ بما فيها جهاز يدعى جهاز تكرير الرئيسيات الذي لم أعرف حينها ولا أريد أن أعرف الآن ماهيته. كان أعضاء تلك الجمعية يضايقون الباحثين وأصحاب مزارع الحيوانات التي تنتج الفراء، وأصحاب مزارع الأبقار والخراف برسائل مترعة بكلمات الكراهية، ورسائل صوتية حاقدة ومسجّلة على آلات الردّ التلقائي على الهاتف، كما كانوا يقومون ببعض الأعمال التخريبية لمنازلهم، أو يرمون صوراً فظيعة ومرعبة تُظهر الطريقة السيئة التي تُعامل بها الحيوانات في معاملهم على ملاعب المدارس التي يذهب إليها أولادهم.

بدا لي أن بعض الصحف قد تعاطفت مع الجمعية على عكس أغلبها. وقد وصفت رويترز هجمات جمعية الرفق بالحيوان بأنها أشبه بقصة الفلك. واتفق الجميع على أن تلك العمليات ستؤدي إلى موت أحدهم لا محالة، وأن المسألة مجرد وقت إلى أن يموت شخص مهم؛ إنسان... هذا ما نادى به البعض بالفعل في ذلك الوقت.

صادفت تقريراً حول اقتحام مختبر جامعة ريفرسايد الذي سُرق منه مع الكثير من الحيوانات الأخرى قرد مكاك رضيع اسمه بريتشز. قام العلماء بخياطة أجفان عينَي بريتشز في يوم ولادته ليختبروا عليه أجهزة استشعار مخصصة للرّضع العميان، وكانت خطة الباحثين تقتضي إبقاءه على قيد الحياة لمدة ثلاثة أعوام في حالة من الحرمان الحسّي، ثم قتله لتشريح دماغه

والكشف عن تأثير العمى المزيف في الخلايا الحركية والسمعية والبصرية في دماغه.

لا أريد العيش في عالم يجبرني على الاختيار بين رضع بشريين عميان وقردة تخضع لكل ذلك التعذيب. وكي أكون أكثر صراحة، إنه الخيار الذي أتوقع من العلم أن يحميني منه وليس أن يجبرني على مواجهته؛ ولهذا تخلصتُ من الوضع عبر عدم قراءة المزيد.

غادر لويل البيت عام 1985. وفي ذلك الحين، كانت جامعة براون قد قبلته، وعرفنا أنه سيغادر المنزل قريباً، لكننا ظننا أننا سنحظى ببضعة أشهر معه قبل مغادرته إلى الجامعة، ظننا أنه سيحظى بأشهر أخرى من التسلية برفقة ماركو وكيتش وهو يوهمنا بأنه ينتمي إلى أسرتنا، وأنه سيظل واحداً منّا حتى لو غادرنا.

أخبرت وكالة الأمن الفيدرالي والدَيّ أن جمعية الرفق بالحيوان التي تعمل على شاطئ الولايات المتحدة الغربي منظمة على شكل خلايا مستقلة، لكل منها بيت آمن وطرائق تهريب غير نظامية يديرها محترفون في تهريب الحيوانات. لم يخبرونا بما دفعهم للاشتباه بلويل، ولم يؤكدوا لنا على حد سواء أنه مشبوه، ولكنهم قالوا إن أهم ناشط من أجل حقوق الحيوان شاب أبيض البشرة، وأشقر الشعر ينتمي إلى الطبقة الوسطى من المجتمع.

انتهت أعمال بناء مختبر ديفيس التشخيصي منذ وقت طويل، وكانت تدور فيه كل العمليات والاختبارات التي لا توافق عليها جمعيات الرفق بالحيوان. كان بإمكاني المرور من أمامه في أي وقت على متن دراجتي، ولكنني لا أستطيع دخوله بسبب إجراءات الأمن المشددة كما هو حال كل مختبرات الحيوانات هذه الأيام.

كنت على وشك الاتصال بشركة الطيران مرة أخرى لأطلب منهم الحضور لأخذ الحقيبة التي حصلت عليها خطأ وإحضار حقيبتي الحقيقية عندما اقترحت هارلو فكرة مختلفة؛ وتتلخص هذه الفكرة في كسر القفل الموجود على الحقيبة الموجودة عندنا وفتحها لرؤية محتوياتها. لم ننوِ السطو على محتوياتها بالطبع، ولكنها قالت إنها غير مقتنعة بأن نعيد الحقيبة من دون النظر إلى محتوياتها، فمن يدري ما الذي يمكن أن تحتوي عليه حقيبة من إنديانا (مفترضة أن الحقيبة أتت من إنديانا)؛ إذ ربما احتوت على عملات إسبانية ذهبية أثرية أو أكياس هيروبين، وربما احتوت على أفلام فاضحة تصوّر واحداً من أعضاء مجلس إحدى مدن وسط الولايات المتحدة، أو علب من زبدة التفاح.

ألم أشعر بالفضول مثلها؟ أين حسّ المغامرة؟

أعجبت بمعلومات هارلو ومعرفتها بزبدة التفاح؛ غير أن هذا ليس عذراً لسماحي لها بالتصرف على هواها والمضي قدماً في فتح الحقيبة. لكنني اعتمدتُ على عدم معرفتها برقم القفل السري الموجود على الحقيبة، كما كنا

بحاجة إلى استخدام أدوات، أو مساعدة شخص خبير في تلك الأمور. يُعتبر هذا التحدي الذي واجهناه أحجية للحصول على الطعام في الدراسات التي تُجرى على السعادين؛ حيث يُكافأ القرد على إنجازه وسرعة أدائه في حال إبداعه في حل الأحجية بأنه يستطيع أن يأكل كل ما يجده داخل الأحجية. وكانت القردة ستعتبر أن الأحجية تنطوي على إجحاف كبير إذا فتحت الحقيبة ولم تجد شيئاً تأكله.

أبديت بعض الاعتراض بشكل مبهم؛ لأنني كنت واثقة من استحالة حلّ معضلة الرقم السري؛ إذ يبلغ احتمال تخمينه بشكل صحيح واحداً من أصل عشرة آلاف احتمال. وسمحت لنفسي بالخروج تحت المطر لشراء كوبين من القهوة.

من الواضح أنه باستطاعة أي شخص معرفة الرقم السري لأي حقيبة خلال دقائق بالنظر إلى أسفل القفل لملاحظة الأرقام التي تترك فراغاً عند تدوير بكرة الأرقام؛ وقد أخبرني عزرا بهذا لدى عودتي. لقد برهن لي ذلك أن عزرا يمتلك أوهاماً تقترب من حدود جنون الارتياب؛ وذلك عندما رأيت معدات جندي الكوماندوس المحترف التي كانت بحوزته. وقد أرعبني التفكير في الأشياء التي كان بإمكانه القيام بها باستخدام تلك الأدوات.

وجدته هارلو على شرفة الطابق الثالث، وكان يتدرب على رياضة التاي تشي، ويركض عبر خطوط الموت التي حددها بنفسه. قال لي عزرا في إحدى المرات إنه عند مراجعته أحداث حياته فهو يقوم ذهنياً باسترجاع كل ما حصل معه وكأنه شريط سينمائي. ولكنني أظن أن الكثير من الناس يفعلون ذلك مهما كانوا مختلفين عن عزرا.

لو كان هذا فيلماً، لكان هذا المشهد رومانسياً؛ إذ تدخل هارلو لتجده ساكناً وهادئاً في وضعية التأمل، فتعقص شعرها وتنضم إليه، ثم نقطع التصوير لنراهما بعد قليل معاً في غرفة الجلوس، وهما منحنيان أمام القفل ورأساهما متلاصقان. في الفيلم، نجد أنهما عثرا على قنبلة داخل الحقيبة، فيما أصل أنا مع القهوة في الوقت المناسب لأمنعهما من فتح الحقيبة وتفجير القنبلة.

إلا أنني في عالم الواقع لم أوقفهما، بل تركت عزرا يفتح القفل، وراقبته وهو يدير بكراته واحدة تلو الأخرى؛ إلى أن فتح الحقيبة بصمت وتركيز تام من دون أن أتفوه بكلمة واحدة. أفرغ عزرا محتويات الحقيبة بترقب شديد، مخرجاً غرضاً مملاً تلو الآخر؛ إذ تبيّن أن معظم محتوياتها ملابس تتضمن ثياباً رياضة وجوارب وكنزة قطنية صفراء اللون تحمل عبارة (RACE HUMAN THE) باللون الأحمر وبالخط العريض. رفعت هارلو تلك الكنزة عالياً، فوجدت رسماً يُظهر جزءاً من الكرة الأرضية، وتبدو فيه الأمريكيتان تحت العبارة الحمراء، وكان هناك أناس من كل أجناس البشر يركضون حول محيط الكرة الأرضية باتجاه واحد، فبدوا لي أشبه بعرق بشري لا وجود له، ولم أعرفه يوماً. عندها، قالت هارلو بخيبة أملٍ كبيرة:

«مقاسها كبير جداً».
نقّب عزرا في أعماق الحقيبة ثم قال:
«حسناً... حسناً! أغمضا عيونكما».
لم نغمض عيوننا لأننا سنكون غبيتين إن فعلنا ذلك فقط لأن عزرا أمرنا به.
أخرج عزرا شيئاً من الحقيبة، فبدا لي وكأنه شبح يغادر جثة عند موتها، أو كما لو أنه مصّاص دماء ينهض من كفن أزرق؛ تماماً كما يحصل في القصص الخيالية. وعندما كشف عن أطراف الدمية الشبيهة بأطراف الحشرات اهتزت في يد عزرا، وفتحت عينيها وقالت شيئاً غير مفهوم، فسألنا عزرا:
«ما هذا!؟».
وكان عزرا يحمل في يده دمية الفنان الذي يتكلم من بطنه، وبدت لنا قديمة جداً، وتحركت فوق الحقيبة المفتوحة كعنكبوت، فقد كانت مزوّدة بإبر خياطة على إحدى يديها الصغيرتين وقبعة من الشبك الأحمر على رأسها الصغير، فأجبته:
«إنها دمية مدام دوفارج، أو مدام غولوتين».
وكنت قد نسيت سعة اطلاع عزرا بسبب قراءاته الكثيرة. ولا بد أنكم قد فهمتم ذلك من كلامي عن شخصيته رغم أن ذلك لا يناسب الفيلم السينمائي الذي نحوك خيوطه.
احمر وجه هارلو من شدة السرور، فقد أحكمنا أيدينا مؤقتاً على حقيبة خاصة بفنان ماهر في التكلم من بطنه، وتحتوي على دمية عتيقة الطراز بشكل مدام دوفارج؛ وهو بالضبط ما كانت تأمل في إيجاده. لذا، أشرق وجهها من شدة السعادة.
أدخل عزرا يده في قلب فستان الدمية من الخلف، وقرّبها من رقبة هارلو وحرّك يديها، ثم تحدث بالفرنسية متظاهراً أن الدمية تشكر الله على لقائها هاتين الصبيتين الجميلتين، ثم أنشد أغنيتين مشهورتين، يمكن أن تكون إحداهما «Jacques Frère» والأخرى «Marseillaise La» لأنني لم أفهم منهما أي شيء، كانت لغته سيئة إلى تلك الدرجة.
وإذا أردنا التكلم عن رأينا في ما شاهدناه في تلك الساعة، فأنا لم أشاهد في حياتي ما هو أغرب أو أسوأ من ذلك العرض. لم أشاهد في حياتي عرضاً مرعباً أكثر منه.
قلتُ لهما بدافع حسّ الواجب المتزمت:
«لا ينبغي لنا اللعب بها. إنها تبدو عتيقة جداً، وربما كانت قطعة نادرة».
فأجابتني هارلو بأن الأحمق وحده هو من يضع شيئاً نادراً ولا مثيل له في حقيبة سفر.
بكل الأحوال، تعامل كل منهما مع الدمية بحذر؛ إذ أخذتها هارلو من عزرا، وجعلتها تمد يديها باتجاهي وكأنها تدعوني للمصارعة. عرفتُ من النظرة

البادية على وجه مدام دوفارج أن كل شيء يسير كما أرادت هارلو له أن يسير، ثم قالت مدام دوفارج:

«لا تفسدي عليّ متعتي».

لم أكن أملك الوقت الكافي لهذا الجنون؛ إذ كان عليّ اللحاق بصف في الجامعة. لذا، ذهبت إلى المطبخ، واتصلت بالمطار الذي اعتبر موظفوه اتصالي في غاية الأهمية؛ حيث اضطررت إلى ترك رسالة صوتية بدلاً من التكلم مع أحد الموظفين. ثم لحقت بي هارلو إلى المطبخ، ووعدتني بإعادة مدام دوفارج إلى الحقيبة، كما وعدتها بلقائها في ما بعد لنسهر معاً في أحد المطاعم؛ لأنها قالت لي إنها أصابت من السعادة نصيباً من دون إلحاق الأذى بأي شخص، ولهذا يا روزماري لا بدّ من الاحتفال.

كما وعدتها بلقائها في المطعم مساء لأنني أردتُ الحصول على محبتها وإعجابها.

# 7

إذا سألتموني عن تسعة وتسعين بالمئة من المحاضرات التي حضرتها في الجامعة فلن أتمكن من إخباركم أي شيء عنها. إلا أن المحاضرة التي ذهبت إليها في ذلك اليوم كانت تنتمي إلى نسبة الواحد في المئة المتبقية.

كان المطر ينهمر. ولم يكن غزيراً بل كان منعشاً، وكنت أمشي تحته مبللة حتى النخاع كقطعة إسفنج تقود دراجة. وعلى أرض ملعب كرة القدم الذي مررت أمامه، كان هناك سرب من طيور النورس التي تبحث عن طعامها. لقد شاهدت ذلك عدة مرات خلال العواصف، شاهدت طيور النورس وهي تتجمع في أسراب؛ لكن منظرها كان يفاجئني على الدوام. ديفيس، كاليفورنيا أرض داخلية يصعب فهمها.

عندما وصلت إلى قاعة المحاضرة كان البلل قد طال كل بنطالي، وأغرق باطن حذائي، وملأ أسفله بالطين. كان المدرج ذو الرقم 100– وهو مكان إلقاء المحاضرات الكبرى – ضخماً، وينحدر إلى حيث يقف البروفيسور. وكان الطلاب يدخلونه من الأعلى من آخر الغرفة. في الأحوال العادية، كان معظم الطلاب لا يحضرون في الأيام الممطرة لأنهم يعتقدون أن الصفوف ستُلغى كما لو كانت حفلات راقصة تُلغى بسبب المطر. لكن هذه المحاضرة كانت الأخيرة في هذا الفصل قبل الامتحان النهائي، وكنت متأخرة جداً لدرجة أنني اضطررت إلى النزول على طول المدرج لإيجاد مكان فارغ لأجلس فيه، ولم أجده سوى في المقدمة. فجلست هناك وبدأت أستعد لتدوين الملاحظات.

كانت هذه المحاضرة الأخيرة محاضرةً في مادة تدعى العنف والدين. وكان البروفيسور – الدكتور سوسا – رجلاً في منتصف العمر، وقد تراجع خط شعره إلى الخلف في مرحلة وسطى من الصلع، وله بطن كبير بارز أمامه. كان أستاذاً محبوباً وذا شعبية بين الطلاب، يُظهر لهم شغفه بفيلم حرب النجوم، ويرتدي جواربه مثلهم؛ في كل قدم فردة مختلفة عن الأخرى. لكنني كنت أرى أن كل ذلك كان مجرد حركات ساخرة من قبله. إذ كان يقول وهو يُقدِّم لنا معلومة تاريخية جديدة أو يبدأ موضوعاً تاريخياً جديداً:

«في الماضي، عندما كنتُ طالباً في أكاديمية الطيران التابعة لأسطول غزو الفضاء...»

كانت محاضرات الدكتور سوسا مفعمة بالحماسة وغزيرة المحتوى، ولطالما اعتبرته واحداً من أهم الأساتذة الذين يمكن فهم محاضراتهم بكل سهولة ويسر.

اقترح عليّ والدي أن أقوم بتجربة تتلخص في إحناء رأسي كلما التقيتُ بروفيسوراً وجهاً لوجه، وقال إن البروفيسور سيجد نفسه حينها وهو ينظر

باتجاهي أكثر فأكثر بلا حول ولا قوة؛ كما لو كان كلب بافلوف. من المحتمل أنه كانت لدى والدي غاية ما من وراء ذلك، لأنه أخبرني أنها الطريقة الوحيدة التي ستجعل البروفيسور يلاحظ غيابي؛ أي إذا درّبته جيداً على ملاحظة حضوري والبحث عني في كل مرة. وهكذا، عقدتُ أنا والدكتور سوسا صلتنا، وأرسينا ألفة عميقة تجاه بعضنا بعضاً. إن والدي عالم نفسي ماهر ومتمكّن رغم كل شيء.

بدأت المحاضرة في ذلك اليوم بنقاش حول النساء العنيفات. كان معظم الطلاب في ذلك اليوم من الشبان، فنوقش الأمر من دون الإشارة إلى أن حضور الرجال يطغى على حضور النساء. ولكنني لا أذكر الجزء الأول من المحاضرة، وأظن أن الدكتور سوسا تكلم عن المنظمات النسائية والأخرى المناهضة لها، وعن الحركة الاعتدالية التي كانت نوعاً من العصابات، وعن الأضرار الدائمة التي تسببها النساء لبعضهن عن طريق العنف. أعتقد أننا خلال النقاش تحدثنا عن الكثير من البلدان؛ بدءاً من إيرلندا، ومروراً بباكستان، ووصولاً إلى البيرو. لكن الدكتور سوسا كان يعتقد أنها ليست حركات مستقلة ومنفصلة بشكل أو بآخر كما يبدو للمراقب الخارجي، بل هي حركات مرتبطة بما يقوم به الرجال. وكان يرفض من كل قلبه النساء العنيفات.

وبعد مرور وقت قصير، تطرق في حديثه إلى العنوان الأساسي للمحاضرة؛ ألا وهو العنف ضد المرأة بسبب الدوافع الدينية، وهو موضوع نموذجي يناسب كل الحاضرين. وفجأة، ومن دون أي إنذار بدأ يتكلم عن قردة الشمبانزي. قال إن الشمبانزي تشاركنا نزعتنا الطبيعية للعنف الداخلي والخارجي، ووصف في معرض حديثه ما تفعله القردة الذكور القائدة، وتحيزاتها الإجرامية أحياناً بين بعضها بعضاً. سألنا الدكتور بشكل مجازي إن كانت الاختلافات المذهبية بيننا توفّر لنا غطاءً مشروعاً لظهور صفاتنا القبلية العنيفة والبدائية؛ وهو الأمر الذي كان والدي سيعلق عليه بأنه ظهر بالفعل عندي عندما شعرت برغبة جامحة في الاعتراض على تلك المعطيات. نظر الدكتور سوسا باتجاهي، فلم أومئ له برأسي، فتابع قائلاً إن أقل الذكور مكانة عند قردة الشمبانزي يفوق في مرتبته أعلى الإناث مكانة في القبيلة؛ قال جملته تلك وهو ينظر باتجاهي مباشرة طوال فترة تفوّهه بتلك العبارة.

كانت هناك ذبابة في الغرفة، وقد عرفت ذلك لأنني سمعت أزيزها، وكانت قدماي متجمدتين، وشممت رائحة حذائي الرياضي الملوث بالطين، وميّزت رائحة جوربيَّ المبتلّين والمطاط الغارق بالماء. في هذه اللحظة، استسلم الدكتور سوسا، وحوّل نظره عني.

نزل الدكتور سوسا عن المنصة، وتجوّل بين الطلاب أثناء المحاضرة، ثم عاد إلى المنصة وراجع أوراقه، ثم قال إن الاغتصاب موجود عند قردة الشمبانزي؛ تماماً كما يحصل عند البشر، ثم عرض علينا صوراً التقطها فريق

غودللا في غومبي لإحدى الإناث التي كانت تمر بفترة النشاط الجنسي، والتي أجبرها 170 ذكراً على ممارسة الجنس خلال ثلاثة أيام فقط.

اضطررت إلى وضع القلم من يدي، لأن يديَّ بدأتا ترتجفان بقوة، لدرجة أن القلم اهتزّ فوق الورقة ورسم خطوطاً ونقاطاً تشبه شيفرة مورس. فاتتني بضع معلومات قالها الدكتور سوسا بعد ذلك لأن دمي كان يهدر في دماغي ويغلي. وعندما التفت الطلاب المحيطون بي باتجاهي ورمقوني بنظراتهم، أدركت أنني كنت أتنفس بصوت غريب ومرتفع للغاية ومفعم بالانفعال. أغلقت فمي فعاد الطلاب للنظر إلى الأمام.

أتمنى ألا تفترضوا أنني لم أقم بعلاقة حميمة في حياتي لأنني أخبرتكم أنني كنت أفتقد إلى الأصدقاء. فمعيار العلاقات الحميمة مختلف تماماً عن معيار الصداقة؛ إنه أقل منه بكثير. إلاّ أنني لطالما تمنيت أن أحظى بشخص يساعدني ويلفت نظري إلى أشياء بعينها، أو يؤكد لي ما كنت أشعر به. وبدلاً من وجود صديقة تمد لي يد العون في ما ذكرت آنفاً، كان عليّ أن أقوم بكل شيء وحدي. وأتساءل عن سبب عدم مروري بتجربة غرامية ممتعة كما كنت أرى في الأفلام السينمائية، كما أتساءل عن ماهية الحياة الغرامية والعلاقة الحميمة الطبيعية. ماذا لو كان مجرد وجود التساؤلات يعني أنني لست شخصاً طبيعياً؟! وهكذا، كنت أطرح على نفسي أسئلة محيّرة من دون أن أجد لها إجابات.

قال لي أول شخص قمت معه بعلاقة حميمة في حياتي:

«أنتِ هادئة للغاية».

التقينا في حفل ساهر بُعَيد وقت قصير من اكتشافي أحد المشروبات القوية. وفي ما بعد، حبسنا نفسينا في الحمام.

في وقت سابق من ذلك المساء، أطلق عليّ شريكي لقب الخجولة إطراءً لي؛ وكأن صمتي الغامض جذبه بشكل غريب، أو اعتبره فاتناً على أقل تقدير. تذكّرتُ الضجيج الذي كنت أسمعه غالباً من وراء الجدار المشترك بين غرفتي وغرفة والديّ اللذين كنت أراهما والدين كئيبين ومروعين لا أكثر.

كنت أعرف أن المرة الأولى مؤلمة، وكنت جاهزة لهذا بسبب النصائح الموجودة في عدة مجلات حول هذا الموضوع فلم يشغل الألم بالي. في النهاية، ذهبت لمقابلة طبيبة نسائية في مركز الطلاب الطبّي، فأخبرتني بعد الكشف عليّ أن المشكلة في غشاء بكارتي، وأنه ليس ممزقاً بالكامل. وهكذا، تم الأمر في عيادتها بالاستعانة بأداة خاصة بفتح غشاء البكارة. وقالت بمرح:

«هذا كفيل بفتح الطريق».

ثم أعطتني الكثير من التحذيرات والنصائح، ووضعت في يدي مجموعة من الكتيبات التوضيحية. خرجت من العيادة وأنا أشعر بألم رهيب في الأسفل؛

وكأن حبلاً مربوطاً بشكل عقدة مشدودة يعصر أحشائي بقوة. لكن أهم ما شعرت به هو الذل، لقد شعرت بالخزي الحقيقي.

الحالة الراهنة: لقد قمت بعدة علاقات حميمة سيئة.

لكنني محظوظة لأنني لم أجبر حتى اللحظة على إقامة علاقة أرفضها.

عندما عدتُ من دوامة أفكاري تلك إلى مكاني، وتمكنت من الإنصات إلى الدكتور سوسا مجدداً، كان قد انتقل للكلام عن فصيلة من الشمبانزي تدعى البونوبوس، وقال:

«مجتمع البونوبوس مجتمع مسالم وديمقراطي وحر، تتمتع فيه كل القرود بالحرية الشخصية غير المقيدة. إن تلك الفصيلة من الرئيسيات تعتبر الجنس مجرد طريقة للتكاثر، لكنه رابط قوي يجمعها مع بعضها كالصمغ. إنه بالنسبة إليها كمسرحية ليسيستراتا التاريخية اليونانية...».

أعجب الكلام التلاميذ الشباب. وقد فوجئت بأنهم وافقوا على الاستنتاج الذي توصل إليه أستاذهم؛ وهو أن هذه القردة مخلوقات بسيطة تقودها رغباتها. يا له من فحش! يمكنني أن أعبر عن رأيي هذا بكل بساطة الآن.

رفعت شابة تجلس إلى يميني وتبعد عني بضعة صفوف يدها، ولم تنتظر حتى يسمح لها الأستاذ بالكلام، بل ووقفت فوراً، فلاحظت شعرها الأشقر المصفف بطريقة معقدة بشكل واضح، بالإضافة إلى عدة أقراط فضية تغطي أذنها، وسألت الدكتور سوسا:

«كيف تعرف أي النظامين كان الأسبق في الحياة؟ ربما كانت إناث البونوبوس تجد ذكورها أكثر جاذبية مما تجد الإناث من البشر الذكور. من المثير للحماسة بالطبع أن نحظى بمجتمع حر ومسالم وخالٍ من المشاكل المتعلقة بالسيطرة على سلوك الإناث، ولهذا أقترح عليكم أيها السادة أن تجربوا ذلك النظام».

قام أحدهم من الخلف بإصدار صوت يشبه صوت الشمبانزي عندما يرغب في الحصول على طعام ساخراً منها. فقالت الشابة:

«مجتمع قردة البونوبوس مجتمع أمومي. ولهذا، كيف يمكنكم أن تكونوا واثقين من أن الجنس هو ما يجعل المجتمع مسالماً وليس الأمومة؟ فالإناث في مجتمع قردة البونوبوس تقوم بالحراسة أيضاً. إنها تحمي بعضها بعضاً؛ هذا ما اختار البونوبوس فعله. أما البشر فلا يفعلون ذلك، وكذلك الحال بالنسبة إلى الشامبانزي».

قال الدكتور سوسا:

«حسناً، إنها نقطة جديرة بالاهتمام. لقد لفتِّ نظري إلى أمر يجب التفكير فيه». ثم ألقى نظرة باتجاهي.

ختم الدكتور سوسا محاضرته الأخيرة لنا في هذا الفصل بإخبارنا أن تفضيل الإنسان لنوعه (البشري) يبدأ منذ لحظة الولادة، وأننا نستطيع ملاحظة ذلك

لدى الأطفال الذين لم تتجاوز أعمارهم ثلاثة أشهر، والذين يفضلون النظر إلى وجوه الناس الذين ينتمون إلى فصيلتهم العرقية نفسها والتي يشاهدونها باستمرار على النظر إلى وجوده مختلفة. كما يمكن ملاحظة ذلك عند الأطفال الصغار الذين يفضلون باندفاع شديد الناس الذين ينتمون إلى المجموعة نفسها التي ينتمون هم أنفسهم إليها عند تقسيمهم إلى مجموعات تعتمد على أكثر المعايير عشوائية واعتباطية؛ كالمجموعات التي تعتمد على تماثل لون رباط الحذاء مثلاً. وقال الدكتور سوسا:

«إن استبعادنا الآخر المختلف عنا – كما يستبعدنا الآخر المختلف عنا للسبب نفسه – من أكثر خصائصنا البشرية تطوراً ورقياً. غير أن استبعاد الآخرين أو رفضهم بتعبير أصح فعل غير طبيعي، بل هو تصرف غير إنساني. وعندما نفكر في الأمر، نفهم السبب الذي يدفع الكثير من دور العبادة وتابعيها للحديث عن الأمر؛ لكن القليلين منا فقط يتجنبون ذلك، لأن عدم استبعاد الآخرين يخالف شيئاً أساسياً في طبيعتنا. وهنا، نجد أنفسنا وجهاً لوجه مع المأساة البشرية؛ لأن الإنسانية التي نشترك بها جميعاً مبنية بشكل أساسي على إنكار بشرية كبرى متساوية في الحقوق وكل شيء آخر».

انتهت المحاضرة، وصفق الجميع لأنهم أحبوها ولأنها انتهت على حد سواء. نبّهنا الدكتور سوسا إلى بعض الأمور الخاصة بالامتحان النهائي، ولم يكن يراجع معنا التواريخ والمعلومات، بل كان يريد أن يرى كيفية تفكيرنا، ثم نظر باتجاهي مرة أخرى. كان بإمكاني أن أومئ له برأسي للمرة الأخيرة هذا الفصل بمودة، ولكنني كنت لا أزال منفعلة وغاضبة... غاضبة للغاية. كنت غاضبة بسبب التمييز الواضح بين البشر والرئيسيات.

لم أسمع من قبل عن قردة البونوبوس، وبدا لي لوهلة من الزمن أن الجميع يعرفون عن قردة الشمبانزي أكثر مني. لقد فوجئت بذلك، وقد كانت مفاجأة غير سارة بالنسبة إلي، لكنها كانت أقل الأمور التي ينبغي لي التفكير فيها الآن.

# القسم الرابع

سأكرر مرة أخرى: لم يسعدني تقليد الناس قط، بل كنت أقلدهم لأنني كنت أبحث عن مهرب... لا يوجد لدي سبب آخر.

«*فرانز كافكا، تقرير للأكاديمية*»

# 1

اليوم، في عام 2012 الذي نعيش فيه، ومع وجود الإنترنت التي تتيح لنا الوصول إلى أي معلومة نريدها وكأنها واحدة من تلك الألعاب التي تفرش فيها كل الأوراق أمامك، أو قطع الحلوى – أي واحدة من تلك الألعاب التي لا تنتهي لأن اللاعب لا يفوز أبداً – حاولت أن أعرف ما جرى مع قردة الشمبانزي الآخرين التي تم تبنيها من قبل العائلات البشرية. وهكذا، حصلت على المعلومات عن تفاصيل التجارب بسهولة، ولكنني لم أعرف شيئاً عن مصير تلك الحيوانات، وعندما كنت أجد معلومة ما، كنت أشكّ في أمرها.

إحدى القردة التي أُجرِيت عليها تلك التجارب الأولى كانت قردة شمبانزي ذكيةً ومطيعةً وصغيرة في السن من منطقة غوا، ووجدت أنها ماتت عام 1933 نتيجة عدوى مرضية؛ بعد وقت قصير من إعادتها إلى مختبر ييركس للأبحاث – حيث ولدت – وإبعادها عن عائلة كيلوغ. عاشت تلك القردة في بيت كيلوغ حوالي تسعة أشهر جنباً إلى جنب مع ابنهم الرضيع دونالد، وتفوقت عليه من دون أي جهد يذكر في تعلم استعمال الشوكة لتناول الطعام، وشرب السوائل من الكوب. ماتت تلك القردة وهي في الثانية من العمر فقط.

ولدت القردة فيكي هايس عام 1947، وماتت في منزلها نتيجة إصابتها بمرض التهاب السحايا وذلك عندما كانت في السادسة والنصف أو السابعة من العمر؛ حسب الموقع الذي يزودكم بالمعلومات. تطلق والداها بعد موتها، وأفاد صديق واحد على الأقل أن تلك القردة كانت السبب الذي يجمع الزوجين معاً، كانت فيكي وحيدة أبويها.

ولدت مايبلين عام 1965 وسالوم عام 1971، وماتتا نتيجة إصابتهما بإسهال حاد تفاقم خلال أيام تلت سفر أهلهما المحترمين لقضاء عطلة في الخارج وتركهما وحيدتين في المنزل. لم تجد الفحوصات أي دليل عضوي يشير إلى سبب الإسهال الحاد في كلتا الحالتين.

عانى آلي المولود في عام 1969 أيضاً من إسهال كاد يقضي على حياته وذلك بعد عودته إلى منشأة الأبحاث. وكنتيجة لما أصابه، نتف شعره، وأصيبت إحدى ذراعيه بالشلل، لكن هاتين الإصابتين لم تقتلاه. سرت شائعات غير مؤكدة تفيد بأنه مات في الثمانينيات في أحد المختبرات الطبية، وذلك بعد أن وقع ضحية إحدى التجارب العلمية، حيث أُعطي جرعة تجريبية مفرطة من مبيدات الحشرات.

أرسلت القردة لوسي تيمبرلين المولودة عام 1964 وهي في الثانية عشرة من عمرها من منزلها لتعيش مع قردة الشمبانزي في غامبيا. وكانت قد أمضت طفولتها في أوكلاهوما مع عائلة تيمبرلين، كما كانت تحب مجلة

playgirl والشاي الذي كانت تعده بنفسها، وكانت ماهرة في استعمال الأدوات. لقد كانت قردة تحب الحياة.

لكنها لم تكن تعرف أي شيء عن الحياة في الغابة؛ فقد ولدت في مزرعة فلك نويل لقردة الشمبانزي، وأخذت من أمها لتعيش في بيت البشر بعد يومين فقط من ولادتها. حاولت جانيس كارتر (وهي طالبة دراسات عليا في علم النفس) في غامبيا أن تعوِّدها على حياة الغابات وتروضها، وأولتها عناية شديدة لعدة سنوات؛ ولكن بلا فائدة. فقد عانت لوسي خلال تلك السنوات من اكتئاب حاد، وخسرت وزنها، وكانت تنتف شعرها احتجاجاً. عام1987، شوهدت لوسي لآخر مرة على قيد الحياة برفقة قردة شمبانزي أخرى بعد أن استسلمت لحقيقة كونها واحدة منها.

وبعد عدة أسابيع، وُجِدت عظامها المبعثرة، وجُمعت من قبل الطلاب. اشتبه الدارسون بأنها قتلت على أيدي الأشخاص أنفسهم الذين لطالما حملتها أيديهم. كل تلك المعلومات متناقضة في ما بينها بشكل غريب.

مات نيم تشيمبسكاس المولود في عام 1973، ونجم الكتب المصورة والشاشات السينمائية في عام 2000 عن عمر ستة وعشرين عاماً، وهو صغير جداً. كان يعيش في مزرعة الجمال الأسود للخيول في تكساس بعد أن تنقل بين الكثير من المنازل والعديد من العائلات البديلة. اختلفت التقارير حول عدد الرموز التي تعلمها، حيث أفاد أحد التقارير أنه تعلم خمسة وعشرين رمزاً، وأفاد آخر بأنه تعلم مئة وخمسة وعشرين رمزاً، لكن قدراته اللغوية خيبت أمل الدكتور هيرب تيرانس؛ وهو عالم النفس الذي كان يُجري عليه الدراسات. عندما كان نيم في الرابعة من العمر، أعلن الدكتور تيراس للعالم أن التجربة على القرد قد انتهت، وأرسله ليعيش في معهد دراسات الرئيسيات (IPS) في أوكلاهوما.

فشل نيم الملحوظ والواضح أضرّ بالعديد من القردة الأخرى؛ لأن الجهات التي كانت تمول تلك الدراسات توقفت عن إرسال الأموال.

وفي آخر الأمر، تم بيعه لمختبرات الأبحاث الطبية، حيث عاش في قفص صغير إلى أن هدد أحد الطلاب السابقين بإقامة دعوى قضائية ضد المختبر، وأطلق حملة رأي عام شعبية مع صندوق تبرعات؛ مما أدى إلى إطلاق سراحه من سجنه في النهاية.

واشو التي ولدت عام 1965 وماتت عام 2007، هي القردة الأكثر شهرة بين كل قرود الشمبانزي التي تبنتها عائلات بشرية. أمضت بعضاً من عمرها أيضاً في مختبرات (IPS) في أوكلاهوما. كانت واشو الكائن غير البشري الأول الذي تعلم رموز اللغة الإنكليزية، وكانت تفهم 350 مفردة لغوية. ماتت واشو لأسباب طبيعية عندما كانت في الثانية الأربعين من عمرها. وقد كرّس روجر فوتس – الذي بدأ العمل معها عندما كان تلميذاً – حياته لأجل حمايتها وتوفير حياة كريمة لها. ماتت واشو في الملجأ الذي أقامه لها في حرم جامعة واشنطن

الرئيس في إلينزبرغ، وهي محاطة بكل البشر الذين عرفوها وأحبوها، وكذلك بقردة الشمبانزي التي أحبتها أيضاً.

قال روجر فوتس إنه تعلم منها أن كلمة كائن الواردة في عبارة كائن بشري أهم بكثير من كلمة بشري.

اكتشفت أن الدافع لتأليف الكتب بين من عاشوا مع القردة يسري كالحمى، ولكل واحد أسبابه. فقد تم تأليف كتاب القرد والصبي عن عائلة كيلوغ، وكتاب بجانب قريبتي عن واشو، وكتاب قردة في منزلنا عن فيكي، وكتاب القرد الذي كاد يكون إنساناً عن نيم.

ينتهي كتاب موريس تيميرلن عن القردة لوسي (Human Up Growing) في عام 1975، أي عندما كانت لوسي في الحادية عشرة من عمرها. تبنتها عائلة تيميرلن وهي تعتقد – كما كان حال كل العائلات الأخرى التي تبنت القردة – أنها تقوم بالتزام يدوم مدى الحياة، لكن تيميرلن عبّر في نهاية كتابه عن رغبة مضنية في العودة إلى عيش حياة طبيعية. حكى في كتابه أنه لم يشارك زوجته السرير منذ سنوات؛ لأن لوسي لا تقبل بذلك، وأنهما لا يستطيعان الذهاب في عطلة ولا يستطيعان دعوة أصدقائهما لتناول العشاء. لم يكن هناك جانب من حياتهما لا توجد فيه لوسي بكل قوة.

كان للوسي أخ أكبر بشري يُدعى ستيف، ولم أجد له ذكراً قبل عام 1975. لكنني وجدت موقعاً إلكترونياً يذكر أن دونالد كيلوغ الذي عاش سنة ونصف السنة من طفولته مع قردة غوا – وهي فترة يفترض بها ألا تترك أي أثر في ذاكرته رغم أنها موثقة بشكل ممتاز في الكتب والأبحاث والتسجيلات المنزلية – قد انتحر في عمر الثالثة والأربعين. ادعى موقع آخر أن دونالد كان يمشي بطريقة مميزة عن باقي البشر وتشبه طريقة مشي السعادين، لكن الموقع خالٍ من المراجع، ولا وجود لسبب مقنع يجعلنا نأخذ ذلك بعين الاعتبار على الإطلاق.

# 2

بعد عدة ساعات من انتهاء محاضرة الدكتور سوسا التقيت هارلو في مطعم وجبات خفيفة في مركز مدينة ديفيس يُسمى Graduate The. كانت الشوارع مظلمة وباردة ورطبة رغم توقف هطول المطر. لو التقينا في وقت آخر، لكنت قد أوليت سحر الليل المحيط بي اهتماماً أكبر؛ لأن كل مصباح في الشارع كان محاطاً بهالة ضبابية كوهم لامع، بينما كان ضوء دراجتي الأمامي يشتعل بشكل متقطع لمدة قصيرة مع ضغطي على دواستَي الدراجة وأنا أعبر الشوارع المعتمة. لكن أفكاري كانت لا تزال تحوم حول محاضرة الدكتور سوسا؛ كشخص يحوم حول قمة جرف خطر وهو يعرف أنه معرض للسقوط في أية لحظة.

وفي الوقت الذي وصلت فيه إلى مكان اللقاء ووضعت السلسة والقفل حول دراجتي كنت قد وصلت إلى مرحلة الارتجاف برداً بعنف، فتذكرتُ مشهداً من فيلم *It’s a Wonderful Life*.

دفعت الباب الثقيل وولجت إلى الداخل. كنت أفكر في إخبار هارلو بما عرفته عن الحياة الجنسية عند الشمبانزي، لكن كمية المعلومات التي سأخبرها بها تعتمد على الحالة التي سأكون عليها بعد قليل. كنت متحمسة كثيراً في تلك الأمسية للتضامن والتماسك الأنثوي، وظننت أن التحدث بصراحة مع امرأة أخرى عن فظاعة ذكور الشمبانزي سيجعلني أشعر بتحسن، ولهذا انزعجت عندما شاهدت ريغ جالساً معها إلى الطاولة؛ لأنه لم يبدُ لي شخصاً مناسباً لمناقشة موضوع الجنس عند الشمبانزي معه.

وازدادت كآبتي عندما لاحظت وجود المدام دوفارج في حضن هارلو، وهي تحرك رأسها من جانب إلى آخر وترخي فكها إلى الأسفل وكأنه فم أفعى الكوبرا. كانت هارلو ترتدي سروال جينز مهترئاً لا تحول دون تمزقه سوى رقع مطرّزة تحمل صور جبال وأقواس قزح وأوراق الأعشاب موزعة عليه بالكامل، ولهذا بدا لي حضنها مكاناً ممتعاً. ثم قالت هارلو عندما رأتني:

«أنا أحرص على سلامتها». مما يعني أنها تضايقت من أمر لم يتسنَّ لي الوقت للتعبير عنه بعد. كانت الفتاة تضع افتراضات حول عدم استمتاعي بحياتي على الإطلاق، وقد كانت بعض افتراضاتها جيدة. بدأت علاقتنا بشكل واعد للغاية، فقد كسرت كلٌ منّا الأطباق والكؤوس بأفضل شكل يمكن للفتاة القردة أن تفعله فيه، ووُضعنا وراء القضبان بسبب ذلك. لكنني عرفتُ أنها كانت تعيد تقييمي الآن، وأنها عرفتْ أنني لست هوجاء ورعناء كما افترضت مسبقاً؛ مما خيب أملها.

وضعت هارلو كل ذلك جانباً بلطف لهذه الآونة، وأخبرتني أنها عرفت للتو أن قسم المسرح في الجامعة سيعمل على عرض نسخة مقلوبة من مسرحية ماكبث في الربيع، تكون فيها أدوار الممثلين مقلوبة بين الرجال والنساء، أي سيعكسون أجناس الأبطال. لم تقل هارلو ماكبث بالطبع، بل قالت: المسرحية الاسكتلندية بالطريقة التي يتكلم بها رواد المسرح الكبار ويعبِّرون بها عن شعورهم. ستقوم ممثلات بلعب أدوار الرجال، وسيقوم رجال بلعب أدوار النساء، وقد تم اختيارها للمساعدة في تحضير المسرح والملابس. لم أشاهدها متحمسة هكذا سوى نادراً. أخبرتني أنهم سيعكسون ملابس الممثلين أيضاً، لكنها أملت في أن تتحدث إلى المخرج بهذا الشأن قبل البدء بالتمارين.

انحنى ريغ إلى الأمام ليخبرنا أن الجماهير لا تعشق شيئاً أفضل من رؤية رجل يرتدي ثوباً، فصرفته هارلو بحركة من يدها لشدة سخافة ما تفوّه به وقالت:

«ألن يكون الأمر مثيراً للجدل أكثر إذا لم يغيروا الملابس؟ ألن يكون التحدي أكبر في تلك الحالة؟».

قالت هارلو إنها بدأت بالفعل برسم مشاهد من القلعة بشكل معكوس في محاولة منها لتخيل عالم أنوثي ساحر وخيالي. كان بإمكاني أن أغير هذا الحديث لأكلمها عن الاغتصاب عند الشمبانزي لو أنها لم تكن غارقة في آمالها وخططها.

أرسل الرجال من جميع أرجاء المطعم الشراب على حسابهم للمدام دوفارج.

قدّم لي ريغ إحدى تلك الكؤوس، وكانت تحتوي على شراب داكن ذي رائحة نفاذة. كانت الكأس المثلجة دافئة أكثر من يدي التي لم أعد أشعر بأصابعها، ثم رفع ريغ كأسه لاقتراح نخب وقال:

«نخب القوى الخارقة». مخافة أن يتولد عندي انطباع بأننا نريد ترك الماضي للماضي... ولهذا، فلتبدأ سهرتنا المجنونة والطائشة الآن.

بعد مرور وقت قصير بدأت أتعرق بغزارة، واكتظ المكان براقصين راحوا يتمايلون على أنغام اختارها مهندس صوت متمرس. تنقلت مدام دوفارج من طاولة إلى أخرى، ومن كرسي إلى آخر، بينما هدرت مكبرات الصوت بأغنية Case Basket التي تغنيها فرقة Day Green.

تبادل ريغ وهارلو بضع كلمات عبر الطاولة وهما يصرخان بأعلى صوتيهما فسمعت أغلب ما قالاه. لقد ظن ريغ أنها كانت تغازل كل الشبان الموجودين في المطعم، بينما ظنت هارلو أنه يقصد بكلامه المدام دوفارج... الدمية. لكن الحقيقة هي أن هارلو كانت غارقة حتى أذنيها في أداء دور المدام، وكل الشبان في المطعم كانوا على علم بهذا.

«آه، نعم. أنتم مجموعة من الأشخاص واسعي الاطلاع، ورفيعي الثقافة، ومحبّي الفن الحقيقيين».

قال ريغ إن الرجال يربطون في أذهانهم الأداء الفني التمثيلي بنساء يطلين وجوههن بالدماء، وهم لا يحبون ذلك على الإطلاق. فهم يفضلون الساقطات على الفنانات.

بينما رأت هارلو أنه من المهم أن نفرِّق بين الساقطة وامرأة تلعب دور دمية ساقطة. لم ير ريغ أي فرق بين الاثنتين، أو ربما كانت النساء برأيه يرين فرقاً على غير حال الرجال الذين لم يكونوا يفرقون بين الاثنتين، لأنهم لا يكترثون. فقالت هارلو على لسان مدام دوفارج:

«هل تنعتني بالساقطة؟ هل هذا ما تقوله عني؟».

تباطأ وقع الموسيقى من دون أن تتوقف، وعكف كل من هارلو وريغ على احتساء الشراب، فيما اقترب من طاولتنا شاب أبيض البشرة يعتمر قبعة بيسبول مقلوبة إلى الخلف، وطلب من هارلو أن تراقصه، فقال ريغ بصوت مرتفع بما فيه الكفاية ليسمعه الشاب:

«أبيض ملعون».

فما كان من هارلو إلاّ أن أعطته مدام دوفارج ليراقصها وقالت لريغ:

«هل رأيت؟ إنها ترقص معه وأنا سأرقص معك». ثم رفعت يدها فتناولها ريغ وجذبها إليه. ابتعدا عن الطاولة، ورقصا متلاصقين ويداها على رقبته، وهو يضع يديه حول خصرها. وفي الوقت نفسه، حملق الشاب الذي يعتمر قبعة البيسبول المقلوبة بالمدام دوفارج بارتياك واضح، إلى أن أخذتها منه وقلت له:

«إنها لا تصلح للرقص، فهي قيّمة جداً».

أنار مهندس الصوت مصابيح المسرح الملونة، فراحت الأنوار تومض بشكل متقطع، وتحول المكان إلى صالة رقص حقيقية. عاد ريغ إلى الطاولة، وتحدث معي مطولاً، فتأملت وجهه والأضواء تتلاحق عليه وكأنني أرى صوراً مقطعية لوجهه. أومأت برأسي بلا توقف متظاهرة بأنني أنصت له، إلى أن أصبت بالدوار فرّكزت نظري على أنفه الحاد لأستعيد تركيزي. لم يكن ريغ يصرخ، ولهذا لم أسمع أي كلمة مما قاله.

أومأت له مجدداً، فكانت إيماءتي تلك موافقة له على كلامه بأن موقفه من القوى الخارقة محض هراء، وأن لا مكان له في العالم الحقيقي. ثم قلت:

«هراء... كلام فارغ... هذيان لا معنى له...»

وقع نظري على صدره، فلاحظت إشارة مرور صفراء مطبوعة على كنزته القطنية بالإضافة إلى رسم لعائلة تعبر الطريق. كان الأب أول العابرين وهو يسحب زوجته من يدها، فيما تقوم هي بسحب طفلتهما، والطفلة بدورها تمسك يد دمية أيضاً. أنا من إنديانا... وديفيس ليست سان دييغو، ولم أكن أعرف أن هذا الرسم يفيد بعدم دهس المهاجرين غير الشرعيين بسيارتك. في الرسم على كنزته، كانت كل من الطفلة ودميتها تطيران في الهواء بسبب السرعة الفائقة التي كان الوالدان يعبران بها الشارع، رأيت أقدامهما تصطدم ببعضها، بينما تطير ضِفائر الفتاة وراءها في الهواء. لا بد لي من التنويه هنا إلى

أنني تناولت مسبقاً في تلك الأمسية عدداً من الحبوب التي أعطتني إياها هارلو، فوجدت نفسي على وشك التقيؤ، وتابعت كلامي قائلة:

«هراء، هذيان، كلام فارغ».

قال ريغ إنه لم يسمع ما قلته، فخرجنا إلى حيث تمكنت من إخباره عن اختبار المرايا. لا أذكر السبب الذي ذكرني بذلك الاختبار، لكنني ألقيت عليه المحاضرة كاملة. أخبرته أن بعض الكائنات الحية كالشمبانزي والفيلة والدلافين تميّز أنفسها في المرايا، بينما لا تستطيع الكائنات الأخرى كالكلاب والحمام والغوريلا وأطفال البشر الرضع أيضاً القيام بذلك. فكر داروين نفسه بهذا في أحد الأيام عندما وضع مرآة على الأرض في حديقة الحيوانات، وراقب اثنين من الغوريلا – الأقرب إلى الشمبانزي – وهما يتأملان نفسيهما على صفحتها. وبعد مئة عام من ذلك اليوم، قام عالم نفساني اسمه غوردون غالوب بإعادة الإختبار بشكل معدّل، وراقب سلوك بعض قردة الشمبانزي وهي تستعمل المرآة لتنظر إلى داخل أفواهها وتلقي نظرة على أجزاء البدن التي تستطيع المرآة فقط أن تمكنها من النظر إليها. قلت لريغ إننا كنا كباحثين نستعمل اختبار المرآة لنقرر مدى إدراك الفرد لذاته منذ عهد الملعون داروين، ولم أصدق أن باحثاً أكاديمياً مثله – يعتقد أنه يعرف كل شيء – لم يكن يعرف شيئاً أساسياً وعميقاً كهذا.

أضفت في تلك المرحلة من حديثي من دون أي سبب معين غير معرفتي بتلك المعلومة أن السايكومانتيوم غرفة تغطيها المرايا من كل الجهات، ويدّعي الساحر أنه يقوم فيها باستحضار أرواح الموتى.

فجأة، تساءلت في تلك اللحظة عن تأثير رؤية الإنسان لصورته المطابقة تماماً على المرآة، لكنني لم أقل شيئاً بذلك الخصوص؛ باعتبار أنني لا أعرف الجواب، وأنه قد يتظاهر بأنه يعرف الإجابة.

كنت أحاول على الأرجح إعادة بناء إحساسي المهشم بالسلطة على تلك الأمور بعد الكشوفات التي قدمها لنا الدكتور سوسا في محاضرته.

كنت حمقاء بلا شك. أذكر أن ريغ قال لي إنني تكلمت كثيراً، فما كان مني إلا أن أغلقت فمي بيدي وكأنني فُضحت وأنا أقوم بسرقة شيء ما. ثم قال ريغ إنه يجدر بنا العودة إلى الداخل لأنني كنت أرتجف مجدداً، ولأنه بات يعرف الآن كل ما هو بحاجة إلى معرفته عن اختبار المرايا.

# 3

لا أذكر من بقية تلك السهرة سوى مشاهد متقطعة لا علاقة لها ببعضها بعضاً؛ كما نرى في مونتاج الأفلام السينمائية الحديثة. إنه الجزء الجديد من فيلمنا القديم بعنوان: عودة الفتاة القردة، وهي تتجول في هذا الجزء الجديد في أرجاء المدينة وتبدو مخبولة كلياً ومعتوهة.

ها أنذا أحاول تناول طبق من الأرز من محل Box the in Jack بعد أن تركنا ريغ في وقت سابق. وها هي هارلو تقود دراجتي وأنا أجلس على المقود. طلبنا الكثير من الأطباق من المحل، وغيرنا رأينا عدة مرات، وحاولنا التأكد من أن المرأة الموجودة في الطرف الآخر قد سجلت طلبنا بشكل صحيح. لكنها رفضت تلبية طلبنا لأننا لا نركب سيارة، وطلبت منا أن ندخل إلى الداخل. نشب بيننا جدال انتهى بأن أحضرت المرأة امرأة أخرى تفوقها سلطة في المكان، وما كان من المسؤولة الجديدة إلا أن طردتنا بصوت رفيع وحاد خرج من رأسها الفائق البياض بشكل مزعج للغاية. عندها، ما كان من هارلو إلا أن انتزعت جهاز الانترفون الذي يربطنا بهما عن الحائط من دون أن تستعمل أي شيء آخر غير مفتاح شقتها.

ها أنذا في مرقص شارع G، ثرثرتُ مع شاب أسود البشرة يرتدي سترة لباس موحد؛ مما يعني أنه ربما يكون في الثانوية، ثم قبّلنا بعضنا لوقت لا بأس به، ولهذا آمل ألا يكون في المدرسة الثانوية كما أظن.

ها أنا مستلقية على مقعد رطب في محطة القطار وقد اتخذت وضعية الجنين، ووجهي يقابل ركبتيّ. كنت أنتحب وأنشج لأنني سمحت لنفسي بتخيل شيء لم أسمح بتصوره من قبل. سمحت لنفسي بتخيل اليوم الذي أُخِذَتْ فيه فيرن بعيداً.

لن أعرف على وجه الدقة ما حصل في ذلك اليوم لأنني لم أكن موجودة، ولم يكن لويل هناك أيضاً. أراهن أن والدتي لم تكن هناك أيضاً، ومن المحتمل أيضاً أن والدي كان غائباً عن البيت في ذلك اليوم.

لا بد أن فيرن قد خُدِّرت، ولا بد أنها استيقظت في مكان غريب كما حصل لي في عصر ذلك اليوم الذي أفقت فيه من نومي في غرفتي الجديدة. إلاّ أن والدي حضر لمواساتي حين بكيت... من كان مع فيرن؟ من واساها؟ ومن كان موجوداً لأجلها؟ ربما قام مات بذلك. سمحت لنفسي بتخيل ذلك، علّني أجد فيه بعض العزاء؛ أن أتخيل مات بجانبها لدى استيقاظها هناك للمرة الأولى.

أنا أتخيلها كما رأيتها للمرة الأخيرة؛ طفلة مرحة وحيوية في الخامسة من عمرها. لكنها لا تعيش في بيت عائلة روبنسون السويسرية في كوخ الشجرة

الآن، بل محبوسة في قفص مع قرود شمبانزي أكبر منها سناً وحجماً ولا تعرف أحداً منهم، ثم تعيّن عليها أن تتعرف إلى شخصيتها الجديدة، لا أن تعرف فقط أنها قردة شمبانزي، بل أنها أنثى أدنى مرتبة من أي ذكر. أنا أعرف جازمة أن فيرن لن ترضخ لذلك أبداً بلا عراك.

ما الذي فعلوه بها في ذلك القفص؟ مهما كان ما جرى لها، فقد جرى لأن الإناث لم يوقفن ذلك ويمنعن حدوثه، ولم تعترض أي منهن على ما سيحصل لها. فالإناث اللواتي يفترض بهن الوقوف بجانب فيرن – مثل أمي وطالبات الدراسات العليا وأنا – لم تمد أي منهن يد العون لفيرن، بل حذفنها من حياتهن، ورمين بها في مكان مجرد تماماً من تضامن الإناث مع بعضهن.

ما زلت أبكي، إلاّ أنني وجدت نفسي في حجرة هاتف صغيرة في مكان ما لا أعرفه. كنت أسمع كل ما يقوله الناس في الخارج. أنا مع هارلو وشابين في مثل عمرنا تقريباً. الشاب الأكثر جاذبية جلس بجانب هارلو، ومد ذراعه على المسند خلف كتفيها، وراح يهز رأسه باستمرار ليبقي خصل شعره الطويل بعيدة عن عينيه. أما الشاب الآخر فمن الواضح أنه رفيقي. إنه قصير القامة، ولكنني لا أكترث بذلك في الحقيقة لأنني قصيرة القامة أيضاً، وأفضِّل الشبان معتدلي الطول على الشبان طويلي القامة، إلاّ أنه ظلّ يطلب مني أن أبتسم قائلاً:

«لا شيء أسوأ من هذا العبوس».

لو كنت في الخامسة من عمري لكنت قد عضضته من دون تأخير.

شعرت بالإهانة أيضاً؛ لأنه من الواضح للجميع أنني كنت موجودة لأكمل النقص، من دون أن يبذل أي منهم جهداً للتظاهر بالعكس؛ كما لو أننا في حفلة موسيقية، وهارلو وصديقها يرقصان على أنغام أفضل الأغاني، وتحصل لهما أفضل الأمور، وكل شيء يتعلق بهما، بينما لا دور لي أنا وصديقي سوى الترفيه عنهما.

قلت له لأفسر عدم ابتسامي:

«أنا لا أعرف اسمك». فرغم أننا ذكرنا أسماءنا في مرحلة سابقة لدى تعرفنا إلى بعضنا، إلا أنني على الأرجح لم أكن أنصت إلى ما يُقال كما تقتضي العادة.

ربما لم يكن صوتي عالياً بما فيه الكفاية؛ لأن أحداً لم يستجب لكلامي، وإنما رمش الشاب بعينيه بسرعة وكأن شيئاً ما دخل فيهما. أرهقني النظر إلى عينيه بعد كل البكاء الذي بكيته، وكأنني مسحت الصحراء الكبرى بعينيّ. فجأة، لم أعد قادرة على التفكير في أي شيء غير ألم عينيّ الحارق.

اقتربت هارلو مني من فوق الطاولة، وأمسكت بمعصمي بيدها وهزتني قائلة بحزم:

«اسمعيني، هل تنصتين إليّ؟ هلا تعيرينني اهتمامك، مهما كان ذلك الشيء الذي يقض مضجعك فهو غير موجود إلا في خيالك. إنه ليس حقيقياً».

سئم الشاب الجالس بجانب هارلو مني وقال:

«بحق الله، تمالكي نفسك».

أنا أرفض أن أكون في حالة أدنى من ذلك اللوم الذي لا يطاق. أنا أرفض الابتسام، وأفضل الموت على ذلك.

ما زلنا في المكان نفسه، لكن ريغ هنا. إنه يجلس بجانب هارلو، بينما يجلس الشاب ذو الشعر الطويل بجانبي، والشاب القصير على كرسي منفصل في الطرف الآخر من الطاولة. لا أذكر كيفية حصول كل تلك التغييرات، وشعرت بأنني غاضبة أكثر من أي وقت مضى في حياتي؛ إلى درجة تفوق كل حدود الغضب. فقد أعجبني الشاب القصير أكثر من الشاب ذي الشعر الطويل، لكن أحداً لم يسألني عن رأيي.

كل الشبان بدوا لي متوترين، وشعرت بأنهم على وشك سحب سيوفهم الضوئية في أي لحظة الآن (كما يفعل بطل فيلم حرب النجوم). كان ريغ يعبث بالمملحة ويدوّرها حول محورها، ثم قال إن الشخص الذي ستتوقف عنده كيس قمامة. فأجاب الشاب ذو الشعر الطويل قائلاً إنه لا يحتاج إلى مملحة لمعرفة كيس القمامة بيننا لأنه يعرفه من النظرة الأولى. فقال له الشاب قصير القامة:

«على رسلك يا رجل، لا يمكنك الاستحواذ على كل شيء وحدك».

فزاد ريغ الطين بلّة، ورفع يده ورسم بأصابعه إشارة الخاسر أمام جبهته، ولم يستعمل إصبعين فقط لرسم شكل الحرف L كالمعتاد، بل استعمل أيضاً إصبعه الوسطى مشيراً بها تماماً إلى الشاب الذي يجلس مقابله، مما لا يجعلها تعني أي شيء آخر غير معناها الأصلي، بل وأضافت إلى ذلك أن الشخص المعنيّ بالأمر خاسر وأحمق بكل المعاني. عندها، شهق الشاب ذو الشعر الطويل بصوت مرتفع، وبتنا قريبين جداً من نشوب عراك بالأيدي.

تساءلت بيني وبين نفسي إن كانوا سيهدأون إذا قمت بعلاقة حميمة معهم جميعاً. لكن، يبدو أنهم لن يهدأوا حتى إن فعلت ذلك.

من الواضح أنني تساءلت عن ذلك بصوت مرتفع ومن دون وعي منّي، فحاولتُ التغطية على الأمر بادعائي أنني كنت أتفوّه بافتراض نظري لا مكان له في الواقع، وحكيت لهم عن محاضرة الدكتور سوسا، لكنني لم أتمكن من الاستفاضة في الشرح لأن اسم بونوبو اسم مضحك جداً، فارتسمت على وجوههم تعابير فكاهية؛ مما دفعني للضحك بشدّة. في البداية، ضحك الجميع معي، ثم توقفوا عن ذلك وتابعت الضحك وحدي. لم يرُق بكائي لأحد، وأعرف من نظراتهم هذه وأنا أضحك وحدي أنني ما زلت أثير غضبهم جميعاً.

وها أنا في حجيرة مرحاض الآن، أتقيأ قطعاً كبيرة من البيتزا. وعندما انتهيت وخرجت إلى حيث توجد المغاسل لأنظف وجهي وجدت ثلاثة شبان

يتبولون على مباول معلقة على الجدار فعرفت أنني موجودة في الحمام الخاطئ.

كان ريغ واحداً من أولئك الشبان، فأومأت له في المرآة وسألته:

«من ذاك؟ إنه اختبار ذكاء...»

تخلصت من عدستَيَّ ورميتهما في الحوض لأنهما مخصصتان للاستعمال مرة واحدة فقط. وهذا ما يفعله المرء بالعدسات... إنه يرميها. بالإضافة إلى ذلك، ما هو الشيء الذي سأنظر إليه بهما؟ أهو وجهي الباهت والشاحب الذي لا تضيئه سوى إنارة شحيحة وهو يحدّق إليّ على صفحة المرآة؟ لم يعجبني هذا المنظر قطّ. لا يمكن أن يكون هذا وجهي. لا بد أنه وجه شخص آخر.

أعطاني ريغ قرصاً منعشاً للأنفاس فوضعته في فمي، وربما كان هذا أكثر تصرف حكيم قام به شاب معي. فوجدته فجأة جذاباً للغاية، ثم قال:

«أنتِ تقفين على مسافة قريبة مني للغاية. هل أخبركِ أحد من قبل أنك تضغطين على المحيطين بك وتقتحمين مساحتهم الشخصية؟».

فما كان مني إلاّ أن ألقيت رأسي على كتفه بكل بساطة.

تذكرت شيئاً فقلت له:

«أنتَ تحتاج إلى الكثير من المساحة الخاصة».

وعندها، غيّرتُ الموضوع قبل أن يدرك أنني أكترث لما يحتاج إليه، وقلت لأصرف انتباهه عما قلته أولاً، ولأنني لا أستطيع قول رأيي هذا كثيراً بما يكفي:

«من السهل أن تدفع الناس لكرهك. من الممكن أن تدرّب أي حيوان ليقوم بأي سلوك عن طريق التلقين؛ إذا بدأت بتدريبه على السلوك الطبيعي المعتاد ثم طوّرت أهدافك. العنصرية والعصبية والتعصب للجنس البشري أنواع متعددة من السلوك البشري الطبيعي يمكن تحريضها بأي وقت من قبل شخص فظ وجلف وعديم الضمير ومجرد من الأخلاق والمبادئ فوق منبر... أي ولد يمكنه القيام بذلك.

كما أن التجمع في قطيع فكري سلوك بشري طبيعي؛ كالتّنمّر مثلاً». قلتُ بأسى وبدأت أبكي مجدداً.

التعاطف سلوك بشري طبيعي أيضاً، وهو موجود عند قرود الشمبانزي على حدّ سواء. فعندما نرى شخصاً مجروحاً تتأثر عقولنا وكأننا مجروحون مثله إلى حدٍّ ما، وهذه الاستجابة الدماغية لا تنبع من الخلايا العصبية المسؤولة عن المشاعر في الدماغ، حيث يتم تخزين الذكريات العاطفية فقط، بل أيضاً من مناطق معينة في اللحاء الدماغي مسؤولة عن تحليل سلوك الآخرين. نحن نعود بطريقة غير شعورية إلى تجاربنا المؤلمة، ونعمِّمها لتشمل المعاناة الحالية؛ حتى لو كانت معاناة الآخر لا تعنينا. إننا طيّبو القلوب في هذه الناحية.

لكنني لم أكن أعرف ذلك آنذاك، ولم يكن الدكتور سوسا يعرفه أيضاً، فقال ريغ:

«من الأفضل لكِ أن تعودي إلى المنزل الآن».

لكنني لم أكن أشعر بأنني يجب أن أعود إلى المنزل. لم أشعر أن وقت العودة قد حان بعد.

ها أنذا أسير برفقة هارلو عبر نفق غسيل السيارات في محطة شل. للنفق رائحة مميزة للغاية فيها خليط من الصابون مع رائحة الإطارات، كما أننا نمشي في النفق باضطراب لأننا كنا ندوس على الفراشي القاسي وأحزمة نقل السيارات وأشياء أخرى غير مرئية بالنسبة إلينا. اتفقنا على أننا كنا نحب البقاء في السيارة أثناء تنظيفها في المحطة عندما كنا صغاراً. كان ذلك أحد أفضل الأشياء بالنسبة إلينا أثناء الطفولة؛ فقد كان المرور بتلك التجربة يشبه الركوب في سفينة فضاء أو غواصة؛ حسب الطريقة التي تمسح بها الممسحة الضخمة ذات الأذرع المتعددة نوافذ السيارة. أشرت إليها وأنا أتحدث. إنها مطاطية ورطبة كما تتخيلون.

كان الماء ينهمر وينهمر... وما انفك يرتطم بالنوافذ، لكننا بقينا جافّتين ودافئتين. ما هو الشيء الأفضل من هذا؟ كانت فيرن تعشق هذا الأمر أيضاً. أخرجت الفكرة من ذهني فوراً، إلا أنها عادت مباشرة وقفزت أمام عيني. رأيت يدَي فيرن الذكية وهما تتخلصان من حزام الأمان الذي يثبتها على كرسيها الخاص في مقعد السيارة الخلفي لكي تتمكن من القفز من مكان إلى آخر داخل السيارة كي لا يضيع عليها أي تفصيل مهما كان صغيراً.

قالت هارلو إن المرء يظن أحياناً أن السيارة تتحرك، لكنه الخداع البصري الذي تسبّبه حركة الفراشي المتحركة، فأخبرتها أنني مررت بالتجربة نفسها؛ بالتجربة نفسها بالضبط. أقصيت فيرن خارج دائرة أفكاري مجدداً، ووافقت هارلو الرأي في أننا نشبه بعضنا كثيراً، وقلتُ:

«عندما أتزوّج، أريد أن يُقام الاحتفال داخل سيارة في مغسل سيارات».

اعتبرت هارلو الفكرة أكثر من رائعة، وعبّرت عن رغبتها بالقيام بالمثل.

ها أنا مع هارلو في شارع G مرة أخرى، نمضي الوقت في لعب البلياردو، وأنا أواجه صعوبة في المحافظة على الكرات فوق الطاولة أكثر من محاولتي إدخالها في الحفر المخصصة لها، فقالت هارلو:

«أنتِ عارٌ على هذه اللعبة».

ثم فقدتها ولم أعد أجدها في أي مكان.

وقع نظري على شاب نحيل صبغ شعره بلون أشقر فاتح للغاية إلى درجة أنه بدا أقرب إلى اللون الأبيض، رميت نفسي بين ذراعيه من دون تفكير، وناديته باسمه الحقيقي. ضغطت نفسي على صدره بأكبر قوة ممكنة، تدفعني الرغبة في تنشق رائحة أخي القديمة التي أعرفها جيداً؛ مزيج من رائحة مسحوق غسيل الملابس وأوراق الغار والذرة. لقد صبغ شعره فاتحاً، وفقد

الكثير من الوزن، ولم يعد جسده يشبه الجسد الرياضي الذي كان عليه سابقاً لكنني عرفته، وسأعرفه في أي مكان، وفي أي زمان كيفما كان شكله.

انفجرت باكية، فهمس في أذني:

«لقد كبرتِ وأصبحت ناضجة الآن. لم أعرفكِ قط إلاّ عندما صعدت فوق الطاولة».

تشبّثتُ بقميصه بشدة، ونويت ألا أتركه أبداً. وفي تلك اللحظة، وجدت الضابط هاديك واقفاً أمامي وهو يهزّ رأسه الكروي الضخم المشابه لكل رؤوس رجال الشرطة:

«أنتِ رهن الاعتقال. بإمكانك النوم في سجن المقاطعة، أو صرف الوقت في التفكير في القرارات التي اتخذتِها والناس الذين ترافقينهم».

ثم ذكر لي أنه مدين بهذا لفينس (وهو اسم والدي في حال نسيتم ذلك)، وأنه وعده بالمحافظة عليّ من أخطار الشوارع، وأضاف أن المرأة الثملة امرأة تبحث عن مشاكل.

قادني إلى الخارج، وساعدني بكل نبل على الجلوس على مقعد سيارة الشرطة الخلفي من دون أن يضع الأصفاد في يديّ هذه المرة، فوجدت هارلو أمامي. سنتقاسم زنزانة قريباً، مع أن الضابط هاديك سيشير لي في الصباح التالي بأن هارلو هي الرفيقة التي لا ينبغي لي مرافقتها إلى أي مكان.

قالت هارلو:

«يجب أن نتوقف عن الالتقاء بهذه الطريقة؛ أعني في السجن».

أردتُ أن أسأل الضابط هاديك إن كان قد شاهد شاباً فاتح الشعر، لكنني لا أستطيع فعل ذلك بالطبع. اختفى أخي تماماً، لدرجة أنني أخشى أن أكون قد تخيلت الأمر برمّته.

# 4

كان بإمكاني أن أهرب من فترة سجني الثانية عن طريق الاستغراق في النوم بسرعة لو استطعت إلى ذلك سبيلاً، لكن أقراص هارلو الصغيرة البيضاء كان أثرها لا يزال في رأسي، وكانت تُشعل نقاط الاشتباك العصبي في دماغي. والأسوأ من ذلك أنني كنت أتخيل فيرن وهي تمتطي صهوة تلك الأفكار بعد كل تلك السنين من إقصائها من تفكيري. فجأة، بدأتُ أراها في كل مكان. شعرتُ أنني أجبرتُ على دخول قفص وأنا مخدّرة؛ تماماً كما جرى لها من قبل تحت تأثير التخدير القسري. وقد دخلت القفص وأنا واثقة من إطلاق سراحي في الصباح، وتساءلت إن كانت قد ظنت بأن سراحها سيطلق في صباح اليوم التالي. كان الأمر أسوأ بكثير من تخيل مقدار رعبها، ومن التفكير في أنها كانت متأكدة من أن كل ما يجري حولها خطأ كبير، وأننا في طريقنا لإنقاذها، وأنها ظنت أنها ستعود إلى غرفتها وسريرها بأسرع وقت.

وكما جرى مع فيرن، لم أكن وحيدة في زنزانتي. فبالإضافة إلى هارلو، كانت معنا امرأة تكبرنا سناً وتتمتع بحسٍّ أمومي دفعها للاهتمام بأمورنا والتأكد من شعورنا بالراحة على سريرينا. كانت المرأة ترتدي روب حمّام لونه وردي باهت من كثرة الاستعمال، وعلى جبينها لطخة سوداء تشبه رماد السجائر الأسود، وشعرها رمادي منفوش وأشعث ومتجمع على أحد جانبي رأسها. قالت لي إنني أبدو كصورة طبق الأصل عن شارلوت، فسألتها:

«ومن تكون شارلوت هذه؟».

لم تجبني، فبدأتُ أخمن وحدي... هل تقصدُ شارلوت برونتي أم شارلوت بطلة رواية شبكة شارلوت أو شارلوت من كارولينا الشمالية؟ أذكر بكاء والدتي عندما أوشكت على إنهاء قراءتها لرواية شبكة شارلوت. فقد توقفت عن القراءة بسبب نوبة بكاء مفاجئة أصابتها، فنظرتُ إليها، ودُهشتُ من احمرار عينيها والدموع التي كانت تغطي وجنتيها، وانتابتني الهواجس بعدها مما يمكن أن يعنيه تأثر والدتي بتلك الرواية. فقد كانت شارلوت تشعر في القصة بالقنوط الشديد واللوعة، ولكنني لم أفهم ذلك في ذلك الوقت لأنني لم أكن قد قرأت بعد كتباً تصف موت أحد ما، ولهذا لم أضع ذلك في الحسبان. كنت بريئة في ما يخص ذلك الموضوع؛ تماماً كما كانت فيرن. فقد كنا نجلس في حضنها – أنا وفيرن – وكانت فيرن تكرر بكسل الإشارة الدّالة على العنكبوت... الحشرة الزاحفة... الهراء الزاحف.

لقد أحبت فيرن رواية شبكة شارلوت على وجه الخصوص لأنها سمعت اسمها يتكرر فيها مرات عديدة على الأغلب؛ مما يقودني للتساؤل: هل استوحت أمي ذاك الاسم من الرواية؟ لم يخطر الأمر في بالي من قبل. وما

الذي عَنَتْه به في ذلك الوقت؟ ما الذي قصدته بتسميتها فيرن باسم الإنسان الوحيد في الكتاب القادر على التكلّم مع الكائنات الأخرى غير البشرية؟

أدركتُ في هذه اللحظة أنّ أصابعي كانت ترسم إشارة الحشرة الزاحفة من دون وعي منّي، ولم يبدُ لي أنني قادرة على منعها من رسم الإشارة، فرفعتُ يدي إلى الأعلى وتأملت أصابعي التي كانت تتحرك بطريقة غير واعية.

اقترحت المرأة عليّ:

«لنتحدث في الصباح، عندما نكون جاهزتين أكثر لذلك».

نصحتنا أيضاً بإخراج الأسرّة النقالة لننام عليها، والتي لم يكن أي منها صالحاً للنوم؛ رغم أننا وجدنا أربعة أسرّة. استلقيتُ وأغمضت عيني قسراً، لكن أجفاني لم تطاوعني وفُتحتْ على الفور، وعادت أصابعي لمداعبة أوتار تلك الكلمة – الإشارة، وارتجفت ساقاي، ثم قفزت أفكاري مرة واحدة من شبكة شارلوت إلى التجارب العلمية الشهيرة التي حُقِنَتْ فيها العناكب البريئة بأدوية متنوعة ومخدرات عديدة، ثم إلى الصور الشهيرة التي التقطت للشبكات التي نسجتها العناكب تحت تأثير المخدرات.

كنت أنسج شبكة مجنونة في أفكاري وكأنني تحت تأثير تنويم مغناطيسي؛ في محاولة مني لفهم الصور والروابط والمصادفات التي راحت تغزو أفكاري كالحطام الذي يحمله الطوفان الهادر... شمبانزي هنا... شمبانزي هناك... شمبانزي في كل مكان.

فكّرتُ في أنه إذا كانت القوى الخارقة ثابتة وليست نسبية أو مؤقتة – كما أصرّ ريغ عدة مرات – فإن سبايدرمان ليس موهوباً مقارنة مع شارلوت، بل إنه في الواقع لا يعدو عن كونه مجرد متسلق للأبنية مقارنة مع شارلوت. كررتُ ذلك عدة مرات في ذهني، بيتر باركر متسلّق، بيتر باركر متسلّق.

«هذا يكفي».

قالت لي المرأة المسنّة، ولم أكن واثقة من أنني كنت أتكلم بصوت مرتفع أو أنها قرأت أفكاري، وبدا لي أن كلا الاحتمالين واردا الحدوث، فهمستُ:

«هارلو... هارلو!».

لم تكن هناك إجابة فظننت أنها نائمة؛ مما يعني أنها لم تتناول أقراصاً مهلوسة من تلك التي أعطتني إياها. ربما لم يكن بحوزتها ما يكفي، وأرادت أن تكون مضيافة معي فأعطتني إياها وتركت نفسها بلا أقراص مهلوسة... وربما فكرت في أنه من الأفضل لها التخلص من تلك الأقراص فأعطتني إياها بدلاً من رميها في المرحاض. ربما هذا ما أنا عليه بالنسبة إليها... أقرب إلى المرحاض الذي ترمي به ما تريد التخلص منه.

وربما كانت صاحية، ولهذا قلت بصوت مرتفع هذه المرة متعمدة:

«ما زلت أفكر في أن القوى الخارقة نسبية. ليست شارلوت بطلة خارقة لأنها عنكبوت تستطيع القفز من مكان إلى آخر فقط، بل لأنها تستطيع الكتابة

والقراءة. هذا هام جداً، بل إنه كل ما يهم في الواقع. إنها العوامل البيئية التي تؤثر في سلوك الحيوان أو الإنسان. إنها الظروف...»

قالت لي هارلو بدهشة:

«هل يمكنك أن تخرسي؟ هل تعرفين أنك كنت تتكلمين طوال الليل؟ هل تعرفين أنك لم تتفوهي بجملة مفيدة واحدة؟».

أصبت بمجموعة مختلطة من المشاعر؛ بالذعر والحنين؛ أنا الفتاة – القردة. لكنني شعرت بالرفض أيضاً. لم أتكلم كثيراً طوال الليل كما ادعت، وإذا استفزتني هارلو فسأجعلها تعرف ما يعنيه أن يتكلم المرء طوال الليل. لو كانت فيرن هنا، فستتسلق الجدار من دون أي جهد يذكر، وستقفز على هارلو لتلقنها درساً لن تنساه. تمنيت وجود فيرن معي بقوة لدرجة أنني كدت أختنق.

وانتفضت المرأة المسنة قائلة:

«لا مزيد من الكلام. أغمضا عيونكما ولا تتحدثا بعد الآن. أنا جادّة في كلامي أيتها اللعينتان».

لطالما قالت أمي إنه من الفظاظة أن يوقظ الأشخاص الذين لا يستطيعون النوم الأشخاص النائمين، بينما كانت لدى والدي وجهة نظر مختلفة؛ فقد أخبرها مرة في أحد الأيام إلى مائدة الفطور وهو يسكب عصير البرتقال في كوب قهوته وينثر الملح عليه بلا انتباه:

«لا يمكنك أن تتصوري... هل تصدقين أن الشمبانزي الأبيض الذي يجافيه النوم لا يستطيع ترك النائم الحالم بجانبه وشأنه؟».

وهكذا، حاولت المحافظة على صمتي. وعندها، بدأت أرى رسوماً متحولة الأشكال ومتغيرة الألوان من حولي على شكل شبكات عناكب، وعلى تلك الشبكات رقصت عدة عناكب رقصة الكان – كان أمام عينيّ الجاحظتين بإتقان وتزامن رهيبين؛ كما لو أنها تمرّنت على الرقصة في فرقة راقصين محترفين. وكنت أرى انعكاس صورتي على صفحات عيونها الشبيهة بخلايا النحل، وألاحظ بوضوح أيضاً الفك السفلي المروّع لكل واحدة منها، ثم حلقت إلى الأعلى وشاهدتها من فوق، ولاحظت أرجلها المتحركة في الهواء وهي ترسم أشكالاً هندسية جميلة.

لم يطفئ أحد الأنوار، وتغيرت الموسيقى التي كان كورس العناكب يعزفها من موسيقى الرقص إلى نشاز لا معنى له. وعندها، سمعت شخير أحد ما. خلتُ أن الشخير هو ما كان يبقيني صاحية بلا نوم، وتلاحقت أفكاري بشكل إيقاعي متكرر وكأنها خرير ماء في نافورة صينية تسبب الأرق... وراحت الكلمة تهدر في أعماقي:

الظروف... الظروف... الظروف...

قضيت ما بقي من تلك الليلة تحت رحمة حلم غير متناهٍ من إخراج ديفيد لينش اقتحمته فيرن بشكل منتظم ومن دون أي تدخل منّي. كانت تبدو في بعض المشاهد في الخامسة من العمر، وهي تنقلب رأساً على عقب، وتقفز

من قدم إلى أخرى، وتضع أوشحتها أو تعضّ أصابعي بحنان؛ أي كما كانت تفعل عندما كانت تريد تحذيري من شيء ما. كانت تجلس القرفصاء في أحيانٍ أخرى، وتُرخي جسدها الذي يبدو جسد قرد أكبر سناً منها، وتتأملني مليّاً من دون حراك؛ تماماً كالموتى، مما يدفعنا إلى حملها من مكانها عندما نريد تحريكها من مكانها ذاك إلى مكان آخر كما لو أنها دمية.

تمكنت من تنظيم أفكاري بحلول الصباح في محورين نهائيين وواضحين:

المحور الأول: الأشياء الناقصة من حياتي.

المحور الثاني: المشهد الأخير الذي عشته.

أولاً: أين دراجتي؟ لا أذكر آخر مرة شاهدتها بحوزتي. ربما تركتها في محل *Box the in Jack*، تذكرت الأنترفون الذي حطمناه هناك، ولهذا من الأفضل أن أتحاشى الذهاب إلى ذلك المطعم لبعض الوقت.

ثانياً: أين مدام دوفارج؟ لم أشاهدها منذ اللحظة التي غادرنا بها مطعم The Graduate. رغبت في أن أسأل هارلو، لكنني كنت متعبة كثيراً ولم أتصور كيفية سؤالها عن ذلك. كان ذلك السؤال سيزعجها في أفضل الأحوال، ولم أكن أرغب في إزعاجها قط.

ثالثاً: أين مذكرات أمي؟ ألن تسألني عليها في وقت لاحق؟ وهل سيتوجّب علي الاعتراف في وقت ما بأنني فقدتها؟ أي من الخيارين سيكون مجحفاً؛ باعتبار أنني نادراً ما كنت أفقد الأشياء، وأن فقدانها ليس خطئي منذ البداية كما كان هان سولو يقول.

رابعاً: أين أخي؟ تبخر الارتياح الذي شعرت به وفرحتي لرؤيته بسبب القلق. ما الذي سيعتقده الآن بعد أن شاهد الألفة والمعرفة المسبقة بيني وبين عناصر الشرطة المحلية؟ ماذا لو لم يكن هناك أصلاً؟

حضر ابن المرأة المسنة واصطحبها مجدداً إلى دار العجزة بعد تقديمه اعتذارات عديدة عن الأمور التي تفوّهت بها والأشياء التي كسرتها. وانتهى الشخير مع ذهاب تلك المرأة.

عندما فُتح باب الزنزانة من أجلي أخيراً، كنت متعبة جداً؛ لدرجة أنني اضطررت إلى رفع جسدي عن السرير بذراعيّ لأنهض واقفة، وتبادلت مع الضابط هاديك حديثاً لم أتمكن من إكماله من شدة إرهاقي، مع أن ذلك لم يثنِه عن مواصلته.

حضر ريغ لاصطحاب هارلو، وأوصلني إلى منزلي في طريقه، حيث استحممت رغم شعوري بالدوار وترنّحي من بقعة إلى أخرى تحت ماء الدوش. ذهبت إلى السرير، لكنني لم أتمكن من إغماض عينيّ رغم كل ذلك التعب. كان ذلك الشعور أصعب وأبشع شعور يمكن أن يشعر به المرء؛ أي أن يكون مجهداً تماماً إلى حدّ الإنهاك من دون أن يستطيع منع ذهنه من العمل بلا توقف.

نهضت ومشيت إلى المطبخ، وانتزعت المشواة من الفرن، وغسلت قضبانها، ونظّفت تحتها، ثم فتحت الثلاجة ونظرت مطولاً إلى داخلها من دون أن أشعر بأي رغبة في تناول أيّ طعام كان. وفكرت في أن هارلو لم تعطِني على الأقل نوعاً قوياً من المهلوسات، بل نوعاً خفيفاً. لكنني لن أتناوله مرة أخرى.

نهض تود من نومه، ووضع بعض الخبز في آلة التحميص ثم نسيَه، فانطلق إنذار الحريق؛ مما اضطرنا إلى ضرب الجهاز بعصا المكنسة الطويلة لإسكاته.

لم يكن أحد يجيب على الهاتف في منزل هارلو وريغ رغم أنني اتصلت ثلاث مرات، وتركت لهما رسالتين صوتيتين. عرفت أنني مضطرة إلى الذهاب إلى مطعم Graduate The لمقابلتهما، ولمعرفة ما إذا كان أحد ما قد قام بتسليم ذينك الأحمقين للسلطات. شعرت بالرعب من فقدان هارلو بعد أن باتت غالية على قلبي إلى ذلك الحدّ. وكانت دراجتي غالية عليّ أيضاً، غير أنها لم تكن بأهمية مدام دوفارج التي لم تكن ملكاً لي. كيف استطعت أن أكون غير مبالية إلى ذلك الحدّ؟ وعندها... عرفت أن تأثير الدواء المخدّر الذي تناولته قد تلاشى تماماً؛ لأن الأمر التالي الذي لاحظته هو أنني استيقظت في سريري، وكان الوقت ليلاً مجدداً.

كانت الشقة ساكنة إلى درجة أن المرء قد يخال أنها خالية من الناس لشدة الصمت الذي كان يسودها. وبدلاً من النوم لساعات بقيت صاحية رغم كل الإجهاد الذي كنت أشعر به، ثم غفوت وحلمت بشيء تبخر من ذهني مباشرة بمجرد استيقاظي، ولكنه أفضى بي إلى ذكرى قديمة. في إحدى المرات، حضر لويل في الليل وأيقظني. أعتقد أنني كنت في السادسة من عمري آنذاك، مما يعني أنه كان في الثانية عشرة من عمره.

لطالما انتابتني الشكوك بأن لويل كان يجوب الطرقات ليلاً، فقد كانت غرفته هي غرفة النوم الوحيدة الموجودة في الطابق السفلي، ولهذا كان قادراً على مغادرة المنزل عبر الباب أو متسللاً عبر النافذة خلسة. لم أعرف المكان الذي كان يذهب إليه، ولست متأكدة من خروجه على حدّ سواء، لكنني أعرف أنه كان يفتقد المنزل القديم والمساحات المفتوحة المحيطة به، وأعرف أنه كان يفتقد أيام استكشافنا الغابات المحيطة بنا. لقد وجد رأس سهم قديم في إحدى المرات، وبعض الصخور التي احتوت على هياكل أسماك متحجرة في تلك البراري. لم يكن هذا ليحدث مطلقاً في باحتنا الخلفية الضيقة.

طلب منّي أخي في تلك المرة أن أرتدي ملابسي بصمت، فازدحمت الأسئلة في ذهني لكنني تمكنت من البقاء صامتة إلى أن خرجنا. قبل عدة أيام من تلك الحادثة كنت أمشي حافية على العشب فدست على شيء حاد وجُرحت قدمي، وعندما رفعتها وسط صراخي وجدت نحلة عالقة في قدمي وهي لا تزال على قيد الحياة، وتتحرك وتتلوى من دون جدوى لأن إبرتها كانت

عالقة في لحمي، وظلت تئزّ إلى أن ماتت. سحبت أمي الإبرة من قدمي من دون أن أتوقف عن الصراخ، وحملتني إلى الداخل حيث فركت قدمي بالمعقم ولفتها بضماد يحتوي على كربونات الصوديوم، ومنذ تلك اللحظة أصبح لقبي في المنزل ملكة النحل. بات هذا لقبي الجديد، فكانوا يحملونني من كرسي إلى آخر، ويحضرون لي القصص ويسكبون لي العصير. ومن الواضح أن لويل قد اكتفى من الدلال الذي كانوا يغدقونه عليّ، فخرجنا إلى الشارع وصعدنا تلة بالانتاين من دون أن أشعر بأي ألم في قدمي.

كانت ليلة صيف حارة وهادئة تخللتها بعض أضواء البرق في الأفق البعيد، وارتفع فيها القمر ساطعاً، بينما تلألأت السماء بالنجوم البرّاقة. لم نشاهد طوال كل المسافة التي اجتزناها سوى سيارتين تقتربان من المنطقة وتدخلان بين الأشجار للاختباء بعيداً عن العيون. قال لي لويل:

«لنخرج إلى أحد جانبي الطريق».

فخرجنا بالفعل، واجتزنا مرجاً أفضى بنا إلى باحة خلفية لأحد المنازل، فبدأ كلب صغير موجود داخل المنزل بالنباح إلى أن أضاء أحدهم نوراً في الأعلى.

وبالطبع، كنت أتكلم طوال الوقت، وأسأل: إلى أين سنذهب؟ لماذا لا نزال مستيقظين؟ هل هي مفاجأة؟ هل هو سر؟ كم مرّ من الوقت على موعد نومي؟ أهذا أطول وقت بقيت صاحية فيه طوال عمري؟ أهذا الوقت متأخر جداً بالنسبة إلى فتاة في السادسة من عمرها؟ فوضع لويل يده على فمي ليمنعني من الكلام، وشممت رائحة معجون الأسنان العالقة على أصابعه، ثم قال هامساً:

«لندّعي أننا من الهنود. فالهنود لا يتحدثون أثناء تنقّلهم في الغابات، بل يمشون بصمت لدرجة أنك تكادين لا تسمعين وقع أقدامهم على الأرض». ثم أبعد يده عن فمي فسألته:

«كيف يفعلون ذلك؟ هل هو نوع من السحر؟ ألا يستطيع أحد القيام بهذا سوى الهنود؟ إلى أي درجة ينبغي لك أن تكون هندياً حتى تتمكن من القيام بذلك؟ ربما ينبغي لك أن تنتعل حذاء بلا كعبين إذا أردت أن تفعل مثلهم».

فقال لويل: «شششـش».

اجتزنا عدة باحات خلفية متتالية، وعرفت أن الرؤية في الظلام ليست صعبة إلى الدرجة التي تخيلتها، كما أن الليل لم يكن هادئاً إلى الدرجة التي تخيلتها، فقد تناهى إلى سمعنا نعيق بومة، كان ناعماً وأجوف كالصوت الذي تسمعه عندما تنفخ في زجاجة فارغة، وسمعنا نقيق ضفدع يبدو عميقاً للغاية، وصوت دبيب أرجل الحشرات حولنا، وخطوات لويل التي لم يكن وقعها أضعف من وقع خطواتي.

وصلنا إلى حاجز من الشجيرات، ووجدنا فيه ثغرة فدخلنا عبرها على ركبنا وأيدينا، وبما أنها كانت كبيرة بما فيه الكفاية لمرور لويل فلا بد أنها كانت أكثر من كافية لي. ومع ذلك، خدشتني الأغصان المشذبة. لم أقل شيئاً لأنني

اعتقدتُ أن لويل سيرسلني إلى المنزل إذا تذمّرت، وما كان منّي إلا أن أشرت إلى عدم تذمري رغم إصابتي بخدوش حارقة في ساقي.

«لا أريد العودة إلى المنزل رغم ذلك». قلت جملتي الأخيرة هذه بنبرة مفعمة بالرجاء.

«إذاً، توقفي عن الكلام دقيقة واحدة، وانظري واسمعي فقط».

ارتفع صوت نقيق الضفدع أكثر من ذي قبل، لكنني تذكرت من مشاهداتي عندما كنا نعيش في بيت المزرعة الكبير المجاور للجدول أن الصوت المرتفع قد يقود إلى ضفدع صغير الحجم للغاية. وقفت بجانب نهاية السياج فوجدتُ أننا في قلب باحة خاصة مغلقة؛ كما لو أنها حديقة سرية تشبه الحدائق التي نقرأ عنها في القصص، حيث أحاطت الأشجار بأطرافها المنحدرة إلى الأسفل، وفُرشت الأرض بعشب أكثر نعومة من العشب الذي ينمو في حديقتنا. وفي أسفل المنحدر، رأيتُ بركة ساحرة الجمال لدرجة أن الناظر إليها يخال أنها ليست حقيقية بل ضرباً من ضروب الخيال، وعلى حوافها الداخلية طفت أوراق الأعشاب المائية الخضراء، وتلألأت صفحة الماء كبساط من الفضة البرّاقة المـُرصّعة بأزهار زنبق الماء البيضاء العائمة وسط اللون الأسود الطاغي على كل شيء.

قال لويل: «هناك سلاحف وأسماك في البركة». وأخرج بعض البسكويت المتكسر من جيبه، وسمح لي برمي الفتات في الماء، فتكدّر وجه الماء كما لو أن السماء تمطر، إلا أن المطر بدا وكأنه يأتي من الأسفل بطريقة مقلوبة. راقبتُ بفرح الحلقات الدائرية المتوسّعة التي كانت أفواه الأسماك تُحدثها على سطح الماء.

بعد البركة، كان هناك ممر يحرس مدخله تمثالان حجريان على شكل كلبين دلماسيين كبيري الحجم. اقتربت منهما لألمسهما، فكان ظهراهما ناعمي الملمس وباردين، فانتابني شعور رائع من ملمسهما. مشينا عبر الممر الملتوي والضيق كالأفعى، فأفضى بنا الطريق إلى شرفة خلفية محجوبة عن العيون وتابعة لمنزل كبير الحجم. في كل منعطف على ذلك الطريق كانت هناك أجمة خضراء مشذبة بطريقة تجعلها تبدو بشكل حيوان ما. إحداها على شكل فيل، والأخرى على شكل زرافة، وهناك واحدة على شكل أرنب... اعتراني توق شديد ورغبة عارمة في أن أمتلك في يوم من الأيام بيتاً كهذا، وفي أن يكون هذا بيتي مستقبلاً. أردتُ أن أفتح الباب الشبكي وأدخل المنزل وأجد عائلتي... عائلتي أنا التي تنتظرني داخل هذا البيت الخيالي الساحر.

عرفتُ في ما بعد أن أصحاب ذلك المنزل يملكون مصنعاً لأجهزة التلفاز؛ مما يعني أنهم فاحشو الثراء. وعرفتُ أيضاً أن تمثالَي الكلبين يصوّران كلبيهما الحقيقيين اللذين دُفنا تحت ذينك التمثالين. كما كانوا يقيمون في كل عام احتفالاً بمناسبة ذكرى الاستقلال، ويقدّمون فيه لضيوفهم مأكولات بحرية يحضرونها طازجة وعلى قيد الحياة من ماين الساحلية. كان عمدة المدينة

ورئيس الشرطة ورئيس البلدية يحضرون تلك الاحتفالات. كما عرفتُ أن الزوجين لم يُرزقا بأولاد فعوّضا عن ذلك باعتنائهما بالأطفال المتمردين والمشاكسين الذين كانوا يترددون إلى منزلهما، وكانوا يعرضون على أي فتى يقترب من بيتهم شراب الليمون المنعش ويقدّمون له النصح قدر الإمكان.

استلقى لويل على المنحدر المغطى بالعشب، ووضع يديه تحت رأسه، فذهبت للاستلقاء بجانبه، واكتشفت أن العشب لم يكن سميكاً وناعماً كما اعتقدت مع أنه كان يبدو كذلك بسبب الرائحة العشبية الكثيفة التي تنبعث منه، بل كان عابقاً برائحة الصيف المفعمة بالحياة. وضعت رأسي على بطن أخي وأنصتُّ إلى صوت أمعائه.

كنت سعيدة في تلك اللحظة، وأنا سعيدة الآن فيما أنا غارقة في تلك الذكريات على سريري. أسعدني شعوري بأنني في إحدى الليالي ذهبتُ مع أخي إلى أرض الأحلام، لكن أكثر ما يبهجني هو أنه اصطحبني معه من دون أي سبب يذكر. فهو لم يكن مضطراً إلى ذلك، ولم يكن بحاجة إليّ في شيء، غير أنه اصطحبني معه رغم ذلك.

تمددتُ بجانبه على العشب، ووضعت رأسي على بطنه، وحاولت إبقاء عينيّ مفتوحتين قدر الإمكان خوفاً من الوقوع في حبال النوم، وخوفاً من أن يعود إلى المنزل ويتركني هنا وحدي. كانت أرض الأحلام جميلة ومناسبة لي، لكنني لم أرغب في البقاء فيها وحيدة. أسعدني تذّكر ذلك الشعور الذي انتابني في تلك اللحظة البعيدة، فقد كان بإمكانه أن يتركني هناك ولكنه لم يفعل.

أنهيت الشبكة التي بدأت رسمها في خيالي أثناء وجودي في الزنزانة بعد عودتي إلى المنزل، الشبكة التي حددت لي كل ما كنت أفتقده، والوقت الذي مضى على غياب كل ذلك. أولاً: دراجتي. ثانياً: مدام ديفارج. ثالثاً: المذكرات. رابعاً: أخي. خامساً: فيرن. أين فيرن؟ أخي يعرف مكانها على الأرجح، ويُفترض بي أن أرغب في معرفة مكانها أيضاً؛ لكن الخوف من الجواب كان يملأ أوصالي. لو كان بإمكاننا استخراج الأماني من الدنيا كما نستخرج الأسماك التي نرغب فيها من البحر، لتمنيت أن أرى أخي مجدداً وأن يخبرني بأن فيرن بأمان كي لا يؤلمني أي خبر عنها.

لكنني أعرف أن الأماني في أرض الأحلام وأرض الواقع على حد سواء أكثر الأمور خداعاً وغموضاً في هذا العالم.

# 5

اتصلت بهارلو هاتفياً مجدداً فردّ عليّ المجيب الصوتيّ أيضاً. سألتها مرة أخرى عن مدام ديفارج من دون أن تشوب صوتي نبرة استياء أو غضب أو حزن، بل بصوت هادئ ينمّ عن وقار شديد. لقد ظهرت الفتاة القردة مجدداً بلا إنذار مسبق، وقادتها قفزاتها إلى السجن مجدداً. متى ستتعلم تلك الفتاة التصرف بتحفظٍ ولياقة؟

كانت السماء لا تزال تمطر حباتٍ كبيرة الحجم من البرد المنهمر كالرصاص فوق الرؤوس، وأنا ما زلت بلا دراجة. اتصلت بالمطعم لأسألهم إن كان أحد ما قد نسي عندهم دمية مدام ديفارج قبل ليلتين من الآن. ولا أظن أن الرجل الذي أجاب على اتصالي قد فهم السؤال، ناهيك عن بذله أي محاولة لفهم طلبي، فبدا لي أنني مجبرة على الخروج للبحث عنها بنفسي مهما كان حال الطقس.

قضيت الساعتين التاليتين في التجوال في أرجاء المدينة بحثاً عن عدة أشياء لم أجدها. كنت أقطر مطراً، وتغلغل البرد في جسدي حتى وصل إلى عظامي، وأحرقتني عيناي لأنني أقحمت فيهما عدستين جديدتين. شعرتُ في تلك اللحظة بأنني بركة موحلة حيّة مليئة بماء الشفقة على الذات. وكان من الواضح أن أحداً ما قد أخذ مدام ديفارج، وأنني لن أتمكن مطلقاً من استعادتها؛ كما لو أنها خطفت من دون أن أتمكن من دفع الفدية لأنني لا أقدر على ذلك.

ديفيس وكر غير مشهور لسارقي الدراجات، إذ كانت الدراجات تسرق في لمحة عين، وأهلها معتادون على سرقة أي دراجة يصادفونها للوصول مثلاً إلى الصف في الوقت المناسب. وكانت الشرطة تجمع الدراجات المتروكة في الشوارع، وتبيعها في مزاد عام مرة في السنة، ويعود ريع ذلك المزاد إلى ملجأ النساء المحليّ. قد أصادف دراجتي مجدداً، ولكنني لن أتمكن من وضع يدي عليها، ولا فرصة للتذمر من ذلك الوضع؛ كما هو حالنا إزاء أي قضية عادلة. هل أريد للنساء المهانات أن يحصلن على ملجأ يحميهن أم لا؟ كنتُ أحب تلك الدراجة.

واجهت في فكري الاحتمال القوي المتمثل في رعب أخي لدى رؤيته الطريقة غير المتكلفة التي تبادلت بها الحديث مع الضابط هاديك. غير أنه لا بد له أن يعرف أنني لن أسلمه للشرطة مهما كان السبب. ولكن، كم عدد المرات التي سألني فيها لويل عندما كنت في الخامسة أو السادسة أو الثامنة أو العاشرة من العمر: «ألا يمكنك إبقاء فمك مغلقاً؟!». ربما طلب مني ذلك مئة ألف مرة. غير أنني تعلّمتُ أن ألتزم الصمت وأبقي فمي مغلقاً، لكنّ لويل لم يعرف ذلك قط.

عدتُ إلى شقتي صفر اليدين ودامعة العينين بأطراف جمدها الصقيع، وقلت لتود وكيمي الجالسين إلى طاولة المطبخ والغارقين إلى حدّ الجنون في لعبة ورق لأن معظم الأوراق كانت على الأرض:

«لن تدفأ قدماي أبداً. أشعر بأنني فقدت أصابع رجليّ».

توقفا عن اللعب لفترة كافية كي يشعرا بالشفقة حيالي والتعاطف معي، ثم بدآ يشتكيان مما جرى في غيابي، وأعطياني قائمة طويلة بأسماء الأشخاص الذين حضروا إلى البيت لمقابلتي خلال غيابي.

أولاً جاء عزرا بحثاً عن هارلو متذرعاً بعذر واهٍ، فلاحظ جهاز إنذار الحريق المكسور؛ مما أدى إلى إلقائه محاضرة عليهما. إذ وفقاً لما قاله، لم نكن قد عرّضنا حياتينا أنا وتود وحدنا للخطر بل حياة كل شخص يعيش في المبنى. ومن الشخص المسؤول عن سلامة كل تلك النفوس؟ من الشخص الذي يعتمدون عليه؟ لا أحد يعتمد على تود أو عليّ بكل تأكيد. لا، بل وضع الجميع كل ثقتهم في عزرا. ربما نحن لا نكترث إذا خذلهم عزرا، ولكنه لن يسمح لنا بفعل ذلك، وسيجبرنا على دفع ثمن الجهاز من مالنا الموجود في المصرف.

ثمّ حضر شاب فاشل يعتمر قبعة بيسبول بحثاً عن هارلو، وأعطى تود دمية، وأخبره أن هارلو طلبت منه إيصالها إلى هنا، ووصفها بالدمية القبيحة المثبتة على عصا. ثم سألني:

«هل تُعتبر شقتنا مكتب الأستاذة هارلو الآن؟ هل هذا عنوان عملها؟ فقد حضرت بعد قليل، ودخلت بلا استئذان، وأخرجت علبة شراب من الثلاجة، وأدخلت الدمية إلى غرفتكِ، وطلبت مني أن أخبركِ أنها أعادتها إلى الحقيبة كما وعدتكِ».

فقالت كيمي مصححةً: «من دون أن يصيبها أي ضرر كما وعدتكِ».

«ثمّ قُرع جرس الباب مجدداً، وظهر شابٌ نحيل صبغ شعره بالأشقر الفاتح. إنه في حوالي الثلاثين من عمره، واسمه ترافيس. بحث عنكِ، ثم رحل مع هارلو عندما لم يجدكِ. يا له من شاب مثير للشفقة! لقد أمسكتْ يده وأخذته معها هكذا بكل بساطة».

بدا لي أن علبة الشراب التي أخذتها هارلو من الثلاجة وفتحتها ولم تشربها قد أزعجت تود أكثر من أي شيء آخر. فهي لم تستأذن لأخذها، وها نحن مضطرون إلى إفراغ محتوياتها في الحوض وكأنها علبة شراب عادي وليست علبة شراب مميز خاصة بتود. وهو بالتأكيد لن يشربها الآن بعد أن لامس فم هارلو العلبة. ثم قال:

«عجّت الشقة بالناس القادمين والمغادرين وكأنها محطة القطار الرئيسة الكبرى طوال المساء». ثم عاد لمتابعة لعب الورق، ورمى ورقة الشاب السباتي بقوة على الطاولة.

«يا لك من حقير».

قالت كيمي من دون أن توضّح إن كانت توجّه كلامها إلى تود أم إلى ورقة الشاب السباتي التي رماها على الطاولة؛ مع أنني ظننت لوهلة أنها كانت تقصدني أنا.

كيمي واحدة من الأشخاص الذين لا يرتاحون لي لأسباب غير واضحة؛ حتى بالنسبة إليهم هم أنفسهم. لم تكن تنظر إلى وجهي مطلقاً، وربما لم تكن تنظر إلى وجه أحد. وربما ترعرعت في بيئة تعتبر أن إمعان النظر إلى وجوه الناس تصرّف يخلو من التهذيب. أخبرني تود مرة أن جدّته – والدة أمه – لا تنظر إلى عين أحد أبداً، ولا تسمح لأحد برؤية قدميها، علماً أنه أخبرني أنها كانت أكثر الأشخاص فظاظة في التعامل مع النُّدل والموظفين من بين كل الناس الذي شاهدهم في حياته، وكانت تذكّره قائلة:

«نحن في أميركا. كل زبون هنا ملك متوّج كأيّ ملك حقيقيّ آخر».

تنحنحت كيمي وقالت: «طلبا مني أن أخبرك إذا عدتِ إلى المنزل خلال ساعة من ذهابهما – وهذا ما جرى بالفعل – أن تلحقي بهما إلى المطعم الذي يقدِّم الكريب لأنهما سيتناولان العشاء هناك».

ولهذا، كل ما كان عليّ فعله هو الخروج من الباب والقيام برحلة شاقة أخرى سيراً على الأقدام إلى وسط المدينة تحت وابل المطر البارد لكي أجد أخي لويل. هاجت مشاعري، وانتابني بعض الحماسة وتشنجت معدتي قليلاً؛ كما لو أنني تناولت جرعة من شراب السعادة السحري. سأجد لويل هناك مع هارلو. ولكن، كيف باستطاعتنا أن نتحدث بحرية بحضور هارلو؟ و... هل أريد حقاً مناقشته في أي موضوع؟

غمرني الشوق إلى أخي، وشعرت في الوقت نفسه أنني لست جاهزة لمقابلته. ولهذا ذهبت إلى غرفتي، وجففت شعري، وبدّلت ملابسي بأخرى جافة، ثم فتحت الحقيبة الزرقاء فوجدت مدام ديفارج مرمية فوق الملابس المطوية بعناية، ووجهها مقلوب نحو الأسفل ومؤخرتها إلى الأعلى. وحين أخرجتها، لاحظت فوراً أن رائحتها كانت مزيجاً من روائح السجائر المختلفة، كما لاحظت بقعة ما على ثوبها. من الواضح أنها مرّت بليلة حافلة البارحة، ومع ذلك كانت بخير. لم يكن هناك شيء ناقص منها، وبإمكانها العودة إلى ديارها سالمة عندما تأتي سيارة شركة الطيران لاصطحابها من دون أي مشكلة كما وعدت.

فجأة، وبشكل غريب انتابني الرعب من فكرة فقدانها. إن الحياة بمجملها رحلة يتعاقب فيها الرحيل والعودة بلا رحمة. فهمستُ: «لم أعرفك سوى مؤخراً، وها أنتِ ترحلين... تماماً كالآخرين». نظرت إليّ بعينيها الغريبتين المائلتين، وفغرت فمها الشبيه بأفواه الزواحف. رفعتُ ذراعيها ولففتهما حول عنقي وكأنها تعانقني بأسف، وحين وخزتني إبرها الحادة في أذني أبعدتها عنّي. همسَتْ لي: «أرجوكِ لا ترحلي». وربما كنت أنا التي همست بذلك... لقد تفوّهت إحدانا بذلك بكل تأكيد.

النظرية المعاكسة لنظرية الفردية (solipsism) تُسمى نظرية الفكر. وتقول نظرية الفكر إننا نفترض وجود حالات فكرية معينة لدى الأشخاص الآخرين حال التقائنا بهم – مع أن ذلك لا يُلاحظ منذ البداية – أو نلصقها بأنفسنا، ونعزوها لأنفسنا؛ باعتبار أن المنطلق الفكري الذي نبدأ منه محاكاتنا المنطقية تلك هو أننا نفهم حالاتنا العقلية بما فيه الكفاية لننطلق منها لفهم الآخرين، مما يجعلنا نخمن نوايا الآخرين ونشعر بأحاسيسهم ونأخذ فكرة عامة عن أفكارهم ومعارفهم أو جهلهم، ونستنتج شكوكهم، ونستدل على رغباتهم، ونفهم معتقداتهم واستنتاجاتهم الخاصة، ونستقرئ الوعود التي قطعوها على أنفسهم وما يصبون إليه، ونرى من خلال أعينهم كل طموحاتهم وأهدافهم، والكثير الكثير من الأشياء الأخرى التي تمكّننا وتمكّنهم من التصرف ككائنات اجتماعية في هذا العالم.

يجد الأطفال الذين لا يتجاوزون الرابعة من العمر صعوبة في ترتيب مجموعة مختلطة ومبعثرة من الصور. وبإمكانهم وصف أي صورة، ولكنهم يفشلون في تصوّر النوايا الشخصية أو أهداف الناس غير المعلنة؛ مما يعني أنهم لا يرون علاقة تربط بين أجزاء الصورة المجزّأة ليتمكنوا من ترتيبها مجدداً. إنهم لا يفهمون القصة ولا الغرض من ورائها، ولا يرون الصورة الكاملة ما لم تُشرح لهم.

الأطفال الصغار يملكون قدرة كامنة موروثة لفهم نظرية الفكر كما قال نعوم تشومسكي عن طريقتهم في تعلم اللغة، ولكنهم لم يطوروها بعد. أما البالغون والأولاد الأكبر سناً فقادرون بسهولة على ربط الصور المبعثرة ببعضها، وترتيبها في سياق صحيح ومترابط. لقد خُضتُ بنفسي ذلك الاختبار عدة مرات في فترة طفولتي، ولا أذكر أنني فشلت فيه مرة واحدة. ولكن، إذا قال العالم بياجيه إنني فشلت فيه مرة واحدة فلا بد أنني فشلت فيه بالفعل مرة واحدة كما قال.

في العام 1978 عندما كانت فيرن لا تزال تعيش بأمان كفرد آخر من أفراد عائلتنا، نشر العالمان النفسيان ديفيد بريماك وغاي وودروف بحثاً بعنوان: هل تملك قردة الشمبانزي نظرية خاصة بالفكر؟ اعتمد بحثهما على سلسلة من التجارب التي قاما بها على أنثى شمبانزي في الرابعة عشرة من عمرها تُدعى سارة ليكتشفا إذا كانت قادرة على توقع نوايا البشر في الحالات العادية، واستنتجا أنها تستطيع ذلك بالفعل ولكن بشكل محدود.

أثارت دراسة لاحقة الشكوك حيال هذا الأمر (وكان أبي هو العالم الذي قام بتلك الدراسة). إذ قالت تلك الدراسة إن الشمبانزي يتوقع مجريات الأحداث بناء على خبراته السابقة لا أكثر، ولكنه لا يخمّن رغبات الآخرين ونواياهم. وتمحورت التجارب التي تلت ذلك لسنوات حول تطوير آليات وطرائق للتغلغل إلى داخل عقول القردة.

قام العالمان جوزيف كال ومايكل توماسيلو بإعادة النظر في مجموعة كاملة من الدراسات ونتائجها حول ذلك السؤال المحوري. وتوصّل العالمان إلى النتيجة ذاتها التي توصّل إليها بريماك ووودروف قبل ثلاثين عاماً. هل تملك قردة الشمبانزي نظرية فكرية؟ أجاب العالمان عن ذلك التساؤل بالتأكيد على قدرتها على ذلك، وقالا إن قردة الشمبانزي ترى بالفعل الحالات العقلية والأفكار الدفينة؛ كالأهداف والمعرفة، وتربط بين ما تراه لتقوم برد فعل مناسب، وأكّدا أنها تفهم معنى الخداع بكل تأكيد وتميزه.

وما يبدو أنها لا تفهمه هو النوايا الكاذبة، فهي لا تملك نظرية فكرية تفسر هذا السلوك.

وبالفعل، هل من الممكن لأي كان الإبحار في محيط البشر المخادع هذا؟

يُطوّر أطفال البشر حين يكونون في السادسة أو السابعة من أعمارهم نظرية الفكر التي توجّه الحالات الفكرية الكامنة بعد أن يكونوا قد فهموا الأمور المبدئية الأساسية منذ وقت لا بأس به، وأصبحوا خبراء فيها. على سبيل المثال: تعتقد ماما أنني ذهبت للنوم. ويتعلم الأطفال بعد ذلك إضافة فكرة أخرى إلى ذلك: بابا لا يعرف أن ماما تعتقد أنني ذهبت للنوم.

يحتاج التفاعل الاجتماعي بين الراشدين إلى نسبة عالية من الإدراك، والوعي بالنوايا والأفكار الخفية. ويقوم معظم البالغين بذلك من دون أي جهد يُذكر، وبلا وعي في معظم الحالات. وحسب بريماك ووودروف، الإنسان البالغ النموذجي يستطيع التفكير في أربعة مستويات فكرية في وقت واحد. (مثلاً، يعتقد فلان أن فلاناً يعرف أن شخصاً آخر يعتقد أن أحدهم تعيس). ويصف العالمان هذه البنية الرباعية بأنها عادية. أما الراشدون الموهوبون فكرياً فقادرون على بناء فكرة تتألف من سبع درجات؛ وهذا ما يبدو أنه الحد الذي تتوقف عنده القدرة العقلية البشرية.

كان خروجي للذهاب إلى مطعم الكريب لتناول العشاء برفقة هارلو وأخي يشكل تمريناً مفعماً بالتحدّي لنظرية الفكر. هل أخبر لويل هارلو عن طول الفترة الزمنية التي لم نلتقِ خلالها؟ وما هو مقدار الحماسة المقبولة التي يمكنني أن أبدو عليها؟ ومع أنني أثق بتحفظ لويل إلاّ أنني أعرف أنه لا يثق بتحفظي. فكل منا لديه أسرار لا يعرف الآخر عنها أي شيء. ولهذا، توجّب عليّ أن أخمن الأشياء التي أخبر بها لويل هارلو عن عائلتنا، وسيتوجب عليه بالمثل أن يخمن الأشياء التي أخبرتها إياها، وسيتوجب على كل منا تخمين الأشياء التي لا يريد الآخر البوح بها؛ وكل ذلك يجب أن يُفهم ويتم بسرعة أمام عيني هارلو، وإنما من دون أن تلاحظه.

السؤال الذي يطرح نفسه الآن: كم يبلغ عدد الأفكار في الجملة التالية؟ تخاف روزماري من ألا يحزر لويل أنها لا تريد منه أن يخبر هارلو عن فيرن؛ لأن

روزماري تعتقد أن هارلو ستخبر كل الناس ما إن تسمع بقصة فيرن، وعندها سيعتبر كل الناس روزماري الفتاة القردة، وهي حالتها الحقيقية بالفعل.

كل ما أردته هو الانفراد بأخي. تمنيت أن تمتلك هارلو نظرية فكرية حادة بما فيه الكفاية لتدرك ذلك وحدها. وخططتُ لمساعدتها على فهم ذلك إذا اضطررت إلى ذلك، وتوقعت أن يساعدني لويل في ذلك أيضاً.

# 6

فاق الألم الذي شعرت به في ساقيّ قدرتي على الاحتمال إلى حين وصولي إلى المطعم؛ وذلك بسبب المسافات الطويلة التي مشيتها في ذلك اليوم. وارتفع الألم الذي شعرت به حتى وصل إلى ركبتيّ، واجتاح البرد أوصالي حتى شعرت بنبض الدم في أذنيّ، ولهذا ارتحت لدى دخولي الغرفة الصغيرة التي أضيئت بها شموع صغيرة، وغطى البخار ودفء أنفاس الناس زجاج النوافذ من الداخل. شاهدت لويل وهارلو في إحدى الزوايا وهما يتناولان طبق فوندو.

كان لويل يدير ظهره للباب، ولهذا رأيت هارلو أولاً؛ بوجهها المتورد، وشعرها الداكن المنسدل على كتفيها وقد تجمعت حلقات منه حول عنقها. كانت ترتدي كنزة ذات ياقة واسعة على شكل زورق، وقد انزلقت حافتها عن إحدى كتفيها فبدت للعيان شريطة حمالة صدرها لحمية اللون. راقبتها وهي تتناول قطعة خبز صغيرة وترميها على لويل وتبتسم له لتظهر أسنانها اللؤلؤية الرائعة. لوهلة من الزمن، عدت الطفلة ذات السنوات الأربع التي تركها لويل وفيرن على الأرض ليتسلقا شجرة التفاح ضاحكين، وصرخت بلا وعي قائلة للويل:

«أنت لا تختار رفقتي أبداً. دوري لا يأتي أبداً».

لم ألاحظ أن هارلو قد رأتني، ولكنها انحنت إلى الأمام، وهمست بشيء ما للويل فاستدار فوراً إليّ. عرفت وجهه ليلة الجمعة في المطعم على الفور، ولكنه بدا الليلة أكبر سناً وأشدّ تعباً وأقل شبهاً بنفسه. لقد أصبح الآن راشداً بلا جدال، وقد جرت كل تلك التحولات في شخصيته في غفلة عني، ومن دون أن أكون معه لأرافقه في رحلة العمر تلك. ورغم شعره المصبوغ إلا أنه بدا شبيهاً بوالدنا بشكل كبير بلحيته المشعثة المثيرة للشفقة، وصاح:

«ها هي. مرحباً أيتها المندفعة، تعالي إلى هنا».

وقف لويل وعانقني قليلاً، ثم أزاح حقيبة ظهره ومعطفه عن الكرسي الثالث ووضعهما على الأرض لأتمكن من الجلوس. وقد قام بذلك بشكل طبيعي للغاية، وكأننا نلتقي بين الحين والآخر على الدوام... وصلت الرسالة.

حاولت إبعاد الشعور الذي انتابني؛ وهو أنني قاطعت شيئاً ما... وأنني المتطفلة عليهما في هذه اللحظة وليست هارلو.

قالت هارلو: «أقفل المطبخ قبل بعض الوقت، ولهذا طلب لك ترافيرس وجبة العشاء مسبقاً». وعرفتُ أنهما تناولا قبل حضوري عدة كؤوس من أفضل المشروبات التي تقدم في المطعم، ثم قالت هارلو بروحها المعنوية العالية:

«غير أننا كنا على بعد خطوتين من الاستسلام واليأس من حضورك، وكنا على وشك التهام وجبتك، ولهذا يمكن القول إنك وصلت في الوقت المناسب».

طلب لي لويل سلطة وكريب بالليمون، وهذا قريب جداً مما يمكن أن أطلبه لنفسي. وخزتني الدموع التي لم أكن قادرة على تركها تخرج للنور... فبعد كل تلك السنوات، ما زال أخي قادراً على طلب عشاء شهي يعجبني. ارتكب أخي خطأ واحداً في طلب وجبتي، وهو إضافة الفلفل الأخضر الحلو إلى طبق السلطة. لطالما كنت أستخرج قطع الفلفل الأخضر الحلو من أطباق السباغيتي التي كانت أمي تعدّها، وفيرن هي التي كانت تأكل الفلفل الموجود في الطعام.

«مرحباً». قال لويل وهو يسند ظهره إلى الخلف، ويُرجع ساقيه إلى الوراء بشكل مائل. خفت ألا أتمكن من إبعاد نظري عنه إذا نظرت إليه، ولهذا لم أنظر إليه مباشرة. تأمّلت طبقي المترع بالجبن الذائب ثم نظرت إلى صدره. كان يرتدي قميصاً قطنياً أسود اللون، له كمان طويلان، ويحمل رسماً ملوناً وكتابة تحته تقول: canyon waimea. نظرت إلى يديه، كانتا يدَي رجل خشنتي المظهر، وعلى ظاهر كفّه اليمنى شاهدت ندبة قديمة تمتد من براجم أصابعه مروراً بمعصمه وتختفي تحت كمّه. رمشت عينّي برعب وقوة، وتداخلت كل تلك الصور في ذهني.

«أخبرتني هارلو أنها لم تكن تعرف بوجود أخ لك. لماذا أخفيت وجودي عن صديقتك؟».

أخذت نفساً عميقاً وحاولت استعادة توازني وقلت:

«كنت أحتفظ بك للمناسبات المميزة. فأنت أفضل أخ... أنت أخي الوحيد. حُبُّكَ وطيبتك وروعتك تفوق ما يمكنني استيعابه كل يوم».

حاولتُ مجاراة عدم مبالاة لويل، لكنني لا أظن أنني نجحت؛ لأن هارلو أشارت بعد لحظة من عبارتي تلك إلى أنني أرتجف بشدة؛ لدرجة أن أسناني راحت تصطك معاً، فأجبتها بنبرة نزقة أكثر مما نويت:

«الطقس مثلج في الخارج، وقد اضطررت إلى المشي عبر المدينة تحت المطر بحثاً عن المدام ديفارج». شعرت أن لويل ينظر إليّ باستغراب، فأوضحت فوراً: «إنها قصة طويلة».

لكن هارلو بدأت تتحدث قبل انتهائي من كلامي:

«كان عليك أن تسأليني، فأنا أعرف مكانها». ثم وجّهت كلامها إلى لويل: «سهرت مع روزماري ليلة الجمعة سهرة صاخبة».

رحنا نتحدث إلى لويل في الوقت نفسه، وقلت أنا:

«لم تخبرني هارلو عن عائلتها أيضاً. فنحن لا نعرف بعضنا منذ وقت طويل».

«ليست صداقتنا قديمة، ولكنها عميقة للغاية. وكما يُقال، لا يتعرف المرء إلى الآخرين جيداً إلا إذا قضى معهم وقتاً في الزنزانة».

ابتسم لويل لي برقّة وحنان وسألني:
«في الزنزانة؟! هل هذا صحيح يا آنستي الرائعة الصغيرة؟».
أمسكت هارلو بمعصميه فالتفتُّ إليها على الفور وقالت:
«لديها سجل حافل بالتوقيف لدى الشرطة. إنه كبير إلى هذه الدرجة». (وباعدَت بين كفيه مسافة تقارب الثلاثين سنتيمتراً). تأمّل كل منهما عينَي الآخر، وشعرت بخفقان قلبي ثلاث مرات... تيك... تيك... تيك. ثم أفلتت معصميه وابتسمت لي ابتسامة سريعة.
ظننت أنها تسألني بابتسامتها تلك: هل هذا جيد؟ هل كانت تستفسر عن موافقتي لتخبره عن توقيفنا من قبل الشرطة، أم تنتظر موافقتي على إمساكها يديه، أم النظر بعمق في عينيه؟ حاولتُ أن أنظر إليها نظرة تحمل كل معاني الرفض الممكنة لتعرف أنني لا أوافق على أي شيء مما فعلته. ولكن، إما أنها لم تفهم نظرتي تلك، أو لم تسألني عن رأيي، أو لم تنتظر موافقتي منذ البداية. كما أنها لم تعد تنظر باتجاهي بكل الأحوال.
راحت هارلو تخبره عن رحلتنا الأولى إلى السجن؛ إلى البيت الكبير الذي يتسع لكل الخارجين عن القانون... إلى الزنزانة.
تمكنت هارلو من إخباره بكل شيء من دون ذكر ريغ، فتدخلت وذكرته له... ريغ الطيب... لا ريغ الشرير وقلت:
«صديقها الحميم... حضر على الفور ودفع كفالتها وأخرجها من الحجز».
تعاملت هارلو مع الموضوع بدبلوماسية فائقة، وتحوّل ريغ بكلماتها المنمّقة إلى شخص شرير، لا بل ومخيف أيضاً... وأخبَرَته أنني شديدة الكرم؛ لأنني سمحت لشخص لا أعرفه سوى بالكاد بالاختباء في شقتي، وقالت حرفياً:
«إنها رائعة... أختك الصغيرة هذه. حين رأيتها قلت لنفسي: يجب عليك التقرب من هذه الفتاة ومصادقتها. فهي الشخص الذي سيقف إلى جانبك مهما كانت الظروف التي ستواجهينها في حياتك».
أتبعت هارلو كل ذلك بحكاية الحقيبة، ثم اكتشافنا مدام ديفارج داخلها، ثم الليلة التي سهرنا فيها في المدينة. حكت هارلو كل ذلك وهي تدعوني بين الحين والآخر لمشاركتها في رواية ما جرى قائلة:
«أخبريه عن غسيل السيارة». ففعلتُ، وأخبرته هارلو كيف تلمسنا طريقنا بين المجسّات المليئة بالصابون في الظلام ونحن نخطط لحفلتي زواجنا. كما ذكرت موضوع طرزان، ونظرياتي عن النسبية، ولأول مرة لاحظت أنها تؤيدني في ما كنت أقوله. عندما تفوّهت باسم طرزان، وضع لويل يده ذات الندبة على ذراعي وتركها هناك. كنت على وشك خلع معطفي إلاّ أنني امتنعت عن القيام بذلك؛ لأن وزن كفه الجاثمة على ذراعي كان الإشارة الوحيدة إلى العاطفة والانتباه اللذين يوليني إياهما في هذه السهرة، ولم أكن أخطط لفقدانهما.

ولكي أكون منصفة، كل قصة حكتها هارلو وكل تفصيل صغير أخبرته للويل أضاف إلى رصيدي وعزز ثقتي بها. فقد بدوتُ من خلال كلامها فتاةً هادئة تحمل أفكاراً ثورية مجنونة، ويرغب أي شخص في مرافقتها. افتخرت بنفسي وبأصدقائي... كنت الفتاة التي يريد الجميع صحبتها.

وفي روايتها للأحداث، لم أشبه الفتاة الجالسة هنا على الإطلاق.

أظن بشدة أن هارلو أرادت أن تكون لطيفة معي. وأعتقد أنها فكرت في أنني أرغب في أن تحكي لأخي عن بعض الصفات الجيدة التي لم أكن أمتلكها بالفعل. لم تكن تعرف كيف كانت تبدو في تلك اللحظات، ولم تكن قادرة على رؤية ضوء الشموع وهو يظلل وجهها وخصلات شعرها ويُضفي عليها ألواناً أخرى، ويمنح عينيها بريقاً لا مثيل له. لقد أضحكت كلماتها أخي.

الفيرومونات [1] لغة كوكبنا الأولى. قد لا نتمكن من فهمها بيسر كما يفعل النمل مثلاً، لكننا نشعر بها ونفهمها ونتصرف وفقاً لها. ظننتُ أننا سنتخلص من هارلو بأسرع وقت ممكن قريباً. ولكنْ في هذه اللحظة، كان الشراب قد فعل فعله وأثر فيهما، فراحا يتبادلان القصص عن حياتيهما؛ حتى لم يعد هناك ما يُقال، ولاحت في الأفق فكرة جديدة.

انتهى بنا الأمر في شقتي، حيث أبصرت مدام ديفارج النور مرة أخرى، ووقفت على كعبيها العاليين بيننا مجدداً، ولمست خدّ لويل وهمست له بأنه شاب جذاب بشدة، وأنه فارس أحلامها الذي انتظرته طوال عمرها.

مدّ لويل يده وأمسك بيد هارلو للحظة، وداعب راحة يدها بإبهامه، ثم سحبها إليه قليلاً وقال بصوت رقيق وخافت لدرجة أنني بالكاد سمعته:

«لا تلعبي معي... يا مدام».

تغيّرت لهجة مدام ديفارج مباشرة، وقالت بنعومة:

«ليس بعد يا وسيم. ولكنني أخطط لخطف قلبك بالتأكيد».

قال تود وهو يومئ إلى لويل بازدراء: «أنتما تتحدثان إلى بعضكما باستعمال الدمية كوسيلة للتعبير عما يجول في ذهنيكما».

لا بدّ أنه لم يعرف بعد أن لويل أخي. وعندما عرف بذلك شعر بالاستياء الشديد، لدرجة أنه ذهب لقضاء الليلة في شقة كيمي. حتى إنه سمح لي باللعب بلعبة النينتندو الجديدة 64 التي ابتاعها مؤخراً؛ لأن عرضاً مغرياً كهذا سيجعله يشعر بالرضى عن نفسه بعد الإهانة التي ارتكبها بحقي.

اعتذرت منهما وانسحبت إلى الحمام لأُخرج العدستين اللاصقتين من عينيّ اللتين كانتا تحرقانني كثيراً. وشعرت بألم في فكي لأنني كنت أجبر نفسي على الابتسام في وجهيهما طيلة الأمسية. ففي وقت ما بين تناول السلطة والكريب أردت التوقف عن كوني صديقة هارلو، وبدأت أتمنى لو أنني لم ألتقِها من قبل. وشعرت بالذنب بسبب ذلك... بسبب غيرتي وغضبي بعد كل الأمور

الطيبة التي قالتها عني، مع أنني واثقة من أنها لا تحبني إلى ذلك الحدّ الذي تدّعيه.

بجميع الأحوال، لا تعرف هارلو كم باعدت الأيام بيني وبين أخي.

لكنه يعرف، ولهذا غضبت منه بشكل مضاعف. فقد هجرني وتركني مع والدينا في بيتهما الصامت والحزين عندما كنت في الحادية عشرة من عمري. وها هو الآن، بعد أن جمعتنا الأيام بعد أكثر من عقد من الزمن... ها هو أمامي، ولكنه لم ينظر إليّ سوى بالكاد، ولا يملك قوة الإرادة والعزيمة للتحكم بنفسه ورغباته التي تسيطر عليه.

فاحت من غرفة تود رائحة البيتزا، ووجدت بالفعل قطعتي بيتزا قديمتين منسيتين على مكتبه ومتقلصتين على نفسيهما كلسان حذاء قديم. كما وجدت على المكتب مصباحاً أحمر اللون وقديم الطراز ظلّل كل ما حوله بلون الدماء. ووجدت في الغرفة أيضاً عدداً غير متناهٍ من المجلات المصورة في حالة عدم تمكني من النوم. لكن، لا داعي للقلق بهذا الشأن، فقد أيقظني ريغ مرتين في تلك الليلة باتصالين هاتفيين، واضطررت مرتين للكذب عليه وإخباره أنني لا أملك أي فكرة عن مكان تواجد هارلو. اعتقدت أن هارلو ستسمع بلا شك صوت الهاتف، وستعرف أن ريغ هو المتصل، وستعرف وحدها أنها جعلتني مضطرة إلى الكذب؛ مما سيمنحني الفرصة والمبرر اللذين كنت أحتاج إليهما لأفجر غضبي في وجهها كما أتمنى.

عرفتُ أن ريغ أدرك أنني أكذب عليه، وأنه عرف أنني أدركت ذلك. ربما يقول العلم إن أشدنا ذكاء يفكر بسبعة مستويات من النظريات الفكرية في وقت واحد، لكنني أعتقد أنني قادرة على التفكير بمستويات لا حصر لها من تلك النظريات في اللحظة ذاتها.

وعندها، كما في الأيام الخوالي، حضر لويل واصطحبني معه في بهيم الليل. كان يرتدي معطفه ويحمل حقيبة ظهره. أيقظني من دون أن ينبس ببنت شفة، وأشار لي كي أتبعه، ثم انتظرني في غرفة الجلوس إلى أن ارتديت ثيابي. ارتديت الملابس الرطبة نفسها التي كنت أرتديها مساء لأن كل ملابسي الجافة موجودة في غرفتي التي تنام فيها هارلو. تبعته إلى الخارج. وفي الرواق المظلم، أحاطني بذراعيه فتنشقت رائحة الصوف النديّ التي تفوح من ملابسه. ثم سألني:

«ما رأيك بقطعة من الحلوى؟».

فكّرت وأنا أبتعد عن صدره بأن أجيبه بالرفض، ولكنني خفت أن يكون قد نوى الرحيل باكراً، فأجبته بكلمة واحدة كئيبة ونكدة، وقاطعة في الوقت نفسه: «بالتأكيد».

كان أخي يعرف طرقات ديفيس جيداً، ويعرف أين يجد قطعة حلوى طازجة في الساعات المبكرة جداً من الصباح الذي لم ينبلج بعد. مشينا عبر الشوارع

المقفرة بعد توقف المطر، ومررنا تحت أضوائها واحداً تلو الآخر ونحن نتبع ضباب الفجر الشبحي الذي كان يسبقنا باستمرار من دون أن نتمكن من ولوجه. عمّ الصمت المدينة، ولم يعكره سوى صدى خطواتنا فوق الأرصفة، ثم سألني لويل:

«كيف حال ماما وبابا؟».

«انتقلا إلى بيت صغير يقع في شمال والنت. لقد استغربت حصولهما على منزل صغير إلى ذلك الحدّ، فهو يشبه البيوت النموذجية إلى حدٍّ ما. كما أنهما لم يأخذا معهما أي شيء من أغراضنا القديمة». بدأت ألين في الحديث معه على عكس رغبتي، وشعرت بالارتياح لمشاطرتي هواجسي وهمومي التي تخص أهلي مع الشخص المسؤول عن تعاستهما بقدري تماماً، وربما كانت مسؤوليته عن تلك الحالة تفوق مسؤوليتي أنا إذا توخينا الصدق. هذا ما كنت أتمنى حدوثه كلما تخيلت لحظة لقائي لويل. إذ كنت أنتظر، وأتخيل هذه اللحظة المهمة التي أتوقف فيها عن كوني الابنة الوحيدة لوالدَيّ.

«كيف حال والدي مع الإدمان على الشراب؟».

«ليست سيئة. لكنني لا أعيش هناك، فما الذي أعرفه؟ أمي تعمل مع وكالة تحديد النسل، وأعتقد أنها تحب عملها. وهي ما زالت تعلب التنس والبريدج».

«بالطبع».

«لا يوجد بيانو في البيت الجديد». صمتُّ قليلاً لأترك للويل الوقت الكافي لاستيعاب هذه الأخبار المزعجة، ولم أقل له إنها توقفت عن العزف عندما غادر البيت. مرّت بنا سيارة ورشّتنا برذاذ من الماء، ونعب غراب جاثم فوق عمود الإنارة في الشارع كما لو كان يحضن بيضة، معنّفاً إيانا من الأعلى. ربما كان يصيح بنا باليابانية: «با! كا! با! كا!». لقد نعتنا بلا شك بصفات بذيئة، ولكننا لم نفهمها لأنه كان يتحدث لغة أخرى. فما كان مني إلا أن قلت للويل ما فكرت به فأجابني:

«الغربان شديدة الذكاء، وإذا قالت عنا إننا أحمقان فنحن كذلك بالفعل».

«وربما كنت أنت الأحمق الوحيد المقصود بتلك الصيحات». قلت جملتي هذه بالنبرة التي لا يستعملها المرء إلاّ عندما يريد الادعاء في ما بعد أنه كان يمزح. ربما رقّ قلبي تجاهه، لكنني لم أصفح عنه بعد.

«با! كا! با! كا!».

لا يمكنني تمييز هذا الغراب عن بقية الغربان حتى لو أنفقت في سبيل ذلك مليون سنة من الدراسة، لكنّ لويل أخبرني أن الغربان دقيقة الملاحظة، وأنها تذكر وجوه الناس لأنها تملك أدمغة كبيرة نسبياً مقارنة مع حجم أجسامها، وهي النسبة ذاتها التي تمتلكها قردة الشمبانزي.

اختلّ نبضي عندما نطق كلمة شمبانزي، ولكنه صمت بعد ذلك تماماً. مررنا أمام واجهة بيت مزيّنة بالبوالين الملونة في الشارع B، ورأينا لافتة معلقةً على الباب الأمامي واضحة المعالم بسبب مصباح الشرفة الذِي لا يزال منارا. كانت

اللافتة القماشية الكبيرة المعلقة تقول:نتمنى لك عاماً سعيداً يا مارغريت! اعتدتُ وفيرن على الحصول على بوالين كثيرة؛ مع أننا كنا نضطر إلى مراقبة فيرن طوال الوقت كي لا تقضم أحدها وتبتلع المطاط وتختنق.

عبرنا سنترال بارك، وتمكنت رغم الظلمة من رؤية العشب الذي غطاه الطين بسبب أمطار الشتاء والأرض الزلقة السوداء. صنعت مرّة حذاءين خاصين للسير على الطين لفيرن ولي من الأطباق الورقية وأربطة الأحذية، لم تقبل فيرن بانتعاله، لكنني انتعلته ولم أربط الشريط معتقدة أنني أستطيع المشي به هكذا فوق الطين كما نفعل بالأحذية الخاصة بالمشي على الجليد. إننا نتعلم من تجاربنا الفاشلة أكثر مما نتعلم من تلك الناجحة كما يقول والدي.

ورغم ذلك، لا يقدرنا أحد بسبب تجاربنا الفاشلة.

قال لويل أخيراً:

«حاولت أن أقرأ بحث والدي الأخير المنعطف الجديد في نظرية التعلم العشوائي)، غير أنني لم أتمكن من الوصول إلى الفقرة الثانية بسبب صعوبة الكلمات التي بدت لي وكأنني لم أقرأها في حياتي. ربما لو ذهبت إلى الجامعة لكنت عرفتها».

«ما كان ذهابك إلى الجامعة ليساعدك». ثم أخبرته عن مناسبة الشكر وما فعله والدي مع الجدة دونا، وكيف أغضبها بنظريات ماركوف. ذكرت كلمات بيتر، ونظرية المؤامرة التي يفكر فيها العم بوب. وكدت أخبره أن أمي أهدتني مذكراتها، إلا أنني توقعت ما يمكن أن يحصل إذا طلب رؤيتها... ولم أكن أرغب في الاعتراف... حتى له... بأنني فقدتها.

دخلنا مخبزاً تحفّ الستائر القطنية بجدرانه، وتغطي أرضياته البسط المؤلفة من قطع متجاورة وجميلة، وسمعنا موسيقى هادئة تنساب داخله، ولم يكن ذلك سيئاً بالنسبة إلينا؛ فنحن ننتمي إلى المدرسة القديمة، ولهذا شعرنا أننا عدنا بالزمن إلى الوراء أكثر من عشر سنوات؛ إلى سني طفولتنا. فرغم الإضاءة الشديدة التي كانت منتشرة داخل المكان، إلا أن الموسيقى كانت أكثر قدماً... كانوا يستمعون بلا توقف إلى فرق تنتمي إلى التسعينيات والثمانينيات.

كنا الزبونين الوحيديْن في ذلك الوقت، فحضر إلينا على الفور نادل يشبه آلبرت آينشتاين في شبابه، ودوّن طلبنا (وهو عبارة عن قطعتين من حلوى الموز بالكريم)، ثم أحضر لنا طبقينا مع ملاحظة مرحة عن الطقس، وأشار إلى النافذة لنرى أن المطر راح ينهمر مجدداً وقال:

«انتهى الفاصل الجاف بين الأمطار».

بدا لي وجه أخي عبر الطاولة شبيهاً أكثر من ذي قبل بوجه والدي. فكلاهما يملكان النظرة نفسها التي أشار شكسبير إلى مدى خطورتها، والخدين الأجوفين، وشعر الذقن الداكن الذي بدأ بالبروز من تحت الجلد. كان لويل يحتاج إلى الحلاقة؛ إذ بدا كالرجل المستذئب بلحيته الداكنة المعاكسة تماماً

للون شعره الأقرب إلى اللون الأبيض. بدا عليه الإجهاد، ولكنه لا يشبه الإجهاد الذي يبدو على وجوه الناس الذين لم يناموا طوال الليل، بل الإجهاد العادي الذي يبدو على وجوه الناس من جراء التعب.

كما أنه لم يعد يبدو أكبر سناً مني بكثير كما كان يبدو دوماً من قبل، ثم لاحظ أنني أتأمله فقال:

«انظروا إليها... لقد أصبحت شابة جامعية تعيش بعيداً عن المنزل. هل تحبين حياتك الجديدة هذه؟ هل تروقك هذه الحياة؟».

«لا يوجد عندي ما أشتكي بشأنه».

«دعك من ذلك، لا تتظاهري أمامي. أراهن أنك إن بدأت بالتذمر مما يزعجك فلن تنتهي من ذلك قبل مرور عدة أيام». قال ذلك وهو يتناول لقمة ويضعها في فمه.

# 7

أمضيت مع لويل ما تبقى من تلك الليلة في المخبز، وأمطرت السماء خلال ذلك الوقت، ثم توقف هطول المطر، ليهطل مجدداً بعد قليل. تناولت البيض فيما تناول لويل الفطائر، ثم شربنا القهوة. بعد ذلك، اكتظ المكان بالزبائن صباحاً، وعاد نادلنا إلى منزله، وحل مكانه ثلاثة آخرون. أخبرني لويل أنه أصبح نباتياً، وأنه يتمكن من العيش بتلك الطريقة إلا عندما يكون مسافراً، وغالباً ما يكون مسافراً.

في مدرسة الحيوانات الأليفة توجد بقرة مصابة. وقد قام الأطباء بفتح ثقب في معدتها لمراقبة حركة أمعائها. كانت تلك البقرة مقصداً شهيراً للرحلات المدرسية، عرضاً حياً يتفرج عليه الناس يوم النزهة. بإمكان أي شخص أن يرى أحشاء البقرة ويشعر بأعضائها الداخلية. وقد قام مئات الناس بذلك بالفعل، وتلك البقرة – كما قال لويل – عاشت حياة صعبة مقارنة مع الحياة التي تعيشها الأبقار التي نأكل لحمها ونشرب حليبها.

يعتقد أخي بشدة أن ديفيس تحتوي على بقرتين تعانيان من المشكلة نفسها، وقد سُمِّيت كلتاهما ماغي لخداع الناس الذين يعتقدون أنه لا توجد سوى بقرة واحدة تخضع لكل ذلك التعذيب، وكي لا يبدأوا بالتساؤل عن الآلام التي تجبر كل منهما على المرور بها.

أخبرني أنه لطالما افترض أنه سيذهب إلى الجامعة، وأن الندم لم يفارقه لأنه لم يفعل ذلك، ولكنه تمكن من مطالعة الكثير من الكتب في شتى الميادين، ونصحني بقراءة كتاب دونالد غريفين الذي يحمل عنوان: عقول حيوانية، ففكرت بأن أحمل والدي على قراءته أيضاً.

ومع أن لويل لم يفهم بحث والدي الأخير، إلا أنه كان يحمل في ذهنه العديد من الانتقادات لعمل والدي في مجمله؛ إذ بدت له الأبحاث النفسية التي تُجرى على الحيوانات مزعجة وملتوية وغريبة الأطوار بكل ما للكلمة من معنى، وذلك لأنها لا تخبرنا سوى بالقليل عن الحيوانات التي تتم دراستها، ولكنها تخبرنا بالكثير الكثير عن العلماء الذين صمموها وأداروها. وضرب لي مثالاً على كلامه، مذكراً إياي بالعالم هاري هارلو الذي التقيناه في طفولتنا ووضع في فاهيْنا – على حدّ تعبير لويل – قطرات من عصير الليمون.

أذكر الدكتور هارلو؛ فقد حضر في أحد الأيام لتناول العشاء معنا في بيت المزرعة، وجلس بيني وبين فيرن، ثم قرأ لنا لاحقاً في تلك الليلة القليل من قصة دب العسل، وقام بتقليد صوت إحدى الشخصيات متكلماً بصوت مرتفع وأجش إلى درجة أنه أضحكنا كلما كانت تلك الشخصية تتحدث. لم أذكر قطرات الليمون التي ذكرها أخي، ولكنني أراهن على أن فيرن ستتذكرها لو

كانت مكاني. وعندها، فكرت في أن والدي كان سيسمّيني تيمناً به لو كان يقدِّر عمله حقاً. وفي تلك الحالة، كنت سأحمل اسم هارلو مثل رفيقتي، يا لها من فكرة غريبة ومرعبة!

ولكن، لا يمكن أن يفكر أحد بتسمية ابنه أو ابنته تيمناً بهارلو ذاك، لأنه انتزع عدداً من قردة ريسوس الرضيعة من أحضان أمهاتها ووضعها في أحضان قردة مزيفة مصنوعة من القماش أو المطاط ليرى أي الأمهات ستفضل القردة الرضيعة في غياب أي خيار آخر، وادعى بكل صلف – قاصداً كل كلمة يقولها – أنه كان يدرس عاطفة الحب.

التصقت القردة الرضيعة بأمهاتها المزيفة الجامدة وغير الحنون والباردة بشكل مثير للشفقة، إلى أن انتهى بها الأمر جميعاً بالجنون أو الموت. قال لويل معلقاً:

«لا أعرف الأمر الذي تعلّمه من تلك التجربة، ولكن تلك القردة الرضيعة تعلمت خلال حياتها القصيرة جداً أن الشر يمكن أن يتجسد في إنسان؛ وهو هارلو ذاك».

حامت نادلتنا الجديدة – وهي شابة لاتينية قصيرة القامة وثقيلة الخطوات – حولنا لبعض الوقت في محاولة منها لترتيب طاولتنا، ثم أخذت فناجين القهوة الفارغة، ووضعت الفاتورة في مكان بارز على الطاولة، ثم استسلمت في نهاية المطاف وتجوّلت في المكان بحثاً عن زبائن غيرنا واعدين بالمغادرة قريباً.

توقف لويل عن الكلام في حضورها، وعندما رحلت أكمل حديثه من نقطة توقفه، وقال مبتسماً فلاحظت أن وجهه قد تغيرّ قليلاً لكن ابتسامته لم تتبدل:

«لقد تحدثت كثيراً، وأنا الآن أشبهك أكثر من نفسك. أنا لا أتحدث عادة إلى هذه الدرجة، فأنا هادئ في معظم الأحيان.

والآن، إليكِ مشكلة أبحاث والدي. (وطرق بإصبعه على المنديل القماشي الموضوع تحت الطبق على الطاولة، وكأن المشكلة تكمن في مكان ما في قلب المخبز). إنها تكمن في أساس افتراضاته التي ينطلق منها. لطالما كان يقول إننا جميعاً متساوون، ولكنه عندما تعامل مع فيرن لم ينطلق من المساواة التي يدعيها، وكانت كل طرائقه لإثبات نظرياته ترمي بعبء ذلك الإثبات على عاتقها هي. فعلى سبيل المثال، كانت هي الفاشلة في عدم قدرتها على تعلم لغتنا، ولم يكن فشلنا في فهمها المشكلةَ بالنسبة إليه. وقد كان من الأفضل علمياً أن تنطلق أبحاثه من فرضيته الأولى لتكون أكثر دقة؛ وهي أن كل الكائنات الحية متساوية... وحينها كانت الأمور ستكون أقل وحشية وأقل قسوة بكثير». ثم سألني:

«هل تذكرين اللعبة التي كانت فيرن تلعبها باستخدام البطاقات الزرقاء والحمراء؟ لعبة يطابق أو لا يطابق؟».

بالطبع أذكرها.

«كانت دوماً تعطيكِ الأوراق الحمراء ولا تعطيها لأي شخص آخر. أنتِ فقط... هل تذكرين؟».

تذكرت الأمر عندما ذكره؛ فقد تفجّرت الذكرى في خيالي كما لو أنها تحدث الآن أمام عينيّ؛ قوية أكثر من الواقع المحيط بي، وأكثر من أي ذكرى أخرى تلاشت بفعل الزمن؛ كقطع العملة المعدنية الرومانية. كنت أجلس على الأرض الخشبية الخشنة وفيرن مستلقية بجانبي في الفترة التي كُسِر فيها مرفقي، وكان والدي وطلابه يتناقشون حول ضحكة فيرن المفاجئة، وهي لا تزال تحمل أوراق اللعب بيدها، حيث يمثل اللون الأحمر الصورة المطابقة، والأزرق الوضع المختلف. تدحرجت على ظهرها باتجاهي، واقتربت مني كثيراً لدرجة أنني بت قادرة على تمييز كل شعرة على ذقنها الصغير وتنشق رائحتها العابقة بالسكر، ثم مسّدَت بيدها رأسي، فعلقت بأصابعها شعرة من شعراتي فأكلتها.

ثمّ وبكل تأنٍّ، وبعد تفكير عميق أعطتني البطاقة الحمراء. استعدت كل ذلك في خيال؛ صورة فيرن وهي تنظر إليّ بعينيها اللامعتين وتمدّ يدها بالبطاقة الحمراء إلى صدري.

أعرف المعنى الذي فكر فيه والدي لدى تصرفها ذاك؛ فقد فكّر في أن سلوكها ذاك ليس مفيداً على الإطلاق. فقد أعطتني من قبل حبة زبيب مماثلة لكل حبة زبيب كانت تتناولها، وها هي الآن تعطيني بطاقة حمراء مماثلة لبطاقتها، وهذان سلوكان مثيران للانتباه. هذا كل ما قد يفكر فيه والدي.

أما تفسير سلوكها بالنسبة إليّ فقد كان مختلفاً. إذ كانت فيرن تعتذر. كانت تريد القول إنها تشعر بالحزن عندما أتعرض للأذى. هذا ما فهمته من منحي تلك البطاقة الحمراء؛ كانت تريد أن تقول: أنا وأنتِ كيان واحد. أنا وأنتِ.

أختي... فيرن... بطاقتي الحمراء الوحيدة التي كسبتها يوماً في هذا العالم هائل الحجم والقاسي.

وتحت الطاولة، امتدت يداي تلقائياً من دون رغبة مني، وتشابكت أصابعي معاً، وأنا أجبر نفسي على طرح السؤال الذي كان ينبغي لي أن أسأله في اللحظة التي انفردنا فيها معاً.

«كيف حال فيرن؟».

خرجت الكلمات من فمي مع تنهيدة عميقة، وتمنيت لو أنني لم أطرح ذلك السؤال. اعتراني الخوف من الإجابة، ولهذا تابعت الكلام، وأجبرت نفسي على الامتناع عن التفكير في الاحتمالات السيئة لأطول فترة ممكنة:

«قُصَّ عليّ الحكاية من أولها. ابدأ من الليلة التي غادرتَ فيها البيت».

لكنكم تفضلون على الأرجح أن أوصلكم إلى أخبار فيرن مباشرة، ولهذا سأختصر.

عرفت منذ البداية – قبل أن يخبرني – بسفره إلى المدينة التي يوجد فيها مخبر الدكتور أولجيفيك ما إن غادر البيت. وكان يعرف أنه يملك يومين فقط قبل أن تبدأ الشرطة بالبحث عنه، وقدِ احتاج إلِى كل ذلكِ الوقت للوصول إلى

المختبر. كان برد داكوتا الجنوبية قارساً وموجعاً، وطبيعة أرضها طينية بلا ثلوج، وأشجارها سوداء عارية، ورياحها لاذعة.

وصل بعد حلول الظلام، وحجز غرفة في فندق صغير لأنه لم يكن يعرف عنوان المختبر، وكان الوقت متأخراً للخروج والبحث عنه، بالإضافة إلى أنه كاد ينام واقفاً بعد يومين متواصلين من السفر بواسطة الحافلة. استقبلته امرأة رفعت شعرها في تسريحة على طراز الخمسينيات بعينين باردتين، ونظراتها أشبه بنظرات الموتى. وقد خشي أن تسأله عن عمره، ولكنها كانت تريد الحصول على المال أكثر من اهتمامها بتلك النقطة.

في اليوم التالي، وجد مكتب الدكتور أولجيفيك في الجامعة، وعرّف عن نفسه أمام سكرتيرة القسم بأنه يأمل أن يكون طالباً للبروفيسور. كانت الموظفة قروية الطبع، وودودة للغاية. لها وجه مسطّح، وقلب كبير يتسع للجميع. أخبرني أنها تنتمي إلى ذلك النوع من النساء اللواتي جئن إلى هذا العالم لتخيب آمالهن على حدّ قوله:

«كالسيدة بايارد، هل تفهمين ما أعنيه؟».

ماتت السيدة بايارد منذ خمس سنوات، ولهذا لن يخيب أملها بعد الآن، ولكنني لم أخبره بذلك.

قال لويل للموظفة إنه مهتم بالدراسات التي تُجرى على الشمبانزي، وسألها عن وجود أي طريقة للاطلاع على العمل الذي أُنجز في هذا القسم، فأخبرته عن ساعات عمل الدكتور التي كان يعرفها مسبقاً لأنها كانت ملصقة على باب المكتب الخارجي.

ثم غادرت مكتبها لغرض أو لآخر، ممّا مكنه من الإطلاع على بريد الدكتور، ووجد بين عدة أشياء أخرى فاتورة كهرباء مرتفعة القيمة لعنوان يقع على الطريق العام. عندها، خرج لويل وحصل على خريطة وشطيرة نقانق من محطة وقود، وذهب إلى العنوان الذي يبعد ستة أميال مشياً على الأقدام.

لم يكن هناك سوى القليل من السيارات على الطريق، وكانت الشمس ساطعة لكن البرد قارس. شعر أخي أنه بحال جيدة بفضل المشي، وراح يلوّح بذراعيه ليشعر بالدفء، وتساءل في ذهنه عن مجريات المباراة. لم تكن تلك المباراة لتنتهي بشكل جيد حتى بوجوده بين صفوف اللاعبين. وفي أفضل الأحوال، كانوا سيتفادون الخسارة المهينة بفارق نقاط قليل في حال وجوده، ولكن من دونه... ألم يكن الحال أبشع من البشاعة ذاتها؟ فكّر في أنه لا ينبغي له العودة إلى الثانوية قط، وأنه من الأفضل له أن يذهب إلى الكلية مباشرة حيث لا يعرف أحد أنه كان لاعب كرة سلة، وأنه لم يبلغ العمر المناسب للعب مع فرق كرة سلة الجامعات بعد بكل الأحوال.

وصل أخيراً إلى المجمع المحاط بسور مزدوج، وعادة لم تكن مثل هذه الأسوار مشكلة بالنسبة إلى لويل المراهق؛ إذ كان ذلك النوع من التحصينات يثير سخريته، لكن ذلك السور كان مرفقاً بشريط كهربائي، مما أكد له أنه في

المكان الصحيح. ولكنه عرف أنه لن يتمكن من الدخول بسبب خوفه من تعرضه إلى صدمة كهربائية.

زُرعت الباحة الأمامية بالأشجار العارية، وغطى الطين والفروع الصغيرة والأوراق الصفراء الأرض، لكنه شاهد أرجوحة مصنوعة من دولاب سيارة معلقة على غصن أحد الأشجار، وشبكة مخصصة للتسلق. وعبر الطريق شاهد جذع شجرة ضخمة مقطوعاً من منتصفه ومشقوقاً من وسطه فاقترب منه ليحميه من الريح ومن الأنظار على حدّ سواء، واندسّ قربه وغرق في النوم.

استيقظ أخي على صوت إغلاق باب سيارة، فوجد أن بوابة الدخول إلى المجمع مفتوحة على مصراعيها. وفي الداخل، رأى رجلاً يفرغ أكياساً كبيرة تحتوي على طعام للكلاب من مؤخر شاحنة ستيشن خضراء. كدّس الرجل الأكياس فوق عربة صغيرة، ثم دفعها فوق الطين إلى ما بدا من بعيد وكأنه مرأب. وما إن اختفى الرجل حتى عبر لويل البوابة، ودخل خلسة إلى المبنى الرئيس.

«وهكذا، دخلت بكل بساطة».

وجد أخي نفسه في بهو مظلم فيه مجموعة من السلالم التي تقود إلى الأسفل والأعلى، وسمع صوت القردة فعرف أنها موجودة في القبو.

باغتته الرائحة القوية أثناء نزوله السلالم؛ خليط من رائحة الأمونيا والبراز. لاحظ عند وصوله إلى الأسفل وجود زر لإنارة الكهرباء ولكنه لم يضغط عليه، واعتمد على ضوء الشمس المتسلل من صف من النوافذ الصغيرة الموجودة على مستوى الشارع. وكان ذلك النور كافياً لرؤية أربعة أقفاص متتالية، وعشرة أخرى وراءها يغطيها الظلام، وبداخلها أشكال شبحية متحركة.

«ما رأيته بعد ذلك كان فظيعاً. أعرف أنك لا تحبين التكلم في موضوع فيرن... لذا، هل أنت واثقة من أنك تريدين أن أتابع إخبارك بما حصل؟».

كان يحذّرني... لكنه لم يكن يعرض التوقف عن إخباري بقصته حقاً.

«ميّزت فيرن فوراً. لكنني لم أميّزها بفضل ذلك النور الشحيح، بل لأنها كانت الأصغر حجماً وسناً. كانت موجودة في قفص مع أربعة قردة بالغة كبيرة الحجم. ولا أعتقد أنني عرفت من قبل كم يمكن أن يختلف قرد شمبانزي عن آخر. كان شعرها أكثر حمرة من ذي قبل، وأذناها منتصبتين، وتبدو أكثر شبهاً بالدببة القطنية المحشوة. بدت كل تلك التغييرات مفهومة بالنسبة إليّ ومنطقية مهما بلغت درجة اختلافها عن المعهود. جثمت فيرن بثبات وعناد، فيرن التي كانت هادئة ومسالمة ورقيقة. أدركت أنها شعرت بقدومي قبل أن أقترب منها، وأذكر أنني فكرت في تلك اللحظة بأنه يتوجب على والدي القيام بدراسة نفسية حول قدرة الشمبانزي على التوقع.

عبرت القبو باتجاه الأقفاص فلاحظت أنها انتصبت واقفة قبل أن تلتفت نحوي أثناء اقترابي منها. بدأ شعرها يقشعر وينتصب، وراحت تطلق ذلك

الصوت: أو.. أو.. أو الذي كانت تصدره كلما أصيبت بالقلق، ثم التفتت إلى الخلف، وقفزت إلى قضبان القفص وهزّتها، وتأرجحت إلى الأمام والخلف وهي تنظر إليّ مباشرة وتصرخ في وجهي.

أسرعت إليها جرياً. وعندما أصبحت قريباً منها بما فيه الكفاية مدّت ذراعيها من بين القضبان وأمسكت ذراعي وسحبتني إليها بقوة؛ لدرجة أنني ارتطمت بالقضبان، فأصيب رأسي ودارت الدنيا حولي قليلاً. أمسكت فيرن بيدي، وأدخلتها إلى داخل القفص، ووضعت أصابعي في فمها من دون أن تعضني. وأظن أنها لم تكن قد قررت في تلك اللحظة إذا كانت سعيدة برؤيتي أكثر من الغضب الذي كان يجتاح أوصالها تجاهي. كانت تلك هي المرة الأولى في حياتي التي شعرت فيها بالخوف منها.

حاولت سحب يدي لكنها لم تتركها، شممت رائحة تنبعث منها، رائحة الشعر المحترق، ولم تكن قد استحمت بالصابون أو نظفت أسنانها منذ فترة طويلة، ففاحت منها رائحة نتنة كي أكون صادقاً معك.

بدأت أكلمها وأعتذر لها وأعبر لها عن حبي، ولكنها لم تتوقف عن الصراخ، ولهذا أعرف جيداً أنها لم تسمع ما قلته لها، وكانت تعصر أصابعي بقوة لدرجة أنني بدأت أشعر بموجات صاعقة من الألم، فحاولت المحافظة على هدوء صوتي واتزاني.

أثارت حالة فيرن انتباه كل القردة في القفص، فاقترب منّا ذكر كبير مهتاج، وحاول انتزاع يدي منها لكنها لم تتركها. عندها، أمسك ذراعي الأخرى، وراح كلاهما يسحبانني باتجاه القضبان بعنف، فأصيب أنفي وجبهتي وجانب وجهي. وفي تلك اللحظة، انتبهت إلى أن فيرن لم تعد تمسك بيدي بين أسنانها بل بيديها، وأنها التفتت إلى الجانب وعضّت ذلك الذكر من كتفه، ثم أمسكت يدي بإحكام أكثر من ذي قبل. عندها، تعالى الصراخ وازداد بفعل صدى صيحات كل القردة الموجودة في جميع الأقفاص، والذي تردد بين الجدران الإسمنتية. كان الوضع أشبه بحلبة مصارعة، حلبة مصارعة حقيقية، مميتة وحقيقية.

أفلت الذكر الضخم ذراعي، وتراجع إلى الخلف فاغر الفم، ومكشراً لي عن أنيابه. وأقسم لك إنها بدت لي أشبه بأنياب أسماك القرش. وقف أمامنا منتصب الشعر مثل فيرن، وفهمت أنه كان يهددها، لكنها لم تكن توليه أي اهتمام، وكانت تشير لي بيدها الأخرى وترسم في الهواء حروف اسمي بلغة الإشارة، ثم قالت بلغة الإشارة أيضاً: فيرن الصالحة، فيرن اللطيفة، فيرن فتاة صالحة. أرجوك خذني معك إلى المنزل... أعدك أنني سأكون فتاة صالحة... أعدك... أعدك.

اندفع الذكر الضخم وهاجمها من الخلف فلم تتمكن من الدفاع عن نفسها والتمسك بي في الوقت نفسه، ولهذا لم تدافع عن نفسها. فتح بأظفار قدمه جراحاً كبيرة في ظهرها من دون أن تتوقف طوال الوقت عن الصراخ. شممت رائحة الدم والرعب ممِزوجة برائحة النحاس اللاذعة والعرق النفاذة والبراز

فشعرت بالدوار مجدداً من الضربات التي تلقيتها ومن الروائح المختلطة. ورغم كل ذلك، لم تفلتني فيرن.

عندما وصلت الأمور إلى هذا الحد، اندفع رجلان على السلالم راكضين، وصرخا بي، لكنني لم أفهم ما قالاه، ولم يبدُوَا لي كبيرين في السن بما يكفي ليكونا من الأساتذة، فخمنت في البداية أنهما من الطلاب أو من الحراس، ثم انتبهت إلى أنهما ضخما الجثة، وأن أحدهما يحمل في يده عصا صاعقة خاصة بالسيطرة على الحيوانات. وأذكر أنني فكرت في تلك اللحظة بالطريقة التي سينجح بها ذلك الحارس في صعق فيرن من دون أن يصعقني، وإن كان بإمكاني أن أمنعهما من صعق فيرن.

اتضح لي أنهما لا يحتاجان إلى صعق أي من القردة؛ لأن الذّكر ما إن لاحظ العصا حتى ابتعد مباشرة إلى الخلف متذمراً إلى أبعد نقطة داخل القفص، وهدأ الجميع على حين غرة. وعندما رفعا العصا أمام عينَي فيرن أفلتت يدي.

رماني أحد القردة من قفص آخر ببرازه، فهبطت كتلة البراز على رقبتي ونزلت في ياقة قميصي. طلب الحارسان مني الانصراف قبل أن يتصلا بالشرطة. حاولت فيرن ضغط نفسها على القضبان بأقصى ما تستطيعه من قوة من دون أن تتوقف عن رسم اسمي واسمها ووعودها بيدها بلغة الإشارة. بينما بدأ الرجلان يتناقشان في ما إذا كان يجدر بهما رميها بسهم مخدر أم لا، وبعد ذلك لاحظا الدماء فانتهى النقاش.

غادر أحدهما ليتصل بالطبيب وأخذني معه وهو يسحبني من ذراعي السليمة، وكان أضخم مني قامة بكثير وراح يقول:

«سوف أتصل بالشرطة. هل تعتقد أنك ظريف؟ هل تعتقد أنك شاب خفيف الظلّ؟ هل تعتقد أنه من الظرف أن تعذب الحيوانات وتجرها بتلك الطريقة؟ اخرج من هنا ولا تعد مرة أخرى».

بقي الرجل الآخر مع فيرن والعصا الصاعقة في يده، وأظن أنه كان يحميها من القردة الأخرى، لكنني أعرف أنها ظنّت أنه يهددها؛ إذ تباطأت سرعة رسمها للإشارات في الهواء، وبدا عليها القنوط واليأس.

ما زلت أعاني لدى تفكيري في تلك اللحظات، وما زلت أجد صعوبة في احتمال التفكير بأنها رغم كل شيء وبعد كل ما جرى قامت بحمايتي من الذكر الضخم، وأنها دفعت لقاء ذلك ثمناً باهظاً. وما زال وجهها في خيالي عندما تركتها... لم أرها مرة أخرى».

# القسم الخامس

في هذه الأيام، أستطيع التعبير عن تلك الأحاسيس المشابهة لأحاسيس القردة باستخدام مفردات بشرية وإنسانية. وكنتيجة لهذا، تتعرض كل تلك الأحاسيس للتحريف والتشويه.

«*فرانز كافكا، تقرير للأكاديمية*»

# 1

كان هناك شيء مختلف خارج عن كل التصور يخص فيرن ويخصني، شيء مشين ومهين إلى درجة لا يمكن احتمالها، إلى درجة أن لويل لم يلاحظه إلا عندما ذهب إلى داكوتا الشمالية، شيء لم أكن أعرف عنه أي شيء إلى أن أخبرني به بعد عشر سنوات إلى مائدة فطور في مخبز بيكرز سكوير. الأمر المشين هو أن فيرن لم تكن أكثر من شيء؛ تماماً كالكرسي أو السيارة أو التلفاز، وأنها تُباع وتُشترى كأي شيء، وأنها عاشت معنا طوال سنوات في بيت المزرعة كفرد من أفراد عائلتنا، كأخت وابنة، ولكنها في الحقيقة كانت ملكاً لجامعة إنديانا.

أمِل والدي عندما أوقف مشروعه العائلي ذاك في أن تسمح له الجامعة بالاستمرار في دراسة سلوك فيرن في ظروف غير معينة في المختبر، لكن الاحتفاظ بها معافاة وسليمة كان مكلفاً، فقيل له إنهم لا يملكون مكاناً مناسباً لها، وبحثوا عن مخرج من القصة بأكملها، وعندها اشترتها جامعة داكوتا الجنوبية، والتزمت بالشرط الوحيد الذي طلبته الجهة البائعة، ألا وهو ترحيلها على الفور.

لم يكن والدي يملك أي سلطة ليتدخل في الأمر فلم يتمكن من إبداء رأيه، وكذلك الأمر بالنسبة إلى مات أيضاً، غير أن هذا الأخير اعترض، واعترض أيضاً لدى جامعة داكوتا الجنوبية. بقي معها لأطول فترة ممكنة، والتقاها كلما أتيحت له الفرصة. لقد قاموا بأفضل ما يمكنهم القيام به على حدّ قول لويل. ومن بين كل الناس، كان لويل أقل شخص يحتمل تهاونه في التعامل مع ما اكتشفه. وكان من الصعب عليّ آنذاك كما صعب عليّ الآن بكل صدق أن أفهم كيف يستطيع الأهل أن يكونوا عاجزين إلى هذه الدرجة في ما يخص ابنتهم.

«لم تتسبب زيارتي سوى في توليد المزيد من الأسى، واتضح لي أن والدي كان محقاً عندما لم يوافق على ذهابنا لرؤيتها». قال لويل ذلك وعيناه حمراوان من شدة الاحتقان والتعب، ثم راح يفركهما بقوة فازدادتا احتقاناً، ثم تابع كلامه:

«إلا أنه كان مخطئاً حيال أمر واحد؛ وهو عندما قال إن رؤيتها ستفيدني».

«هل تعرف مكانها الآن؟».

أجابني بأنه يعرف، وأنها لا تزال في مختبر أولجيفيك في داكوتا الجنوبية، وأضاف لي سبباً آخر بالإضافة إلى الأسباب العاطفية السابقة يؤيد عدم زيارتها، ألا وهو أن الشرطة الفيدرالية كانت تنتظره هناك. ولهذا، كان ذهابه لرؤيتها غير محتمل على الإطلاق، فتدبّر أمر مصادقته شخصاً يمكنه متابعتها

والاعتناء بها من أجله، وكان ذلك الشخص يرسل له تقارير حول أمورها بشكل منتظم.

ومن حسن حظ كل الكائنات الموجودة داخل تلك الأقفاص أن أولجيفيك تقاعد منذ خمس سنوات، وعلق لويل على ذلك قائلاً:

«لم يكن عالماً، بل وحشاً شريراً لا حدّ ولا سقف للوحشية التي يمكنه اقترافها. كان عالماً شريراً وطليقاً. يجدر بأمثاله أن يكونوا أسرى في سجن مخصص للقتلة المتوحشين والمجانين».

ومن المؤسف أن الكثير من العلماء المشابهين لأولجيفيك كانوا أحراراً، وتم إطلاق أيديهم في ما يمكنهم اقترافه كما قال أخي.

«درّب ذاك المتوحش القردة على تقبيل يده كلما مرّ من أمام أقفاصها، وأجبر فيرن على فعل ذلك مرة تلو الأخرى، وقد أخبرني الشاب الذي كان يعمل هناك أن أولجيفيك كان يعتبر ذلك أمراً مسلياً.

لقد كره أولجيفيك فيرن منذ البداية، ولم يتمكن أحد من فهم السبب أو شرح الأمر لي. في إحدى المرات، كلّمت شخصاً ثرياً في أمرها، وطلبت منه إعطائي المال اللازم لشرائها وللدفع لأحد الملاجئ في فلوريدا ما يكفي من المال ليتجاهلوا الحيوانات الموجودة على قائمة الانتظار لديهم ويأخذوها بأسرع وقت ممكن (ولا بد لي من التنويه بأن ذلك الملجأ كان ممتلئاً ككل الملاجئ الأخرى، ولا يوجد لديه أي مكان شاغر). ولكن أولجيفيك رفض عملية البيع، وعرض على الشاب الثري قرد شمبانزي آخر فاعتقد الشاب أن إنقاذ واحد منها أفضل من عدم إنقاذ أحد، وعرفت في ما بعد أنه وافق على الصفقة. ولكنْ اتضح لي لاحقاً أن إرسال قرد شمبانزي للعيش بين جماعة جديدة ينطوي دوماً على نوع من الخطورة».

باغتتني ذكرى أول يوم لي في الروضة؛ عندما دخلت متأخرة شهرين عن رفاقي، ومن دون أن أتمتع بأي خبرة اجتماعية، وحين كنت غريبة الأطوار بما فيه الكفاية ليعتبرني الجميع دخيلة بكل المقاييس.

«هُوجمت القردة التي اشتراها الشاب من أولجيفيك بدلاً عن فيرن وضُربت حتى الموت».

«شعرت بخوف كبير في العام 1989 عندما أعلن أولجيفيك أنه سيغطي مشكلة مالية كانت تواجهه في ذلك العام عبر إرسال بعض القردة إلى المختبرات الطبية؛ فباع أوما، وبيتر، وجوي، وتاتا، وداو، وأوما هي الوحيدة التي ما زالت على قيد الحياة من بين تلك القردة المسكينة.

كنت متأكداً في ذلك الوقت من وجود فيرن على تلك اللائحة، ولكنها لم تكن كذلك؛ ربما لأنها كانت تلد باستمرار. فقد أثرت فيها السنوات التي أمضتها معنا فلم تقبل بالقيام بأي علاقة مع القردة الذكور، ولهذا كانوا يخصبونها بالتلقيح الصناعي. وأنا أسمي ذلك اغتصاباً بلا جراح.

لقد أنجبت ثلاثة أولاد حتى الآن. وقد استولت أنثى ضخمة على مولودها الأول بعد ولادتها مباشرة، وقد سمي المولود باسيل. سمعت أن ذلك يحصل حتى في أفضل العائلات. ومع ذلك، أصيبت فيرن بالأسى، وحزنت لفراق ولدها.

ثم أُخِذَ باسيل مجدداً من أمه الضخمة، وباعه أولجيفيك مع سيغ؛ ابن فيرن الثاني إلى حديقة الحيوانات في سانت لويس، وهو الأمر الذي كانت أفضل العائلات تحاول تجنبه؛ لا نحن.

يجب أن تذهبي لرؤيتهما هناك. المنظر ليس رائعاً، ولكنه أفضل ممّا هو عليه في المختبرات الطبية».

في تلك اللحظة، سمعت رغماً عني الرجل الجالس إلى الطاولة المجاورة لنا وهو يتهم المرأة التي تشاركه فطوره بكلمات قاسية أنها تطلق روائح كريهة. لطالما تذكرت عباراته الجارحة تلك بعد ذلك الصباح، ولطالما فكرت في أنه الشيء الذي لم يكن لويل ليفعله، ولم يفعله في حياته. ولهذا، صدّقت لويل عندما أخبرني أن أمور فيرن قد تغيرت نحو الأفضل بعد تقاعد أولجيفيك، وقال ختاماً لكلامه:

«طلاب الدراسات يحبون فيرن. ألم يحبوها طوال عمرهم؟».

أخبرني أخي بعد ذلك أن فيرن أنجبت طفلاً آخر، أنثى اسمها هيزل، وقد بلغت الصغيرة الثانية من العمر قبل فترة وجيزة، وأن فيرن تعلّمها لغة الإشارة، وأنها ستحتفظ بطفلتها هذه لأن العلماء خططوا لهذه الأحداث على سبيل التجربة، وأصدروا أوامرهم لكل العاملين بألا يقوموا بأي إشارة أمام هيزل ما لم تكن قد قامت بها من قبل أربع عشرة مرة على الأقل، وشوهدت وهي تنفذها من قِبل أربعة أشخاص مختلفين.

وأخبرني أن العلماء سجلوا في وثائقهم أن فيرن تعرف أكثر من مئتي إشارة وتستخدمها بنفسها، ووضعوا قائمة بها ليعرفوا الإشارات التي توقفت عن استخدامها، كما وضعوا استفساراً حولها: هل توقفت فيرن عن استعمال الإشارات العملية الوظيفية أم الإشارات الحوارية؟

«المختبر بكامله يتابع حركات الإشارة التي تقوم بها الصغيرة هيزل. وقد علمتُ أيضاً أنها اخترعت إشارات خاصة بها مثل: ثوب الشجرة للتعبير عن الأوراق الخضراء المتعلقة بالأشجار، والشوربة الكبيرة للتعبير عن مغطس الاستحمام. إنها فائقة الذكاء، وتلعب الشطرنج أيضاً... مثل أمها».

«هل أصابتك فيرن بهذا الجرح؟». سألته وأنا أشير إلى الندبة الطويلة والعميقة الموجودة على ذراعه فأجاب بالنفي، وأخبرني بأن صقراً أحمر الذيل قد تسبب له بذلك الجرح، لكنني لم أسمع منه تفاصيل القصة لأنه لم يكن قد أنهى قصة فيرن بعد.

احتاج لويل إلى مساعدة طبية بعد اقتحامه المختبر في داكوتا الجنوبية. فبالإضافة إلى الإصابات التي لحقت بوجهه بسبب ارتطامه بالقضبان، كانت لديه إصبعان مكسورتان ومعصم مخلوع؛ فحضر طبيب محلي لمعالجة إصاباته في منزل خاص؛ مما يعني أنه عالجه خارج العيادة والمشفى، ولم يسجل أي بيانات للسلطات عما جرى. ثم قضى أخي تلك الليلة في البيت نفسه مع شخص لا يعرفه، وأخبرني أن ذلك الشخص اعتنى به جيداً، وأيقظه بين الحين والآخر للتأكد من أنه على ما يرام. وقد قام لويل بتلك الاحتياطات خوفاً من أن يكون أحد ما قد رآه في المختبر أو صباحاً في الجامعة وربط بينه وبين حادثة إطلاق سراح الفئران الشهيرة في بلومنغتون. حاول لويل أن يكون غامضاً قدر الإمكان مع الشخص الذي قضى الليلة في ضيافته. ولكنه كان شخصاً لا يقبل ولا يحب الطريقة التي تُعامل بها الحيوانات في المختبرات، ووافق لويل الرأي بأن تلك الأمور بحاجة إلى تغيير كبير.

«أعرف الآن أنني لم أكن لأتمكن من إنقاذها وحدي. فقد كنت مجرد صبي أحمق يتصرف بطيش، وقد تخيّلت أننا سنخرج أنا وفيرن من المختبر معاً بكل بساطة مثل هان وشيوباكا في الفيلم، وسنقفز تلك القفزة إلى فضاء آخر.

من الواضح أنني لم أفكر في الأمر على الإطلاق قبل القيام به. فكل ما أردته حينها هو رؤيتها والاطمئنان عليها وإعلامها بأننا لم ننسَها وإخبارها بأنني أحبها.

أعرف الآن بعد كل تلك السنين أنني كنت أحتاج إلى خطة محكمة، وإلى مكان لأصطحبها إليه، وأشخاص يساعدونني في تحقيق ما أريده. وقد عرفت في ما بعد أنني كنت سأدان من قبل القضاء بتهمة السرقة. لكنني لم آبه بذلك، ولم أكترث له في يوم من الأيام. ثم علمت بذلك الحدث الذي سيجري في ريفرسايد في كاليفورنيا، فركبت أول سيارة توقفت لتقلني على الطريق، وفكرت في أن أي مبلغ أجنيه سيكون مفيداً لأستعمله في تحرير فيرن في ما بعد».

أشاح لويل بوجهه بعيداً عني، ونظر عبر النافذة إلى الشارع الذي غمره نور الصباح، وسيطر عليه الضباب مجدداً بعد توقف المطر وارتفاع الشمس الخجولة في السماء. ولهذا، اضطرت السيارات إلى إنارة أضوائها الأمامية المخصصة للضباب رغم بزوغ الشمس، فبدا لنا وكأن البلدة بكاملها موجودة داخل حصالة نقود زجاجية كبيرة ولامعة ومشعة بأنوارها.

ازدحم المخبز أكثر من ذي قبل، واشتدت أصوات ارتطام الملاعق والشوك الفضية بالأطباق الزجاجية وهمهمة الناس وصوت آلة تحصيل النقود والجرس الذي يقرع كلما دخل زبون جديد. كنت أبكي، ولكنني لا أعرف منذ متى.

احتضن لويل كفّيّ بين كفّيه الخشنتين فشعرت بدفئهما، ثم قال:

«حضرت الشرطة إلى المختبر في اليوم التالي بحثاً عني، لقد سمعت بذلك، وعرفت أنهم حصلوا على كل تفاصيل زيارتي إلى المختبر. وهكذا، كنت

متأكداً من أن أبي وأمي قد عرفا بما جرى، وأنهما اطمأنّا عليّ مبدأياً. ولكنني كنت لا أزال غاضباً إلى حدّ الجنون، إلى درجة تمنعني من العودة إلى المنزل؛ ففكرت في أن الرحلة إلى ريفرسايد أفضل شيء أقوم به للهرب من تلك البلدة سالماً.

اعتقدتُ أنني كنت أخطط للأمور وأقوم بأفضل ما يمكنني فعله لفيرن، ولكنني كنت غاضباً أكثر مما ينبغي منكم جميعاً، ولم يفارق وجهها مخيلتي قط.

لم أتعمد عدم الذهاب إلى المنزل، فكل ما أردته هو تخليص فيرن أولاً، ونقلها إلى مكان مناسب يعجبها، حيث يمكنها أن تكون سعيدة... في مزرعة ما». وهزّ يديّ بلطف.

في تلك الآونة، مررت بإحدى تلك اللحظات الغريبة التي تختفي فيها كل الأصوات المحيطة بالإنسان فجأة. إذ صمت الناس جميعاً، وتوقفوا عن تحريك القهوة، ولم يصدر أي شخص في الشارع أي صوت كالسعال أو إطلاق نفير السيارة أو حتى صوت ركن سيارة في الجوار. باختصار، تجمد كل شيء، وتحوّل كل شيء حولي إلى صورة ثابتة وجليدية.

... ثم عادت الحركة.

قال لويل بصوت منخفض: «كنت غبياً للغاية. إذ كان بإمكاني أن أذهب إلى الجامعة هناك، وأن أجد طريقة للعمل في ذلك المختبر، وأن أرى فيرن كل يوم. ولكنني بدلاً من ذلك أصبحت هارباً تطارده الشرطة الفيدرالية. وفجأة، لم يعد بإمكاني العودة إلى المنزل أو الذهاب إلى الجامعة أو العودة إلى مدينتي».

ثم قال بأنفاس متقطعة ومتلاحقة: «حاولت إنقاذها جاهداً... وظللت أفعل ذلك لأعوام وأعوام. وبالرغم من ذلك، ما الذي أفدت به فيرن؟ يا له من عذر أقبح من ذنب، يا لهذا الأخ السيئ الذي اتضح لفيرن أنها تملكه!».

دفعنا الفاتورة بعد ساعات من استيلاء اليأس على نادلنا. حمل لويل حقيبته على ظهره، ومشينا عبر الضباب في الشارع الثاني، وتجمعت قطرات من ماء المطر على سترة لويل الصوفية الداكنة.

أذكر مرة أنني كنت مصابة بالأنفلونزا، وأن لويل منعني من الخروج ولكنه أحضر لي الثلج إلى الداخل، وحمله بيديه المغطّاتين بقفازه الصوفي الأسود بعد أن وعدني بأن يريني كريستالات الثلج ذات الأوجه الستة التي تشبه قصور ملكات الثلج في الحكايات الخرافية. ولكن الثلج ذاب وتحوّل إلى قطرات ماء قبل أن نصل به إلى المجهر.

حصل ذلك قبل مغادرة فيرن، ولكنني لا أذكر وجودها في تلك اللحظات، وأتساءل بالفعل عن سبب ذلك. إذ لطالما كان من الصعب علينا السيطرة عليها ومنعها من حشر نفسها في كل شيء. ربما كانت تلعب في المختبر مع الطلاب في ذلك اليوم، وربما كانت هناك معي ولكنني محوتها بطريقة لا

شعورية من تلك الذكرى. وربما كان استرجاع ذكراها مؤلماً إلى حدٍّ يفوق الاحتمال في هذه اللحظة.

قال لويل: «رافقيني إلى محطة القطار».

سيسافر الآن! لم يرافقني لوقت كافٍ لأتخلص من الغضب الذي سيطر عليّ بعد مغامرته العاطفية مع هارلو، فقلت:

«فكرت في أن نذهب في نزهة سيراً على الأقدام. وفكرت أيضاً في أن نذهب لقضاء يوم في سان فرانسيسكو، ولم أعتقد أنك ستغادر بهذه السرعة». حاولت أن أتكلم من دون أن أبدو بمظهر الفتاة المتذمرة والمنتحبة التي كنت عليها في طفولتي.

لقد احتفظت بالكثير من الذكريات له، له وحده. وتمنّيت أن أقنعه بأنه لا يستطيع هجري مرة أخرى عبر القيام بتلك الرحلة التي فكرت في تكريسها كلياً لجعله يشعر بالذنب. وكل ما كنت بحاجة إليه هو أن يتوقف عن الكلام.

ربما عرف نيتي... وربما لم يعرف الكثير عني بعد، لكنه اعتذر قائلاً:

«آسف يا روزي. لا أستطيع التجول في أي مكان. وهنا على وجه التحديد».

شاهدت أكثر من عشرة طلاب محتشدين أمام باب مقهى ميشكا بانتظار افتتاح أبوابه، فمررنا عبرهم؛ لويل يحمل حقيبة ظهره، وأنا بجواره مطرقة الرأس. لقد ازدادت شعبية هذا المقهى خلال الأسابيع الأخيرة، ولهذا يتوجب على الفرد أن يذهب إلى هناك باكراً ليحصل على كرسي يجلس عليه في الداخل لأن الطاولات الأمامية لم تكن مصممة لتصبح طاولات دراسة، وقد عُرف هذا بين الطلاب على أنه القانون السائد في هذه البلدة.

عبق الضباب أمام المقهى برائحة القهوة والكعك الساخن، وصادفت وجهاً لوجه زميلتي في المهجع دوريس ليفي وتلاقت عيوننا. ولحسن الحظ، لم تُبدِ لي أي إشارة تدل على أنها تعرفني؛ لأنني لا أملك الوقت للخوض في أي محادثة عابرة في الطريق.

التزم لويل الصمت إلى أن أصبح الطلاب على بعد أكثر من مبنى خلفنا، ثم قال:

«يجب أن أفترض أن الشرطة الفيدرالية تعرف أنك هنا بسبب سجل توقيفك الحافل، وقد رآني ناطور مبناكِ ورفيق سكنك وهارلو. ولهذا، نحن أمام مخاطر جمة. وفي جميع الأحوال، يجب أن أكون في مكان آخر».

كان لويل يخطط لهجوم آخر، لهجوم ضخم وسري للغاية، ولهذا فهو مضطر إلى الاختفاء كلياً؛ مما يعني أنه لا يستطيع تلقي تلك التقارير عن فيرن.

ولهذا، سوف تصل التقارير إليّ بدلاً عنه بدءاً من الآن. ولا تهم – كما قال لويل – الطريقة التي سأحصل بها على تلك التقارير، فقد رتّب لكل شيء، ولم يبق أمامه سوى إخباري أن مراقبة فيرن أصبحت مهمتي أنا الآن.

إنه السبب الذي دفعه لزيارتي منذ البداية.

وصلنا إلى محطة القطار، فاشترى لويل بطاقته، بينما جلست على المقعد نفسه الذي بحت عليه قبل عدة ليالٍ بمكنونات قلبي الدفينة؛ عندما رحت أتذكر اليوم الذي رحلت فيه فيرن. وما بين حدث وآخر، بكيت كثيراً بعد صف الدكتور سوسا إلى أن ظننت أن دموعي قد نضبت إلى الأبد، ولكنها راحت تنهمر الآن. على الأقل، كنا في محطة القطار، حيث يستطيع المرء أن يبكي من دون الشعور بالإحراج؛ لأن هذا ما يحصل في المطارات ومحطات القطارات. لقد ذهبت مرة إلى أحد المطارات لأبكي براحتي من دون أن ينتقدني أحد.

صعدنا إلى منصات انطلاق القطارات، ومشينا إلى نهايتها، إلى أن تسنى لنا أن نكون بمفردنا مجدداً، وتمنيت في تلك اللحظة لو كنت الشخص المسافر، الشخص الذي يحمل بطاقة الذهاب إلى أي مكان. ففي نهاية المطاف، ما الذي تعنيه لي ديفيس من دون الأمل بلقاء أخي فيها يوماً ما؟ لماذا أبقى هنا؟

فكرت من قبل بنظرة عزرا إلى حياته. إنه يعتبر نفسه بطلاً خارقاً ضائع المواهب في هذه الحياة، ولطالما أضحكني ذلك. ولكنني أفهم الآن السبب الكامن وراء كل ما يجري. فلو كنت أمثّل، ولو كنت ألعب دوراً ما في تمثيلية، لكنت قد وضعت مسافة ما بيني وبين الأحداث، ولكنت قد تظاهرت بأنني أشعر بالأشياء التي أشعر بها، ولكان الوضع الحالي مشهداً سينمائياً متقناً إذا تغاضينا عن صوت أنفاسي المخنوقة بسبب الزكام. لفّ الضباب المكان وابتلع الممرات حولنا، واقترب منا صوت صفارة القطار القادم، وشعرت بأنني أودع أخي المسافر للمشاركة في الحرب، أو المسافر إلى المدينة الكبيرة للبحث عن حظوظه، أو إلى مناجم الذهب بحثاً عن أب مفقود.

أحاطني لويل بذراعيه، فلوثت إفرازات أنفي معطفه الصوفي. اختنقت بأنفاسي ذاتها وأنا أحاول ما في وسعي لتنشق كل ما يمكنني من رائحته لأحتفظ بها في ذاكرتي. كانت رائحته أشبه برائحة كلب مبتل، ولكنها كانت رائحة معطفه وليست رائحة جسده هو، كما شممت رائحة القهوة، وآثاراً من رائحة عطر الفانيليا الذي تضعه هارلو عادة. حاولت وحاولت، ولكنني لم أصل إلى الرائحة الغافية تحت كل تلك الروائح... لم أجد رائحة لويل... رائحة أخي. لمست وجنتيه الخشنتين، ومررت أصابعي بين خصلات شعره كما اعتدت أن أفعل عندما كنت صغيرة، وكما اعتادت فيرن أن تفعل معي. في إحدى المرات، حاولت أثناء وجودي في الصف أن ألمس خصلة شعر مضفورة لامرأة تجلس أمامي، لكنني لم أكن أفكر مطلقاً في تلك اللحظة، واستولت عليّ الرغبة في لمس تلك الخصلة، فالتفتت المرأة علي الفور وقالت ببرودة: «هذا رأسي وليس رأسك أنتِ». وأدارت رأسها مجدداً وتركتني في منتصف عبارة الاعتذار التي كنت أقولها، مرعوبة من الطريقة اللا واعية التي تطفو بها طبيعة القردة الكامنة في داخلي إلى السطح عندما أكون مشتتة الانتباه.

سمعنا صوت صفارة القطار المقترب من مكان وقوفنا، وشعرت بهدير المحرك القادم من الشمال. رحتُ أستعرض بجنون وخوف في مخيلتي كل الأشياء التي خططت لقولها له بحثاً عن أهمّها، فقمت باختيار متسرع وخاطئ وقلت:

«أعرف أنك لطالما لمتني لأجل فيرن».

«لم يكن يجدر بي أن أفعل ذلك، فقد كنت في الخامسة من عمرك فقط».

«لكنني لا أذكر ما فعلته بكل صدق. لا أذكر أي شيء عن فراقنا لفيرن».

«حقاً؟!». دُهِش أخي، وصمت هنيهة، وعرفت أنه يفكر في الأمور التي يجب أن يخبرني إياها. وكانت هذه إشارة سيئة؛ لأنها دلتني على وجود أمور لا ينبغي له أن يخبرني بها، فخفق قلبي بشدة وطعنتني كل خفقة كسكين لا ترحم.

وصل القطار، ودعا مراقب المنصة المسافرين للصعود إلى متنه، فنزل بعض الناس وصعد آخرون. كاد الوقت المخصص للصعود إليه أن ينتهي، فمشينا إلى أقرب باب، وعندها قال أخي:

«لقد دفعتِ أبي وأمي للاختيار بينكما... لطالما كنتِ طفلة غيورة».

رمى حقيبة ظهره إلى داخل المقصورة المفتوحة، ثم قفز إلى داخلها والتفت لينظر إليّ قائلاً:

«كنت في الخامسة من العمر فقط... لا تلومي نفسك».

ثم حدّق إليّ بالطريقة التي يحدق بها المرء إلى وجه شخص لن يراه قبل مرور وقت طويل وقال:

«أخبري ماما وبابا أنني أحبهما... أقنعيهما بذلك... سيكون هذا أصعب جزء في هذه الرسالة».

كان لا يزال يقف عند الباب، ووجهه لا يشبهه إلا جزئياً؛ لأنه كان يشبه والدي الآن أكثر من أي وقت آخر بسبب الإجهاد البادي عليه، ثم صاح:

«أنتِ أيضاً يا مندفعة. لا يمكنك أن تتخيلي كم أشتاق إليكم جميعاً، وإلى مدينتي الحبيبة بلومنغتون». ثم راح يغني أغنية قديمة تتغنى بجمال مدينتنا تلك.

في تلك اللحظة، باغتني الحنين إلى بيت الهنود الحمر الذي بنيناه في أعلى الشجرة.

مرّت أمامي امرأة آسيوية في منتصف العمر راكضة. كانت ترتدي سروال جينز، وتنتعل حذاء ذا كعب عالٍ، وقفزت إلى القطار برشاقة. ارتطمت حقيبة يدها بذراع لويل فاعتذرت منه قائلة:

«يا إلهي، أنا آسفة. ظننت أنني لم أدرك القطار ثم رأيته فأسرعت».

اختفت في الداخل، وانطلق النفير الذي يصمّ الآذان.

«أنا سعيد حقاً لأنك تملكين صديقة. يبدو أن مكانتك كبيرة في قلب هارلو». وفي تلك اللحظة، وصل معاون سائق القطار وأجبره على الجلوس في مكانه. وقد كانت تلك آخر جملة أسمع أخي الأكبر يقولها، آخر جملة تفوّه بها هذا الأخ

الذي كان مروره في حياتي أشبه بمرور مذنب لامع في السماء؛ ما إن يقترب ويظهر حتى يختفي، وكانت جملته الأخيرة تدور حول هارلو.

رغم قصر الوقت الذي استغرقته هذه الزيارة إلا أنه تمكن من إسماعي بضع كلمات جارحة. كنت قد خططتُ لدفعه إلى الشعور بالشفقة عليّ بسبب الحياة المنعزلة التي أعيشها والوحدة التي تقتلني، لكنّ هارلو وصداقتها الحمقاء تلك قد منعتاني من تحقيق ذلك، وتركتاني غارقة في بحر من الشعور بالذنب. كنت أعرف أنه لامني طوال حياته لأجل فيرن، ولكنني لم أسمع لومه هذا منذ أكثر من عشر سنوات.

تكوّمت الأشياء التي قالها لويل مع رحيله السريع، ومع قلة نومي، ومع آثار المخدر المهلوس الذي تناولته مسبقاً البشعة والمثيرة للحكاك في الجسد. كان يمكن لأيٍّ من تلك الأمور أن يقتلني وحده، ولكنها استبدت بي مجتمعة. اختلطت في قلبي مشاعر الحزن والرعب والخجل والحرمان والوحدة، كما شعرت بمزيج من الإرهاق والنشاط الذي يحاول الكافيين ضخه في دمي، وبالذنب والأسى والكثير من المشاعر المختلطة المعقدة الأخرى. ثم انهار كل شيء، وابتلع الضباب القطار المسرع نحو المدى. عندها، في تلك اللحظة، غلبني التعب، ولم أشعر بأي شيء آخر.

«أنتِ تحبين فيرن». قال لي أحدهم ذلك، ثم اتضح لي أن ماري – صديقة الطفولة الخيالية – هي التي قالت تلك الكلمات. لم أقابل ماري طوال الفترة التي عشتها من دون فيرن. ورغم ذلك، ما زالت فتاة صغيرة كما عهدتها، ولكنها لم تلازمني، بل سلمتني الرسالة (أنتِ تحبين فيرن) واختفت مجدداً. وددت لو أستطيع تصديقها، لكن الهدف الرئيس من اختراع ماري تلك كان التأكيد على كياني وشخصيتي لمقارعة فيرن. ربما ما زالت ماري تقوم بعملها رغم الزمن.

نحن نسمي تلك الأحاسيس المشاعر لأننا نشعر بها، ونحن لا نفكر بها في أذهاننا بل نشعر بها وهي تنمو في داخلنا؛ وهو ما كانت أمي دوماً ترددده على لسان الشاعر وليم جيمس كلما احتاجت إلى دعم فكري لما تريد قوله. وقد كان ذلك معلماً بارزاً من شخصيتها الأمومية، فقد كررت دوماً أن الإنسان لا يسيطر أبداً على مشاعره، بل يسيطر فقط على ما يمكنه فعله. (لكن إخبار الناس بما نشعر به فعل بحد ذاته؛ وخصوصاً عندما يكون ما نشعر به هو الحقد أو الخسّة أو الأنانية المفرطة. رغم أنني لطالما اعتبرت كل ذلك – رغم حداثة سني – منطقة رمادية غامضة لا يجب الخوض فيها).

جلست أبحث في نفسي – في خباياها – في كل فكرة مضمرة وراء كل نَفَسٍ وكل عضلة وكل خفقة قلب، ووجدت الحقيقة الكبرى المتوارية... لقد أحببتُ فيرن حقاً، لطالما أحببتها، وسأحبها إلى الأبد.

وقفت وحدي بجانب سكة القطار تحت وابل الذكريات، مع فارق أنها باغتتني الآن مع وجود فيرن وليس من دونها. رأيت فيرن معي في الحضانة

تصنع مجسّم ديك من الورق المقوى، ورأيتها معي تشاهد لعب لويل بكرة السلة في ملعب المدرسة الثانوية وتشجّعه وتهتف له، كما رأيتها معي في مهجع الجامعة تتذمر ككل الفتيات الأخريات من والديها المجنونين بواسطة حركات الإشارة التي ظنّتا عندما اخترعتها أنها مسلية للغاية: فاشل... غير مهم.

افتقدتها بكل جوارحي في كل لحظة من تلك اللحظات، وفي كل مكان من تلك الأماكن، من دون أن أعرف أنني أفتقدها.

ولكنني شعرت بالغيرة منها منذ نعومة أظفاري، وشعرت بالغيرة مجدداً منذ ربع ساعة عندما عرفت أن لويل زارني لأجلها وليس لأجلي. ولكن، ربما كانت هذه هي الطريقة التي تشعر بها الأخوات حيال بعضهن بعضاً، مع أنه من البديهي أن غيرة الأخوات من بعضهن لن تؤدي إلى نفي إحداهن إلى خارج المنزل. هل فعلت ذلك حقاً؟ هنا بالضبط خرج كل شيء عن سيطرتي، وقررت ألا أفكر فيها بتاتاً إلى أن أتوازن عاطفياً وفكرياً وأنال قسطاً من الراحة. وهكذا، انتقلت من التفكير بفيرن ومشاعري حيالها إلى سؤال نفسي: أي عائلة تلك التي تسمح لفتاة في الخامسة من العمر بتقرير ذلك النوع من الأمور المصيرية؟

# 2

أخبرني لويل أنه جلس سبع ساعات في الحافلة المسافرة إلى فيرميليون بجانب عروس مرسلة بالبريد من الفيليبين حسب الطلب، وأنها كانت أكبر منه سناً بعام واحد فقط واسمها لويا، وقد عرضت عليه صورة الرجل الذي قدمت إلى الولايات المتحدة لتتزوجه، فلم يجد لويل تعليقاً إيجابياً واحداً يمكنه التفكير فيه عن رجل لم يكلف نفسه عناء الذهاب إلى المطار لاستقبالها، لذا لم يعلق بشيء.

سألها رجل آخر على متن الحافلة إن كانت تعمل في المجال، ولم تفهم المرأة ولا لويل ما كان الرجل يعنيه بسؤاله. ثم اقترب منهما الرجل الجالس على المقعد الخلفي، وحملق إلى المرأة بعينين جاحظتين، وقال لهما إن امتناع النساء عن إرضاع أطفالهن جزء من مؤامرة كبرى؛ لأن النساء لا يرغبن في البقاء حبيسات في بيوتهن ومقيدات بعائلاتهن وأعبائها بعد الآن. وإذا اتضح من التحاليل أن حليب الأم مسموم فسيكون ذلك هو العذر الذي ينتظرنه جميعاً للتحرر من قيود العائلة والزواج والأولاد، ثم أضاف:

«جميعهن يرغبن في ارتداء سراويل الرجال».

«شاهدت الكثير من أميركا اليوم». كررت الفتاة هذه العبارة عدة مرات بتوتر واضح، فارتبطت العبارة في ذهنه باللحظة التي يصطدم فيها المرء بمواقف لا تعجبه ولا تناسبه، وهكذا أصبحت من معالم شخصيته، وراح يرددها كلما واجه موقفاً لا يعجبه.

عدت إلى الشقة مشياً على الأقدام رغم برودة الطقس، وطيفا فيرن ولويل الحائمان حولي – في مختلف مراحل عمريهما وأحوالهما المختلفة وأشكالهما التي تغيرت مع الزمن – يظهران ويغيبان كلما ابتلعهما الضباب. مشيت بتمهل لأعطي نفسي الفرصة والمجال للتعافي من زيارة لويل ورحيله على حد سواء، ولأحول دون لقائي هارلو؛ إذا توخينا الصدق.

لم أرغب في القلق حيال وجود هارلو في حياتي؛ لأنني لا أعتقد أنها الأمر الأخير الذي كان يجب على لويل أن يذكره لي. كان يجب أن تكون الأمر الأخير الذي يخطر في بالي. ولهذا، قررت أنني ما إن أصل إلى البيت وأجدها مستلقية في سريري حتى أضع لها حدوداً، وأتعامل مع قضيتها كما يجب.

لم أرغب في أن أعتبر لويل واحداً من الشبان الذين يقضون ليلة عابرة مع فتاة ثم يحذفونها من حياتهم بكل بساطة. غير أن الرحيل بلا وداع عادة من عادات لويل، وهو لم يقصد بسلوكه هذا أي شيء على وجه الخصوص، لذا ستتمكن هارلو من الانضمام إلى نادينا العائلي الذي يرحل فيه لويل على الدوام من دون كلمة وداع، ومن دون سابق إنذار.

قد يدافع لويل عن نفسه قائلاً إنه وجدني في زيارته المفاجئة هذه فتاة مجنونة وهاربة من العلاج. أعرف أنني لم أقل له هذا، وأنني جعلته يبدو أكثر إشراقاً وجاذبية ممّا هو عليه فعلاً، ولكنني فعلت ذلك لأنني أحبه. أنا أحاول توخي الصدق هنا، وأعرف أنه لم يساعدني في رحيله هذا؛ تماماً كما هو الرحيل دوماً بالنسبة إلى أي شخص آخر.

ولهذا، وانطلاقاً من الحب الذي أكنه له وحده، دعوني أبدأ مجدداً. بدا أخي طوال الوقت الذي قضيناه برفقة هارلو طبيعياً للغاية، وصيدلانياً حقيقياً كما أخبر هارلو؛ وربما كان ذلك عمله بالفعل، من يدري؟ بعد ذلك، حصلت تلك الأمور التي أزعجتني، عندما جلسنا في مقهى بيكرز في الصباح.

لم أنزعج من ومضات غضبه المتلاحقة، لأنه كان غاضباً طوال حياته؛ إذ كان في صباه يركل بقدميه، ويقوم بإشارة خرقاء تدل على التحدي. كان عاصفة متحركة على شكل صبي، وأنا معتادة على هذا.. غضبه الضاري هذا وروحه الراغبة في الانتقام تثيران شجوني وتبثّان الشعور بالحنين في صدري.

لا، لقد أزعجني شيء أقل إثارة للغضب وأكثر إثارة للجنون، شيء رقيق لا يمكن إنكاره وكان بإمكاني أن أدعي عدم ملاحظته، وهذا ما رغبت بفعله بشدة. ولكن، حتى بعد مرور عشرة أعوام من دون أي معلومات عنه إلاّ أنني أعرف لويل، وأعرف لغة جسده؛ تماماً كما كنت أعرف لغة جسد فيرن. كان هناك شيء مختلف وغريب في نظرات عينيه، شيء مختلف في طريقته في رفع كتفيه وتحريك شفتيه. ربما لا تفي كلمة الجنون الأمر حقه؛ لأنها في نهاية المطاف تصف حالة داخلية تصيب الذهن. وربما كانت كلمة جريح، أو عبارة مصاب بصدمة نفسيّة أكثر تعبيراً عمّا شعرت به، أو ربما كانت عبارة غير مستقر نفسياً ملائمة أكثر من غيرها. بدا لي لويل غير مستقر نفسياً بأفضل الأحوال؛ كشخص دفعته الظروف للخروج عن طوره وفقدان أعصابه أو اتزانه.

ولهذا، سأشرح ذلك لهارلو لأؤكد لها أنه ليس نذلاً، بل هو مجرد شخص غير متزن. وأعتقد أنها ستفهم ذلك دوناً عن كل الناس.

ثم طردت هارلو من تفكيري لأفسح مجالاً في عقلي للتفكير في فيرن؛ وللدموع والندم. لقد وضع لويل مسؤوليتها على عاتقي. ألم يكن الأمر كذلك بالفعل طوال كل تلك السنوات!؟ مرّ وقت طويل من دون أن أقوم بما كان يجدر بي القيام به منذ البداية.

كانت التقارير الدورية جيدة بشكل عام، ولكنْ لا يمكن لعزيزتنا فيرن أن تبقى حبيسة قفص في مختبر إلى الأبد، ولهذا كان لويل يحاول تحريرها طوال السنوات العشر المنصرمة، وقد واجهته مشكلات لا تعد ولا تحصى: كيف سيأخذها بلا ضوضاء؟ وقد أنجبت هيزل مؤخراً؛ مما يعني أنه سيأخذ قردتين. ومن الشخص الذي سيطلب مساعدته؟ وكيف سيتمكن من إبقاء المعلومات عن القردتين طي الكتمان كي لا تُعرفا ولا تُعادا إلى المختبر؟ وكان يعرف أن قواعد البيانات الخاصة بملاجئ الشمبانزي الموجودة في الولايات المتحدة

مشتركة، وأنه لا يمكن لأحدها أن يستقبل قردتي شمبانزي مسروقتين إذا عُرفت الحقيقة.

المشكلة التي واجهها هي في البحث عن مكان يأويها؛ حتى لو لم تكن بحاجة إلى الاختباء. أما الأعباء المادية فقد مثّلت بالنسبة إليه المشكلة الكبرى، كما أن خطر إدخال قردتين (إحداهما رضيعة) إلى عشيرة شمبانزي جديدة يفوق كل تلك الأخطار. فكيف يمكنني أن أنجح في الشيء الذي فشل فيه لويل؟! أخي الأذكى والأكثر معرفة وقسوة مني. وهل ترغب فيرن حقاً في أن يُعاد وضعها في مكان جديد، وفي أن تُبعد مرة أخرى عن الناس المألوفين والقردة المألوفة بالنسبة إليها بعد أن أخبرني لويل بأنها تحظى في المختبر بأصدقاء يحبونها الآن؟

فكرت في أن المال قد يحل كل تلك المشكلات، ولكننا بحاجة إلى الكثير منه. ربما كان بالإمكان تأمينه عن طريق تصوير فيلم أو إنشاء منظمة للحصول على التبرعات.

مهما بدت المشكلات اللا نهائية التي تواجهنا في الحياة مختلفة لدى النظر في أمرها بشكل عام، إلا أننا نكتشف في نهاية المطاف أن سببها واحد؛ ألا وهو المال. لا يمكنني أن أصف لكم الأذى والضيق والغيظ التي أشعر بها مجتمعة بسبب ذلك؛ لأن قيمة المال وما يمكنه شراؤه بتعبير أصحّ خدعة يقوم بها من يملكونه. إنها الخدعة نفسها التي نفّذها حائك ثياب الإمبراطور في تلك القصة العالمية عندما أقنعه بارتداء ملابس لم يرها بعينيه (قصة ثياب الإمبراطور الجديدة)، ولكنها انتشرت الآن في كل أرجاء المعمورة كالوباء، وانطلت على كل شيء. لو كانت قردة الشمبانزي تستعمل المال بدلاً عنا فلن تمثّل لنا تلك العملات أي شيء، وسنعتقد أن تعامل القردة بها غير منطقي وبدائي... مجرّد وهم. وهل ستختار القردة الذهب لتمثيل التعامل المالي الضخم مثلنا؟ لا... ستتعامل باللحوم، لأن اللحم يقرر قيمته بنفسه؛ كلما كان طازجاً أكثر كان أعلى قيمة، وهكذا...

وصلت إلى الشارع الذي أسكن فيه فوجدت ثلاث سيارات متوقفة أمام المبنى وقد أضيء النور الداخلي في إحداها، فتمكنت من رؤية ظلال سائقها الضخم. استشعرت بحدسي العنكبوتي أنها سيارات تابعة للاستخبارات الفيدرالية. لقد كادوا يلقون القبض على لويل. كم كنت سأشعر بالذنب لو أقنعته بالعودة معي إلى البيت.

ثم أمعنت النظر في سيارة الفولفو القديمة التي كانت بيضاء اللون في غابر الأزمان، والتي حاول صاحبها في ما سبق على ما يبدو أن يكتب عليها شيئاً ما ولكنه توقّف عن ذلك قبل انتهائه، فترك حرف (v) كبيراً من دون أن يكمل الكلمة. طرقت بيدي على زجاج نافذة الكرسي المجاور للسائق، ثم فتحت الباب وجلست بجانبه عندما فتح القفل من الداخل. كان الجو داخل السيارة أكثر دفئاً من الخارج، ولكنها كانت عابقة برائحة مقرفة ممزوجةِ

برائحةٍ معطر الفم بنكهة النعناع، وكان النور مضاءً لأن السائق كان يقرأ كتاباً ضخماً اسمه مدخل إلى البيولوجيا. كان السائق يراقب صديقته ويترصدها ويدرس في الوقت نفسه لامتحانه النهائي؛ أي يقوم بمهمتين في وقت واحد، فألقيت عليه تحية الصباح:

«صباح الخير يا ريغ».

«ما الذي أيقظك باكراً إلى هذا الحد؟».

«خرجت مع أخي لتناول فطيرة محشوة. ما الذي يمكن أن يكون أكثر براءة من ذلك؟ ماذا تفعل أنت هنا؟».

«أنا أقوم هنا بفقدان احترامي لذاتي».

ربتّ على كتفه وقلت: «لقد أحسنت في تأجيل ذلك إلى أقصى حدّ ممكن بالنسبة إليك».

من الواضح أن الموقف كان محرجاً. فقد أخبرت ريغ عبر الهاتف في الليلة الماضية أن هارلو ليست هنا، لكن وجوده في الشارع أمام المبنى لمراقبة الشقة يعني أنه يعرف أنني كاذبة. كان من الأفضل لي أن أملك بعض الوقت لأشعر بالإهانة، وأعبّر عن إعجابي بحبه لهارلو وغيرته الجنونية عليها، لكنّ احتمال أن تخرج هارلو من المبنى في أية لحظة قوّض كل ذلك.

«عد إلى البيت. أظن أنها عادت إلى البيت الآن، ولا بد أنها تبحث عنك».

عندها، نظر إليّ بقسوة، ثم أشاح بصره وقال: «أظن أننا سننفصل. أعتقد أنني سأنفصل عنها الآن».

أصدرت صوتاً لا معنى له، همهمة قصيرة غير مفهومة. إذ سبق له أن انفصل عنها سابقاً؛ عندما قابلته لأول مرة، وفي كل مرة قابلته فيها منذ ذلك الحين، فقلت باللاتينية:

«Hathos». ثم فكرت قليلاً قبل أن أشرح له معنى الكلمة:

«إنها تعبر عن البهجة التي تشعر بها بسبب كراهيتك لشخص ما».

«هذا ما أشعر به بالضبط. أنا أريد صديقة طبيعية، شخصاً متصالحاً مع نفسه، هل تعرفين أي فتاة بهذه الصفات؟».

«كنت سأتطوع للقيام بالمهمة لو كنت غنياً، غنياً جداً. إذ يمكنني أن أصالح نفسي وأهدأ بوجود كميات كبيرة من المال».

«شكراً على إطرائك هذا، ولكن لا».

«إذاً، توقّف عن هدر وقتي وعد إلى المنزل». قلت ذلك، ثم خرجت من السيارة، وصعدت الدرج في طريقي إلى الشقة، ولم أنظر إليه لأعرف إذا كان قد انصرف بالفعل؛ لأنني شعرت بأنني سأكون مثيرة للشكوك إذا فعلت ذلك.

لم يكن هناك أي أثر لعزرا لأن الوقت كان مبكراً جداً على تحمل أعباء إدارة مبنى كبير مثل مبنانا. وكان تود لا يزال خارج الشقة، وباب غرفتي موصد من الداخل، ومدام ديفارج لا تزال على الأريكة وساقاها مطويتان إلى ما خلف رأسها. حملتها معي إلى غرفةِ تود، واستغرقت في النوم وأنا أحيطها بذراعيّ،

وحلمت بأنني أخوض نقاشاً مع ريغ للبحث في أكثر أشكال تنفيذ عقوبة الإعدام إنسانية؛ هل هو الإعدام باستعمال المقصلة أم الكرسي الكهربائي؟ لا أذكر من كان يدافع عن كل طريقة من تينك الطريقتين، ولكنني أذكر أن موقف ريغ لم يكن محتملاً مهما كان.

# 3

لقد حذفت من حديثي مع لويل الذي حصل إلى مائدة الفطور أشياء أخرى غير عدم اتزانه، وحذفت أموراً أخرى قالها لأنها أكثر شناعة وترويعاً لأكررها لكم، كما أنكم تعرفونها. لقد حذفتها من حديثه لأنها ليست أشياء أرغب في سماعها، وأنتم أيضاً لا تريدون سماعها.

لكن لويل يعتقد أننا نحتاج جميعاً إلى سماعها.

أخبرني عن تجربة تمت هنا في ديفيس ودامت ثلاثين عاماً، حيث تم تعريض أجيال من سلالة من كلاب البيغل لمادة السترونيوم –90 والراديوم –226، وتمت إزالة حناجر الكلاب جميعاً كي لا يسمع أحد صوت ألمها، وأخبرني أن العلماء المشرفين عليها أشاروا إلى أنفسهم على سبيل المزاح السمج بنادي البيغل.

كما حدّثني عن شركات السيارات التي لطالما استعملت قردة من نوع البابون وهي في كامل وعيها للقيام بتجارب ودراسات حول اصطدام السيارات؛ مراراً وتكراراً. حيث كانت تلك القردة المسكينة تتعرض لضربات شديدة ومرعبة ومتكررة على رؤوسها. وأخبرني عن شركات الأدوية التي تُشرّح الكلاب، وعن المخبريين الذين يصيحون في وجوهها كلما تذمرت أو اعترضت بأي شكل، وعن الشركات التي ترشّ المواد الكيميائية في عيون الأرانب المذعورة ثم تتركها لتموت ببطء يخلو من كل رحمة إذا كان الضرر دائماً، أو تكرر التجربة عليها إذا تماثلت للشفاء، وعن المسالخ التي تساق إليها الأبقار المرعوبة إلى درجة أن لحمها يفقد لونه. حكى لي عن أقفاص الدجاج الحي المليئة في المداجن (كما كان خالي بوب يقول طوال سنوات) حيث يتم إطعام الدجاجات التي لا تستطيع الوقوف أو المشي حتى تكبر ويتم ذبحها، وعن قرود الشمبانزي الصغيرة التي نراها في العروض السينمائية أو التلفزيونية، وأخبرني أنهم يضعون تلك القردة الرضيعة في أقفاص معزولة بعيداً عن أحضان أمهاتها، ويهددونها باستخدام مضارب البيسبول إلى أن تهدأ؛ وذلك كي يضمنوا خضوعها في أماكن التصوير، ثم يدّعون بعد إصدار الفيلم أن الحيوانات التي ظهرت في الفيلم لم تتعرض لأي إساءة أثناء التصوير؛ وهذا صحيح نسبيّاً لأن الضرر كله قد حصل بالفعل قبل بدء التصوير.

قال لويل: «تسير عجلات العالم بأكمله على وقود يؤججه الشقاء والبؤس والآلام التي لا حدّ لها ولا نهاية. الناس يعرفون ذلك، ولكنهم لا يعترضون على ما لا يرونه. دعيهم يرون بأم أعينهم وسيعترضون، ولكنهم حينها سيكرهونك لأنك الشخص الذي فتح أعينهم على الحقيقة».

إنهم – كما كان يقول كلما تعمد الحديث عن البشر – ولم يقل نحن قطّ، لم يقل نحن قطّ.

بعد عدة أيام، عددت كل تلك الأشياء ودوّنتها في بحثي النهائي في مادة العنف؛ رغم أنني أعرف أنها مرفوضة موضوعاً، ولكنها كانت محاولة مني لأخرج كل ذلك من ذهني وتفكيري لأضعه في رأس شخص آخر. وانتهى الأمر بذلك البحث في مكتب الدكتور سوسا، على طاولة تعلوها لوحة كبيرة ورائعة بالألوان الطبيعية للصورة التي التقطها مسبار هابل. وعلى الجدار المقابل، كان الدكتور قد علّق لوحة كتبت عليها العبارة التالية:

«كل منا يفكر في تغيير العالم، ولكنْ لا أحد يفكر في تغيير نفسه».

من الواضح أنه تعمد لفت نظر كل من يدخل مكتبه إلى ذلك.

كما أذكر أن المكتب كان مزيناً بشكل مبهج، حيث تدلت شرائط زاهية الألوان ولامعة بين رفوف الكتب. وكان أيضاً يحتوي على العديد من صناديق الحلوى كي نأكل منها ما نشاء أثناء تبادلنا للأحاديث، حيث كان يقول في كل مناسبة:

«لا أريد أن ترسبوا في الامتحان».

نحن لا نريد ذلك أيضاً.

جلس الدكتور سوسا في ذلك اليوم رافعاً قدميه فوق المكتب على كومة من المجلات القديمة، ووضع إحدى يديه على بطنه المتكوّر الصاعد والهابط مع أنفاسه، بينما حمل في يده الأخرى التي مدّها باتجاهي علبة السكاكر قائلاً:

«كان بحثك السابق جيداً. وبحثك الأخير... مفعم بالمشاعر والعاطفة. وقد أشرت فيه إلى مجموعة من المواضيع الهامة بالفعل». ثم اعتدل في جلسته فجأة، ووضع قدميه على الأرض وقال:

«لكن، يجب أن تلاحظي أنك لم تجيبي عن سؤال الامتحان؛ حتى إنك لم تقتربي منه». ثم اتكأ إلى الأمام ليجبرني على مبادلته نظرة الصداقة الودودة التي كنا نتبادلها في ما سبق، وكان يقصد كل حركة يقوم بها.

فبادلته النظرات بالمثل. ألست ابنة والدي؟ ألم يعلمني كل شيء؟ قلّدتُ حركته، ونظرت إليه مثلما كان ينظر إليّ وقلت:

«لقد كتبت عن العنف والتعاطف، وعن شعورنا بالآخر. وقد بدا لي هذا وثيق الصلة بالموضوع؛ فقد قال توماس مور إن البشر يعاملون البشر الآخرين بعنف إذا كانوا عنيفين مع الحيوانات أولاً». وكنت قد كتبت هذا في بحثي، لذا عرف الدكتور سوسا موقف توماس مور من هذا الموضوع. ولكن، فيما كنت متكئة إلى الأمام، لاحظت أن الأضواء البراقة انعكست على صدغيه متوهجة وساطعة، واتضح لي أن فهمي لكل تلك الأمور كان خاطئاً للغاية.

في الحقيقة، لم يكن توماس مور يهاجم العنف المستخدم مع الحيوانات بقدر ما كان يشجع الناس على توظيف أشخاص يقومون بتلك الأعمال العنيفة بدلاً عنهم. وقد انصبّ جل اهتمامه على محافظة مواطني مدينته الفاضلة على

نظافة أيديهم من الدماء. وهو الأمر الذي تبيّن في ما بعد أننا قمنا به بالفعل؛ مع أنني لا أظن أن فعل ذلك كان مفيداً بالقدر الذي أراده مور وتمنى حصوله لإذكاء حساسيتنا الرقيقة تجاه بعضنا بعضاً. ولا أظن أن ذلك قد جعل منا أشخاصاً أفضل، ولا يظن لويل ذلك أيضاً، ولا فيرن.

أنا لا أقول هذا لأنني سألتها، ولا لأنني أعرف على وجه التأكيد ما تفكر فيه في ما يتعلق بأي شيء آخر.

فما كان من الدكتور سوسا إلا أن قرأ سؤال الامتحان بصوت مرتفع:

«ما الطريقة المناسبة لتقييد العنف والحدّ منه؟».

رفض الدكتور سوسا الخروج عن الموضوع أو الانحراف عن مسار الحديث.

ثم استند إلى الخلف بسعادة، وتابع كلامه وعيناه تلمعان؛ كما هو حال كل الأساتذة الرائعين الذين يعشق المرء إجراء حوارات معهم، وقال لي إنه سيعطيني درجة جيدة غير كاملة ولكنها لا تكفي للتخرج؛ وذلك لأنني حضرت كل صفوفه في هذا الفصل، وأنصتّ إلى محاضراته بانتباه، ولأنني حضرت إلى مكتبه لأفتعل معه مشكلة... فوافقت.

حصلت على درجات تلك المادة بعد الكريسمس مباشرة، فسألني والدي:

«هل لديك أي فكرة عن مقدار المبلغ الذي دفعناه لتذهبي إلى تلك الجامعة؟ وكم تعبنا لنحصل على كل ذلك المال؟ وها أنت قد أهدرته بعدم اكتراث».

أخبرته في تلك الجلسة بتغطرس أنني كنت أدرس الكثير؛ التاريخ والاقتصاد والفلك والفلسفة، وأنني قرأت الكثير من الكتب، وفكّرت في أشياء جديدة، ومن المؤكد أن اكتساب كل تلك المعارف هو الهدف من الدراسة في الجامعة. ثم قلت له إن المشكلة تكمن في الناس (وكأن الناس لا يعانون سوى من مشكلة واحدة)؛ وهي أنهم يقيسون كل شيء بالدولار والسنت.

ما بين درجاتي الجامعية وموقفي من الحياة، كانت كل أمانيّ على وشك أن تتحقق.

«أنا عاجزة عن الكلام». قالت أمي ذلك، لكنّ ذلك لم يكن صحيحاً.

# 4

لكنني بدأت أتفوّق على نفسي.

انتقل السيد بينسون الذي كان يقطن تحتنا في الشقة 309. كنت أعرفه بشكل محدود، وهو رجل لا يمكن تخمين سنه؛ مما يعني عادة أنه في منتصف العقد الرابع. وقد وصف نفسه لي مرة بأنه الرجل الوحيد البدين في مدينة ديفيس. كان موظفاً في مكتبة آفيد، ولطالما كان يغني أغنية الملكة الراقصة بصوت مرتفع للغاية وهو في الحمام، لدرجة أننا كنا نسمعه ونحن في شقتنا في الطابق العلوي. لقد أحببت ذلك الجار.

قضى جاري الشهر المنصرم في الاعتناء بوالدته في غراس فالي، ولكنها ماتت في اليوم التالي لمناسبة الشكر، ومن الواضح أنه حصل على إرث منها؛ فقد ترك عمله، ودفع كل مستحقاته، ودفع لشركة مختصة في نقل الأثاث لتنقل كل أغراضه من المنزل من دون أن يحضر بنفسه مطلقاً. سمعت بكل تلك التفاصيل من عزرا الذي أخبرني أيضاً بحزن واضح أن السيد بينسون قذر أكثر مما كان الجميع يتصور.

وبينما كانت الشقة 309 تُنظف وتُطلى وتُصلح وتُفرش بالسجاد لصالح مستأجر جديد، سمح عزرا لهارلو بالانتقال إليها. أعتقد أن صاحب الشقة لم يعرف بالأمر، ولكن عزرا فرح لوجودها في المبنى، وراح يدخل الشقة ويخرج منها طوال الوقت لأن الشقة كانت بحاجة إلى اكثير من الأعمال.

تخلصت هارلو من إزعاج العمال الموجودين في المنزل طوال الوقت، ومن قلة الأثاث، وربما من حضور عزرا المتكرر لزيارتها أيضاً عبر قضائها وقتاً طويلاً من اليوم في شقتنا. لقد أصاب ذلك تود بالذهول، لكنه تحمّل الوضع لأنه عرف أنه مؤقت. إذ سنذهب جميعاً إلى بيوت أهلنا لقضاء العطلة، وعندما سنعود سيكون مستأجر الشقة الحقيقي قد حضر لاستلامها. وقد أخبرت تود أن المستأجر سيرغب في الشقة من دون وجود هارلو فيها على وجه التأكيد، لكن تود لم يكن واثقاً من ذلك.

خمّنت أنها ستعود إلى ريغ بعد مرور بعض الوقت. ولم أكن قد قابلته منذ لقائنا ذاك في سيارته في ذلك الصباح، ولم تذكره هارلو إلاّ نادراً، ولم أعرف على وجه الدقة من منهما الذي انفصل عن الآخر.

كانت هارلو تجلس على أريكتنا، وتتناول شرابنا، وتتحدث بلا انقطاع عن لويل الذي حذّرها قبل مغادرته من أنه لن يعود ولكنها لم تصدقه، كما لم تصدق أي شيء آخر قاله لها؛ لأنها رأت كل ما يخصه بعين عشقها له. سيعود لويل في حالة واحدة بالطبع، للقائي... فأنا أخته.

ما الذي كان يعنيه عندما قال إنها تثير أعصابه؟ وعندما قال إنه شعر أنه يعرفها منذ الأزل؟ ألا تناقض كل من هاتين العبارتين العبارة الأخرى؟ ماذا يمكنني أن أفهم من هذه التصريحات؟

كانت تريد أن تعرف كل شيء عنه؛ طفولته، وعدد الفتيات اللواتي عرفهن وكان على علاقة معهن، وعدد العلاقات الجادة التي مرّ بها، وفرقته الموسيقية المفضلة، وما يحبه في الحياة.

أخبرتها أنه يحب سلسلة أفلام حرب النجوم، وأنه كان يلعب الورق في صباه، ويحتفظ بالفئران في قفص في غرفة نومه، وأنه كان يطلق عليها أسماء مستوحاة من أسماء أحجار الشطرنج؛ فأبهرتها تلك المعلومات.

أخبرتها أيضاً أنه لم يرافق سوى فتاة واحدة طوال فترة دراسته الثانوية، وأنها كانت تدعى كيتش، وأنه كان يلعب في فريق كرة السلة لكنه فوّت أهم مباراة في حياته وغادر البلدة قبل بداية المباراة. كما أخبرتها كيف كان يسرق الحلوى من المتاجر مع صديقه الصدوق ماركو. شعرتُ بعد فترة من إجابتي عن أسئلتها أنني كنت بالنسبة إليها كالتاجر الذي يبيع المخدرات للناس... إذ لم ترَ إجاباتي فضولها، ولم تكتفِ هارلو من طرح الأسئلة ولا من سماع الأجوبة، فعيل صبري، وأخبرتها بأنني مضطرة إلى تركها لأملأ بعض الأوراق الخاصة بالجامعة.

ولكن، ما الذي قاله لي عنها؟

أخبرتها: «قال إنه سعيد بصداقتنا، وإن محبتك لي كبيرة وواضحة».

«هذا صحيح! ماذا أيضاً؟». أجابتني بوجه مشرق ومنفرج الأسارير.

لم يكن قد قال أي شيء آخر، لكن تلك الإجابة كانت قاسية أكثر مما ينبغي؛ تماماً كما كان تركها للغرق في بحر آمالها قاسياً. لذا، قلت لها مباشرة:

«ترافيرس قد رحل».

ربما كنت أوجّه الكلام لنفسي بالقدر نفسه الذي كنت أوجِّهه لها. فقد أمضيت نصف عمري منتظرة لويل، وها نحن ذا. يجب علينا جميعاً أن نتعلم الآن كيف نحيا من دون ذلك الانتظار.

«أريد أن أخبرك أيضاً أنه مطلوب للعدالة؛ مثل أي رجل رأيت صورته معلقة على جدران مركز الشرطة. وهو مطلوب للاستخبارات الفيدرالية لأنهم يعتبرونه مجرماً يناضل في سبيل حقوق الحيوان. ولهذا، لا يمكنك أن تخبري أحداً بوجوده هنا، وإلا فسيتم اعتقالي... مرة أخرى. ولكن الأمر سيكون جدياً هذه المرة.

لم أقابله قبل عطلة نهاية الأسبوع هذه طيلة عشرة أعوام، ولا أعرف ما هي فرقته الموسيقية المفضلة، واسمه ليس ترافيرس. لذا، يجب أن تنسيه تماماً وكلياً».

صمتّ قليلاً لأفكر في ما قلته؛ فما الذي يمكن أن يكون أكثر شبهاً بفيلم كازابلانكا من هذا؟ أدركت هارلو فجأة أنها كانت ترغب طوال عمرها في رجل

حقيقي صاحب مبادئ... مجرم محلي.
إنه فارس أحلام كل فتاة لم تتمكن من الحصول على مصاص دماء.

ليست لدى منظمة الدفاع عن حقوق الحيوانات هيكلية تحكمها، ولا إدارة مركزية، ولا نظام محدد للعضوية. وبنيتها مفككة؛ حيث تحكم كل خلية نفسها بنفسها، وهذا ما يسبب الصداع الدائم للاستخبارات المركزية، لأن الشخص الواحد لا يمكنه أن يدلهم على أكثر من فردين أو ثلاثة أفراد آخرين. وقد أثار لويل انتباههم لأنه كان يتكلم كثيراً في ما سبق، وقد أدرك حجم خطئه فلم يعد يكرره بعد ذلك (وهذا مثير للسخرية أيضاً إذا أخذنا بعين الاعتبار عدد المرات التي طلب مني فيها أن أصمت).
وفي الواقع، يستطيع أي شخص أن ينضم إلى المدافعين عن حقوق الحيوان، وأن يلطخ يديه بمحاولة تحرير الحيوانات، أو يتدخل بنفسه في الإعلان عن أعمالهم، وأن يصبح عضواً في حركتهم بشكل آلي طوال الفترة التي تتطلبها المهمة حسب قوانينهم المطاطة ولكن الثابتة في ما يخص المبدأ الأساسي: المنظمة لا توافق ولا تعترف بأي نوع من الإيذاء الجسدي للحيوانات جميعاً؛ مهما كان من تسبب بالضرر، سواء أكان إنساناً أو أي مخلوق آخر.
ومن ناحية أخرى، تشجّع تلك المنظمة على تخريب الممتلكات؛ لأنها تعتقد أن إيقاع الأضرار المادية بتلك المختبرات والمنشآت القائمة على البؤس أحد أهدافها الرئيسة التي تشمل أيضاً تنوير الناس وجعلهم أكثر معرفة بالإساءات التي تتعرض لها تلك الحيوانات المسكينة وراء الأبواب المغلقة. ولهذا تقوم العديد من الولايات بإقرار قوانين مُجرِّمة لمن يقوم بتصوير المعامل والمزارع التابعة لها والمسالخ من دون الحصول على أذون مسبقة. وهكذا كاد فتح عيون الناس على ما يجري بالفعل من حولهم يصبح جريمة.
وكما تُمنَح العضوية بشكل أوتوماتيكي للأعضاء الجدد عن طريق مشاركتهم الفعالة في النشاطات، لا يستطيع الفرد أن يصبح عضواً ما لم يشارك في نشاط فعلي على أرض الواقع. مما يعني أن المرء لا يصبح عضواً بتعاطفه مع قضيتهم فقط، ولا عن طريق الكتابة لهم عن مدى الأسف والأسى اللذين يشعر بهما حيال معاناة الحيوانات، بل عليه أن يفعل شيئاً ما لمساعدتهم ليصبح واحداً منهم.
في العام 2001، قال جاك دريدا إن التغيير قادم لا محالة؛ لأن التعذيب يضرّ الجاني كما يضر الضحية، وليس من قبيل الصدفة أن أحد الضباط الذين كانوا يقومون بتعذيب السجناء في سجن أبو غريب في العراق قد انضم إلى الجندية بعد أن كان يعمل في ذبح الدجاج. قد يتطلب الأمر وقتاً، لكن مشاهد تعذيب الإنسان للحيوان ستتعارض مع إحساسنا بذواتنا في نهاية المطاف؛ على حد قول دريدا.
لكنّ الخطوات الصغيرة والبطيئة لا تناسب منظمة حقوق الحيوان.

فكيف يمكن أن يكون المرء واثقاً في أن الزمن سيفعل فعله خطوة خطوة وسط كل البؤس الموجود الآن؟

انكمشت هارلو على نفسها، واحتقن وجهها، واحمرت عيناها، وزمّت شفتيها، وشحبت بشرتها. ومنذ ذلك اليوم، خرجت هارلو من شقتنا، وتوقفت تماماً عن الحضور إليها والسطو على ثلاجتنا لمدة يومين؛ مما يعني على الأرجح أنها لم تكن تتناول أي شيء. ثم دعاني عزرا إلى اجتماع قمة في الطابق الرابع – ضمّنا أنا وهو فقط – ليخبرني أنه دخل عليها الشقة، ووجدها مستلقية على وجهها على السجادة الجديدة، وأنه يعتقد أنها كانت تبكي. كان عزرا واحداً من الرجال الذين يفقدون رباطة جأشهم أمام دموع المرأة؛ لدرجة أنه لم يكن يحب أن يراها.

ألقى عزرا باللوم على ريغ. فرغم كل السعادة التي يشعر بها بسبب إحاطته بشؤون كل القاطنين في مبناه إلا أنه فوّت أمراً مهماً؛ ألا وهو موضوعها مع صديقها.

«يجب أن تكلّميها. وأخبريها أن كل نهاية عبارة عن بداية جديدة؛ إذ يجب أن تسمع هذا الكلام من صديق يحبها».

لقد اعتقد عزرا أن ريغ معقد نفسياً بسبب طفولة بشعة عاشها، وسألني إن كنت على علم بذلك؛ فلا شيء غير ذلك يبرر قسوته الوحشية في تخليه عنها. وقال إن هارلو محظوظة لأنها هربت عندما تمكنت من ذلك.

أخبر عزرا هارلو أن عبارتَي افتح الباب وأغلق الباب يُعبَّر عنهما باللغة الصينية بالكلمة نفسها، وقد قدمت له هذه المعرفة مقداراً كبيراً من الراحة. لا أعرف مصدر تلك المعلومة؛ لأن معظم معلوماته مستقاة من أحد أفلام التسعينيات الذي يحمل اسم *Fiction Pulp*، ولهذا أنا مقتنعة تماماً بأن كلامه ليس صحيحاً على الإطلاق.

أخبرته بدوري أن الكلمة التي تعبر عن المرأة في الصينية تعني «رجل راكع على ركبتيه»، ولهذا لم أفهم كيف يمكن أن يكون حل مشكلة هارلو مستمداً من حكمة الشرق الصينية القديمة. لم أذهب لمحادثتها لأنني فكرت في ما يمكن أن يحدث لو فعلت.

لكنني كنت لا أزال غاضبة منها. وشعرت أن هارلو لا تملك الحق للشعور بالحزن إلى هذه الدرجة؛ لأنها لا تملك أي حقوق في ما يتعلق بلويل. فكم مضى على معرفتها به؟ خمس عشرة دقيقة؟! لقد أحببته اثنين وعشرين عاماً، ولم أر وجهه معظم ذلك الوقت. لذا، بدلاً من أن أعتني بها وألملم جراحها يجب أن تعتني هي بي؛ هكذا كنت أنظر إلى المسألة.

أتساءل أحياناً إن كنت الشخص الوحيد الذي يقضي حياته في تكرار الأخطاء نفسها مراراً وتكراراً، وأتساءل إن كان ذلك شأن البشر جميعاً. فهل يغرينا ارتكاب الخطأ نفسه مهما تقدم بنا العمر؟

إن كان ذلك صحيحاً، فهذا يعني أن الغيرة خطيئتي الكبرى التي تغويني لتحليل كل ما جرى على أنه أكثر معالم شخصيتي وضوحاً. لكن والدي سيعترض على اعترافي هذا. من ظننت نفسي؟ هاملت؟ الأبحاث النفسية المعاصرة تقول إن الشخصية تلعب دوراً صغيراً على نحو مفاجئ في تقرير السلوك الإنساني. وبدلاً من ذلك، يستجيب الإنسان بشكل كبير للتغييرات التافهة والبسيطة التي تطرأ على الظروف المحيطة به؛ كالخيول تماماً، إلا أنها تفوقنا موهبة بكثير.

لست مقتنعة بذلك على الإطلاق.

بدأت أشعر مع مرور الزمن أن استجابة الناس لنا لا تتعلق بما فعلناه أو اقترفناه، بل بحقيقتهم هم. وهذه النتيجة تناسبني بالطبع؛ فهي تفسّر لي لؤم رفاقي في الروضة والمدرسة، وأنا أشفق على حالهم بسبب الحالة التي أكاد أجزم أنهم يعيشونها الآن.

ولهذا، الدراسات لا تدعم وجهة نظري. ولأنني أعرف كيف تجري الأمور، فأنا متأكدة من أن الدراسات لا تتوقف بل تجري على الدوام. وهكذا، سيأتي يوم نغيّر فيه آراءنا بناء على الدراسات الجديدة، وسيتضح أنني كنت محقة منذ البداية؛ إلى أن تظهر دراسات لاحقة تثبت العكس ونغير آراءنا مجدداً.

حتى ذلك الحين، دعونا نثق بنظرية والدي وننسى أمري قليلاً؛ فربما كانت غيرتي أقل أهمية مما استنتجتُ.

شعرت بأنني ملزمة أخلاقياً بإكمال بعض صفوفي، بالإضافة إلى أنني كنت لا أزال مضطرة إلى كتابة بحث آخر، غير أنني تركته للحظة الأخيرة؛ إلى أن لم يعد هناك متسع من الوقت. وقد أثار موضوع المقالة اهتمامي بشدة؛ الأمر الذي فاجأني لأن الأستاذ أجبرنا على تحديد الموضوع بوضوح قبل بضعة أسابيع عندما لم تكن هناك أي طريقة لتوقع ما يمكن أن يعجبني من المواضيع عند كتابته. وكان العنوان يقول: «كيفية توطّن الشر في توماس مور، والذي بدا بوضوح في عالمه الواقعي اليومي والسياسة الخارجية التي كان ينتهجها».

كان العنوان واحداً من تلك العناوين التي يبدو لك أثناء التفكير فيها أن كل فكرة تعبر دماغك متصلة به بشكل أو بآخر. وقد شعرت أن ذلك ينطبق على معظم المواضيع.

ثم كان علي أن أجري العديد من المكالمات الهاتفية بحثاً عن حقيبتي، إلى أن بدأت المرأة العاملة في مطار ساكرامنتو بمناداتي بالفطيرة الحلوة؛ لقد أصبحنا مقربتين للغاية.

وبسبب كل تلك الأسباب مجتمعة، ساندت هارلو في محنتها؛ هارلو التي أشعر بأنها الشخص الوحيد الذي لا يجب عليّ أن أسانده. وعندها، قبل أربع وعشرين ساعة من الوقت الذي كان يفترض بي فيه أن أكون على متن طائرة متجهة إلى إنديانا بوليس، وعندما كنت في غمرة الاستعداد للسفر وحزم الحقائب التي استعرتها من تود، وأنا أهمهم بأغنية خاصة، وأفكر في ما يجب

أن أقوله وما لا يجب أن أقوله لوالديَّ عن لويل، وأتساءل إن كان البيت الجديد مراقباً أيضاً كما كنا نفترض حول سابقه – الأمر الذي كان يقود والدي إلى الجنون لأنه يُشعرنا كما لو أننا فئران تجارب تتم مراقبتها على مدار الساعة في مختبر علمي، وكان أبي يعلق على الأمر قائلاً: «إنهم يستخدمون مال الضرائب الذي يسحبونه من جيوبنا ضدنا في بيوتنا»، وأعتقد أن هذا هو السبب الذي دفعهما للانتقال مجدداً – وأحاول أيضاً التفكير في طريقة مناسبة لأطلب منهما شراء دراجة جديدة لي كهدية بما أنني فقدت دراجتي في حادثة تعاطي المخدرات تلك... عندما كان كل ذلك يدور حولي وفي ذهني طرق رجل شرطة باب الشقة.

لم يكن الضابط هاديك هو القادم هذه المرة. كما أن الشرطيّ لم يعرف عن نفسه. كان وجهه مثلث الشكل، وفمه عريضاً، وذقنه حاداً، وملامحه شريرة بشكلٍ واضح لا شك فيه. طلب مني الذهاب معه من دون إصدار ضجة، وعرفت بدءاً من تلك اللحظة أننا لن نكون صديقين. لم يخبرني عن اسمه، ولم يزعجني ذلك لأنني لم أكن أريد أن أعرف.

# 5

لم يقيدوا يديّ، ولم يضعوني في زنزانة، ولم يرسلوني إلى أحد المكاتب لأملأ أي أوراق، بل تركوني وحدي بدلاً من ذلك في غرفة استجواب عارية الجدران ولا تحتوي على أي شيء غير طاولة وكرسيين بلاستيكيين برتقالي اللون، وأقفلوا الباب لمنعي من الخروج. كانت الغرفة مثلجة وتضاهي روحي برودة.

لم يأت أحد للتحقيق معي، بل تركوني وحدي مع زجاجة ماء، بلا كأس وبلا أي شيء لأقرأه، ولا حتى منشورات عن مخالفة قوانين السير أو مخاطر استعمال الأسلحة أو تحذيرات بشأن المخدرات. جلست وحسب، ثم وقفت بعد حين ومشيت في أنحاء الغرفة. لم أخبركم من قبل بأنني معتادة على النظر إلى أعلى جدران أي مكان أدخله، وهي عادة لم أفقدها مع مرور الزمن. وأنا أفعل ذلك لحساب الارتفاع الذي يمكنني تسلقه، ولحساب الارتفاع الذي تستطيع فيرن أن تصل إليه، أو ماري. كانت الغرفة خالية من النوافذ، مما يعني أن أحداً منا (نحن الثلاثة) لن يتمكن من التسلق عالياً.

لن يرسلوا لمقابلتي حارساً يحمل عصا لنخز الماشية. أنا لا أتصور حدوث ذلك، ولكنهم يحاولون إخباري عن حجمي بالنسبة إليهم، وقد فوجئت بالقوة التي شعرت بها في داخلي والتي تمنعهم من المضي قدماً في ذلك. لم يسبق لي من قبل أن لاحظت امتلاكي هذه القوة، ولم أعرف نفسي من قبل، ولا أعني بقولي هذا أيضاً أن هناك شخصاً آخر يعرفني أكثر من نفسي.

لاحظت وجود حشرة على الأرض، فراقبتها لأن متابعتها شغلت وقتي بشيء ما. لقد اعتادت فيرن أن تأكل هذه الحشرات، وحاولت والدتي مراراً أن تمنعها من القيام بذلك، لكن والدي طمأنها بقوله إنه لا وجود لأي خطر حقيقي يهددها إن قامت بذلك؛ لأن دمها يحتوي على النحاس بدلاً من الحديد، ولا مانع من تناولها بعد أن تناولت القريدس مع العائلة، لأن الحشرات والقريدس شبيهة ببعضها والفارق بينها هو أن القريدس يعيش في البحر. لا أذكر أنني تناولت واحدة، ولكنني أعتقد أنني فعلت؛ لأنني أعرف أن هذه الحشرة تقرمش في الفم كالمكسرات.

تقدمت الحشرة باتجاه الجدار، ثم مشت بمحاذاته إلى أن وصلت إلى الزاوية. وإما أن يكون ذلك قد حيّرها أو أثبط همتها، لا أدري... ثم انقضى الصباح وشعرت بالضعف لشدة الهزال الذي كنت عليه.

ظهر الضابط الذي أحضرني إلى هنا أخيراً وفي يده آلة تسجيل وضعها على الطاولة بيننا، وكومة كبيرة من الأوراق والمصنفات والدفاتر. وعلى أعلى تلك التلة، شاهدت قصاصة من إحدى الجرائد القديمة عليها عنوان رئيس كبير:

«عرض الأختين بلومنغتون». من الواضح أن صورتنا أنا وفيرن قد ظهرت في عدد قديم من جريدة النيويورك تايمز. ولكنني لا أعرف شيئاً عن هذا.

جلس الضابط، وراح يبحث بين تلك الأوراق لدقائق طويلة أخرى. لو حدث هذا الأمر في الأيام الخوالي لكنت قد ملأت كل ذلك الصمت بثرثرتي. أما الآن، فأنا أعرف أنه ينتظر مني كلمة. إنها لعبة تنضوي تحت بند التعذيب، لكنني قررت أن أفوز بها. لا يجب أن أسبقه في الكلام. كم ستكون دهشة جدّيّ وجليسة الأطفال التي كانت ترافقني كبيرة الآن إذا شاهدوني! حاولت أن أتخيلهم جميعاً في الغرفة هنا معي، وهم يشجعونني على المضي قدماً في مباراة الصمت هذه قائلين:

«اصمتي... اصمتي!».

«توقفي عن هذرك المتواصل، ودعينا نسمع أنفسنا».

سجِّلوا لي نقطة.

استسلم الضابط، وبدأ يعبث بأداة التسجيل. ذكر أوّلاً التاريخ والساعة بصوت مرتفع، ثم طلب مني ذكر اسمي ففعلت، ثم سألني إن كنت أعرف سبب وجودي هنا فأجبته بالنفي.

«أخوك لويل كوك...»

لم يبدُ لي هذا سؤالاً، ولكنه كان كذلك، لأنه تابع بصوت جافٍّ:

«أنت تؤكدين».

«نعم».

«متى قابلته آخر مرة؟».

انحنيت باتجاهه لأقيم معه تواصلاً بصرياً كما فعل الدكتور سوسا مؤخراً ليصل إلى أقصى حدٍّ ممكن من التأثير في تفكيري وقلت:

«أريد استعمال الحمام. وأريد محامياً».

ربما لم أكن سوى طالبة جامعية، ولكنني شاهدت عدة برامج تلفزيونية، ولم أشعر بالخوف منهم بعد؛ على الأقل لم أشعر بالخوف على نفسي. توقّعت أنهم ألقوا القبض على لويل، مما أشعرني بالهلع حقاً، لكنني لم أكن قادرة على السماح لحالتي بالحؤول دون الأمر الوحيد الذي يجب أن أفعله الآن... وهو ألا أقول أي شيء يمكنهم استعماله ضدّه.

«لماذا ترغبين في ذلك؟».

نهض الضابط واقفاً ثم استأنف كلامه: «لم نلقِ القبض عليك، وكل ما نريده هو إجراء حوار ودود معك».

ثم أوقف آلة التسجيل، ودخلت امرأة لديها شفتان رقيقتان توحيان بحدة الطباع وشعر قصير كشعر النواب الجمهوريين في الكونغرس، وأخذتني إلى الحمام، وانتظرتني خارج المرحاض لتسمع صوت تبولي وصوت نزول الماء. وعندما أعادتني، وجدتُ الغرفة فارغة مجدداً حتى من الورق وآلة التسجيل... وزجاجة الماء.

مرّت الدقائق بلا نهاية، فعدت مجدداً إلى الحشرة المتجمدة في مكانها، وأصابني القلق عليها، وظننت أنها ميتة بالفعل. وعندما انحنيت فوقها، شممت رائحة مبيد الحشرات. عندها، أسندت ظهري إلى الجدار، ثم انزلقت إلى أن جلست أرضاً، ولمست الحشرة المسكينة بإصبعي فتكوّرت على نفسها؛ مما قدم لي العزاء. وفي تلك اللحظة، باغتتني صورة قطة سوداء لها وجه أبيض وهي متكورة على نفسها وقد وضعت ذيلها فوق أنفها.

لطالما كرر لويل على مسمعيّ أنني لم أتمكن من السكوت، وقد قال لي في لقائنا الأخير إنني أجبرت والديّ على الاختيار بيننا.

بدت القطة التي باغتت مخيلتي مشابهة للقطة التي دهسها والدي بسيارته؛ إلا أنها في ذاكرتي كانت نائمة، مما يعني أنها قطة أخرى. ثم سمعت صوتاً حازماً يصدر من أعماق تفكيري ويقول: إنها قطة أخرى.

لم أسمع ذلك الصوت بشكل مرتفع في تفكيري من قبل، لأن صاحبة الصوت لم تكن أنا كما كنت أعتقد. إذاً، من تكون؟ من الذي يدير عجلة الصور في عقلي؟ وما الذي تفعله عندما لا تكلمني؟ ما هي أخطاؤها وما هي التباساتها؟ أنصتُّ... وهمست لها بأنني أسمعها؛ خوفاً من الذين يراقبونني... لكنها لم تجب.

لم يتسلل إلى الغرفة المضاءة بالأضواء البيضاء المزعجة نفسها التي لاحظتها حال دخولي إلا القليل من ضجيج الشارع. قضيت الوقت في التخطيط لما يجب قوله للشخص التالي الذي سيفتح الباب، وفكرت في أن أطلب معطفي والقليل من الطعام؛ لأنني لم أتناول فطوري في ذلك الصباح. وقد أطلب أن أكلم أهلي هاتفياً. يا لوالديّ المسكينين! أبناؤهم الثلاثة يقبعون وراء القضبان في آن واحد، يا له من حظ عاثر!

يجب أن أطلب محامياً مرة أخرى، وربما كان هذا ما ننتظره جميعاً في هذه المرحلة، حضور محامٍ؛ مع أن أحداً لم يخبرني أنهم سيستجيبون لطلبي. وفي تلك اللحظة، لاحظت أن الحشرة تستعيد وضعها الطبيعي ببطء وحذر بدلاً من بقائها منكفئة على ذاتها.

دخلت المرأة التي اصطحبتني إلى الحمام من قبل وهي تحمل في يدها طبقاً كرتونياً يحتوي على شطيرة تونا وبعض رقائق البطاطا. كانت الشطيرة مفلطحة بشدة، وكأن أحدهم قد ضغطها بين غلافي كتاب ليجففها كما نفعل بالورود، وكانت الرقائق مخضرّة الحواف، أو ربما هذا ما ظننته بسبب الضوء على الأرجح.

سألتني إن كنت أحتاج إلى دخول الحمام مرة أخرى – لم أكن بحاجة إلى ذلك – لكنني ظننت أنه من الأفضل لي أن أذهب طالما أن الفرصة مؤاتية للقيام بذلك. فقد كان هذا تغييراً ما بدلاً من الجلوس في الغرفة بلا حراك. بعد ذلك، عدت وتناولت القليل من الشطيرة، فعلقت رائحة سمك التونا على

رؤوس أصابعي؛ الأمر الذي لم أكن أحبه لأن هذه الرائحة تشبه رائحة طعام القططة.

طرح الصوت الصارخ في رأسي سؤالاً مختلفاً: هل هناك قطة أخرى في حياتي؟ وما لبثت الذكرى أن عادت إليّ... تذكرت القطة السوداء ذات العينين الفضيتين التي كنا نراها غالباً حول بيت المزرعة عندما كنت صغيرة. لطالما تركت لها أمي الطعام في الشتاء، وحاولت عدة مرات أن تضع لها فخاً لتعيش معنا دوماً، لكنها كانت أكثر ذكاء من أن تقع في أي فخ، بينما كانت مسؤوليات أمي وأعباؤها الكثيرة تمنعها من متابعة الموضوع.

أردت طوال فترة طفولتي أن أحصل على قطة؛ منذ أن قرأت لنا والدتي قصة ملايين القططة المصورة، لكننا لم نحصل على واحدة قط بسبب الجرذان الكثيرة التي كانت تتسلل إلى بيتنا. وكان والدي يقول دوماً: «القططة كائنات قاتلة. إنها من أنواع الحيوانات القليلة التي تقتل في سبيل المتعة، وتلعب بطعامها».

غزا الانفعال أوصالي، وتذكرت أن شعر القططة ينتصب عند شعورها بالانفعال أو بالخوف فتبدو لمن يواجهها أكبر حجماً؛ تماماً كما يحصل لدى القردة. أما ما يحدث للبشر في تلك المواقف فهو القشعريرة التي اجتاحت جسدي الآن.

عادت صورة القطة الصغيرة الأخيرة التي اختارها الزوجان العجوزان لتعيش معهما في القصة إلى مخيلتي، ورأيت فيرن أمامي وهي تجلس في حضن أمي الجالسة على الكرسي الكبير، وتضع كفّها على الصفحة وتفرد أصابعها ثم تضمها باستمرار وكأنها تحاول الحصول على ما هو مرسوم في الصورة، فقلت لأمي:

«فيرن تريد الحصول على قطيطة صغيرة يا ماما».

كانت لدى القطة السوداء ثلاث قطط صغيرة. وقد وجدتها بنفسي في عصر أحد الأيام ترضع من أمها المستلقية في أحد الشقوق الرطبة والمشمسة المشرفة على الجدول المجاور لبيتنا. كانت كل منها تضغط بفمها على بطن الأم في محاولة لامتصاص الحليب، وكانت اثنتان منها سوداوين متشابهتين تماماً. رفعت الأم رأسها لتنظر إلينا، ولكنها لم تتحرك رغم أنها لم تسمح لي يوماً بالاقتراب منها إلى هذا الحدّ، لقد خففت الأمومة من حدّة طباعها.

لم تكن القططة الصغيرة حديثة الولادة، بل كانت في عمر يسمح لها بالتحرك جرياً هنا وهناك. لقد كانت رائعة وناعمة إلى أبعد الحدود، فغمرني التوق للحصول على واحدة منها؛ رغم أنني كنت أعرف أنه لا بد لي من تركها وشأنها. ورغم ذلك، سحبت القطة الصغيرة المختلفة من حضن أمها، تلك الرمادية الصغيرة، وقلبتها على ظهرها لأعرف جنسها فعرفت أنها ذكر. بدأ القط الصغير بالاعتراض بصوت مرتفع، وتمكنت من رؤية حلقه الوردي وراء

أسنانه الصغيرة ولسانه، وشممت رائحة الحليب المنبعثة منه. كان كل شيء فيه صغيراً ورائعاً. أرادت أمه استرجاعه، لكنني رغبت في الاحتفاظ به أيضاً. وفكرت في أنني لو وجدته من دون أمه، ولو كان يتيماً ووحيداً في هذا العالم فبهذه الطريقة فقط سأتمكن من الاحتفاظ به.

في غرفة الاستجواب هذه، اشتدت حدة القشعريرة إلى أن تحولت إلى ارتجاف متواصل، فقلت بصوت مرتفع ليسمعني الشخص الذي يراقبني؛ إن كان هناك من يراقبني بالفعل:

«الجو بارد جداً هنا».

لم أرغب في أن يشعروا بأنهم تغلبوا علي، ولم أرغب في منحهم نشوة النصر، فقلت مجدداً:

«هل يمكنني الحصول على معطفي من فضلكم؟».

لم أكن أرتجف لأنهم تركوني لساعات طويلة في غرفة باردة وخاوية، ولا لأن الضابط الذي أحضرني بدا لي أشبه بالسفاح كيسير سوز، ولا لأنه كان يعرف أموراً أجهلها عني وعن فيرن، ولا لأنه اعتقل لويل. لم أكن أرتجف بسبب شيء حصل الآن أو سيحصل بعد قليل، بل لأنني كنت مدفونة تحت تربة خصبة من الذكريات التي لم أذكرها من قبل، والتي لطالما شككت بأمرها... أرض الأحلام التي كنت أعيش فيها في الماضي.

اعتقد سيغموند فرويد أننا لا نملك أي ذكريات ترجع إلى طفولتنا المبكرة على الإطلاق، وأن كل ما نذكره ذكريات مزيفة تشكلت لاحقاً، وباتت أكثر صلة وشبهاً بالحكاية التي رويت على لسان شخص آخر من الحادثة الحقيقية. في بعض الأحيان، عندما يمر المرء بتجربة قاسية، يحتفظ في ذاكرته بأدق تفاصيل الحادثة، ولكنه يستبدلها بفكرة جديدة تقضي على الذكرى الأصلية وترميها في غياهب النسيان. وهذه الفكرة الجديدة تدعى ذكرى خاصة بالعرض. هذه الذكرى الخاصة بالاسترجاع والعرض حالة متوسطة بين استذكار الحادثة المؤلمة، والدفاع عن الذات للحؤول دون تذكر الأمر برمته.

لطالما قال والدي إن فرويد كان فائق الذكاء ولكنه لم يكن عالماً، وإن ضرراً كبيراً قد ألمّ بعالم الطب النفسي بسبب الخلط بين تينك التسميتين. ولهذا، عندما أقول هنا إنني أعتقد أن الحادثة التي أذكرها عن هذا الأمر الذي لم يحدث قط نوع من الذكرى الخاصة بالعرض، فأنا أفكر فيها بحزن عميق. ومن القسوة الشديدة أن نضيف تهمة الفرويدية المهينة لوالدي إلى الجرح النفسي الذي أصابه عندما اعتقد أنه قتل قطة بسيارته بلا سبب.

لا بد أنكم تذكرون كيف أُرسِلت إلى بيت جدي في إنديانا بوليس لدى اختفاء فيرن من حياتنا عندما كنت في الخامسة من العمر فقط. لقد أخبرتكم بما جرى آنذاك وما جرى بعد ذلك.

إليكم ما أعتقد أنه جرى قبل ذلك. وأنا أحذركم، هذه الذكرى حيّة ونابضة في مخيلتي كالذكرى المزيفة الخاصة بالعرض بدلاً عنها تماماً.

# 6

كنت وفيرن بجانب الجدول، وكانت تقف على غصن شجرة فوقي وتقفز إلى الأعلى والأسفل، مرتدية تنورة واسعة ومقلمة؛ مما جعل تنورتها تطير حول رجليها كالأجنحة، ولكنها لم تكن ترتدي شيئاً آخر، وقد مضت عليها عدة أشهر جافة ونظيفة بلا حفاض.

كنت أتمكن أحياناً من لمس قدميها كلما ضغطت الغصن السفلي نحو الأسفل. تلك كانت اللعبة؛ إذ كانت تضغط على الغصن في الوقت نفسه الذي أقفز فيه أنا، وعندما ألمس قدميها أربح، أما عندما لا أتمكن من القيام بذلك فيكون الفوز حليفها. لم نكن نسجل نتائج اللعبة، ولكننا كنا سعيدتين؛ مما يعني أننا كنا تقريباً متعادلتين.

وبعد فترة أصابها الملل من اللعب، فتسلقت الشجرة إلى الأعلى ولم تنزل، ثم ضحكت ورمت أوراقاً وفروعاً صغيرة فوق رأسي من الأعلى، فأخبرتها أنني لا أكترث لهذا، ومشيت ثابتة الخطى نحو الجدول وكأن عملاً هاماً ينتظرني هناك؛ مع أن هذه الفترة الزمنية كانت متأخرة جداً لرؤية الشراغيف، والصباح في أوله ولذلك لا يمكن رؤية حباحب الليل. وعلى الحافة، وجدت القطة وصغارها.

أخذت القط الرمادي الصغير ولم أرجعه رغم كل توسلات أمه، وحملته إلى فيرن متبجحة ومتفاخرة لأنني كنت أعرف كم تتوق للحصول على قطة، ولكنني حصلت عليها بدلاً منها.

عندها، هبطت فيرن إلى الأسفل بسرعة خاطفة، وأشارت لي كي أعطيها إياه، فقلت لها إنه لي ولكنني سأسمح لها بحمله. كانت القطة الأم تحوم حولي في بعض الأحيان، ولكنها لم تقترب يوماً من فيرن ولم تكن لتسمح لها يوماً بأخذ صغيرها مهما لعبت هرمونات الأمومة بدمها. ولهذا، كانت الطريقة الوحيدة لتضع فيرن يدها على الصغير هي في أن أعطيها إياه بنفسي.

تابع الصغير مواءه بلا توقف، فأتت أمه إلينا، وسمعت مواء القطتين الصغيرتين القابعتين بجانب الجدول حيث تركتهما. انتصب شعر القطة فانتصب وبر فيرن أيضاً، وما حصل بعد ذلك حصل بسرعة خاطفة. إذ راحت القطة الأم تصدر صوت هسيس حاداً وتبصق اللعاب، بينما ارتفع مواء القط الصغير بين يدي فيرن، فهاجمتها القطة الأم بمخالبها. رمت فيرن الصغير الرائع على جذع الشجرة القريب بقوة، فتدلى من أحد الأغصان ساكناً وارتخى فمه، وما كان منها بعد ذلك إلا أن قفزت وأمسكت به ومزّقته إلى نصفين وفتحت بطنه بأصابعها كما تفتح الحقيبة.

راقبتها وهي تقوم بذلك، فيما تابع صغيرا القطة الآخران المواء بلا توقف. استعدت الموقف في ذاكرتي كما جرى، وتردّد صدى كلمات لويل في مخيلتي وهو يقول إن عجلة العالم تدور على وقود يغذيه بؤس عميق وآلام لا تنتهي.

أذكر أنني حينها هرعت مسرعة لأحضر أمي ولأطلب منها إصلاح الموقف... إصلاح القطة... لكنني اصطدمت بلويل ووقعت أرضاً. حاولت أن أخبره بما جرى، ولكنني تفوّهت بجمل غير مفهومة ومشتتة، فوضع يديه على كتفيّ ليهدئني، وطلب مني أن آخذه إلى فيرن.

لم أجدها حيث تركتها، بل كانت رابضة على ضفة الجدول ويداها مبللتان، وقد اختفت كل القططة عن الأنظار... الحية منها والميتة.

قفزت فيرن على قدميها، وأمسكت بكاحلي لويل، ومسحت بيديها على ساقيه فارتفعت تنورتها، وبدت مؤخرتها للعيان، فما كان منها إلا أن أنزلت التنورة بتهذيب، فلاحظت وجود أشواك عالقة بذراعيها، وأشرت إلى لويل ليرى ذلك قائلة:

«لقد خبّأت القط المسكين بين شجيرات العليق، أو رمته في الجدول. علينا أن نجده لنأخذه إلى الطبيب».

«أين القط الصغير؟». سألها لويل بصوت مرتفع وبلغة الإشارة، غير أنها تجاهلته وجلست عند قدميه بنعومة، وأحاطت قدميه بذراعيها كما كانت تحب أن تفعل عادة. كنت أفعل ذلك أيضاً؛ إذ أحيط قدمي والدي بذراعَيّ، لكن حجمه كان كبيراً بالمقارنة مع قدمي لويل.

نهضت فيرن وابتعدت عنه قليلاً، ثم راحت تقفز بمرحها المعهود، وتعلقت بغصن وتأرجحت ذهاباً وإياباً، ثم هبطت إلى الأرض وأشارت لي:

«سابقيني... سابقيني».

لقد قامت فيرن باستعراض جيد ولكنه لم يكن ممتازاً؛ لأنها أدركت أنها فعلت أمراً منكراً، مما دفعها إلى التظاهر بالعكس. كيف لم يتمكن لويل من رؤية ذلك بجلاء؟

جلس أخي على الأرض، فاقتربت منه فيرن ووضعت ذقنها على كتفه، ونفخت بنعومة في أذنه فقال لويل:

«ربما لم تتعمد القيام بما أخبرتني به. إنها لا تعرف بعد مقدار قوتها».

كان أخي يحاول مداهنتي... لأنه لم يصدقني! كل ما وثق به وصدقه حتى هذا اليوم بالذات هو أنني اختلقت تلك القصة لأسبب مشكلة كبيرة لفيرن. إذ لم يكن هناك إثبات، ولا جثة، ولا دماء... كل شيء كان على ما يرام في مسرح الجريمة.

فتشت بين أعشاب الرجلة والرشاد والهندباء وأشواك القريص وبين الحجارة من دون أن أتلقى أي مساعدة من لويل، بينما راحت فيرن تراقبني من خلف ظهره بعينين تبرقان لهفة أو – كما ظننت آنذاك – بعينين شامتتين.

فكّرت في أن فيرن تبدو مذنبة، ولكن لويل يفكّر في أنني المذنبة. وكان على حق. فأنا التي أخذتُ القط من أمه وأعطيته إلى فيرن؛ مما يعني أن كل ما جرى حصل بسبب خطئي منذ البداية. إلا أنه لم يكن خطئي بالكامل.

لا أستطيع لوم أخي لأنني كنت قد رسخت في أذهانهم وأنا في الخامسة من العمر فقط أنني أختلق بعض الأمور، لكن هدفي في تلك السن المبكرة كان أن أسليهم وأبهجهم، ولم أتعمد الكذب يوماً، ولم أختلق شيئاً محزناً لأحد؛ مما يعني أنهم لم يكونوا قادرين على تمييز الصدق من الكذب في ما أقوله. ولطالما أطلق عليّ والدي لقب: الفتاة الصغيرة التي تحذّرنا من الذئب باستمرار؛ في إشارة منه إلى قصة الراعي الكذاب الذي كان يحذر أهل قريته من الذئب تلفيقاً وكذباً.

تفاقم غضب لويل مع استمراري في التفتيش عن القط الصغير، فما كان منه إلا أن قال لي:

«لا تخبري أحداً بالأمر. هل تسمعينني يا روزي؟ أنا أعني ما أقوله، ستوقعين فيرن في المشاكل، وسأكرهك بسبب ذلك... سأكرهك إلى الأبد، وسأخبر الجميع أنك كاذبة كبيرة. عديني أنك لن تخبري أحداً بالأمر».

حاولت جاهدة أن أفي بوعدي، لأن تهديد لويل لي بأن يكرهني إلى الأبد كان قوياً جداً.

لكنّ الصمت كان يفوق قدرتي؛ فهو أحد الأمور التي كانت فيرن تستطيع القيام بها فيما لا أستطيع أنا ذلك.

بعد مرور بضعة أيام، حاولتُ دخول المنزل فمنعتني فيرن. كانت تلك لعبة سهلة أخرى نلعبها، وكانت تلك اللعبة تبيّن أن فيرن أسرع وأقوى مني بكثير رغم صغر حجمها. وفي المرة الوحيدة التي فزت فيها وتمكنت من الدخول، أمسكَت بيدي وجذبَتني إلى الخلف بعنف لدرجة أنني شعرت بِطقّة في كتفي، بينما راحت هي تضحك بمرح.

أذكر أنني حينها انفجرت باكية وناديت أمي، إذ إن فوز فيرن السهل علي وإيذاءها لي بلا أي جهد يذكر أبكياني وأغضباني إلى درجة الجنون وأصاباني بالإحباط. أخبرت أمي أن فيرن آذتني، لكن ذلك كان يحدث مراراً؛ مما جعل شجاراتنا تمر بسهولة ما لم تكن إصابتي خطيرة. إذ يصطدم الأطفال عادة ببعضهم بعنف إلى أن يقع حادث ما. هكذا كانت الأمور... ولهذا، كانت الأمهات يصبن بالضيق أكثر من القلق بعد تلك الحوادث، لأنهن كن يحذرن باستمرار من احتمال وقوع حوادث.

وعندها، قلت لأمي إنني أخاف من فيرن.

«لم بحق الله تخافين من فيرن الصغيرة؟». سألتني أمي.

فأخبرتها بكل شيء.

أرسلوني في ذلك اليوم إلى بيت جدي.

وأرسلوا فيرن إلى المجهول.

# 7

عصفت تلك الذكرى بجسدي في غرفة الاستجواب. ورغم أنني لم أتذكرها في ذلك الحين بحذافيرها كما أخبركم بها الآن، إلاّ أنني تذكرت ما يكفي. ومما يثير العجب أنني توقفت عن الارتعاش والبكاء عندما انتهيت من استعراض تلك الحادثة في مخيلتي. لم أشعر بالجوع أو البرد أو الحاجة إلى محامٍ أو دخول الحمام أو تناول شطيرة، بل شعرت بدلاً من كل ذلك بحالة غريبة من الوضوح. لقد نفضت عني الماضي، ولم أعد أعيشه، بل صرت أعيش حاضري الآني... بكامل تركيزي ورباطة جأشي. وكل ما فكرت فيه هو أن لويل يحتاج إليّ، وكل شيء آخر يمكنه أن ينتظر.

شعرت أنني أحتاج إلى الكلام.

رفعت الحشرة عن الأرض؛ مما جعلها تتكور على نفسها بشدة مجدداً وتتّخذ شكلاً دائرياً كاملاً مثيراً للإعجاب. يا لها من قطعة فنية مشابهة لما يمكن أن تبدعه يدا الفنان آندي غولدسورثي! وضعتها على طاولة الاستجواب بجانب الطبق لأنني فكرت في اصطحابها معي حال خروجي من هنا، كما أن لويل لن يوافق على ترك هذه المسكينة حبيسة في غرفة الإستجواب. أضيفوا إلى رصيدي المزيد من النقاط لأنني أهتم بالحشرات أيضاً، فهذه الغرفة لا تصلح لكي تكون مأوى لأحد.

خططت لرواية قصتي للمحققين بالطريقة المعهودة؛ أي بالحديث عن إرسالي إلى بيت جدّيَّ الغارقين في مشاهدة مسلسلاتهما التلفزيونية. إلا أنني قررت إقحام مفردات ضخمة وصعبة لا تستخدم بكثرة لإبهارهم. ولن أخبرهم بقصص المسلسلات فقط، بل سأعلّق عليها أيضاً، وقد أناقشها، وسأفعل ذلك بطريقة توحي في كل لحظة بأنني سأجيب عن سؤالهم في الجملة التالية، أو سأخبرهم بالحقيقة في العبارة التالية، أو بما يمكن أن يدلهم على ما يصبون إليه. كانت خطتي تقتضي أن أعتمد المسايرة الماكرة والخبيثة.

لقد راقبت الكثير من تلك الاستجوابات من قبل، ولطالما كان أخي أمهر مخادع في حواراته مع والدي.

لكن المحقق لم يظهر مرة أخرى، بل اختفى بكل بساطة كالشبح.

بعد مرور فترة من الزمن، حضرت امرأة عريضة الوركين لتخبرني بأنني أستطيع المغادرة، وتبعتها عبر الرواق إلى المدخل، ثم خرجت. كان الوقت ليلاً، فرأيت أضواء طائرة تحلق في السماء فوقي متجهة إلى مطار ساكرامنتو. انحنيت ووضعت الحشرة المتكورة على نفسها على العشب، وحسبت كم بقيت في الداخل، فعرفت أنني بقيت محتجزة هناك لمدة ثماني ساعات.

كان تود وكيمي ووالدة تود جميعاً بانتظاري ليخبروني أن لويل لم يكن الشخص الذي ألقي القبض عليه...
بل كان شخصاً آخر.

ففي الليلة السابقة، عندما كنت أحتفل بانتهاء الفصل الدراسي بالنوم باكراً، حاول عزرا ميتزغر – الناطور – اقتحام مركز جامعة ديفيس الرئيس، واعتقل هناك، ووجهت له تهم عديدة تتضمن كسر الأقفال وقطع الأسلاك واعتراض الإشارات الكهربائية اللاسلكية بأدوات معلقة على خصره. تمكن عزرا في تلك الليلة من فتح ثمانية أقفاص قبل إيقافه. وفي الصحيفة التي صدرت في اليوم التالي، وصف مسؤول من الجامعة لم يُذكَر اسمه أن القردة أصيبت بصدمة نفسية بسبب الاقتحام. وصرّح مصدر آخر أن القردة كانت تشير إلى المقتحم بالمجرم السفاح؛ مما اضطر الأطباء إلى تخديرها. أكثر ما أحزنني في تلك الأخبار هو أن معظم القردة رفضت مغادرة أقفاصها المفتوحة.
قالت الشرطة إن لعزرا شريكة في الجريمة كانت تنتظره في السيارة، وإنها لو لم تهرب بها لتمكن من الفرار معها.
لا... يا لها من مأساة! يا له من تصرف شنيع!
أنشأت جامعة ديفيس مركز الطب المقارن عام 1996 ليجمع بين الطب البشري ومدارس الطب البيطري؛ كوسيلة للجمع بين كل الأبحاث التي تمت على الأمراض المنتقلة بالعدوى عن طريق تطبيق العلاجات الجديدة على الحيوانات. وقد كان المركز الرئيس مكاناً هاماً بالنسبة إلى تلك الأبحاث. فمنذ إنشائه، عملوا فيه على السيطرة على انتشار الأمراض والأوبئة، وعلى الأخص على مرض الطاعون والملاريا والأمراض الحيوانية الأخرى والفيروسات التي تنتقل من القردة إلى الإنسان. وقد حصلت كل من الحادثتين المنفصلتين اللتين تعرض فيهما البحّاثون الروس للعدوى بفيروس الملاريا مؤخراً، وقد قرأنا جميعاً رواية ريتشارد بريستون (*Zone Hot The*) منذ وقت قصير، ولم ننس أحداثها بعد.
لم يصل أي خبر عن هاتين الحادثتين إلى الجرائد على الإطلاق، وتناقلت الألسن الأخبار همساً قبل المحاكمة؛ مما يعني أن عزرا ساهم في إطلاق سراح الأسرار التي تم السكوت عنها مع القردة التي حررها، ولم يكن ذلك يحكى على سبيل المزاح قط.
بعد سبع سنوات من ذلك، اختُرِقت القيود المـُحكمة التي رسمتها الجامعة عندما اختفت قردة من نوع المكاك من مختبر الأمن القومي الصحي، حيث يمكن أن تكون القردة محقونة بأمراض مثل السارس أو الإيبولا أو الجدري، وذلك بعد أن وقع قفصها أرضاً، ولم يُلقَ القبض عليها مطلقاً. لقد هربت بالفعل واختفت تماماً.

في أيامنا هذه، حاز مركز مختبرات ديفيس على الكثير من التقدير نظراً إلى التقدم الكبير الذي حققه الباحثون فيه في مجالات فهم أمراض هامة ومعالجتها؛ مثل مرض الزهايمر والتوحد وداء باركنسون. وإنجاز كل ذلك ليس سهلاً على الإطلاق.

لعبت أربعة أشياء دوراً هاماً في عدم إلقاء القبض علي.

1– أكّد كل من تود وكيمي للشرطة مكان وجودي ليلة الحادثة، حيث جزما أنني نمت باكراً لأنهما كانا يشاهدان فيلماً في غرفة الجلوس، ويحتفلان معاً بنهاية الفصل الدراسي .وأخبرا الشرطة أيضاً أنهما استأجرا عدة أفلام، وشاهداها بشكل متواصل، ولم يخرجا من الغرفة سوى إلى المطبخ لإعداد البوشار .ولم تكن هناك أي وسيلة تمكّنني من مغادرة الشقة من دون أن يلاحظا خروجي؛ إلاّ إن كنت الرجل العنكبوت كما قالت لهم كيمي.

أما تود فقد قال: «إلا إن كانت طرزان. لكن الرجل العنكبوت خيار جيد أيضاً».

أما أنا... فلو سألوني لقلت: ما لم أكن فيرن. إذ توقعت أنّ الجميع قد أصبحوا على علم بموضوع فيرن الآن. وهذا استنتاج شخصي مبني على اعتقاد خاطئ؛ لأنني قللت باعتقادي هذا من قدرة الشرطة على الاحتفاظ بالمعلومات لنفسها.

في الحقيقة، لا أعتقد أن أحداً تأثر بما جاء في البند الأول أو أخذه على محمل الجد. لأنهم إن ربطوا بيني وبين أخي لويل، فهذا يعني أنهم يعتقدون أنهم قد وصلوا إلى الفتاة التي يبحثون عنها، وربما ظنوا على الأرجح أننا ننتمي إلى الخلية الإرهابية نفسها؛ مما يعني أنهم واثقون بأننا نغطّي آثار بعضنا، ونحمي بعضنا بعضاً. ومن المرجح أنهم يراقبون مبنانا منذ فترة من الوقت، ويكتبون في تقاريرهم أن هناك مجموعة من الناس الأشرار والمؤذيين الذين يعيشون في الطابق الثالث.

2– أمُّ تود .لقد سمح أحد الموظفين الكسالى لتود بإجراء مكالمة هاتفية قبل التحقيق معه، فاتصل بأمه؛ الناشطة الشهيرة في مجال حقوق الإنسان المدنية في سان فرانسيسكو –كان يجب أن أذكر لكم هذا من قبل كما أظن –ولأقرّب لكم الأمر أكثر، تخيلوا ويليم كانستلر بشكل مؤنث ومصغّر ومن دون الشعبية الكبيرة التي يحظى بها .وقد وصلت بالفعل على متن مروحية وهي تلوح بتهديداتها لهم بلا هوادة لتشملني مع تود وكيمي في حال وقوع أي مأزق .وعندما خرجت إلى الشارع أخيراً، كانت هناك بانتظاري في سيارة فخمة لتدعونا جميعاً إلى تناول العشاء.

–3هارلو .ولا أعني هنا هارلو نفسها؛ لأنّ لا أحد كان يعرف مكانها. ولكن تود وكيمي قالا إنهما متأكدان –بما لا يدع مجالاً للشك –من أن المرأة التي تبحث عنها الشرطة هي هارلو فيلدينج .ذهبت الشرطة إلى شقة ريغ الذي أخبرهم أنه لا يعرف عنها أي شيء، ولم ير أو يسمع أي شيء، ولكنه يعتقد أن الأوصاف تنطبق على هارلو؛ لأنها الفتاة الوحيدة التي يعرفها التي تقوم بإيقاع الرجال في حبائلها وتقنعهم بالقيام بجرائم وارتكاب أخطاء في سبيل الحصول على ودّها.

وأضاف مقتنعاً بأن ما جرى بعيد كلياً عن شخصيتي، وأنه لا يمكن أن أكون الفاعلة. وقد كان هذا أمراً لطيفاً من قبله. وأعتقد أنه كان يعني ما يقوله، لأنه لم يكن يعرف أنني كنت أفعل ذلك مع فيرن في طفولتي.

كما أخبر عزرا رجال الشرطة أن شريكته الهاربة هي هارلو. أتساءل بيني وبين نفسي عن الفيلم الذي يتصور ذاك الأحمق عزرا أنه يقوم ببطولته في دماغه، وأتعجب من السهولة والسرعة اللتين اعترف بهما على هارلو. ولم أفكر في أنه فعل ذلك بتلك السرعة ليحميني؛ إلى أن أخبرني تود بذلك بعد مرور بعض الوقت. لكنه لم يفعل ذلك لأنه كان معجباً بي أكثر من هارلو، وإنما لأنه رجل شهم وشريف، ولا يمكنه أن يسمح باعتقالي بسبب ذنب يعرف أنني لم أقترفه.

–4لم تقرأ الشرطة قط مقالتي النهائية المتعلقة بمسألة العنف.

اصطحبتنا والدة تود لتناول العشاء في أحد مطاعم مدينة ساكرامنتو القديمة بدلاً من تناوله في ديفيس؛ وذلك لأن هذه الأخيرة لا تحتوي على أي مطاعم فاخرة مناسبة لها، فمررنا في الشوارع المعبدة بالحجارة، ومشينا على أرصفة مغطاة بالخشب، وتناولنا عشاءنا في مطعم Firehouse The حيث حاولت أم تود أن تقنعني بتناول الكركند للاحتفال بنجاتي بأعجوبة من قبضة الشرطة، ولكنني رفضت لأن ذلك كان يعني أن أتوجه إلى الحوض وأختار الكركند الحي الذي يعجبني لآكله. وكان الكركند سيبدو لي كالحشرة التي تكورت على نفسها معي في غرفة الاستجواب، ولكن بشكل أكبر بكثير.

أخبرتني أنني أستطيع السفر في اليوم التالي إلى بيت والدَيّ خلال عطلة الكريسمس؛ رغم وعدي للشرطة بألا أغادر المدينة. ولهذا، سافرت بالفعل.

شكرتها عدة مرات، وكانت في كل مرة تجيبني: «لا شكر على واجب. لا داعي لشكري. من واجبي أن أساعد أصدقاء تود الأوفياء».

وقد سألني تود لاحقاً: «لقد أدركتِ أنها كانت تكذب، أليس كذلك؟».

ولوهلة من الزمن، خُيِّل إليّ أن الجزء المزيف من كلامها هو الجزء المتعلق بكوننا صديقين وفيّين، ولكنني كنت مخطئة. فقد عنى أن أمه تعشق استعراض قوتها أينما حلت، من دون أن تكترث بالشخص الذي تسدي له الخدمات. أعرف أن هذه الصفة قد لا تكون جيدة في شخصية أي أم، ولكنني لم أشعر بأنه كان يتكلم وِحسب كما كان يفعل دوماً. فقد ظننت أن المرء يمر بأوقات

يتذمر فيها من أهله، كما يشعر تجاههم في أوقات أخرى بالامتنان؛ لكن الأمر المؤسف كان يحدث لدى خلط كل تلك المشاعر معاً. سجّلت في عقلي ملاحظة كي أذكر هذه النقطة في سيرة حياتي، ولكنها ضاعت مني كما ضاعت كل الملاحظات العقلية الأخرى.

سألت تود بعد مرور عدة أسابيع إن كان يعتبر أننا صديقان، فأجاب بحزن وهو يبدو مجروحاً من السؤال: «روزي! نحن صديقان منذ سنوات».

أوصلتنا السيارة السوداء الفخمة إلى شقتنا، ثم شقت عباب الليل المزدان بالنجوم وهي تُقِلُّ أم تود في داخلها. وعندما صعدنا إلى الطابق الثالث وجدناه يضج بالموسيقى إلى حدّ الصمم؛ مما يعني أن الشرطة قادمة لا محالة. كما قام أحدهم بتمزيق أوراق المحاضرات إلى نتف صغيرة، ورماها في الباحة الأمامية فبدت من بعيد كالريش، ثم أتبعها برمي كرسي المكتب من نافذته. اعترض ذلك الكرسي ممر الدخول، ومن الواضح أنه قد رمي للتو؛ لأن الدواليب المثبتة في أسفله كانت لا تزال تدور. دخلنا من الباب الأمامي الذي اكتشفنا أن أحداً ما قد قام بتعليق بوالين مليئة بالماء عليه من الداخل. هذا هو ما كان يعنيه العيش في مبنى سكني لا يهتم به أحد. علينا أن نعتاد على ذلك.

جلسنا حول طاولة مطبخنا التي بدت كجزيرة الحزن العائمة وسط محيط الفرح المحيط بنا، واحتسينا الشراب المفضل لدى تود، وفكرنا في عزرا الذي أراد الانضمام إلى الاستخبارات المركزية ولكنه *رُفِض*. ونعم، لقد كانت هذه هي عملية الكوماندوس الأولى بالنسبة إليه على حدّ علمنا... كل ما اقتضاه الأمر منه هو تحرير قردة واحدة لا غير. لم يذكر أحد أي شيء عن فيرن، ولهذا توقعت أنهما لا يزالان غارقين في جهلهما، ولكنهما يعرفان كل شيء عن لويل، ويشعران بالحماسة العارمة لأنهما استقبلا رجلاً خطيراً مثله في شقتنا. كما أنهما تأثرا بقصتي أيضاً، وتأثرا أكثر بكل ما كنت أخفيه، وفكرا في أنه لا يزال أمامهما الكثير لسبر أغوار حياتي... لسبر الأعماق السرمدية التي لا يمكنهما أن يتصورا مدى عمقها.

اعتذر تود لأنه قال عن لويل إنه ألعوبة في يد هارلو؛ لأن العكس هو الصواب كما اتضح في ما بعد. وقد قال لي: «لا بد أن أخاك قد جندها. إنها واحدة من أعضاء خليته الآن».

وهو ما لم يخطر على بالي، لذا استنكرته على الفور. بكل الأحوال، استبعدت الأمر لأن صدمة هارلو العاطفية كانت حقيقية، وأنا متأكدة من هذا لأنني رأيتها حين تمثّل، ورأيتها حين تصدُق، وأعرف الفرق بين الحالتين جيداً.

ثم جلسنا معاً لمشاهدة فيلم كلاسيكي اعترف لي تود وكيمي أنهما غرقا في النوم منذ بدايته عندما حاولا مشاهدته في ذلك اليوم؛ وهذا تماماً ما جرى لدى مشاهدتهما معظم الأفلام الأخرى. مما يعني أنني كنت قادرة على الخروج من الشقة والدخول إليها عدة مرات من دون أن يشعرا بذلك.

كنا نشاهد فيلم *Miracle on 34th Street*، وهو فيلم حافل بالكثير من المشاهد القانونية الاحترافية التي يكرهها العلماء النفسيون.

حتى لو لم يدفع لويل هارلو للقيام بذلك بشكل مباشر، إلا أنه السبب الحقيقي وراء فعلتها. نحن عائلة خطيرة بالفعل، ولكن ليس كما يعتقد تود. من الواضح أن هارلو تحاول إيجاد لويل باستخدام الأمر الوحيد الذي تعرفه عنه، وأتساءل بالفعل إن كانت قد نجحت في تحقيق ذلك. لن أراهن على العكس أبداً.

هارلو ليست من بين الفتيات اللواتي يفضلهن لويل، ولكنها تظاهرت بذلك. وإن كانت تريد الحصول على حب لويل فعليها أن تبدأ بإبراز شخصيتها الحقيقية بلا زيف، وأن تتوقف عن الاستعراضات الدرامية ومحاولات جذب الأنظار المقيتة. وأظن أنها قادرة على القيام بذلك بالفعل، وعندها سيكوِّنان ثنائياً سعيداً.

عندما فتحت باب غرفتي في وقت متأخر من تلك الليلة، تنشّقت أثر عطر الفانيليا الذي تضعه هارلو عادة، واتجهت مباشرة إلى الحقيبة الزرقاء وفتحتها وأنا شبه متأكدة مما خطر ببالي. وبالفعل، لم يكن هناك أي أثر لمدام ديفارج.

# القسم السادس

... عرفتُ على الفور أنني أمام خيارين: إما أن أذهب إلى حديقة الحيوانات الخاصة بالدراسات، أو أن أذهب إلى صالة الموسيقى.
لم أتردد قط، وفكّرتُ: افعل ما بوسعك لدخول صالة الموسيقى.
إنها طريقك إلى الحرية، أما حديقة الحيوانات فليست أكثر من قفص جديد آخر، وإذا ذهبت إلى هناك فستضيع.

*فرانز كافكا،» تقرير للأكاديمية«*

# 1

في السنوات التي تلت رحيل فيرن، بدأنا بالسفر خلال العطلات، وجعلنا من تلك الرحلات عادة عائلية؛ فذهبنا مرتين إلى يوسميت، ومرة إلى بورتو فالارتا، ومرة إلى فانكوفر، ومرة إلى لندن حيث تناولت السمك المدخن لأول مرة، ومرة إلى روما حيث اشترى لي والداي حجراً كريما يحمل نقش فتاة صغيرة من كشك سياحي خارج الكوليسيوم لأن البائع قال إن الفتاة المنقوشة على الحجر تشبهني، وإننا كلتينا جميلتان (بالإيطالية). وعندما عدنا إلى الديار، قام البروفيسور ريماك الذي يدرّس الأدب الألماني في الجامعة ويملك مواهب عديدة بتثبيت الحجر على خاتم من أجلي؛ مما جعلني أشعر بأنني جميلة كلما ارتديته.

لم نكن يوماً عائلة ملتزمة، ولهذا توقفنا عن السفر في العطلات بعد مغادرة لويل أيضاً.

عندما وصلت أخيراً إلى بلومنغتون في نهاية سنة 1996 المريرة تلك، كانت العلامة الوحيدة التي تشير إلى بدء فترة الاحتفالات في بيتنا هي شجيرة أكليل الجبل الموضوعة على طاولة بجانب الباب الأمامي لتعطير المدخل بشذاها. قررت ألا أخبر والدَيّ عن لقائي لويل إلا بعد انقضاء العطلة. وقد أخبرني حدسي عندما لاحظت غياب الفرح عن البيت أن الجو مشحون بطريقة ما، ولاحظت أن أمي ليست على ما يرام.

لم يهطل الثلج في ذلك العام، فذهبنا بالسيارة عصر يوم الخامس والعشرين من الشهر إلى إنديانابوليس، وتناولنا العشاء برفقة جدّيَّ. كانت الوجبة دسمة كالعادة؛ إذ كانت البطاطا غارقة بالزبدة، والفاصولياء مقطعة إلى أجزاء صغيرة، وأُترعت الصحون بأشياء لا يمكن معرفتها بسبب غرقها في بحيرة من المرق البني. تناول والدي الكثير من الشراب كما لو كان سمكة محرومة من الماء.

وحسبما أذكر، كان هذا العام يحتفل بمنتخب كلوتس الرياضي الذي تم اختياره من قبل جريدة الأسوشييتد برس على أنه أكثر الفرق احترافية لهذا العام؛ بعد أن كان قد حاول الحصول على هذا اللقب كثيراً من قبل. حاول إقناع والده بالاحتفال معه، ولكن الجدّ جون استغرق في النوم إلى المائدة أثناء كلامه – في منتصف الجملة التي كان يقولها – كما لو أن إحدى الساحرات قد رمت تعويذة خاصة بالنوم الفوري عليه. وعندما أستعيد أحداث تلك الليلة، أدرك أن ما جرى كان دليلاً على اقتراب إصابته بالزهايمر الذي لا يرحم، ولكننا لم نكن نعرف ذلك في ذلك الحين، فتعاطفنا مع نعاسه المفاجئ بطريقة حميمة لا أكثر.

كانت دورتي الشهرية على الأبواب، وكنت أشعر بثقلها في بطني؛ مما منحني العذر للاستئذان قبل نهاية العشاء، وللذهاب والاستلقاء على السرير الذي قضيت عليه الصيف الذي رحلت فيه فيرن. لم أقل بالطبع إنني كنت في فترة حيضي، ولكنني لمـّحت إلى ذلك بطريقة غير مباشرة، وبكلمات غير مألوفة لجدي الذي لم يفهم على الإطلاق ما عنيته؛ مما دفع جدتي فريديريكا للهمس له شارحة.

كان المهرج على الحائط لا يزال على حاله، لكن السرير اختلف بعض الشيء؛ إذ قاموا باستبدال هيكله الخشبي بهيكل حديدي مطلي بلون عاجي، فعرفت أن جدتي قد غيرت اهتماماتها من جمع القطع القديمة الآسيوية إلى جمع المفروشات من محل بوتري بارن.

هذه هي الغرفة التي فكرت فيها طوال أسابيع أنني الأخت الغدارة والواشية التي قادها لسانها إلى الموت بؤساً ووحدة هنا. إنها الغرفة التي تخيلت فيها أن لويل قد أخبر الجميع بأنني كاذبة حقيرة. وباعتبار أنه لم يكذب يوماً في حياته على والديّ فلا بد أنهما صدّقاه. هذه هي الغرفة التي فكرت فيها أنني السبب في كل ما قد يجري لفيرن وفي القضاء على سعادتها.

ما فعلته فيرن بالقطة شنيع ورهيب. وإن كنت أختلق تلك الأحداث من عقلي فإن هذه خطيئة لا تغتفر.

هل اختلقت ذلك؟

أطفأت المصباح المجاور للسرير، واستلقيت بمواجهة النافذة، فرأيت أنوار المصابيح التي علقها جار جدي في الشارع، والتي كانت تتدلى من أطراف سقف منزله كالهوابط الجليدية، وتُلقي بوهج شاحب على أنحاء غرفتي. فكرت في آبي – شريكتي في الغرفة في مهجع الجامعة في السنة الأولى – التي أخبرتنا في إحدى الليالي عن أختها التي ادعت أن أحد أقربائها قد تحرش بها، ثم غيّرت رأيها وقالت إنه كان حلماً لا أكثر. وعلى حدّ قولها:

«ثم دمرّت أختي المجنونة كل شيء، أنا أكرهها».

وتذكرت لويل عندما قال:

«إذا أخبرت أحداً فسأكرهك إلى الأبد».

شعرت في تلك الليلة في المهجع بأن الكاذب الذي يختلق قصصاً بمثل تلك البشاعة يستحق بكل جدارة أن يكرهه الآخرون إلى الأبد.

وعندما كنت في الخامسة من عمري، كان للويل كل الحق ليكرهني. فقد وعدته ألا أتكلم ونكثت بوعدي رغم تحذيره لي.

كانت معاطفنا مكدسة فوق أغطية السرير، فبسطت معطف أمي على قدميّ. اعتادت ماما في طفولتي أن تتعطر بعطر يدعى Water Florida، ولكنها تتعطر الآن برائحة غير مألوفة بالنسبة إليّ؛ كما هو حال البيت النموذجي الجديد الذي يقيمان فيه حالياً. إلا أن هذه الغرفة ما زالت تحتفظ برائحة

الماضي نفسها، رائحة الكعك القديم التي لم تفارق الغرفة منذ أن كنت في الخامسة من العمر.

اعتدنا أن نفكر بأن أفضل طريقة لاستعادة الذكريات بحذافيرها هي في الذهاب إلى مكان وقوع الحادثة، لكن هذا الاعتقاد ككل شيء آخر... لم يعد ثابتاً وقاطعاً كما كان عليه في السابق.

لكننا ما زلنا في عام 1996، سأسبر أغوار عقلي متظاهرة بأنني في الخامسة من العمر جداً، وسأحاول أن أشعر بالضبط كما كنت أشعر في نهاية كل يوم من أيام إقصائي عن عائلتي هنا؛ وأنا مستلقية على هذا السرير، وفي هذه الغرفة.

أول ما خطر لي هو الشعور بالذنب لعدم وفائي بوعدي، ثم شعرت بالإحباط لأنني فقدت حب لويل إلى الأبد، وباغتني اليأس لأنه تم نفيي بعيداً عن البيت.

ثم المزيد من الشعور بالذنب؛ لأنني سلبت القطة فلذة كبدها، وتركتها تنوح عليه وسلمته لفيرن. وما دفعني للشعور بالذنب أكثر هو أنني أغفلت ذكر هذه النقطة عندما وشيت بفيرن، وتظاهرت أنها تصرفت وحدها. لا سيما وأننا كنا نقوم بكل شيء معاً؛ مهما كان. وكنا كفريق نتلقى العقاب معاً على أي ذنب نرتكبه، كوحدة متكاملة لا تخذل بعضها بعضاً، وقد كان ذلك أمراً مشرّفاً.

ثم اجتاحني الشعور بالغضب. ربما كنت شريكة في الخطأ، ولكنني لم أقتل القطة. ففيرن هي التي قامت بذلك وحدها، وكان مجرد عدم تصديقي ظلماً كبيراً لي. كل الأطفال يشعرون بالظلم أو العدالة تماماً كالقردة، وعلى الأخص عندما نكون من تقع عليهم اللائمة.

ربما لم أخبر أمي بكل ما جرى؛ لم أخبرها بالحقيقة الكاملة، لكنني لم أكن لأشعر بالاضطهاد الشديد لو كذبت.

أجبرت نفسي على استعادة تلك الذكرى الغائبة مرة أخرى وأنا مستلقية على سريري، منصتةً إلى أصوات الأطباق في المطبخ، ونقاشات والدي الرياضية مع جدي، ومؤامرات والدتي وجدتي، وقدماي مغطاتان بمعطف أمي، فيما يُعرَض على التلفاز حفل قديم لفرانك سيناترا في شبابه. بحثت عن آثار تساعدني، وراقبت نفسي عن بعد، ثم حصل أمر جلل؛ إذ أدركت أنني لا أعرف حقيقة ذاتي، وأنني لا أعرف من أكون.

وفي مواجهة تلك الذكرى الحية في ذهني بما يكفي للانقلاب على مفهوم الذاكرة بحدّ ذاته باحتراف ودقة تليق بإثبات رياضي لمسألة رياضية معقدة، وفي مواجهة كل الدراسات التي تقول إن الشخصية لا علاقة لها بتقرير السلوك، وإلى جانب احتمال أنني أبدو من وجهة نظركم كرجل آلي لا عقل له وتديره كائنات فضائية، ما زلت واثقة – وأنا بكامل إدراكي – أنني لم أختلق تلك القصة من العدم. أنا متأكدة من ذلك؛ لأن الشخص الذي هو أنا... الشخص الذي كنته على الدوام... هذا الشخص لا يمكنه أن يقوم بذلك أبداً.

غفوت بعد كل تلك الأفكار. في الماضي، كان والدي يحملني برفق، وينقلني إلى السيارة، ثم يقود إلى بلومنغتون، ويحملني إلى غرفتي مجدداً وهو حريص على عدم إيقاظي أبداً. لو كانت الأعاجيب حقيقية، لكنت قد استيقظت في الصباح التالي ووجدت نفسي في بلومنغتون؛ في البيت برفقة لويل وفيرن.

فكرت في إخبار والديّ عن لقائي لويل في تلك الليلة؛ فقد كنت في المزاج المناسب لذلك بعد رحلة البحث الروحية المؤلمة التي خضتها، كما أن الرحلات الطويلة بالسيارة أوقات جيدة للبوح بالاعترافات وخوض النقاشات الشائكة. لكن والدي كان ثملاً، لذا أرجع مسند مقعده إلى الوراء واستغرق في النوم.

بدا لي اليوم التالي غير مناسب لإجراء ذلك الحديث لسبب لا أذكره؛ ولكنه على علاقة بمزاج والدتي. ثم وصلت درجاتي عبر البريد فلم أتمكن من فتح موضوع أخي، لكنها كانت مفيدة كمصدر إلهاء لي عن الموضوع الأساسي؛ ولهذا لم أخبرهما عن ذلك اللقاء إلا عندما قاربت زيارتي على الانتهاء. كنا نجلس إلى مائدة الفطور، وأشعة الشمس الساطعة تتدفق من النوافذ الفرنسية الكبيرة المطلة على الحديقة الخلفية المزروعة بأشجار كبيرة وكثيفة؛ لدرجة أن نور الشمس لم يكن يدخل هذه الغرفة إلا نادراً. وعندما كان يدخل، كنا نستغل الفرصة ونجلس فيها، وكان كل ما يمكننا أن نراه من تلك النوافذ مجموعة من عصافير الدوري المهذبة المصطفة على حامل طعام العصافير.

أنتم تعرفون ما جرى خلال زيارة لويل. ولهذا، بدلاً من تكرار كل شيء، سأقص عليكم ما لم أخبر به والديّ: لم أخبرهما عن هارلو وعزرا ومركز أبحاث الجامعة، وعن الزيارتين اللتين قمت بهما إلى السجن، وعن تناولي الحبوب المهلوسة والمخدرة، والحالة التي وصلت إليها حينما احتسيت الكثير من الشراب، وتخريب الممتلكات الذي قمت به. فهذه الأمور ليست ذات قيمة بالنسبة إلى والديّ... هكذا ظننت، فبدأت من منتصف الحكاية، وتوقفت في منتصفها أيضاً، ولم أخبرهما سوى عن جلستنا الصباحية في المخبز، والأحاديث الطويلة التي خضناها، والفطيرة التي تناولناها.

انتهى تقريري عند هذا الحدّ، ولم أخفِ عنهما قلقي على حالة لويل العصبية والفكرية، أو نقده لأعمال والدي، أو كلامه عن الجرائم الشنيعة التي ترتكبها البشرية بحق الحيوانات. كان وقع ذلك الكلام قوياً وجارحاً على والدي. وعندما وصلت إلى مسألة فيرن، لم أغفل عن ذكر معرفتي بأنها ليست موجودة الآن ولم تكن يوماً في مزرعة، وأخبرته أنني أعرف أنها غادرت بيتنا لتعيش حياة بائسة وراء القضبان. لا أذكر بالضبط الجملة الدقيقة التي قلتها، لكن والدي اتهمني بأنني أعزف على وتر حساس وقال:

«كنت في الخامسة من العمر! بحق الله، ما الذي كان يفترض بي قوله لك حينها؟!».

وكأن الجريمة الكبرى التي اقترفها كانت القصة التي اختلقها لي.

تألّم والداي لدى معرفتهما أن لويل يتمنى لو أنه ذهب إلى الجامعة، وقضت عليهما تماماً فكرة أنه يحب أن يأتي إلى بيت والديه كسائر الناس. وكان علينا أن نجري حديثاً آخر لاحقاً في ذلك اليوم نفسه ليستوعبا ما قلته في الصباح. انهمرت الدموع بغزارة فيما كنا جالسين إلى تلك الطاولة، ومزقت أمي كل المناديل الورقية التي استعملتها وحوّلتها إلى نتف صغيرة لأنها ذرفت كل الدموع التي يمكنها أن تذرفها خلال عمر كامل.

فاجأني والدي أيضاً؛ لأنني ظننت أنني الوحيدة التي أحمل لهما أخباراً ومعلومات جديدة. ولكن ما فاجأني به هو أنني كنت السبب الحقيقي الذي منعهما من الحديث عن فيرن طوال كل تلك السنين؛ لأنني كنت الشخص الذي لم يكن يحتمل ذلك. فقد كنت أختنق، وأكاد أتوقف عن التنفس لدى ذكر اسمها، وأحكّ جلدي إلى أن أدميه، وأشد شعري إلى أن أقتلعه من جذوره. لقد اتفقا بلا نقاش حول هذه النقطة، وحاولا عبر السنين عدة مرات أن يكلماني عن فيرن، ولكنني تصديت لمحاولاتهما بعناد غير مسبوق.

وأثناء العشاء الذي أخبر لويل والديّ فيه أن فيرن تحب الحصول على حبات الذرة المسلوقة في كأس لتأكلها بالملعقة – مثلنا تماماً – أي في الليلة نفسها التي غادر بها المنزل لأن والدتي لم تكن بحالة تسمح لها بالحديث عن فيرن بعد... حسناً، لم تجر تلك الأحداث على ذلك النحو، وقد أخبرني والداي بحقيقة ما جرى. فأنا التي انتحبتُ وطلبتُ منهم جميعاً أن يتوقفوا عن ذلك الحديث، وأخبرتهم أنهم يجرحونني، ثم صرخت هكذا بكل بساطة بهستيرية وبشكل مؤثر؛ إلى أن توقفوا جميعاً عن الكلام، ثم غادر لويل البيت.

تحدّى تأكيدهما لما جرى كل ذكرياتي الأخرى، ولكنني تفهمت الأمر لأنه يوضِّح نفسه وليس لأنني اقتنعت.

ورغم الهستيريا المزعومة التي كنت أصاب بها، فقد صُعِق والداي بحجم الشعور بالذنب الذي شعرت به حيال رحيل فيرن، وقالا لي إن لا أحد يهجر ابنه لأنه قتل حيواناً، وإن القطة ليست السبب الكامن وراء إقصاء فيرن من البيت. فصحيح أن ما فعلته بالقطة كان سيوقعها في مأزق كما قال لويل، ولكنْ كانت ستُبذل الجهود لإبعادها عن صغار الحيوانات، وهذا كل شيء.

ثم أقسم لي والداي أن هناك حوادث أخرى حصلت، وأنني أعرف بشأنها، كما شهدت بنفسي بعضها ولكنني لا أذكرها. فقد زعمت خالتي فيفي أن فيرن انحنت فوق عربة ابنها الصغير بيتر في أحد الأيام، ووضعت أذنه بكاملها في فمها، فما كان من الخالة فيفي إلا أن أقسمت على ألا تزورنا بعدها أبداً طالما أننا نحتفظ بهذا الوحش في بيتنا؛ الأمر الذي أحزن والدتي، ولكنه أفرح قلب والدي لأنه رأى في ذلك انتصاراً بشكل ما عليها.

كما أصابت فيرن يد أحد الطلاب الباحثين إصابة بالغة عندما عضت يده بأسنانها بقوة. فقد كان يحمل برتقالة في يده، مما دفعهم للاعتقاد أن فيرن

كانت تريد عض البرتقالة، لكن العضة كانت قوية لدرجة أنه احتاج إلى عمليتين جراحيتين، وانتهى الأمر برفع دعوى قضائية ضد الجامعة. فيرن لم تحب ذلك الشاب قط.

كما أنها دفعت في حادثة أخرى أيمي التي تعشقها – وهي طالبة باحثة أخرى – إلى الجدار مسافة عدة أقدام، وبدا للجميع أن تصرف فيرن هذا كان مفاجئاً وبلا سبب. أصرت آيمي حينها على أن ما حصل حادثة عابرة، في حين أصر المراقبون الآخرون من الطلبة على أن فيرن لم تكن تبدو لاهية ولاعبة أو غير مبالية. لم يتمكنوا من إثبات أي شيء عليها تحت بند السلوك العنيف. وعلى أثر هذه الحادثة غادرت شيري – الطالبة الباحثة الأخرى – البرنامج رغم بقاء آيمي.

كانت فيرن لا تزال صغيرة ولطيفة في ذلك الوقت، ولكنها كانت تنمو وتكبر في الحجم؛ مما يعني أنها بدأت تخرج عن السيطرة.

«لم يكن من الحكمة أن ننتظر وقوع حادثة أكثر خطورة لنرسلها بعيداً. كما أن بقاءها أكثر من ذلك لم يكن يعود بالنفع عليها أو على أي شخص آخر. ولو آذت شخصاً ما فستقوم الجامعة بإقصائها بكل الأحوال. كنّا نحاول أن نعتني بالجميع هنا في البيت يا حبيبتي، لم يكن أمامنا خيار آخر». قال والدي ذلك، ثم قالت أمي:

«لم يكن الذنب ذنبك. لم يتعلق الأمر بك قط».

لم تقنعني جملة أمي مجدداً. وبينما تابعنا الحديث عن فيرن خلال الأيام الباقية من زيارتي، أدركت أنني اتهمت نفسي بكذبة أخرى. فصحيح أنني أخبرت أمي أن فيرن قتلت قطة صغيرة – وتلك لم تكن كذبة – لكن ذلك لم يتسبب في إرسالها بعيداً عن البيت، ولم يكن إخباري أمي بحد ذاته ذنباً في حق فيرن.

لكنني لم أتوقف عند ذلك. إذ لم أعتقد أن فيرن قد تؤذيني عمداً. لم ألاحظ أنها قد تفعل ذلك، لكن عدم ندمها الواضح عندما نظرت بلا اكتراث إلى الصغير الميت، ثم بقرها بطنه بأصابع يديها صدماني حتى النخاع. لهذا، هذا ما كان يجب أن أقوله لأمي.

كان يجب أن أقول لأمي إن هناك شيئاً لا أعرفه في أعماق فيرن.

وإنني لم أعرفها على حقيقتها يوماً كما كنت أظن.

وإن فيرن تحتفظ بأسرار كريهة وسيئة.

لكنني قلت لها وقتها إنني أخاف منها فقط. تلك كانت الكذبة التي دفعتهما إلى إبعادها من البيت، وتلك كانت اللحظة التي اضطر فيها والداي إلى الاختيار بيننا.

# 2

في حياة كل واحد منا، هناك أشخاص رحلوا، وأشخاص باقون، وآخرون أُرسلوا بعيداً ضد رغبتهم.

حاولت أم تود جهدها لعقد صفقة مع القضاء من أجل عزرا، ولكن القضاة لم يفهموا أن فتح أي باب يعادل إغلاق باب آخر، فأقر عزرا بأنه مذنب، وحُكم عليه بثمانية أشهر من الاحتجاز في سجن يتمتع بالحدّ الأدنى من الاحتياطات الأمنية في فاليجو، وقالت أم تود إنهم سيفرجون عنه بعد خمسة أشهر إذا أحسن التصرف. خسر عزرا بسبب فعلته تلك عمله الذي كان يقوم به بكل تفانٍ، وعرّض نفسه لخطر الوقوع في أيدي رجال الاستخبارات المركزية الذين أصبحوا في انتظار أي زلة منه للقبض عليه. لم أقابل في حياتي مدير مبنى يحب عمله ويتفانى في أدائه مثل عزرا. وأذكر أنه قال لي مرة:

«سر الحياة السعيدة هو بذل كل طاقاتك وقدراتك أثناء قيامك بأي عمل. فحتى لو كان عملك هو إخراج القمامة إلى الحاوية، قومي به على أكمل وجه».

بعد انتهاء العطلة، ذهبت لزيارته في اليوم المخصص لذلك، وكان قد مضى عليه هناك حوالي الشهر. تم إحضاره إلى غرفة الزيارة مرتدياً لباسه البرتقالي، وجلسنا متقابلين أمام منضدة يمكننا أن نشبهها بالمنضدة التي تراها في المنتزهات. طُلِب منا ألا نلمس بعضنا بعضاً، ثم تُركنا وحدنا. اختفى شارب عزرا، وبدت شفته العليا ناعمة؛ كما لو أن الشعر قد نُزع عنها ولم يُحلق، وبدت أسنانه أكبر حجماً، وعرفت من النظرة الأولى أن معنوياته في الحضيض، غير أنني سألته عن حاله.

«الأمور ليست كما عهدتها».

ممّا أكد لي أنه عزرا الذي أعرفه؛ عزرا الذي يحاول لعب دور من فيلم *Fiction Pulp*. ثم سألني إن كنت قد سمعت أي أخبار عن هارلو.

«حضر والداها من فريزنو بحثاً عنها، ولكنهما لم ينجحا في العثور عليها. لم يرها أحد».

في الأيام التي تلت لقائي لويل وإخباري إياه أنها لم تذكر عائلتها قط، أخبرتني أن لديها ثلاثة إخوة أصغر منها سناً، وأختين أكبر منها، وجميعهم إخوة وليسوا أشقاء.

أخبرتني أن أمها كانت واحدة من أولئك النساء اللواتي يعشقن حالة الحمل، ولكنهن لم يكن من مُحبّات العلاقات طويلة الأمد؛ وهو نوع من الحياة الهيبية إذا جاز لنا التعبير. كان كل واحد من إخوة هارلو وأختيها من أب مختلف، ولكنهم عاشوا جميعاً مع أمهم في بيت متداعٍ في طرف البلدة. وعندما ازداد

عدد الأطفال، قام بعض الآباء بتحويل القبو إلى غرف نوم، حيث أمضى الأولاد معظم وقتهم بلا رقابة كما هي حال الأولاد في فيلم بيتر بان. لم تلتق هارلو والدها لسنوات طويلة، ولكنه كان يدير فرقة مسرحية في غراس فالي، ووعدها بأن يساعدها على العمل في المسرح ما إن تنهي دراستها الجامعية. وكان على حد قولها طوق نجاتها من تلك الحفرة البشعة.

صعقتني أوجه الشبه بين حكايات هارلو عن القبو وبيت الشجرة الذي كنت أتمنى الحصول عليه. وكان الاختلاف الوحيد هو أنك تضطر إلى النزول إلى الأسفل لتدخل أرض أحلام هارلو. وتقول الدراسات الحديثة إن الناس يتصرفون بعطف أكبر وشفقة مضاعفة عندما يصعدون إلى الأعلى، ويكونون أكثر بخلاً كلما نزلوا نحو الأسفل. يا لتلك الدراسات الأشبه بكومة هائلة من الترهات! حقول العلوم كثيرة، والدراسات كثيرة، وعندما يكون البشر هم موضوع الدراسة فإن ما يجري عليهم من دراسة أبعد ما يكون عن العلم.

كانت لبيت الشجرة والقبو ميزة مشتركة أخرى؛ فكلاهما كان خيالياً.

اتضح لي أن هارلو طفلة وحيدة. أبوها يعمل في شركة E&PG وهذا عمل خطير بسبب الكلاب الكثيرة التي يتعامل معها الموظفون. أما أمها فأمينة مكتبة عامة.

كان والداها طويلي القامة، ومنحنيَي الظهر كما لو أنهما تلقيا ضربة مفاجئة على البطن. شعر والدتها مماثل لشعرها ولكنه قصير وعملي، وقد عقدت منديلاً حريرياً حول عنقها الذي تدلت منه قلادة فضية طويلة تحمل نقوشاً فرعونية. وقد عرفت من بين الأحرف الهيروغليفية رمز العصفور، وفكرت في أنها فعلت ما بوسعها قبل مجيئها لتبدو أنيقة لدى لقائها الشرطة المحلية، ولتراني وتلتقي ريغ. تخيلتها واقفة أمام خزانتها والحيرة تملأ جوارحها؛ ما الذي يرتديه المرء عندما يذهب لمعرفة شيء قد يفطر قلبه عن ولده؟! ذكرتني بأمي مع أنهما ليستا متشابهتين بأي شيء آخر غير الأسى الذي سببه لهما فلذات أكبداهما.

خشي والدا هارلو أن تكون قد اختطفت أو أصابها شيء خطير آخر لأنها لا تتصرف عادة على هذا النحو، بل تتصل لتطمئنهما عليها. كانا هشّين كزجاج فينيسي سريع الكسر، وخائفين من احتمال موتها، وحاولا دفعي للتفكير في ذلك من دون أن يتفوها بالكلمة، وقالا إن عزرا ربما كان كاذباً في اتهامه لها بأنها شريكته، وذلك من أجل حماية شخص آخر. لم تكن هارلو – على حد قولهما – لتفوت قضاء العطلة معهما، وقد احتفظا بهداياها على حالها إلى أن تعود إلى المنزل.

أصرّا على اصطحابي إلى الخارج لإجراء هذا الحديث، فجلسنا في مقهى ميشكا، وشربنا القهوة وسط السكينة والهدوء اللذين تتسم بهما الأيام الأولى في فصل الشتاء. ولم يكن في المقهى سوى زبون آخر غيرنا، لذا لم نسمع سوى صوت طحن حبات القهوة الطازجة.

شربت قهوتي، بينما بقي فنجاناهما على حالهما من دون أن يلمساهما إلى أن بردا.

أخبرتهما أنني لا أشك في أن هارلو حية ترزق، وأنها أتت إلى شقتنا في اليوم التالي للاقتحام وأخذت شيئاً نسيته عندنا. ومع أنني لم أرها بنفسي إلا أنني متأكدة من قدومها. وقلت لهما إنها تركت وراءها أثراً لا شك فيه، وهذا كل شيء. تنهدت أمها قليلاً بصوت يائس، ثم بكت بحرقة وأمسكت يديّ، فاهتزت الفناجين وسُكب بعض محتوياتها على الطاولة.

لطّخت القهوة ملابسها أكثر مما فعلته بمفرش الطاولة. وفكرت في أنها أتلفت كنزتها الرائعة، ثم قال والدها عدة مرات ونحن ننظف القهوة:

«لكن هذا التصرف لا يشبهها. اقتحام الأماكن والاستيلاء على الأشياء...» وهو يعني القردة حسبما أظن، فأتبعت ذلك بجملة أخرى وأنا أعني مدام ديفارج:

«وأخذ أشياء ليست ملكاً لها».

تساءلت إن كنا نتكلم عن الفتاة نفسها؛ لأن كل شيء أنكر والداها شبهها به بدا شبيهاً بهارلو التي أعرفها.

لكن أكثر الأشخاص الذين يستطيع الإنسان خداعهم هم الأهل؛ فالأهل يرون فقط ما يحبون رؤيته. أخبرت عزرا ببعض من هذا، وفكرت في أن كلامي أحبطه أكثر مما أثار اهتمامه، وفوجئت برغبة باغتتني في أن ألمسه وأقدم له الدعم؛ وهي رغبة لم أشعر بها من قبل وشعرت بها الآن غالباً لأن التلامس في غرفة مقابلة السجناء ممنوع. وددت أن ألمس ذراعه، وأشعر بملمس شعره، وأشحذ معنوياته، ولكنني لم أكن أستطيع القيام بذلك فضغطت على يديّ كي لا تسبقا تفكيري.

«إلى أين كنتما تخططان أن تأخذا القردة؟».

«إلى المكان الذي ترغب فيه».

# 3

ما إن ودعت لويل في محطة القطار حتى بات تسكعي في المكان بلا جدوى، وبات تأجيل دراستي ضرباً من الجنون. عندي أخت يجب عليّ الاهتمام بأمرها، وقد آن أوان العمل.

انتظرت التقرير الأول لمعرفة أحوال فيرن ولكنه لم يصل. لا بد أن لويل أخطأ في شيء ما مما منع وصول التقرير إليّ. في تلك الأثناء، بحثت في كل المراجع التي تذكر إناث الشمبانزي في المختبرات بحثاً عن فيرن، ولكن بلا طائل.

فكرت في العمل في مختبرات غومب ستريم بعد التخرج، وإمضاء الساعات في مراقبة قردة الاكاسكيلا لأنني ظننت أنني أملك شيئاً خاصاً أقدمه في تلك المنشأة. وربما وجدت طريقة بعد كل تلك السنين للاستفادة من تجارب والدي. ظننت أنها الحياة التي ولدت لأعيشها، وحلمت بذلك كما كنت أحلم ببيت الشجرة كل ليلة إلى أن أستغرق في النوم. فكرت في أن ذلك المكان هو الذي يناسبني؛ كالأدغال بالنسبة إلى طرزان. وقد أبهجت تلك الفكرة روحي.

انهارت معنوياتي عندما تذكرت ما أخبرنا به الدكتور سوسا في محاضرته، وأدركت أن هذا العمل لا يناسبني. أنا لا أستطيع فعل ذلك.

بالإضافة إلى هذا، كنت قد تفاديت دراسة الرئيسيات في سنواتي الجامعية كافة؛ مما يعني أن اتخاذي مثل هذه الخطوة لبدء مهنة كتلك يعني إعادة دراستي الجامعية منذ البداية.

وكيف يمكن أن يساعد ذلك فيرن؟

تذكرت في تلك اللحظة حبيبة لويل القديمة كيتش التي أخبرتني في إحدى المرات أنني أصلح لكي أكون معلمة رائعة، وفكرت في ذلك الحين أنها تجاملني لا أكثر، بالإضافة إلى جنون الفكرة بحد ذاتها، والتي لا بد أنها نتيجة عادية للجنون الذي تُصاب به الفتيات بعد إقامتهن معاً في مسكن الفتيات الجامعيات.

وبعد مرور عدة ساعات من التفكير وأنا أحمل كتيب الجامعة في إحدى يديّ وطلباتي الجامعية في اليد أخرى، بدا لي أن التخصص الوحيد الذي يمكن قبولي فيه هو التعليم، فكل ما ينقصني الآن هو الاعتماد المالي لأنتهي من التسجيل، وأنا واثقة من عدم وجود اختصاص آخر يمكنني التسجيل فيه والانتهاء من دراسته بسرعة غير هذا.

قابلت ريغ صدفةً أثناء ذاك الربيع في المكتبة، فاقترح أن نذهب معاً لحضور مسرحية ماكبث التي تقدمها فرقة المسرح الجامعي، وكانت لديه تذكرتان حصريتان لصديقَي هارلو فقط.

وافقت على عرضه، والتقينا في ساعة الغسق أمام مبنى الفنون المسرحية (بعد شهر من ذلك اليوم، تم تغيير اسم المبنى إلى قاعة سيليست ترنر رايت، وهو أحد الأبنية الثلاثة في المدن الجامعية التي تحمل اسم امرأة. أشكرك يا سيليست باسمي واسم كل النساء في ديفيس). كان المساء ساحراً، وقد أزهرت فيه شجيرات الورد الأحمر والكشمش المتاخمة للمسرح، فيما ملأت زقزقة العصافير البرية الجو من حولنا.

حضرنا مسرحية ماكبث الدامية المعتادة التي لا تحتوي على أي من أفكار هارلو، وفكرت للحظة من الزمن في أن هذا معيب إلى حدّ ما. لم يكن العرض سيئاً، ولكنه كان سيكون أفضل بكثير لو أجروا عليه التغييرات التي اقترحتها. وأصرّ ريغ على عدم وجود شيء مضحك في العالم أكثر من رجل يرتدي ثوب امرأة بثقته المعتادة بنفسه.

أما أنا فقد رأيت أنه أمر مروع ويحط من قدر النساء في أي مكان، وأخبرته أنه قد يكون الأخرق الوحيد في العالم الذي يظن أن ماكبث رواية كوميدية.

أشار لي بيديه وقال:

«عندما يصطحب رجل فتاة لحضور مسرحية نسائية الطابع، فهو يعرف الورطة التي يوقع نفسه فيها، ولا بد أن يعرف مسبقاً أن الأمسية ستنتهي بشجار». ثم سألني بوقاحة إن كنت في فترة حيضي، وعلق بأن حدوث مثل هذا الأمر كوميدي أيضاً.

في تلك اللحظات، كنا نتجه إلى سيارته، فالتفتّ بشكل مفاجئ وابتعدت وفضلت العودة وحدي مشياً على الأقدام. يا له من أحمق! أدركت بعد أن اجتزت أكثر من نصف الطريق ما كان يقوله:

«عندما يصطحب رجل فتاة...»

لم أدرك من قبل أنه كان موعداً غرامياً.

اتصل بي في اليوم التالي ليطلب مني الخروج برفقته مرة أخرى. استمرت لقاءاتنا حوالي خمسة أشهر. وحتى الآن، بعد أن أوشكت على بلوغ الأربعين من عمري، ما زلت أذكر تلك الفترة على أنها أفضل علاقة مرت في شبابي. لقد راق لي ريغ كثيراً، ولكننا لم ننتقل للسكن مع بعضنا على الإطلاق لأننا كنا نتشاجر طوال الوقت، ولم أكن أتمتع بالسكينة والاتزان اللذين كان يأمل بهما.

قال لي مرة في إحدى الأمسيات:

«لا أعتقد أن هذه العلاقة ستنجح».

كنا جالسين في السيارة أمام منزلي بانتظار رحيل رجال الشرطة الذين كانوا يغرِّمون سكان الطابق الثالث من أجل الضجة العالية التي يصدرونها.

«لِم لا؟». سألت بلهجة الباحثة العِلمية.

«أعتقد أنك رائعة، وجميلة جداً... لا تجبريني على التفوه بما يمكن أن يجرحك». ولهذا، لا أعرف بالضبط السبب الذي دفعه للانفصال عني.

ربما كانت المشكلة فيه هو، وربما كنت أنا السبب، وربما كان شبح هارلو الذي يرفض مفارقة علاقتنا؛ وهي ترمينا بنظراتها الجاحظة كما حصل في مسرحية ماكبث عندما قالت البطلة:

هيّا من هنا

أيها الشبح المخيف.

يا له من تنكر ساخر مصطنع وزائف!

هيا ارحل من هنا.

لم يكن الحوار جارحاً كما يبدو حين أتذكره. وعندما أفكر في ريغ فأنا أفكر فيه بشغف. في ذلك الوقت، كنت واثقة للغاية من أنني الشخص الذي بدأ في الانفصال عن شريكه، مع أنه كان الشخص الذي تفوه بالكلمة أولاً. في ما بعد، سمعت أنه كان يتصرف بطريقة غير سوية، ولهذا أعتقد أنني نلت شرف الانفصال عنه قبل أن ينفصل هو عني.

الحقيقة الثابتة الكبرى هي أنني لا أستطيع الاستمرار في العلاقات الحميمة لفترات طويلة؛ وليس السبب أنني لم أحاول... لا تجبروني على الاعتراف بكل ما في نفسي.

أتساءل إن كان لويل يوافقني الرأي في أن الطريقة التي نشأت فيها قد دمرتني. ومما لا شك فيه أن طريقة التربية هي المسؤولة عن إصابة أي منكم بتلك الحالة.

يظن المرء في البداية أنه قادر على ذلك، ولكنه لا يستطيع. ربما كان السبب عدم قدرته على ملاحظة عدم قدرته ذاك.

قالت لي أمي إن السبب هو أنني لم ألتق الرجل المناسب وحسب؛ الرجل الذي سيرى بريق النجوم في عيني.

كان هذا صحيحاً إلى حد بعيد؛ فكل ما كنت بحاجة إليه هو أن ألتقي ذلك الشاب.

مات الرجل الذي رأى بريق النجوم في عيني أمي عام 1998. خرج والدي في إجازة تنسّكية خلوية للتخييم لمدة أسبوع، حيث يمكنه أن يصطاد السمك ويبحر بقاربه الجلدي الصغير ويتأمل الحياة على ضفة نهر الواباش. وبعد يومين من وصوله، وبينما كان يحمل القارب على كتفيه ليتنقل به فوق بعض الصخور، أصابته أزمة قلبية لم تفقده وعيه، فاعتقد أنها هجمة أنفلونزا حادة، لكنه عاد إلى المنزل ورقد في سريره، حيث أصابته أزمة ثانية في اليوم التالي، وثالثة على سرير المستشفى في الليلة نفسها.

عندما وصلت إلى المستشفى كان والدي يتسلق جبال أحلامه، وبذلت أنا وأمي جهوداً جبارة لإخباره بأنني وصلت، ولكنني لم أتأكد من أنه عرفني، وقال

بلهجة المحرج من شخص لا يعرفه:
«أنا متعب حقاً. هل يمكنك حمل حقيبتي لفترة قصيرة فقط؟».
«بالطبع يا بابا، بالطبع. اسمع، أنا أحملها الآن، وسأحملها طوال الوقت الذي تريده».
تلك كانت محادثتنا الأخيرة التي أعرف أنه سمعها.
أظن أن هذا يبدو لكم كمشهد الوفاة في فيلم سينمائي، مشهد متقن وكلاسيكي، عميق ومؤثر. ولكنه في الحقيقة عاش يوماً آخر لم نشهد فيه لحظة واحدة من الهدوء. شاهدنا الكثير من الدماء والبراز والمخاط، وسمعنا أنينه وشهقاته المتألمة والمتعطشة للهواء لساعات طويلة لم يتوقف الأطباء والممرضات فيها عن الاندفاع دخولاً وخروجاً من الغرفة. سمحوا لنا في البداية بالبقاء بجانبه ثم طردونا إلى الخارج في نهاية الأمر.
تذكرت حوضاً مائياً وأنا أجلس في غرفة الانتظار، تذكرت الأسماك الشفافة التي يمكننا رؤية نبض قلوبها داخل أجسامها الزجاجية، وأذكر أن حلزوناً كانت تجر نفسها متثاقلة ومتمايلة وهي تفتح فمها وتغلقه بلا توقف أثناء تقدمها. باغتتني تلك الذكريات بلا سبب، وفي تلك اللحظة حضر الطبيب فوقفت والدتي لملاقاته فقال:
«أخشى للأسف أننا فقدناه هذه المرة».
وكأنه يمكن أن تكون هناك مرة مقبلة.

في المرة المقبلة، سأوضح الأمور العالقة بيني وبين والدي.
في المرة المقبلة، سألوم أمي بالقدر نفسه الذي ألوم فيه والدي من أجل فقداننا فيرن؛ لأن انهيارها العصبي آنذاك ألقى بكل الحمل على والدي.
في المرة المقبلة، لن ألقي بكل اللائمة على والدي.
في المرة المقبلة سأتحمل نصيبي من اللوم، ولن أقبل بأقل من ذلك. سأخرس في المرة المقبلة في ما يتعلق بفيرن وسأتكلم عن لويل، وسأخبر أبي وأمي أن لويل تخلّف عن حضور تدريبات كرة السلة ليتمكنا عندها من الحديث معه، وعندها... قد لا يغادر.
لطالما خطّطت لكي أسامح والدي في يوم من الأيام، وقد تكبّد من أجل ذلك الكثير من العناء، ولكنه لم يخسرني، وأتمنى لو أنني أخبرته بذلك من قبل. من المؤلم والجائر أنني لم أخبره، كم كان صمتي ذاك عبثياً وبلا معنى.
لطالما شعرت بالامتنان للطلب الأخير الذي طلبه مني، فقد منحني عطية كبيرة ووهبني شيئاً لا يقدر بثمن عندما طلب مني أن أحمل عنه ما يثقل كاهله... مهما كان ذلك خيالياً.
مات والدي عن عمر الثامنة والخمسين، وأخبرنا الطبيب أن جسده كان جسد رجل عجوز منهك بسبب إصابته بالسكري وإدمانه على الشراب في الوقت نفسه، وسألنا:

«هل عاش حياة مليئة بالضغوطات؟».

فأجابته أمي مستنكرة... من الشخص الذي لا تملأ الضغوطات حياته؟!

تركنا جثمانه في المشفى لاستكمال التحاليل الطبية، وجلسنا في السيارة ثم قالت أمي:

«أريد لويل». ثم انهارت على المقود، وكادت تختنق بدموعها إلى درجة أنني اعتقدت أنها ستموت كوالدي.

تبادلنا مكانينا، وقدت السيارة، وقمت بالعديد من الانعطافات قبل أن أدرك أنني لم أكن متجهة إلى البيت بل إلى المبنى الذي عاشا فيه منذ سنين خلت بجانب الجامعة؛ حيث نشأت، وحيث عشت سنوات طفولتي، وكنت على وشك الوصول إلى المبنى عندما لاحظت الخطأ الذي ارتكبته.

نشرت صحيفة *Times York New The* نعياً فائق الاحترام لوالدي؛ الأمر الذي كان سيسعده لو قرأه. وذُكِرت فيرن بالطبع تحت مسمى البحث العلمي وليس كابنة. شعرت بصدمة مفاجئة لدى قراءتي اسم فيرن في الوقت الذي لم أكن مستعدة فيه لذلك قط؛ تماماً كما يحصل عندما تفاجئكم المطبات الهوائية أثناء السفر بالطائرة. لا تزال الطفلة القردة القابعة في داخلي خائفة من الناس، وبدا لي أن هذا النعي في الجريدة يكشفني للعالم أجمع.

لكنني وصلت إلى الجامعة في ستانفورد قبل نشر ذلك النعي، حيث لم أكن أعرف أحداً ولم يعلق أحد أمامي عن الموضوع بكلمة واحدة.

بعد عدة أيام من ذلك، تسلمنا بطاقة بريدية من تامبا تحمل صورة لمبنى الولاية المقبب ذي الطوابق الاثنين والأربعين والمغطى بزجاج داكن بلون الرصاص، وعلى الوجه الثاني للبطاقة وجدنا عبارة موجهة إلى أمي ولي بلا أي توقيع وتقول:

«أنا أستمتع بمشاهدة الكثير من معالم أميركا اليوم».

# 4

أعادت شركة الطيران حقيبتي الضائعة بعد عدة أيام من سفري لقضاء عطلة الكريسمس عام 1996، فاستلمها تود الذي كان لا يزال في الشقة باعتبار أنه نادراً ما كان يسافر باكراً لزيارة أهله في العطل، فتعرف عليها وقال لي: «إنها الحقيبة الصحيحة. هذه حقيبتك، أعرفها بلا شك».

سلمهم الحقيبة التي كنا نحتفظ بها، وهو شيء لم أكن أتوقع حدوثه في غيابي وضايقني.

من المحتمل أن تكون هارلو قد تسللت إلى غرفتي أثناء غيابي عن المنزل كما يحلو لها أن تفعل عادة وأن تكون قد أعادت مدام ديفارج إلى حقيبتها الزرقاء – ناووسها الحجري – ولكنها لم تفعل ذلك.

يؤسفني ذلك لأنني متأكدة من أنها تحفة فريدة وغالية الثمن. وكنت قد نويت كتابة ملاحظة لصاحب الحقيبة ووضعها بجانبها قبل أن تُعاد إليه للاعتذار عن العبث بمحتويات الحقيبة، ولهذا دعوني أعتذر لصاحبها هنا: «عزيزي صاحب الدمية،

مع أنني لم أسرق منك مدام ديفارج شخصياً إلا أنها اختفت وهي في عهدتي. لذا، أعتذر عن حدوث ذلك بشدة لأنني متأكدة من أنك تقدرها كثيراً.

العزاء الوحيد الذي أستطيع تقديمه لك هو أنها تعيش الآن حالة متواصلة من السرور الذي لطالما قدمته للناس حولها. لقد تغير حالها، وباتت الآن ناشطة سياسية ومعارضة للحكومة.

ما زلت آمل أن أتمكن من إعادتها إليك في يوم من الأيام سليمة ومعافاة من كل شر، وأنا أبحث عنها على موقع إيباي على الإنترنت مرة على الأقل شهرياً.

اقبل اعتذاري الشديد.

روزماري كوك.

أما حقيبتي المنتفخة فكانت على حالها؛ تماماً كما تركتها. وجدت كنزتي الزرقاء والخفّ ومنامتي وملابسي الداخلية ومذكرات أمي، ولكن هذه الأخيرة كانت متآكلة الأطراف بعض الشيء وليست جديدة كما كان حالها عندما أهدتني أمي إياها، ومن دون الغلاف الخاص الذي غلفتها به والدتي. غير أن الغلاف والشريط الزاهي اللذين لفتها أمي بهما وضعا بجانبها.

لم أفتح المذكرات فوراً بسبب الإرهاق الناتج عن السفر، كما كنت منهكة من الكلام عن فيرن والتفكير فيها خلال الأسابيع المنصرمة، لذا قررت وضعها

جانباً على الرف العلوي في خزانتي، ودفعتها إلى الخلف كي لا أراها كلما فتحت باب الخزانة.

وبعد أن اتخذت ذلك القرار، فتحت الغلاف وألقيت نظرة على الصفحة الأولى.

وجدت هناك صورة بالية لي مأخوذة في المستشفى حال ولادتي. بدوت حمراء اللون كثمرة توت بري، ولامعة من الماء الذي كان يرافقني في بطن أمي. كنت أنظر إلى العالم حولي بعينين ثابتتين يملأهما الشك، وكانت يداي مرفوعتين إلى جانب وجهي، ومضمومتين بشدة فبدوت جاهزة للملاكمة. وتحت الصورة وجدت قصيدة: حبيبتي... حبيبتي...

يا لوجهك السعيد المكتنز...

يا لك من نبتةٍ برية رائعة!

مضيت قدماً وفتحت المفكرة الثانية، فوجدت أنها خاصة بفيرن، حيث وجدت فيها صورة قديمة لها وقصيدة، أو جزءاً من قصيدة أسوة بي. التقطت الصورة التي كانت تظهرها يوم وصولها إلى بيت المزرعة عندما كانت تبلغ من العمر ثلاثة أشهر. وظهرت يداها وقدماها في الصورة ملفوفتين حول ذراع أحدهم كعشب البحر. لا بد أنها ذراع أمي لأنني عرفت القميص الأخضر الظاهر في الصورة.

كان شعر فيرن واقفاً ومنتصباً حتى على وجهها، أما ذراعاها فكانتا أشبه بعودين رفيعين، وجبهتها مجعدة، وعيناها واسعتين ومشدوهتين.

قالت القصيدة المهداة لها:

يا لطلعتها البهية الملوكية...

نصف ابنة ونصف بطلة.

لم تكن مذكرات أمي مدونات علمية كما ظننت؛ مع أنها تضمنت رسماً توضيحياً أو اثنين وبعض الأرقام والقياسات. كانت مدونات أمي أبعد ما تكون عن المدونات العلمية الجافة والخالية من المشاعر والقائمة على الملاحظة والمتابعة الحثيثة الباردة التي تخيلتها.

اكتشفت أن مذكرات أمي هذه عبارة عن ذكريات طفولتنا؛ أنا وفيرن.

# 5

رويت لكم حتى الآن أحداث منتصف قصة حياتي، وأحداث نهاية بدايتها، وبداية نهايتها، وأعتقد أن الأحداث الباقية متداخلة إلى حد بعيد.

قضيت مع أمي عدة أسابيع في الخريف الماضي في مراجعة يومياتها تلك معاً استعداداً لنشرها. بلغت أمي نهاية العقد السادس من عمرها، وما زالت تحب ارتداء «الأوفرول»، وكانت تحب أن تقول:

«لم أشاهد خصري منذ الأول من آب». لكنها كانت تزداد نحولاً في الحقيقة مع مرور الوقت ومع تقدمها في السن. وقد أصبحت ذراعاها أكثر ارتخاء وساقاها نحيلتين وناتئتي العظام. ما زالت امرأة جذابة، لكن الناظر إليها يستطيع ملاحظة الجمجمة الموجودة تحت جلدها بسبب نحولها، وقد ذكرتني هذه الصور القديمة بالسعادة العظيمة التي كانت تبدو عليها قبل أن نكسر قلبها.

وقد قالت لي يوماً مع أن الصورة الموجودة لا تثبت هذا الوصف: «كنتِ أجمل طفلة وقعت عليها أنظار الناس. وعندما وُلدتِ بعد ست ساعات من المخاض كنت طفلة مثالية تزن سبعة باوندات وأونصتين، وطولك 19 إنشاً. كنتِ طفلة مثالية».

كنت في الشهر الخامس من العمر حين تعلمت الجلوس وحيدة. وهناك صورة لي وأنا جالسة منتصبة الظهر كإبرة خياطة، بينما تجلس فيرن بعكسي وتستند بظهرها على ظهري، وهي تحيط بخصري بإحدى يديها وتبدو وكأنها على وشك التثاؤب أو الانتهاء منه.

في الشهر الخامس من عمرها، كانت فيرن تحبو.

«كانت تضيع طريقها في المنزل وهي تزحف، وكانت يداها تساعدانها في ذلك، غير أن ساقيها كانتا تبحثان عن جدران لتتسلقها. كانت لطيفة للغاية».

بدأت أمشي حين أصبحت في الشهر العاشر من عمري، بينما كانت فيرن تنزل الدرج وحدها بسهولة في ذاك العمر وهي تتأرجح.

«لقد سبقت كل أبناء جيلك في كل شيء إذا قارناك معهم. وأظن أن فيرن دفعتك إلى ذلك».

كنت أزن في الشهر العاشر من عمري 14 باوناً و7 أونصات، وكان عندي في فمي أربعة أسنان؛ اثنتان في الأعلى واثنتان في الأسفل، بينما كانت فيرن تزن 10 باوندات وأونصتين، وقد أوضحت جداول أمي التوضيحية أننا كنا كلانا أقل وزناً من أقراننا.

كانت أولى الكلمات التي قلتها بلغة الإشارة هي «باي باي»، وذلك عندما كنت في الشهر الحادي عشر من العمر. وقد نطقتها عندما بلغت الشهر

الثالث عشر. أما كلمة فيرن الأولى بلغة الإشارة فقد كانت «فنجان»؛ وذلك عندما كانت في الشهر العاشر من العمر.

ولدت في مستشفى في بلومنغتون كأي طفلة عادية، بينما ولدت فيرن في أفريقيا؛ حيث قتلت والدتها بعيد أقل من شهر على ولادتها. قالت أمي:

«ناقشنا مسألة تربية شمبانزي لعدة سنوات، ولكن كل نقاشاتنا كانت نظرية. ولطالما رددت أنني لا أقبل أخذ رضيع شمبانزي من أمه، وأكدت على أنني لن أقبل سوى بشمبانزي يتيم لا يملك مكاناً يعيش فيه، واعتقدت أن الأمر انتهى عند ذلك، ثم حملت بك وتوقفنا عن مناقشة الموضوع.

سمعنا عن فيرن صدفة في تلك المرحلة. فقد اشتراها أصدقاء أصدقائنا من إحدى أسواق الحيوانات في الكاميرون لأنهم اعتقدوا أننا سنأخذها، وقالوا إنها كانت على شفير الموت عندما اشتروها. إذ كانت ضعيفة القوام، ومرتخية العظام كخرقة بالية، وقذرة وشاحبة بسبب الإسهال المزمن، ومغطاة بالقمل. لم يتوقعوا لها النجاة، ولكنهم لم يتمكنوا من تركها بكل بساطة.

فكرنا حينها أنها ستثبت صلابتها إذا نجت من كل تلك الأوبئة، وستثبت أنها مرنة وقابلة للتكيف أينما وجدت.

كانت فيرن في الحجر الصحي عندما ولدتِ، ولم يكن من المناسب جلب أي حيوان من الحجر الصحي إلى البيت في مثل هذا الظرف. ولهذا، كنتِ وحيدتي لشهر واحدٍ من الزمن؛ كنتِ طفلة صغيرة وسعيدة، طفلة يسهل التعامل معها، ونادراً ما بكيتِ. لكنني كنت أفكر في أشياء أخرى، فقد نسيت عندما ولدتك التعب الذي يلحق بالأم في مثل هذه الحالات، ونسيت الليالي التي لا نرى فيها النوم وفترات الإرضاع الطويلة. وكان بإمكاني أن أرفض إجراء تلك التجربة في بيتي بسبب شعوري بالضيق، ولكنني فكرت: ما الذي يمكن أن يحل بفيرن؟ وكلما ترددت وفكرت في تغيير رأيي كانوا يعدونني بتقديم كل المساعدة المطلوبة لي، وبالحصول على بيت رائع في القرية، وبوجود طلاب باحثين متواجدين على مدار الساعة.

وصلت فيرن الصغيرة والمذعورة إلى البلدة أخيراً وسط بهجة عارمة. وعندما دخل الشخص الذي كان يحملها البيت، دفعت الريح الباب وراءه بعنف فأصدر صوتاً مرتفعاً، فخافت وقفزت من ذراعه إلى ذراعي بطريقة لا شعورية، ووقع حبها في قلبي هكذا بكل بساطة.

كانت تتشبث بي بقوة طوال الوقت، إلى درجة أنني كنت أضطر إلى إبعاد أصابعها عني واحداً تلو الآخر كل مرة، وظلت الخدوش التي تسببها أظفارها تغطي جسدي طيلة عامين. لكنها الحال التي تسير عليها الأمور في الغابة، إذ يتعلق الصغير بأمه طوال الوقت في العامين الأولين من حياته.

عندما تشبثت بي حال وصولها، تمسكت بي بقوة لدرجة أنني وضعتها أرضًا، فراحت تلوّح بيديها الصغيرتين معترضة على ما بدر مني، إلى أن التقتا معاً

فأطبقت أصابعها النحيلة على بعضها بإحكام، وشبكتها ببعضها، وبدأت تصرخ، فأدركنا أنها لا تستطيع فصل أصابعها عن بعضها. وعندها تدخل والدك وفصل يديها عن بعضهما.

نامت فيرن معظم الوقت في الأسبوع الأول لوصولها، ولكنها كانت تتقوقع في حضني، وتضع رأسها الصغير على ذراعي، وتتثاءب بشدة إلى أن أتمكن من رؤية كل حلقها؛ مما كان يدفعني للتثاؤب أيضاً، ثم يرتخي جفناها بهدوء، ويرتعشان قليلاً، ثم يتهدلان تماماً. ولم أكن أتمكن من وضعها في مهدها إلا إذا كانت مستغرقة في النوم للغاية.

كانت غير مبالية، ولا تهتم بأي شيء، وكنت أكلمها طوال فترة استيقاظها، ولكنها لم تلاحظ ذلك إلاّ نادراً كما بدا لي. حينها، اعتراني القلق من أن ملكاتها العقلية قد لا تكون سليمة، أو ألا تكون ذكية كما افترضوا، أو مصابة برضوض نفسية لا يمكنها تجاوزها.

ومع ذلك، ملكت قلبي خلال ذاك الأسبوع الأول. كانت صغيرة جداً، ووحيدة جداً في هذا العالم الكبير، وخائفة ومذعورة وحزينة؛ كانت أقرب إلى الرضيع من أي شيء آخر، وأشبه بكِ... مع فارق الأحزان التي كانت تحملها منذ ولادتها.

أخبرت أباك في ذلك الوقت أنني لا أعرف كيف يستطيع أولئك العلماء أن يقارنوا بينكما، فعالمكِ رقيق وحافل بالرفاهية، فيما عالمها متوحش وعنيف إلى تلك الدرجة. لكننا لم نكن قادرين على التراجع في تلك المرحلة، فقد شغف قلبي بحبها مثلك تماماً.

قرأت كل ما كتب عن قردة الشمبانزي التي نشأت في بيوت البشر تحت الدراسة، وعلى الأخص كتاب كاثرين هايز الذي تحدثت فيه عن فيكي، وقد دفعني ذلك الكتاب للاعتقاد بأن التجربة ستنجح معنا. كتبت كاثرين في نهاية كتابها أنهم خططوا للاحتفاظ بفيكي طوال العمر، وأن الناس يسألونهم على الدوام عن الوقت الذي ستنقلب فيه فيكي عليهم وتؤذيهم، وأنها فتحت صحيفة الصباح في أحد الأيام فوجدت خبراً عن الطفل الذي قتل والديه في سريرهما... قالت كاثرين إن كل واحد منا يعيش حياته ويختار ما يراه مناسباً، ولكن للقدر برنامجه الخاص لكل منّا.

ماتت فيكي بالطبع قبل أن تبلغ حجمها النهائي فلم يضطروا يوماً للاختيار، لكننا فكرنا أنا وأبوك في أن نبقي فيرن معنا إلى النهاية؛ أن نبقيها معنا إلى الأبد. وكان دوركِ في الدراسة ينتهي عندما تدخلين المدرسة، لكننا كنا سنتابع العمل مع فيرن. فكرنا في أنك ستذهبين إلى الجامعة يوماً ما، كلاكما أنت ولويل، وأنها ستبقى معنا في البيت... هذا ما فكرت في أنني سأفعله في مستقبل حياتي.

وبعد عدة سنوات، وجدت على شبكة الإنترنت أن والد فيكي قد تذمّر من الطريقة التي تتحدث بها النشرات العلمية عنها على أنها مثال عن إخفاق التجارب اللغوية مع القردة. فقد قال إن الدراسات فاشلة منذ البداية لأنها

تحاول تعليم الشمبانزي الكلام مثلنا، وهذا شيء لا تستطيع قردة الشمبانزي فعله لأن حناجرها لا تساعدها على فعل ذلك، وهذا ما نعرفه الآن.

لكن السيد هايز أضاف أيضاً أن الاكتشاف العلمي الرهيب الذي توصل إليه الباحثون بسبب التجارب على فيكي هو ما كانوا يحاولون تجاهله في الوقت نفسه؛ وهو أن اللغة هي الأمر الوحيد الذي تختلف فيه فيكي عن أي طفل بشري عادي».

فعلّقتْ قائلة:

«لا يهتم أحد بنجاحك بقدر ما يهتم بفشلك».

«يا إلهي، لو كنت أظن ذلك وقتها لكنت قد أنهيت الموضوع عند ذلك الحد، ولما كنت قد مضيت فيه سنين».

أجرينا ذلك الحديث في إحدى الليالي بعد العشاء، ونحن لا نزال جالستين إلى المائدة، متوانيتين عن النهوض، ومتمهلتين في احتساء شرابنا. لقد كان عشاء خاصاً جداً، لأننا كنا نحتفل بطرح كتابنا للبيع في المكتبات. لقد فاق وضعه توقعاتنا مع أنه لم يلبِّ كل احتياجاتنا، إلا أننا في تلك الليلة أشعلنا الشموع على مائدة الطعام في المطبخ، وتناولنا الطعام في الأطباق الصينية الثمينة التي نجت من السنوات التي أمضتها فيرن مع العائلة. كانت أمي هادئة جداً، ولكنها لم تكن حزينة، وأضافت:

«أذكر أنني قرأت في أحد الأيام عن عالمٍ فكّرٍ في إنتاج نسل من الشمبانزي قزم؛ تماماً كما فعلوا لإنتاج كلاب البودل أو كلاب الصيد صغيرة الحجم، وذلك بهدف التحكم بها».

صمتت قليلاً ثم تابعت قائلة:

«عندما كانت تستيقظ، كانت تستيقظ بكل ما للكلمة من معنى. كانت تندفع نحو الحياة كشمس مشرقة، وتتأرجح في أرجاء البيت متنقلة كالزوبعة. هل تذكرين أن والدك كان يسميها الزوبعة الجبارة؟ كانت تسبب الكثير من الضجيج، وتضيف اللون والحماسة إلى حياتنا.

عندما كبرتِ قليلاً، أصبحتما أنتِ وهي كالعصابة. كانت تفتح إحدى خزائن المطبخ لكي تسحبي أنتِ كل ما تستطيعين وضع يدك عليه إلى الخارج من قدور الطهي. كانت تفتح كل أقفال الخزائن المخصصة للأطفال بطرفة عين، ولكنها لم تكن تملك ثباتكِ. هل تذكرين هوسها بأربطة الأحذية؟ لطالما تعثرنا ووقعنا أرضاً لأن فيرن كانت تربط أربطة الأحذية ببعضها من دون أن نلاحظ ذلك.

كانت فيرن تتسلق الملابس المعلقة في الخزائن، وتسحب المعاطف عن مشاجبها، وتوقعها أرضاً لتتلقيها أنتِ. كما كانت تستخرج العملات المعدنية من محفظة نقودي لتعطيك إياها، وتفتح الأدراج لتعطيك الدبابيس والإبر والمقص والسكاكين».

«هل ساورك القلق يوماً من تأثير فيرن في سلوكي مستقبلاً؟». سألتها وأنا أملأ كأسي بالشراب مجدداً لأحصن نفسي مما قد أسمعه بما أنني لم أكن قادرة على التفكير في إجابة واحدة مقبولة بالنسبة إليّ.

«بالطبع فكرت في ذلك، وشعرت بالخوف من تلك الناحية طوال الوقت. لكنك كنت تعشقينها، وكنت طفلة سعيدة جداً».

«هل كنت سعيدة إلى ذلك الحد؟! لا أذكر أي شيء من ذلك».

«بالطبع لن تذكري. لقد قلقت مما كان من الممكن أن تفعله بك علاقة الأخوة مع فيرن، لكنني أردت ذلك من أجلك أيضاً».

تراقصت أضواء الشموع في المطبخ فيما نحن نتناول الشراب، فشربت أمي رشفة أخرى ثم أشاحت بوجهها المجعد ومتهدل البشرة بعيداً عني وقالت:

«أردتُ لك أن تعيشي حياة مختلفة وخارجة عن المألوف».

أخرجت والدتي فيلم فيديو قام بتصويره أحد الطلاب الباحثين، وكان لديها العديد من تلك التسجيلات التي نحتفظ من أجلها بجهاز الفيديو القديم بعد أن قام كل الناس برمي الأجهزة المماثلة في القمامة. بدأ الفيلم بصعود درج بيت المزرعة مع موسيقى تصويرية مستعارة من فيلم الفك المفترس، ثم يُفتح باب غرفتي ويسمع المشاهدون صرخة.

ثم انتقل المصور إلى وجهي ووجه فيرن. كنا نضحك معاً ونحن مستلقيتان على الكرسي المحشو بوضعيتين متماثلتين، حيث كانت كل منا تضع ذراعيها وراء رأسها وتطوي ركبتيها وتضع واحدة فوق الأخرى. كنا نمثّل صورة مثالية عن التطابق في كل شيء.

أما الغرفة حولنا فكانت مدمرة بالكامل. كنا كالجنود الرومان الجالسين فوق ركام قرطاجة بعد تدميرها. مزقنا الجرائد، ووزعنا الملابس والألعاب في كل مكان، وأخرجنا الطعام من علبه ورميناه أرضاً، ثم دسنا عليه، وحشرنا شطيرة زبدة الفستق السوداني بين ملاءات السرير، ورسمنا بالألوان السحرية البراقة على قماش الستائر. وكل ما كان يحصل بعد كل هذا الخراب الذي صنعته أيدينا بسعادة هو تنظيف الغرفة من قبل الطلاب الباحثين من دون أي انزعاج. ثم ظهرت على الشاشة أوراق تقويم تبدو وكأنها تنزع من مكانها في إشارة من مخرج الفيلم إلى مرور الأيام.

سنتمكن في المستقبل من تحويل مضمون هذا الفيلم إلى كتاب، لكننا استعنا في تأليف الكتاب الأول بالصور التي وجدتها في مذكرات طفولتنا، وحاولنا تحويل تسلسل الإنجازات – مثل أول خطوة، وأول سنّ، وأول كلمة – إلى نوع من القصة، كما استعملنا صورة لفيرن وهي تضع على رأسها إحدى قبعات الجدة دونا، وأخرى لها وهي تحمل تفاحة بقدمها وتحاول قضمها بفمها، وأخرى وهي تنظر إلى أسنانها في المرآة.

وجدتُ في كل دفتر لقطات قريبة لوجهينا؛ بهدف المقارنة بين تعابير وجهَينا في كل حين. وقد جُمِعت معاً لنتمكن من مقارنة التعابير بين طفل البشر وطفل الشمبانزي. ها هي صورة لي تظهرني وأنا سعيدة وألعب وأضحك ملء فمي وأسناني كلها ظاهرة، وها هي فيرن تبدو سعيدة أيضاً وشفتها العليا منحسرة عن فكها العلوي بكامله. أما عندما كنت أبكي فقد تقلصت كل عضلات وجهي، وتجعّد جبيني، وفتحت فمي، وتدحرجت دموعي على وجنتيّ. وفي الصورة التي تبكي فيها فيرن نلاحظ أنها فتحت فمها أيضاً، ولكنها أعادت رأسها إلى الخلف وأغمضت عينيها واختفت كل التعابير من وجهها.

لم ألمح أي فروقات بين صورتَيّ اللتين دمغت الأولى منهما بكلمة سعيدة، والأخرى بكلمة متحمسة، أما لدى فيرن فقد كان الأمر أسهل. ففي الصورة التي تظهرها سعيدة، يبدو فمها مفتوحاً إلى أقصاه. أما في الصورة الثانية فيبدو مزموماً. وجبهتها منبسطة في صورة السعادة، ومتغضنة في صورة الحماسة.

لقد تسللت فيرن إلى معظم صور طفولتي. ها أنا في حضن الجدة فريديريكا وفيرن تحيط بقدميها، وها أنا أجلس في أرجوحة صغيرة فيما تتدلى فيرن من العارضة التي تعلوها، وها نحن متكئتين على ظهر كلبتنا تامارا. إنها صورة تجمع كل الحيوانات التي كانت تعيش يوماً في بيت المزرعة، كنا متمسكتين بها بشدة وهي تحملق بلا اكتراث بالكاميرا وكأننا لا نوجعها أبداً – ونحن نشدّ على جسدها بقبضاتنا – بكل الحب الذي نحمله لها في قلوبنا.

ها نحن ذا في نزهة مع والدي إلى بحيرة ليمُن، كان يثبتني في حامل خاص على صدره وظهري يستند إلى صدره، بينما يثبت فيرن على ظهره، ويبدو وجهها وعيناها اللامعتان من خلف كتفيه.

كتبت أمي أبيات الشعر على مذكراتنا بخط يدها، ولكن الشعر كان للشاعرين المفضلين لوالدي وهما: كوباياشي إيسا وإيميلي ديكنسون. عندما قرأت تلك الأبيات للمرة الأولى في غرفة نوم الطلبة الجامعية في شتاء عام 1997 فكرت في والدي.

إيسا:
اسمع... لا تقتل تلك الذبابة...
إنها تتقرب منك.

ديكنسون:
أيتها النحلة، أنا أنتظرك!
كنت أقول ذلك البارحة
لشخص تعرفينه

كنت أقول له إنك قادمة.

عادت الضفادع إلى بيوتها الأسبوع الماضي
واستقرت في أماكنها وبدأت العمل
عادت معظم الطيور أيضاً،
أما النَّفل فقد ازدادت حرارته وكبرت أوراقه.
ستستلمين رسالتي في اليوم
السابع عشر من الشهر، أجيبي على رسالتي
لكنني أفضل أن تعودي لمرافقتي.
صديقتك المحبة... الذبابة.

## 2012

عام تنين الماء.
جرت انتخابات في هذا العام في الولايات المتحدة. أعلم أنكم لا تحتاجون إلى من يذكركم بهذا لأن أغاني فرقة آين راند الوطنية الحمقاء التي كانت تهذر بها مكبرات الصوت لم تفارق الأجواء طوال كل تلك السنة.
وعلى المستوى العالمي، كانت تلك السنة غريبة؛ وكأن الديناصورات قد عادت إلى الأرض... الفصل الأخير لمسرحية يمكنها أن تحمل عنوان: انتقام الديناصورات من الثدييات حديثة النعمة. وإليكم المشهد الذي تطهونا فيه الديناصورات في حساء غبائنا. لو كان الغباء مورد طاقة فما كان لينضب أبداً.
أما حياتي أنا فقد كانت جيدة على نقيض كل شيء آخر؛ لا يمكنني أن أشتكي.

أعيش مع أمي في هذه الأيام في فيرميليون التي تقع في جنوب داكوتا، وقد استأجرنا شقة أصغر في المدينة من بيت الريح والحجارة ذاك. أفتقد شتاءات بيت بلومنغتون الحميمة، وشتاءات بيت كاليفورنيا الشمالية الرقيقة. لكن فيرميليون بلدة تابعة لجامعة، ولا بأس بها على العموم.
قضيت السنوات السبع الأخيرة من حياتي في التدريس في الروضة التابعة لمدرسة أديسون الابتدائية، وهي أشبه بالعيش مع جيوش من قردة الشمبانزي؛ هذا أقرب ما تمكنت من الحصول عليه، وقد كانت كيتش محقة، بل وأكثر، ويمكنني أن أقول جازمة إن نصيحتها لي كانت رائعة، وأنا سعيدة لأنني اخترت هذه المهنة، فأنا جيدة في قراءة لغة الجسد لدى الأطفال على وجه الخصوص؛ إذ أراقبهم، وأنصت لهم، وأشعر بمعاناتهم مهما كانت، وأخمن ما يفكرون فيه وما هو أهم من أي شيء آخر... ما هم على وشك القيام به.

سلوكي المرعب عندما كنت في الروضة طفلة صغيرة بات مقبولاً اليوم من معلمة. ونحن نحاول كل أسبوع تعليمهم كلمة لا يعرفها الوالدان؛ وهو النشاط الذي يقبلون عليه بحماسة. علمناهم في الأسبوع الماضي كلمة معناها: يقتات على الثمار. أنا أحضّرهم لدراساتهم الجامعية منذ الآن.

أقف فوق الكرسي عندما أريد لفت انتباههم إليّ. وعندما نجلس على السجادة يتسابقون للجلوس في حضني وتمسيد خصلات شعري بأصابعهم. وعندما نحضر لهم قطع الحلوى نناديهم بصيحات الشمبانزي التقليدية لدى حصولها على الطعام.

أعطيت تلاميذي منهاجاً كاملاً عن تقاليد الشمبانزي الرفيعة؛ فعندما تزور عائلة شمبانزي يجب أن تنحني لتقصر من قامتك كي لا تهينها في بيتها، وعلمتهم كيف يقولون بلغة الإشارة كلمة صديق، وعلمتهم كيف يبتسمون للشمبانزي ويغطون فكهم العلوي بشفتهم العليا. وعندما نلتقط صورة تذكارية لتلامذة الصف، أطلب دوماً من المصوّر أن يلتقط لنا صورتين، واحدة ليأخذها الأطفال معهم إلى بيوتهم كي يراها الأهل، وأخرى نرفع فيها جميعاً أيدينا برمز الصداقة بلغة الإشارة، وأبقيها عندي في الصف.

بعد أن يتعلم الأطفال عادات الشمبانزي جيداً، آخذهم في رحلة ميدانية إلى مختبرات أوليافيك التي أصبح اسمها الآن مركز تواصل الرئيسيات. نتقدم بطلب للدخول رسمياً إلى غرفة الزوار حيث يفصلنا عن الشمبانزي زجاج مضاد للكسر.

لا تشعر قردة الشمبانزي أحياناً بوجود زوار. وعندما تشعر بوجودنا تقترب بسرعة من الزجاج وتطرق عليه بشدة فيهتز بعنف، وعندما يحدث هذا نبتعد عن الزجاج ونخرج، ثم نعود في وقت آخر. هذا المركز هو بيتها الآن، وهي التي تقرر نوع الزوار الذين تحب استقبالهم.

لكننا نملك في غرفة الصف أيضاً خدمة سكايب مفتوحة على الدوام، وأنا أبقيها قيد الاستخدام طوال الصباح ليتمكن تلاميذي من إلقاء نظرة على الشمبانزي أنى يحلو لهم، كما يمكن للشمبانزي أن تفعل ذلك أيضاً. لم يبق في المركز سوى ستة قرود شمبانزي؛ ثلاثة أصغر من فيرن: هيزل وبيني وسبراوت، وذكرين أكبر منها: آبان وهانو. ولهذا، إن فيرن ليست الكبرى بين أفراد المجموعة، ولا الصغرى، ولا الأكثر ذكورية... إلا أنها الأعلى شأناً بين أفراد المجموعة كلها استناداً إلى ملاحظتي الخاصة. لقد لاحظت هانو وهي تنفذ إشارة التضرع والتوسل إلى فيرن، لكنني لم أشاهد فيرن وهي تقوم بهذه الإشارة لأحد... خذ هذا في الاعتبار يا دكتور سوسا.

أطفال الروضة جميعاً يفضلون هيزل الصغيرة على أختي فيرن، وهم يحبون سبراوت الأصغر الذي يبلغ عمره خمسة أعوام. سبروات لا يمت بصلة لفيرن، ولكنه يذكرني بطفولتها أكثر مما تذكرني هي بنفسها. الناس لا يعرفون شكل الشمبانزي الكبير في السن، بل يرون على الدوام صوراً للصغار منها.

ولهذا أقول لكم، لقد كبرت فيرن كثيراً، وباتت ضخمة وثقيلة الحركة. لقد قست الحياة عليها كثيراً.

يعتقد تلاميذي أنها لئيمة بعض الشيء، ولكنها تبدو لي ناجحة في دور الأم الكبرى الذي تلعبه. إنها تدير الحياة الاجتماعية في المركز، ولا تسمح بحدوث الفوضى. وعندما يدب شجار بين أفراد المجموعة فهي توقف الاقتتال وتجبر الطرفين على العناق والصلح.

أحياناً تظهر أمي بشحمها ولحمها على شاشة سكايب لتطلب مني أن أحضر شيئاً ما من المتجر في طريقي إلى البيت، أو لتذكرني بموعد طبيب الأسنان. كما تتطوع في المركز يومياً، وتنحصر مسؤولياتها في التأكد من حصول فيرن على الطعام الذي تحبه كل يوم.

عندما دخلت أمي المكان لأول مرة رفضت فيرن النظر إليها، وأدارت ظهرها للزجاج، وجلست ولم تلتفت حتى لمراقبة الحديث الذي كان يدور بين أمي وهايزل بلغة الإشارة. صنعت لها أمي في ذلك اليوم بسكويت زبدة الفول السوداني الذي كانت تعشقه، وأرسلته لها من وراء الزجاج، ولكن فيرن رفضت تناوله أيضاً، فعلّقت أمي:

«إنها لا تعرفني...» لكنني أعتقد جازمة أن الأدلة تشير إلى عكس ذلك. إذ لا يمكن لفيرن أن ترفض بسكويتة بزبدة الفول السوداني إلا لوجود سبب في غاية الأهمية.

ووراء النافذة الصغيرة المخصصة لوضع الصواني التي تحمل وجبة الغداء، كانت فيرن في انتظار والدتي في المرة الأولى التي توجب عليها فيها أن تقدم الوجبة للشمبانزي. أحكمت قبضتها على ذراع والدتي فآذتها قليلاً، وطلبت منها والدتي عدة مرات أن تخفف من شدة إمساكها بيدها، لكن فيرن لم تظهر أي دليل على سماعها ما قالته أمي. حافظت فيرن على ادعائها الصمم، فاضطرت والدتي إلى عضّها قليلاً لتتركها وشأنها.

خفّت حدة فيرن مع الزيارات اللاحقة، وتحدثت لاحقاً إلى والدتي عبر لغة الإشارة وهي تتابع تحركاتها في المركز بترقب واهتمام شديدين يفوقان اهتمامها بتحركات أي عامل آخر. وكانت تتبعها طالما استطاعت إلى ذلك سبيلاً... هي خلف الزجاج وأمي خارجه. كما بدأت تأكل البسكويت الذي تحضره أمي. في مذكرات طفولة فيرن هناك صورة التقطت في مطبخ بيت المزرعة، حيث نظهر أنا وهي جالستين إلى طاولة المطبخ وفي يد كل منا أداة خفق يقطر منها خليط البسكويت النيء الذي كنا نلعقه، وتظهر فيرن في الصورة كما لو كانت تحمل فخذ دجاجة وتمتصه بنهم.

فكرت كثيراً في ما سأجيب به فيرن عندما ستسألني عن لويل وأبي؛ لأننا نضطر على الدوام إلى تذكير جدي جو الذي يعيش في مأوى العجزة الخاص بالرعاية الصحية بأن والدي قد مات، مرة تلو الأخرى، ولكنه في كل مرة وبعد مرور خمس دقائق يعاود سؤالنا عنه بمرارة، متسائلاً والألم يخنق صوته عن

الخطيئة التي لا تغتفر التي ارتكبها بحق ابنه كي لا يأتي ابنه الوحيد لرؤيته. لكن فيرن لم تسأل يوماً عنهما.

يقوم أطفال الصف عندي بمشروع مشترك مع قردة الشمبانزي؛ إما عندما نزورهم أو عندما نتواصل معهم عبر سكايب. قد نرسم معاً بالأصابع، أو نغلف الأوراق بالصمغ والبودرة اللامعة البراقة والملونة، أو نصنع أطباقاً من الطين ونطبع عليها أيدينا، ثم يقوم المركز بالإعلان عن حفل خيري لجمع التبرعات، حيث تُباع تلك الأعمال الفنية التي صنعتها أيدي القردة. وقد علّقنا بالفعل عدة رسوم موقعة بيد فيرن على جدران منزلنا، وأفضّل اللوحة التي تصور عصفوراً داكن اللون يطير حراً عبر سماء مفعمة بالنور... بلا قفص. لا وجود للقفص في اللوحة ولا في عقل الفنان في أي مكان في تلك اللوحة.

أعفيت كل القردة الموجودة في المركز من الأبحاث الطبية؛ لأن المركز يحتوي على آلاف الأشرطة المصورة التي تحتل رفوفاً ورفوفاً لا نهاية لها، والتي لم تُدرس بعد وتحتاج إلى عقود من التمحيص. ولهذا فهم يرحبون بزياراتنا لأنها تبقي القردة نشيطة ومتحفزة من دون أي قلق.

إنهم يعتنون بهذه القردة الستة بأفضل شكل ممكن. ومع كل ذلك، إن نمط الحياة الذي تعيشه ليس جيداً؛ فهي بحاجة إلى المزيد من المساحة الداخلية، والكثير من المساحة الخارجية. كما أنها تحتاج إلى الطيور والأشجار والجداول الحافلة بالضفادع والحشرات الصافرة، وتحتاج إلى أوركسترا الطبيعة. إنها تحتاج إلى المزيد من عنصر المفاجأة في حياتها.

أستلقي في سريري ليلاً، وأشرد في أحلام اليقظة وأنا مفتوحة العينين كما كنت أفعل في طفولتي. أحلم ببيت شجرة يجمعني مع فيرن، أحلم اليوم وأخطط وأصمم بيتاً كبيراً ومحمياً للبشر يحتوي على أربع غرف نوم وحمامين آمنين. أريد للباب الأمامي أن يكون المدخل الوحيد إلى هذا المسكن، وأريد للجدران الخلفية أن تكون مصنوعة من الزجاج السميك المقاوم للرصاص، وأن تطلّ على عشرين هكتاراً من المساحات المفتوحة – وربما أكثر – المزروعة بأشجار القرانيا ونبات السماق والقصب الذهبي واللبلاب. البشر في حلمي لا يستطيعون الخروج من المنزل، أما قردة الشمبانزي فتعيش بحرية على تلك المروج... قردة الشمبانزي الستة التي تعيش في المركز الآن بالإضافة إلى قردة أخرى. وربما أحضرنا ابنَي أختي أيضاً ليعيشا مع أمهما هنا، باسيل وسيغ. هذا دليل قاطع على أنه مجرد حلم؛ لأن إحضار ذكرين بالغين إلى مجموعتنا الصغيرة هنا خطأ جسيم وفكرة خطيرة للغاية.

سمعت عبر الأخبار خلال الأعوام الأخيرة عدة أنباء عن حوادث مريعة تسببت بها قردة الشمبانزي. أنا لا أخاف من فيرن، وأفهم أننا لن نلمس بعضنا مجدداً، ولن نجلس متعانقتين مرة أخرى، ولن نمشي معاً متلاصقتين كما لو أننا شخص واحد. حلمي هذا هو الملجأ الوحيد الذي أملكه، إنه الحل الوحيد

الذي يمكنني تخيله... جدار مكهرب يحيط بنا وبها جميعاً، وجدار زجاجي مضاد للكسر يفصل بيننا.

يتطلب تحقيق ذلك الحلم مبلغاً يفوق ما يمكن لمعلمة روضة أن تقدمه بكثير. وكان نشر مذكرات طفولتنا أنا وفيرن فكرة أمي. وهي التي كتبت كل شيء منذ البداية، ثم بذلت الكثير من الجهد في تحضيرها للنشر، لكننا – أنا وفيرن – مذكورتان على الغلاف كمؤلفتين متعاونتين مع الكاتبة الأصلية بشكل غريب. وعندما أفكر حقاً في هذه النقطة أشعر بالفزع، وأباغت نفسي وأنا أتمنى أن يبقى الحال كما هو عليه؛ مجرد كتاب. وإذا وصل إلى الراديو فأنا أتضرع كي لا يصل إلى شاشات التلفاز. يا لها من أمنيات أنانية! لا أريد لأحد أن يسمع بقصتنا.

يعود بعض هذه المشاعر إلى خوفي المألوف من استعراض حياتي أمام الناس. فأنا أخاف من أن يأتي الصيف، وعندها لن يكون هناك مجال لي للتواري عن الأنظار في أي مكان، وسيعرف كل الناس بأمري... من المرأة التي تقص شعري إلى ملكة إنكلترا بشحمها ولحمها.

لن يعرفوني حقاً بالطبع، ولكنهم سيعرفون نسخة صغيرة مني، يلعب الهواء بشعرها في الصور ويسهل الوقوع في حبّها. سيعرفون المرأة التي تدرّس الأطفال في الروضة، وليس تلك التي لا يمكنها أن تنجب أطفالاً. سيتعرفون إلى تلك التي تحب أخويها، لا تلك التي تسبّبت بنفي أختها من البيت. أنا لم أجد بعد المكان الذي يمكنني أن أكون فيه كما أريد، أن أكون نفسي، على هواي... ولكن، ربما لا يستطيع أحد أن يجد ذلك المكان أيضاً.

في إحدى المرات، فكرت في أن الفتاة القردة القابعة في داخلي تهديد لشخصيتي، إلا أنني أرى الآن أنها قد تعصف بكل ما جرى في حياتي وتبيده. ولهذا، ها هو خوف جديد يضاف إلى خوفي القديم من الفضيحة؛ فأنا أخاف الآن من أن يعرف الناس عن الفتاة القردة أكثر من اللازم، بالإضافة إلى أنني لا أملك أي خبرة أو معلومات تفيدني بأنكم قد تحبونني مهما فعلت في حياتي. قد يعيدني هذا إلى ما كنت أشعر به في المدرسة الإعدادية من نبذ وإقصاء، ولكنه سيكون الآن أوسع بكثير، وستكون قصتي منشورة في كل صحف الفضائح والمدونات الإلكترونية.

ولنفترض أنكم تشاهدونني الآن على شاشة تلفازكم، وأنا في أفضل حالة سلوكية ممكنة؛ إذ لن أتسلق الطاولة، ولن أقفز على الأريكة مع أن البشر فعلوا ذلك على شاشات التلفاز في البرامج الحوارية من دون أن ينفيهم أحد أو يجردهم من انتمائهم البشري. ومع ذلك، ستفكرون في سرّكم: هذا ليس منطقياً. إنها تبدو طبيعية مئة في المئة، وجميلة بعض الشيء، ومع ذلك... هناك شيء مختلف فيها... لا أستطيع لمسها.

سأخيفكم قليلاً بطريقة كلامي الغريبة الخاصة بسكان الوادي، أو سأزعجكم هكذا بكل بساطة؛ فأنا أواجه مشاكل مماثلة دوماً مع الناس. ولكنّ ما أطلبه منكم هو ألا تفعلوا ذلك مع فيرن. ستحبونها، أنا واثقة من ذلك.

أرجو أن تتكفل والدتي باللقاءات الصحفية بدلاً عني، ولكن الناس سيعتبرونها شريكة في الجريمة وليست ضحية بريئة، وسيلعنها جمهور الاستوديو. أنا أعرف هذا.

ها نحن ذا... أنا – الأخت البشرية من ثنائي الأختين الراقصتين – روزماري كوك السريالية الخيالية، أنا على وشك بدء العرض في الشارع. كل كلمة سأقولها ستكون من أجل أختي. سيحترمونني جداً، وسيعود كل ذلك بالنفع على أختي خلسة... هذه هي خطتي.

تلك كانت الخطة.

# 6

وإذا لم تصدقوني...

إليكم حياة أختي كما قدمتها مدام ديفارج على خشبة المسرح:

كان يا ما كان في قديم الزمان، كانت هناك عائلة سعيدة تتألف من أم وأب وابن وابنتين. كانت الابنة الكبرى ذكية ورشيقة وخفيفة الحركة، مغطاة بالشعر ورائعة الجمال. أما الابنة الصغرى فقد كانت طفلة عادية، ومع ذلك أحبّها الوالدان والأخ بالقدر نفسه.

ولكن، في أحد الأيام – وليكن الله في عوننا – وقعت الابنة الكبرى في شباك ملك شرير، فرماها في غياهب سجن مظلم حيث لا يمكن لأحد أن يراها فيه، ورمى عليها تعويذة كي يبقيها سجينته إلى الأبد. كان يخبرها في كل يوم أنها بالغة القبح دون كلل، إلى أن مات في أحد الأيام، لكن موته لم يكسر السحر الأسود الذي رماه عليها.

لا يمكن لهذا السحر أن يُكسر إلا على يد الناس، ولا بد أن يأتوا لزيارتها ليروا جمالها، لا بد لهم أن يحطموا السجن ويطلقوا سراحها، لن تُكسر التعويذة ما لم يستيقظ الناس ويهبّوا لنجدتها.

ومن أجل هذا... استيقظوا بسرعة أيها الناس.

في الخامس عشر من كانون الأول عام 2011، نشرت صحيفة *New The York Times* خبراً يفيد بأن معهد الصحة القومي قد أوقف كل المنح التعليمية الجديدة الخاصة بالدراسات السلوكية والدوائية الكيميائية على الشمبانزي. وقال المصدر أيضاً إن الدراسات على الشمبانزي في المستقبل لن تُموّل سوى إلا إذا كان البحث ضرورياً جداً لمسألة تخص الصحة البشرية، وبغياب أي طريقة أخرى لإتمام البحث غير استخدام الشمبانزي. ولاحظت وجود استثناءين محتملين في هذا القرار، وهما الأبحاث الجارية الخاصة بالمناعة، والأخرى الخاصة بمرض التهاب الكبد الفيروسي، لكن خلاصة التقرير في الصحيفة تؤكد أن معظم الأبحاث على الشمبانزي غير ضرورية على الإطلاق.

خطوات صغيرة، نجاحات صغيرة. احتفلت مع فيرن بالخبر باحتساء الشراب. فقد كان والدنا يسمح لنا بارتشاف قليل منه في ليلة رأس السنة، ولطالما سبّب الشراب العطاس لفيرن.

أتساءل في سرّي إن كانت تذكر تلك التفاصيل، وأعرف أنها لن تخلط بين احتفالنا هذا وليلة رأس السنة. فالمركز يحتفل بكل المناسبات، كما أن فيرن تحفظ ترتيبها جيداً. في البداية هناك يوم الأقنعة، واليوم الثاني هو يوم إطعام العصافير، والثالث هو يوم الشجرة، والرابع والأخير هو اليوم الذي لا ننام فيه.

أفكر على الدوام أيضاً بذاكرة فيرن. لقد أخبرني لويل أنها تعرفت عليه على الفور، أما أمي فظنّت أنها لم تعرفها.

أظهرت الأبحاث في جامعة كيوتو تفوّق ذاكرة الشمبانزي قصيرة الأمد على ذاكرة البشر، وأكدت أن الفرق بين الذاكرتين شاسع للغاية، وقال العلماء إننا لا يمكننا حتى أن نصنف معها في الخانة نفسها من ناحية الذاكرة.

أما الذاكرة بعيدة المدى فهي أصعب على الدراسة. اصطلح العالم إيندل تولفينغ عام 1972 عبارة (*memory episodic*) للإشارة إلى قدرة المرء على تذكر حوادث معينة من حياته مع كل المعلومات المرافقة لها (السبب والزمان والمكان) والعودة إليها في ما بعد كفكرة مستقلة (كحلقة من مسلسل)، وعيش أحاسيسها مجدداً بشكل واعٍ؛ كنوع من السفر عبر الزمان والمكان.

كتب ذلك العالم في العام 1983: «تستطيع أفراد أخرى من مملكة الحيوان أن تتعلم وتستفيد من التجارب السابقة، وتكتسب القدرة على تكييف نفسها لحل المشكلات واتخاذ القرارات، ولكنها لا تستطيع السفر إلى ماضيها في أذهانها». وأضاف أن هذه الذاكرة (*memory episodic*) هبة بشرية فريدة من نوعها.

ما الذي يدعوه إلى أن يكون متأكداً من ذلك؟ أنا أرى أننا – نحن البشر – في كل مرة نعلن فيها أن هذا الأمر هو الذي يجعلنا فريدين من نوعنا – كانتصابنا على ساقين خاليتين من الريش، أو استخدامنا للأدوات، أو اختراعنا للغة – يأتي نوع من الحيوانات ليخطف منا تلك الخاصية الفردية التي أعلناها حكراً علينا ودليلاً على تفردنا. ولو كان التواضع من شيمنا لتعلمنا أن نكون أكثر حذراً في ظنوننا المتكبرة هذه مع مرور الوقت.

لهذه الذاكرة التمثيلية التي نتحدث عنها مقومات ذاتية خاصة ومحددة، فهي تَحْضُرُ بالنسبة إلى الإنسان مع عامل يدعى الإحساس بالماضي وكأنه الآن، بالإضافة إلى نوع من الثقة العمياء بدقة الذاكرة في استرجاع الحدث؛ وهو الأمر الذي يخطئ فيه الناس عموماً. هذه الأحداث الباطنية – الخاصة بالذاكرة – لا يمكن رصدها لدى دراسة الأجناس الأخرى، ولا يعني عدم معرفتنا بوجودها أنها غير موجودة، ولا أنها موجودة أيضاً.

نحن متأكدون من أن الأجناس الأخرى تمتلك مثل هذه الذاكرة التمثيلية؛ بسبب تذكّرها الأماكن والأوقات والأمور الخاصة التي لم تتعلمها سوى من تجربتها الشخصية، مما يعني أن المعلومات تُخزّن في أدمغتها الصغيرة مهما كان كمّ المعلومات مهولاً.

أما البشر فهم لا يجيدون تذكر الأوقات. وعلى العكس من ذلك، إنهم ممتازون في تذكر الأشخاص. وأظن أن قردة الشمبانزي مثل البشر في هذا؛ بسبب ميولها الاجتماعية المماثلة لميولنا.

هل تذكرنا فيرن؟ هل تذكرنا من دون أن تتعرف إلينا باعتبار أن شكلينا تغيرا كثيراً؟ فنحن لا نبدو قطعاً كما كنا عندما كانت تعيش معنا، ولا أدري إن

كانت تفهم أن الأطفال يكبرون، وأن البشر يشيخون كالشمبانزي تماماً. ولم أسمع عن أي دراسةٍ حددت ما يمكن لقرد الشمبانزي أن يذكره بعد مرور خمسة وعشرين عاماً من الزمن على حدوثه.

ومع ذلك، أنا أعتقد أن فيرن عرفتنا حق المعرفة، وقد فرض الدليل نفسه بالقوة علينا؛ حتى لو لم نعتبره دليلاً قاطعاً. وحده شبح والدي – ذلك العالم – ما يمنعني من الإصرار على حقيقة ذلك.

# 7

في شهر شباط من هذا العام، حملت وكيلة دار النشر إليّ عبر الهاتف أخباراً مفاجئة وبغيضة؛ مفادها أنها تتلقى طلبات لحجز مواعيد معي طوال فترة الصباح من قبل أكبر الأسماء في عالم الإعلام، ثم عددت لي بعضاً من الأسماء المألوفة مثل تشارلي روز وجون ستيوارت وباربرا والترز وبرنامج *The View* التلفزيوني، وأخبرتني أن دار النشر تريد أن تعرف إن كان من الممكن أن نبكر في إطلاق الكتب؟ وهل من الممكن أن أنتهي من التزاماتي قبل الموعد المحدد؟ أما لهجتها أثناء نقلها لي تلك الأمور فقد كانت تحمل شيئاً خفيّاً ما؛ أمراً غريباً وكأنها تخفي شيئاً ما... وهكذا عرفت أن لويل قد أصبح وراء القضبان.

ألقوا القبض عليه في أورلاندو؛ حيث قالت الشرطة إنه كان في المراحل الأخيرة من التخطيط للهجوم على الحديقة المائية SeaWorld، بالإضافة إلى توجيه قائمة طويلة من التهم له يقارب حجمها حجم رواية الحرب والسلم. وقالوا إنهم منعوا الهجوم قبل حدوثه.

قالت الشرطة أيضاً إن البحث لا يزال جارياً عن شريكة – امرأة – في الجريمة.

فيرن هي السبب الذي دفعنا أنا وأمي لنشر هذا الكتاب؛ حيث جمعنا بين دفتيه مذكراتي ومذكرات فيرن معاً لنخرج بكتاب رائع بهيج للأطفال. وفي روايتنا هذه نجد:

«فيرن وروزماري أختان تعيشان معاً في بيت كبير في الريف».

لا وجود في كتابنا لقطعة مقتولة. كل شيء في الكتاب صحيح وحقيقي؛ الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة، ولكنه لا يحتوي على كل الحقيقة. لقد وضعنا فيه كل ما ظننا مناسباً للأطفال ومناسباً لفيرن أيضاً.

لن يكون محتوى الكتاب مناسباً وكافياً لوصف لويل أبداً.

ولهذا، وضعت هذه الرواية له، ومن أجل فيرن أيضاً؛ فيرن مجدداً، وعلى الدوام.

لقد عاش كل من أخي وأختي حياةً خارجة عن المألوف، ولكنني لم أكن جزءاً منها، ولا يمكنني أن أقص عليكم ما لم أشهده، ولهذا فأنا أحكي لكم ما أعرفه؛ القسم الذي يخصني من قصتهما، وما زال كل ما أحكيه عنهما أيضاً وأيضاً كدائرة أرسمها بالطباشير حولنا نحن الأطفال الثلاثة الذين جمعتنا مرة في الماضي قصة واحدة.

السبب الوحيد الذي ساقني لكي أكون الفرد الذي يقص الحكاية هو أنني لست موجودة وراء القضبان، في قفص، مثلهما.
حاولت معظم حياتي ألا أتكلم عن فيرن ولويل وطفولتي معهما، ولهذا سأحتاج إلى وقت لأعتاد فعل ذلك، وسأفكر في أن ما قمت به هنا على الورق تدريب على البوح.
لأن كل ما تحتاج إليه هذه العائلة الآن متكلم عظيم.

لن أجادل الآن وأدعي براءة لويل. وأعرف أنه يظن أن المدينة المائية الخاصة بالحيتان القاتلة المسماة (الأوركا) منشأة رهيبة، وأن المسؤولين عنها متحجرو الأفئدة، وأعرف أنه يعتقد بضرورة إغلاقها قبل أن تقتل أحد الحيتان مرة أخرى، وأنا متأكدة من أنه فكر في فعل أشياء محددة تساعده على تحرير الحيتان.
ولهذا، أفترض أن الاتهامات صحيحة؛ مع أن عبارة هجوم على المدينة المائية قد تبدو للقارئ هجوماً بقنبلة، ولكنها قد تعني بالنسبة إلى لويل أيضاً رسوماً على الجدران أو رذاذاً براقاً أو فطائر تُرمى على وجوه المسؤولين. لا يبدو لي أن الحكومة قادرة دوماً على التفريق بين تلك الأمور.
ولا أريد أيضاً أن تفهموا أنني أبرئ لويل من نواياه المحتملة بإيقاع أضرار جسيمة في المنشأة. أخبرني لويل مرة منذ زمن بعيد جداً أن المال هو لغة البشر الوحيدة، وإذا أراد الواحد منا أن يتحاور معهم فعليه أن يتعلم الكلام بتلك اللغة. وأنا أذكركم فقط أن جمعية الرفق بالحيوان لا تقبل بإيقاع الأذى بالحيوانات؛ مما يعني بطبيعة الحال أنها لن تقبل بإلحاق الأذى بالبشر أو غيرهم من الكائنات.
فاجأت نفسي بأنني تمنيت لو أن القبض على لويل قد حدث باكراً. أتمنى لو أنني سلمته للشرطة بنفسي عام 1996 عندما كانت لائحة تلك الاتهامات أقصر بكثير، وعندما كانت البلاد أكثر ديمقراطية بأشواط؛ لأن المتهمين بقضايا الإرهاب كانوا يتمتعون بحقوق دستورية. كان سيذهب إلى السجن بالتأكيد، لكن فترة محكوميته كانت ستنتهي بحلول هذا الوقت. تم احتجازه تحت المراقبة لثلاثة أشهر من دون أن يلتقي محامي الدفاع مرة واحدة، وقد علمنا أن حالته النفسية لم تكن على ما يرام، أو هكذا سمعت.
لم يسمحوا لنا أنا وأمي بزيارته. ورأينا صوره الجديدة كالآخرين على صفحات الجرائد وشبكة الإنترنت حيث بدا إرهابياً حقيقياً، بشعره المشعث ولحيته الهزيلة التي تدفع للرثاء وعينيه الغائرتين ونظرة القاتل التي تشع منهما، وقرأت كغيري في الصحف أنه لم يتفوه بكلمة منذ لحظة إلقاء القبض عليه.
حيّر صمته الجميع، لكن أسبابه كانت واضحة بالنسبة إليّ. لقد كان في منتصف الطريق لتحقيق هدفه عندما التقيته منذ 16 عاماً؛ فقد قرر لويل أن

يحاكموه كما لو أنه حيوان... كما لو أنه لم ينتمِ يوماً إلى الجنس البشري.

لقد مثلت بعض الحيوانات أمام المحاكم مَن قبل. كان أول عمل قامت به منظمة الدفاع عن حقوق الحيوان في الولايات المتحدة هو إطلاق سراح دلافين محتجزة في جامعة هاواي عام1977، وقد اتهم الرجلان المسؤولان عن ذلك بالسرقة من الدرجة الأولى.

نظرت محكمة في فيينا عام2007 بالنيابة عن ماتياس هايسل بان، وهو قرد شمبانزي، ورفعت القضية إلى محكمة النروج العليا؛ مع أن المحكمة أشارت إلى نقص التصنيفات القضائية التي لا تعترف سوى بالبشر والأشياء، وحاجتها إلى مجموعة ثالثة تناسب الاتهامات الموجهة إلى الحيوانات.

من الأفضل للحيوان أن يحظى بمحام جيد. ففي عام 1508، نال المحامي بارتلوميو شاسيني الشهرة والمجد والكثير من المال لدفاعه المتقن والبليغ والفصيح عن الفئران التي اجتاحت المقاطعة الفرنسية التي كان يعيش فيها. لقد اتهمت تلك الفئران بالقضاء على محصول الشعير وتجاهل الأنظمة بعدم مثولها أمام هيئة المحكمة الموقرة للدفاع عن نفسها، فقال بارتلوميو شاسيني إن الفئران لم تحضر لأن المحكمة فشلت في تأمين سلامة الفئران خوفاً من القطط التي تملأ شوارع المدينة، ونجح في مسعاه.

تكلمت مع أم تود، وأظن أنها ستوافق على تمثيل لويل في المحكمة؛ فهي مهتمة بالقضية بشدة رغم تعقيدها واحتمال امتداد جلساتها لوقت طويل، بالإضافة إلى أننا سنحتاج إلى الكثير من المال لتأمين نفقاتها.

المال دوماً.

المال غير موجود في مدينة توماس مور الفاضلة، في تلك اليوتوبيا. ولا وجود أيضاً للملكيات الخاصة لأن هذه الأمور أكثر بشاعة من أن تدخل في حياة سكان اليوتوبيا، والذين يجب أن يبقوا بمنأى عن مقومات الحياة الاعتيادية الفظة والبغيضة. من وجهة نظره، سيحارب الزابوليت بدلاً عنهم عندما يحتاجون إلى ذلك – والزابوليت قبيلة بدائية مجاورة – وسيذبح لهم العبيد المواشي ليحصلوا على اللحم، لأن توماس مور يخشى أن يخسر سكان المدينة الفاضلة وجدانهم الرقيق ومشاعر الرحمة والرأفة إذا قاموا بتلك الأعمال الوحشية بأنفسهم. أما الزابوليت فيشعرون بالبهجة لدى الذبح والنهب والسلب المرافقة للحروب، ولا يوجد أي ذكر في الكتاب لتأثير ذبح الماشية في العبيد... المدينة الفاضلة ليست فاضلة مع كل سكانها.

مما يعيدنا إلى قضية لويل. لقد عمل لعقود كجاسوس في مزارع الحيوانات ومختبرات الأدوية ومستحضرات التجميل، وقد رأى العديد من الأشياء التي نرفض رؤيتها، وفعل أموراً لا ينبغي لأحد فعلها، وضحّى بعائلته ومستقبله، وها هو يضحي الآن بحريته. أخي ليس أسوأ البشر؛ كما قد يقول مور عنه. حياة لويل بكاملها نتيجة مباشرة لمكنوناته المميزة، لمكنوناتنا المميزة جميعاً... للرأفة والشفقة والحنان والإخلاص وربما للحب. لا بد لنا من الاعتراف بذلك.

كما أنه من الحقيقة بمكان أن أخي قد ازداد خطورة مع تقدمه في العمر؛ تماماً كما حصل مع أختي. ولكنهما لا يزالان جزءاً منا؛ من عائلتنا، ونحن نريد استعادتهما، نريدهما معنا في المنزل.

اتضح لي أن منتصف قصتي عشوائي أكثر مما ظننت أثناء طفولتي، ولهذا يمكنكم أن تضعوه داخل دفتي هذه القصة أنى يحلو لكم، وهذا ينطبق على البداية والنهاية أيضاً. من الواضح أن قصتي لم تنتهِ بعد. إذ لم تنتهِ أحداثها، ولكنني أنهيت هنا مما يمكنني أن أقصه عليكم.

سأنهي رحلتنا بشيء حدث قبل وقت بعيد، سأنهي القصة بالمرة الأولى التي رأيت فيها أختي بعد فراق دام اثنين وعشرين عاماً.

لا يمكنني أن أحوّل مشاعري إلى كلمات على ورق؛ لأنه لا وجود لكلمات يمكنها أن تصف ذلك اللقاء. يجب أن تكونوا موجودين في جسدي، وتحت جلدي لتفهموا ما شعرت به. ولكن، إليكم ما جرى.

سبقتني أمي بزيارة فيرن بحوالي الأسبوعين، إذ قررنا ألا نفاجئها بزيارتها معاً كي لا ترتبك، ولهذا انتظرت الوقت المناسب. عندما استقبلت فيرن أمي بطريقة عادية انتظرت وقتاً أطول. وبعد عدة أيام من انطلاق أمي وفيرن في الحديث عبر الإشارات، أخبرتها أمي أنني سأحضر لزيارتها.

أرسلت لها بعض الهدايا أولاً: لعبة البطريق الخاصة بطفولتي لأنها قد تذكرها، وكنزتي القطنية التي كنت أرتديها كثيراً لأن رائحتي كانت عالقة بها، ورقاقة ورق حمراء.

عندما مثلت أمامها بشخصي أحضرت معي رقاقة حمراء ثانية، ودخلت غرفة الزوار. كانت فيرن تجلس بجانب الحائط البعيد وهي تتفحص مجلة بعينيها. عرفتها من النظرة الأولى إلى أذنيها؛ فقد كانتا مرتفعتين أكثر من آذان معظم قردة الشمبانزي الأخرى، وأكثر استدارة.

أطرقت برأسي بدماثة ولطف، وتقدمت إلى الزجاج الفاصل بيننا. وعندما أدركت أنها تراقبني رسمت اسمها في الهواء بالإشارات ثم اسمي. وضعت البطاقة الحمراء أمام الزجاج وضغطت عليها براحة كفّي.

وقفت فيرن بصعوبة واقتربت مني، ثم ضغطت راحة كفها على الزجاج مقابل كفّي، ودغدغت بأصابعها الزجاج برقة وخرمشته برفق وكأنها تتمنى الوصول إلى يدي لتأخذ الرقاقة منها. رسمت اسمي بلغة الإشارة مجدداً بيدي الأخرى، فرسمته هي أيضاً؛ مع أنني لم أكن واثقة في تلك اللحظة من أنها تذكرتني أو كانت تردد الإشارة بطريقة عمياء.

ثم وضعت جبينها على الزجاج ففعلت مثلها، ووقفنا هكذا لفترة طويلة جداً... وجهاً لوجه. نظرت إليها وسط دموعي التي بعثرت ملامحها وغيّبَتها.

نظرت إلى عينيها...

ومنخريها المتوسعين مع كل شهيق...

والشعيرات الناعمة المتفرقة على ذقنها وحول أذنيها...
والانحناءات الرقيقة الصاعدة والهابطة على كتفيها المحدودبتين...
والبخار الذي ترسمه أنفاسها على الزجاج...

لم أعرف في تلك اللحظة ما كانت تفكر فيه أو تشعر به، كما أن جسدها بات غريباً عني بحالته النهائية هذه. ومع ذلك، وفي الوقت نفسه عرفت كل شيء فيها؛ كل تفصيل دقيق. إنها أختي فيرن... بطاقتي الحمراء الرابحة الوحيدة في عرض هذا العالم مترامي الأطراف.
وكأنني أنظر إلى صفحة مرآة.

# كلمة شكر

أريد أن أوجه العديد من كلمات الشكر في نهاية هذا الكتاب.
أولاً إلى تاتو ودار ولويس، وإلى معهد التواصل بين البشر والشمبانزي في إيلينزبرغ، واشنطن.
إلى الناس الرائعين في Retreat Hedgebrook، وأعني هنا كل العاملين وكل رفاقي المقيمين، وكل من شجعني ومنحني الوقت والخصوصية عندما احتجت إليهما، وعلى الأخص للرائعة المذهلة روث أوزيكي؛ لصداقتها ودعمها لي.
إلى صديقيّ المحبَّين بات مرفي وإيلين كلاجس اللذين ساعداني لكي أرى النور في نهاية النفق المظلم؛ عندما نصحاني بتأليف هذا الكتاب عن نفسي.
إلى ميغان فيتزجيرالد لمساعدتها لي في القيام ببعض الأبحاث عن بلومنغتون.
إلى الكثير من القراء الذين ساعدوني في العثور على بعض المعلومات المتفرقة من هنا وهناك، وهم: آلان إلمز، ومايكل بلملين، وريتشارد روسو، وديبي سميث، ودونالد كوشيس، وكارتو سكولتز، ومايكل بيري، وسارا ستراينش، وبن أورلوف، وكلينتون لورنس، وميليسا ساندرسلف، وزاندر كاميرون، وآنغوس ماكدونالد.
إلى ميكا بيركس، وجيل وولفسون، وإليزابث ماكنزي الذين قرأوا المخطوط أكثر من مرة، وأعطوني آراءهم النقدية بصراحة؛ مما ساعدني كثيراً.

أنا ممتنة كثيراً أيضاً وأيضاً للدكتورة كارلا فريسكو لمحاضراتها وآرائها الخاصة بنظرية الحيوان.
ثم أخص بالشكر العميق ويندي ويل وكل أفراد وكالتها، بالإضافة طبعاً إلى ماريان وود.
لكنني مدينة على الأخص لابنتي أكثر من أي شخص آخر. فقد أوحت لي بالفكرة عندما أهدتني إياها في رأس السنة، ووفرت لي كل المعلومات اللازمة التي احتجت إليها للكتابة. وقد ساهمت ابنتي مع ابني في توفير معلومات مفيدة حول الأجواء السائدة في الجامعات في التسعينيات، بينما منحني زوجي دعمه الخالص والكامل كما اعتاد أن يفعل على الدوام.

**تمت**

[1] الفرمونات مواد كيميائية تفرزها الرئيسيات والحشرات بشكل خاص، وتؤثر في سلوك أفراد جنسها الآخرين، وتعمل بها على جذب الجنس الآخر للتزاوج، أو تحديد مكان وجود الطعام مثلاً.